6 (1358/59 = 1939/40)

السنة السادسة (جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ هـ — يوليه سنة ١٩٣٩ م) العدد الأول

# صحيفة دار العلوم

ص ا ح ١٩٣٤ ع

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

**السباعى بيومى**
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ..... ٢٠ قرشاً
خارج القطر ..... ٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد ..... ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة الأزهار

UNIV. BIBL. TÜBINGEN

15

ZE 83

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

باسم الله تبدأ صحيفة دار العلوم سنتها السادسة ، وتستعينه على أداء رسالتها إلى قرائها من أبناء دار العلوم وغيرهم فى مختلف أقطار العربية .

وإنه ليزيدنا إيمانا بقوتنا ، ويحفزنا إلى مضاعفة الجهد وبذل الطاقة ، أن نقف فى هذه الفترة لحظة قصيرة ، لنعيد ذكرى ماحققت جماعة دار العلوم ، وناديها ، وصحيفتها فى أمس ، من الأغراض التى قامت لها وأنشئت من أجلها ؛ ثم نمد أعيننا إلى غد متفائلين مستبشرين ، مجددين العهد الذى قطعناه على أنفسنا من أول يوم : أن نكون ترجمانا صادقا لأبناء دار العلوم ، يعبر عن ذات أنفسهم ، وينطق بلسانهم فى كل مايهمهم من شئون ، وما يهم الناس منهم :

أما صحيفة دار العلوم ، فليس بنا من حاجة إلى تفصيل جهودها فيما أسلفت من عمل ، وهذه أعدادها بين أيدى القراء يطالعون فيها مقدار ما نبذل من جهد لتكون صلة القربى بين أبناء دار العلوم فى مختلف البلاد ، ثم بينهم وبين أصدقائهم الكثيرين من قراء هذه الصحيفة ؛ ولم نأل جهدا فى العناية بكثير من البحوث الجديدة فى الفن والأدب ، التى يهم قراء العربية أن يلمّوا بها ليكونوا على صلة بالجديد من شئون الفن والأدب .

وأما جماعة دار العلوم ، فقد بذلت فى السنة الماضية من الجهد ما يُذكر لها بالثناء والإعجاب ، وإذا كانت الجماعة لم تتعود الإعلان عما تعمل لأبناء دار العلوم ، فإن آثار جهادها فى الدفاع عن الطائفة والتماس الوسائل فيما ينفعها ويرفع الغبن عنها — ظاهرة ملموسة لكل ذى عين .

فلقد بذلت الجماعة جهوداً موفقة فى السنة الماضية لإعلان حق أبناء دار العلوم بالمقابلات ، والمذكرات ، وغيرها ؛ ويسرنا أن يكون لهذه الجهود نتائجها التى تبشر بالخير فى وقت قريب إن شاء الله ؛ ولقد أحس المعلمون شيئا من آثارها فى الترقيات وتوزيع الدرجات فى خلال السنة الماضية .

على أن الجماعة لم تقف جهودها عند هذا الحد من المطالب المادية ، فقد كان لها إلى ذلك جهود علمية مشكورة كان لها أثرها فى الدوائر العلمية فى وزارة المعارف وغيرها ؛ من ذلك ماقدمته الجماعة إلى وزارة المعارف من بحوث فى وسائل تيسير القواعد ، وإعداد المعلم ، وغيرها ؛ وقد طالع القراء فى أعداد الصحيفة للسنة الماضية طائفة من هذه المذكرات التى أعدتها جماعة دار العلوم .

وفى رعاية الجماعة صدرت فى السنة الماضية بضعة كتب علمية ، جديدة فى موضوعها فريدة فى نسجها ، تزيد الثروة العلمية لأبناء دار العلوم ، وفيها شهادة جديدة على مقدار مايؤدون للثقافة العامة من خدمات ؛ وحسبنا أن نذكر من هذه الكتب ، كتابى « حياة الرافعى » للأستاذ محمد سعيد العريان ، و « الطفل من المهد إلى الرشد » للأستاذ محمد خلف الله ، وقد قامت الجماعة بطبع الكتاب الثانى منهما على نفقتها ؛ تحقيقا للغرض الذى التزمته فى تشجيع البحوث الجديدة

فى العلم والأدب . وقد لقى هذان الكتابان من احتفال الأدباء وأهل الفن وتقدير رجال التعليم فى وزارة المعارف وغيرها ما يثلج الصدر ويبعث على الرضا والارتياح .

ولقد قام النادى فى خلال السنة الماضية بواجبه كذلك ؛ فكانت صلة طيبة بين روّاده من أبناء دار العلوم ، يسمرون فيه ويتبادلون الرأى فيما يهمهم من شئون العلم أو من شئون الحياة ؛ وحسْب النادى أن يحقق هذه الغاية . على أنه كان له إلى ذلك مشاركة فعّالة فى نهضة الثقافة العامة بين أبناء دار العلوم ، فقد أذيعت منه طائفة من المحاضرات القيّمة فى مختلف شئون الفن والأدب ؛ وحسبنا أن نشير إلى المحاضرات التى أنشأها الأساتذة : عبد الوهاب حمودة ، ومحمد سعيد العريان ، والشيخ طنطاوى جوهرى ، وعبد الرازق حميدة ؛ وقد حرصت صحيفة دار العلوم على نشر هذه المحاضرات ؛ ليطالعها من لم تتهيأ له الفرصة لشهودها تقريبا بين أبناء الدار فى مختلف أنحاء البلاد . ونأمل أن يتسع نطاق هذه المحاضرات فى العام الآتى ، بحيث يتحقق منها الغرض الذى نرجوه كاملا إن شاء الله .

***

. . . وفى مصر اليوم نهضة بارزة الأثر ، تتجه إلى العناية باللغة العربية ، باعتبارها أوّل مقوّماتنا الوطنية ، ورباط الثقافة وصلة القرابة بيننا وبين إخواننا فى بلاد الشرق العربى ؛ ويسرّنا أن يكون لأبناء دار العلوم فى هذه النهضة مشاركة تجعلهم — كالعهد بهم دائما — فى طليعة المجاهدين لتحقيق هذه الغاية

السامية ؛ ونرجو أن تكون جهودهم فى هذا السبيل مما يؤكّد الحقيقة التى يذكرها لهم التاريخ الأدبى حين يذكر جهاد العاملين فى هـــذا الجيل للنهوض بلغة العرب .

وحسبهم من المشاركة فى هذه النهضة محاولاتهم فى تيسير دراسه قواعد اللغة العربية ، وقرارهم فى « لجنة أمثل الطرق لتدريس اللغة العربية » — وقد نشرنا خلاصته فى هذا العدد .

وقد وكلت وزارة المعارف إلى نخبة من أبناء دار العلوم العمل على تقريب طائفة من كتب الأدب القديم وعرضها عرضا حديثا يوافق عقول الناشئين من المتأدبين وتلاميذ المدارس ؛ وهو اختيار وافق أهله ، واعتراف بكفاية أبناء دار العلوم للقيام على حركة « البعث » التى تعمل لها وزارة المعارف للتقريب بين الجديد من آدابنا والقديم من تراث السابقين من أدباء العربية .

✡✡✡

وقبل أن نختم هذه الكلمة ، نرى مما لابد منه أن نشير إلى شىء مما كان منذ قريب بين دار العلوم وغيرها من المعاهد التى تنازعها الحق فى تدريس اللغة العربية ؛ ومانريد بهذه الإشارة أن نؤيد حقا يعترف به الجميع لدار العلوم التى تقوم على خدمة اللغة العربية منذ سبعين عاماً قياماً لايدع لغيرها حقا فى الدعوى ، ولكنا نريد أن نؤكد لإخواننا من خريجى دار العلوم ، أن جماعتهم قائمة بواجبها فى الدفاع عن المعهد الذى ندين له بالوفاء بمقدار ماتدين له اللغة العربية نفسها بما قدّم لها من خدمات سيذكرها التاريخ الأدبى للغة العربية على مرّ العصور .

ولم تنِ الجماعة فيما سبق ، عن الجهاد لإعلان الحق فى هذه القضية ، ولن تنى عن متابعة السعى له ؛ وحسبها من آثار الجهاد فى هذا السبيل ما كسبت من أنصار لهذه القضية فى وزارة المعارف وفى غير وزارة المعارف ، والله المسئول أن يوفقنا إلى ما يكون فيه الخير للغة العربية ، ولأبناء دار العلوم؟

# المدرسة الأولية

عنيت فى السنوات الأخيرة طائفة من رجال التربية والتعليم فى مصر بالبحث فى المدرسة الأولية وإصلاحها وما ينبغى أن تحققه من الأغراض ، والاتجاه الذى يجب أن تسير فيه ، وقد ألقيت فى هذا الموضوع محاضرات عدة استحق أصحابها جزيل الشكر عليها من المستمعين

ولقد رأينا فى ذلك فرصة مواتية لنشر البحث الجليل الذى قام به الأستاذ المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بك ورفعه إلى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف محمد توفيق رفعت باشا سنة ١٩٢٥

---

حضر صاحب المعالى وزير المعارف العمومية

يشرفنى أن أقدم لمعاليكم — مع هذا — مشروع الجمع بين التربية العلمية والتربية العملية ، فى المدارس الأولية الذى أرى تطبيقه من بدء السنة الدراسية ١٩٢٥ — ١٩٢٦ بعد إذ فكرت وقدرت ، وسألت الكثير من ذوى الرأى فى الأقاليم وأمهات المدن المصرية ؛ راجياً أن يكون فى حسن قبولكم إياه ما تحقق به مصلحة البلاد وتسعد سائر طبقات الأمة فى ظل حضرة صاحب الجلالة ملكنا المعظم.

## مقـــدمة

معلوم أن تفشى الأمية كان ينبوع آلام شديدة للشعب المصرى، ومصدر كثير من مشاكله ومتاعبه الحيوية والاجتماعية، وكذلك كانت آثاره فى الأمم التى سبقتنا إلى التخلص من شروره .

لذلك كان خير ما أعد حديثا لمعالجة هذه الآفة المشقية ماقرره الدستور من جعل التعليم الأولى إجباريا . ولو أن القوة المالية للدولة كانت تحتمل النهوض العاجل بما يستلزمه ذلك الجهاد الكبير من النفقات الباهظة لاستطعنا أن نودع منذ اليوم تلك الآفة المكروهة غير آسفين . ولكن قضت الأسباب القهرية أن لابد لنا من التدرج فى مكافحتها رويدا رويدا حتى نبلغ المستوى الذى سبقنا إليه غيرنا من الأمم . فإذا ما قدر لسبيلنا أن تسلم بعناية الله تعالى من العواثير والعقبات كانت بضع السنوات المقبلة كافية لبلوغنا المقام الذى فيه تولى الأمية الأدبار ويسمع صرير الأقلام فى كل دار .

ولكن هل بالفوز على الأمية وهزيمتها يمكن أن تستوثق الأمة من أعنة السعادة الاجتماعية وتستولى بيدها على ناصية الصلاح والفلاح فى شعب حياتها المختلفة ؟ إذا كانت الأمم تقاس بأشباهها، والسوابق التاريخية مدارس للمستبصرين وعبر للمعتبرين، فإن فى تجاريب الأمم الغربية والأطوار التى تعاقبت عليها ما يدلنا على ( أن الأمية ليست هى وحدها ألد أعدائنا وأضر خصومنا، بل إن لها لصنوا كان فى كل عصر عرنا لها على مضاعفة شقاء الأمم ودهورة أخلاقها ومطاردة الأمن والسلام عن ربوعها. ذلك هو عطول اليد من الصناعات ذلك العطول الذى يفقد به الحياة العملية ثم يستحثه على التماس أكثر العيش بمرذول الوسائل التى لا يفكر فيها إلا العاطلون، ولا يطيب بها إلا العجزة الساقطون) ولا عجب فإن شعور النفس البشرية بالعجز عن منازلة الأنداد فى المعارك الحيوية العادية مايحملها على التذرع إلى حاجاتها ومآربها بما يتيسر لها من مقبوح الوسائل ومرذول المساعى كالتزوير والاحتيال والتمليق والرياء والبهتان والإفك والسعاية وضروب السرقات كشق الجيوب وقطع الطرقات والسلب والغصب والنهب وكالقمار والرهان والاتجار بالعرض والإغراء بالمناكير وهكذا من المساوى والرذائل المتعدية الأضرار المنكرة الآثار .

لقد كانت الأمم قبلنا تحسب أن الأمية هى جماع الشرور وعش الرذائل، حتى إذا ماجندلوها وأجهزوا عليها خيل لهم أن قد ظفروا بأكسير السعادة، وملكوا ناصية الفلاح، ثم لم يلبثوا أن أرتهم التجاريب المرة أنه إذا كانت الأمية ذنب الأفعى فإن العطول رأسها ،وأن اليد لاتسلم من مفارقة الحركات الآثمة إلا إذا كانت متحلية بحرفة أوصناعة ، ولاعجب فإن اليد مطبوعة كالعقل على الحركة،فإذا لم ترَض بالحكمة وتعود الأعمال النافعة الصالحة عاشت لامناص لها من الحركات العابثة أو الحركات الضارة ، وإذا كانت الأمثال العامة هى ترجمان تجاريب العصور ولسان حكمة الأوائل فإن لنا فى الكلمة المصرية المأثورة « اليد البطالة نجسة » مالانحتاج معه إلى الإكثار من الأمثال والاستشهاد بما لغيرنا من الآراء والأقوال .

والخلاصة أن التجاريب قد علمت الأمم التى سبقتنا إلى التربية والتثقيف أنه لايجوز الاقتصار فى الدراسة على إرباء العقل من طريق الأذن والعين، بل يجب أن يكون لليد نصيبها من الدربة والمرانة على الصناعات والزراعات التى هى قوام سعادتنا الحيوية . ولاينبغى أن يغيب عن أذهاننا ماقدمت لنا من الآثار السيئة تجاريب العشرين سنة الماضية التى أبعدت تلاميذ المدارس الأولية عن مزاولة الزراعة وسائر المهن ، ونفرتهم من العودة إليها بعد انتهاء مدة تلك الدراسة . فلقد كثر بذلك فى الأمة سواد العاطلين والمجرمين والمفسدين والمعربدين، كما كسدت الأسواق القومية،وتوارت الصناعات الوطنية،وكادت نار هذه الآفة الساحقة الماحقة تجتاح حتى الزراعة التى هى حتى اليوم عماد حياة هذه البلاد .

ولقد وقع من قبلنا من الأمم قديما فيما لانزال مرتطمين فيه حتى اليوم، فما أنجاهم سوى تربية أيدى دهمائهم لتمكينها من صنوف العمل ووسائل العيش. وبذلك استطاعوا أن يرفعوا فى أممهم مستوى الأخلاق ويطهروا أنفسهم من

الرذائل والمساوىء التى شاهت بها نفوس العاطلين ، كما استطاعوا أن يجعلوا حياة شعوبهم حياة رغد وصفو لا ندرها عسرة ولا تقلقها ضائقة، ولا بدع فإن الصنعة فى اليد مفتاح رزق للمعوزين وجمال أو رياضة للمستغنين .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن قد تأسست للتربية فى مؤتمر كاليه (١٦ أغسطس سنة ١٩٢١ ) جماعة تسمى « الجماعة الشعوبية للتربية الحديثة » ودعت المدرسة التى تريد أن تقام فى سائر الأمم « بالمدرسة العاملة » ومبادىء هذه الجماعة تنحصر فيما يلى :—

أولا — تنمية روح الإدراك فى الطفل حتى يفهم أن مرتبة العقل فوق كل مرتبة .

ثانيا — احترام شخصية الطفل بأن يخوّل الحرية فى أن يتصور مايدور بخلده .

ثالثا — أن تكون الدراسة مما يغرس فى نفس الطفل الميل والنشاط إلى الدخول فى معترك الحياة .

رابعا — أن يكون لكل سن ماينا سبه، ويكون النظام بحيث يرمى إلى تقوية شعور التلاميذ بالمسئولية الخاصة والعامة .

خامسا — يجب نبذ حب الذات ظهريا وحذفه من منهاج التعليم ويعتاض عنه المعاونة والمساعدة اللتين تغرسان فى نفس الطفل الشعور بأنه وقف على المصلحة العامة ،

سادسا — هذا والتربية الحديثة التى تقصدها الجمعية هى التى تعد الطفل لأن يكون رجل الغد ، يؤدى الواجب عليه لذوى قرباه ومن حوله ولأمته وللإنسانية ، وليس ذلك فحسب بل أيضا أن يكون إنسانا كاملا بمعنى الكلمة .

ولقد شعرت فى أثناء عودتى من انجلترا عام ١٩٠١ بضرورة إصلاح أحوالنا الاجتماعية والاقتصادية من هذا الطريق، وطلبتُ من الوزارة إذ ذاك

تأسيس نظام العمل نصف اليومى ، وبعبارة أخرى تأسيس المدرسة العاملة ، فكان كل ما أنجزته إرسال عدد قليل من طلاب المدارس الأولية إلى مافى حى بولاق والقلعة من دور الصناعة ( الورش ) واستمرت تفعل ذلك بضعة أعوام . ومما لانمارى فيه أن تجربة هذه الأعوام القليلة كانت مرضية جدا، يعترف بذلك من عرفوا مصاير تلك البعثات التى جمعت بين الدراسة المكتبية والتربية الصناعية .

لهذا كله وجب ألا نتقاعد لحظة ما عن إصلاح شئوننا بإقامة المدرسة العاملة التى هى أساس حياتنا الاجتماعية والخلقية والاقتصادية جميعا ، وبذلك نكون قد أقمنا ماوجب علينا لبلادنا من فريضة الإصلاح الذى هو أعظم رغائب مليكنا المعظم قرن الله أيامه بالخير العميم آمين .

### المدرسة العاملة

جرت العادة أن تشغل الدروس المكتبية جميع ساعات الدروس اليومية، فأما الآن فإنه لابد لنا من تقسيم الوقت تقسيما يطهر الطالب من الأمية ، كما يمكنه من مقاليد الزراعة أو شىء من الصناعات .

ولذلك رأينا أن يكون حظ المكتب نصف اليوم فقط بحيث تشغل غرف الدراسة طائفتان من التلاميذ: طائفة من الصباح إلى نحو الظهر، والأخرى من بعد الغداء إلى المساء .

أما النصف الآخر من اليوم فإن التلاميذ الذين ليسوا فى المكتب يدربون فيه بالحقول الزراعية ومعاهد الأعمال اليدوية وفق النظام الداخلى الذى سيوضع لذلك .

ومن ثمرات هذا المنهج الجديد أن عدد المتعلمين فى المدارس الأولية سيكون مضاعفا من غير أن يستتبع هذا زيادة فى عدد المعلمين ، ولا صرف شىء من المال لإقامة أبنية لتلك المضاعفة .

ولا يخفى ماينجم عن ذلك من تعجيل القضاء على الأمية ، وتقريب اليوم الذى تتحقق فيه شروط التربية الإجبارية ووسائلها .

**القرآن الكريم :**

حرصا على الإكثار من الحفاظ، ورغبة فى عدم تنفير الأهالى من المشروع، ولكيلا يسيئوا تأويله ويظنوا أنه وضع لمدافعة القرآن الكريم ومناهضته .

نرى عمل ترتيب مخصوص لمن يريد إتمام حفظه من التلاميذ، وعلى الخصوص أن من هذه الطائفة تتغذى مدارس المعلمين الأولية ، وبوجودهم يدوم حفظ الكتاب الحكيم .

**أغراض الدراسة العملية :**

من المحقق أن الأمة ستكتسب فى إنفاذ هذا المشروع من المنافع والفوائد الجمة ماتكون به خليقة أن تتخذ مكانها فى مصاف الأمم الراقية التى فهمت معنى الحياة ، وعرفت الوسائل الموصلة إلى إسعادها .

تحتوى الدراسة العملية على طائفتين من المواد : إحداهما الخاصة وهى التى ترقى الحياة البيتية ، وتشمل : تدبير المنزل . الطباخة . الخياطة . صنع الملابس المنزلية . النسيج اليدوى . النجارة والحفر الخشبى بالمبراة ونحوهما . صنع الخيزران . القصب . العمل فى الحدائق والبساتين .

أما القسم الآخر فهو الصناعات العامة وغالبه تجارى : ومنه ، شغل الإبرة . الوشى . التطريز بخيوط الذهب . الشبيكة ( التنتلة ) عمل السجاد . ضفر الخوص . الجوارب . الأحذية . النسيج على المنوال . الحفر . عمل الأثاث والفرش . صناعة الخزف وأشباهها من المصنوعات الطينية .

وفيما يلى مجمل أوجه النفع التى نجتنيها من هذا المشروع : —

١ — إصلاح شئون المنزل ورفع مستوى الحياة الخاصة إذ أن المتعلمين من النشء ذكورا كانوا أم إناثا سيدخلون فى بيوتهم كل ما أصابوه من ضروب

التعليم التى تلقونها ، ويعملون على تهذيب أنفسهم بما يتناسب وحالتهم العلمية والعملية .

٢ — تدريب أيدى الشعب وتعويدها هى وأعينهم الدقة والإحكام فيما يزاولون من الأعمال، ويقطعون من الأحكام، فينشأ الفرد قليل الخطأ فيما يفكر وبقـــدر .

٣ — اعتبار الاخشيشان والتجافى عن الانغماس فى الترف وعدم النفور مما تستلزم مزاولة المهن والزراعة مباشرته من المواد .

٤ — إعداد الأمة للحياة العملية والاستقلال بوسائل العيش وإراحتها من العجزة المتعطلين الذين يكدرون صفو المملكة بما توسوس به فى صدورهم شياطين الإملاق ومفسدة الفراغ .

٥ — إن تعليم الزراعة والصناعة على المبادىء العلمية خليق بتحسين وترقية حالها ووفرة محصولها وفرة تتسع لتصدير مايفضل منها عن حاجة الأمة إلى خارج المملكة أسوة بالممالك الأجنبية الغنية ، ولايخفى أن ذلك يدر على الأمة من أخلاف الرزق مايعلى منزلتها الاقتصادية ويصلح شئونها المالية ، ويمكنها جلب ماتحتاج إليه من مصنوعات الأمم الأخرى على أهون سبيل .

إجمال القول أن كثيرا من أمورنا الاقتصادية الحاضرة ينمو ويرقى إذا أعطى نصيبا صالحا من اهتمام العاملين وعنايتهم ، فإن ذلك يوفر مايستعمل من الأثاث والأغذية والملابس الصالحة توفيرا يتيسر معه مضاعفة العناية بتدبير المنزل وغيره ومضاعفة القوة المالية لمجموع الأمة .

إن مصر بلد كغيره من الأقاليم الزراعية التى تتخلل مواسم الزراعة والحصاد فيها فترات واسعة من الزمن يتسنى فيها بسهولة نشر هذه الصناعات اليدوية، وفى ذلك أكبر عون على تحقيق تلك الأغراض الاقتصادية ، وخصوصا أن للمصرى استعدادا للصناعات اليدوية وحذقا عرف بهما من أقدم العصور .

برنامج العمل :

يوجد الآن بالمدارس الأولية التى تديرها وزارة المعارف ٢٢٤١٥ تلميذا يضاف إليهم فى العام القادم نحو ٨٠٠٠٠ تلميذا فى المدارس المزمع إنشاؤها، فيكون لدينا نحو ١١٢٤١٥ تلميذا منهم ٧٣٧٣٤ تزيد سنهم على سبع سنوات، وهذا العدد سيتزايد عاما فعاما تبعا لعدد ماينشأ من مدارس نشر التعليم الأولى، أما سن التعليم فيمكن أن يكون مبدؤها الخامسة، ولكن لايبدأ فى تدريب التلاميذ على الأعمال اليدوية فيما نرى قبل النامنة لأنهم لايقوون على معاناتها ولايقدرون على احتمال ثقيل تكاليفها .

وقد أسلفنا أن التلاميذ يجب ألا يشتغلوا فى حجرات المدرسة إلا نصف اليوم فقط؛ ولذلك ينبغى إعفاء التلاميذ الذين لم يبلغوا الثامنة من دراسة النصف الثانى من اليوم، لأن التجارب فى سائر الممالك دلت على عدم تحمل من دون النامنة البقاء فى المدرسة أكثر من ذلك .

أما الذين سيدربون على مزاولة الحرف فيجب العمل على حمايتهم وتعيين مراقبين يتولون الفحص عن أحوالهم من الوجهات الصحية والعملية والاقتصادية، مادامت البلاد محرومة من القوانين والنظم التى وضعت فى الممالك العربية لحماية العمال من أرباب الأموال، ذلك لكيلا يرهقهم أصحاب المصانع، وحتى لاتضيع ثمرات كدهم هباء من جراء أطماع أهليهم أو الذين سيعمل هؤلاء المساكين لديهم ونرى أن يقدر للتلميذ أجر عند بلوغه حدا معينا من المرانة على أن يودع جزء من هذا الأجر لايقل عن نصفه فى صندوق التوفير، أو يودع إحدى شركات التأمين حتى إذا ماأتم الدراسة والمرانة وجد عنده مايحبب إليه الاستمرار فيما تعلمه، وتشجيعه على إتقانه وإجادته، ولم يستقر الرأى بعد على شىء قاطع فيما يجب أن يختار للتلاميذ من هذين الأمرين لأنه مازال قيد الدرس تبتدىء التربية العملية التى تريدها من هذا المشروع، أو بعبارة أوضح التربية الصناعية بتثقيف

التلاميذ، وتمرينهم على المقدمات الأولية لشعب الزراعة أو الصناعات، ثم يتدرج بهم شيئاً فشيئاً من السهل إلى الصعب ومن البسائط إلى الدقائق الفنية، فإذا نحن وفقنا إلى قطع هذه المرحلة الأولى كان من اليسير إذ ذاك أن تتدارك الوسائل التى تقام بها المصانع والمدارس الزراعية، للتقدم بمن يريدون السير فى ذلك إلى مدى أبعد وغاية أسمى.

## التعليم الزراعى:

ولقد رأينا أن يكون تمرين أكثر التلاميذ فى الأقاليم على الزراعة وما يتعلق بها من الصناعات الزراعية؛ لأن الحياة فى أقاليمنا المصرية تقتضى ذلك، كما أنه ليس بها من الصناعات الأخرى ما يصح أن ينافى الزراعة أو يحل قريباً من منزلتها، وكيف وهى عماد لثروة المملكة والركن الركين لقوتها المالية.

تكون التداريب الزراعية فيما لدى وزارة الزراعة والمدارس الزراعية من حقول التداريب والبساتين، وفيما يكون منها لدى الشركات والدوائر ونحوهما من أصحاب الضياع والحدائق.

وليس من الصعب أن نحصل بوساطة مجالس المديريات والمدارس القروية ونفوذ رجال الإدارة على قطع من الأرض، تكون تابعة للمدارس الأولية، يتمرن فيها التلاميذ على مبادىء الزراعة وما يتبعها من الصناعة الزراعية، ولا يخفى أن تحقيق هذه الرغبة على الوجه الكامل يتوقف على مقدار فهم الناس فى الأقاليم لنتائج هذه التداريب الزراعية فى حياتهم الفلاحية، فإن ذلك يبسط أيديهم بالسخاء والجود لتلك المدارس بشىء من أراضيهم المجاورة لها، كما أنه يتوقف إلى درجة عظيمة على تعميم المجالس المحلية الفردية، وقد حادثت كبار رجال الإدارة فى هذا الصدد فعلمت أن ما أنشىء من تلك المجالس إلى الآن لا يزال قليلا، ولكنهم سيروجون هذه الفكرة فى الأقاليم ويسعون فى توفير عدد تلك المجالس بمختلف الوسائل، فإذا ما أراد الله لتلك المجالس أن تجد

فى أعماق هذا القطر سبيلها استطاعت المدارس العاملة أن تبلغ بالأمة مواطن الغنى والسعادة فى زمن قصير .

فى هذه القطعة من الأرض يتولى التلاميذ من سن الثامنة مثلا أى من بدء الدراسة العملية حفظ مافيها من الأحواض، وتعهد مافيها من أنواع النبات والأزهار، ويساعدون على حفظ نظام حجرات الدراسة وتزيينها بما يخرج من الأزهار ، ثم يتعلمون تربية الدجاج وغيرها من الطيور الداجنة، وكيف تصلح أنواعها وتكبر أجسامها فتعطى من اللحم والدهن والبيض ما يجعل الثروة متوافرة والغذاء جيدا والعيش رغدا، كما يتعلمون تربية النحل على الطرق الحديثة، حتى يزداد محصول العسل ويرخص ثمنه ويجود نوعه فيطارد عن أسواقنا القناطير المقنطرة التى يقذف بها إلى أسواقنا التجار الأجانب كل يوم، وبذلك يكون فى متناول جميع الطبقات من الأمة فلا يحرمه الفقراء والمعوزون ، كما يكون منه يوما ما يمكن أن يصدر إلى الخارج فتزداد بذلك ثروة البلاد . كذلك يعلمون صناعة الزبد وأنواع الجبن وليس فى بلادنا صناعة تستحق مزيد العناية مثل الجبن، فإنه على وفرة اللبن لدينا لانكاد نجد من أنواعه ذا طعم شهى ؛ ولذلك تنافسه أنواع الجبن الواردة من الممالك الأخرى ، وتكاد على ارتفاع أثمانها تحل محله فى سائر أسواق مدائننا . أما العناية بالمواشى فيجب أن يكون لها المقام الأول لأن من ألبانها وأصوافها وجلودها ولحومها وسائر أجزائها يأتى لأهل العناية بها الخير العميم والثروة الطائلة .

وفى هذه الروضة يتدرب التلاميذ كذلك على صناعة تشكيل البساتين وتربية الأزهار وأنواع النباتات المستعملة للزينة ، ويكلف كل تلميذ أن يتخذ فى فناء منزله بستانا صغيرا لايقل عن ٢٠ مترا للتمرين فيه فى أوقات فراغه .

هذا ومما تجب الإشارة إليه مراعاة جعل العطل الدراسية تابعة لأيام المواسم الزراعية فى المناطق التى تقع فيها كل مدرسة، حتى يتمكن التلاميذ من

مساعدة أهليهم ويزدادوا بذلك دربة ومرانة فى الحقول ؛ ولكيلا يظن الأهلون أن فى وجود أبنائهم فى المدارس تضييقا عليهم وفقداً لمعونتهم .

**معلمو الفنون الزراعية :**

إن فى ضآلة عدد الصالحين للقيام بالتعليم الزراعى فى المدارس الأولية لعقبة لابد من محاولة نسخها، ولكن ذلك لا يكون دفعة واحدة، بل يجب اتخاذ سبيل التدرج حتى نوجد العدد الكافى للقيام بذلك فى تلك المدارس الكثيرة العدد . ولقد فكرت طويلا فى كيف يكون الحصول على هؤلاء المعلمين وبعد مخابرة رجال وزارة الزراعة وغيرها وجدت أن فى الاستطاعة أن يستخدم لهذه الغاية المتخرجون فى المدارس الزراعية على اختلاف درجاتها فى أدوار تمرينهم، بيد أن عدد هؤلاء الطلبة فى كل عام قليل جدا، إذ أنه فى هذا العام مثلا ٦٠٧ طالبا، ولما كان مثل هذا العدد لا يمكن أن يسد حاجات المئات بل الآلاف من المدارس الأولية — كان لابد من التفكير فى حل لا يثقلنا بباهظ النفقات، وقد توفقت بحمد الله فعثرت على طريق لا يكاد يكلفنا من المال شيئا يذكر ذلك بأن يدمج فى مدارس المعلمين مسائل فى الزراعة يلقنها الطلبة فى تلك المدارس خلال السنة الدراسية، حتى إذا جاءت عطلة الصيف يوزعون على مدارس الزراعة والحقول والبساتين المعدة للتجارب القريبة من بلدانهم لتطبيق العلم على العمل والاستزادة من المعلومات الزراعية ، وتشجيعا لطلاب مدارس المعلمين أولئك — حتى يقبلوا على الدراسة الزراعية ويعنوا بها — يحسن اتباع طريقة من اثنتين : إما أن تقدر لهم مكافأة يعطونها بعد إتمام المقرر الزراعى علما وعملا صفقة واحدة، وإما أن يمنحوا علاوة على مرتباتهم لا تزيد على جنيه فى الشهر .

ويبلغ عدد الطلبة الموجودين الآن بمدارس المعلمين الأولية ٢١٥٦ والمنتظر أن يكون هذا العدد فى السنة القادمة ٣٦٧٦ طالباً .

وبهذه الطريقة يتسنى لنا على كر الزمن الحصول على العدد الكافى من المعلمين

اللازمين لهذه المدارس خصوصا إذا روعى أن كل مدرسة لاتحتاج إلى أكثر من معلم واحدللزراعة ، يعلم التلاميذ فيها قبل الظهر وبعده .

وقد وجدت من المشرفين على مدارس الزراعة والبساتين والحقول المعدة للتجارب الزراعية ترحيبا بهذه الفكرة ورغبة صادقة فى تحقيقها ، وفهمت منهم أن هذا لايكاد يكلف المالية المصرية شيئا .

## التعليم الصناعى :

تبين لنا بعد البحث أن تعليم الصناعة فى المدن والحواضر ميسور أكثر من تعليم الزراعة فى الأقاليم وذلك لنفوذ المحافظين والمديرين ، ولوفرة المعاهد الصناعية فيها ويسر بلوغها ، وبالطبع لايكون مقدار هذا التعليم فى المدارس الأولية إلا مقدمة للحصول على مقدار أوفر وعلم أوسع،إذ من السهل أن يلحق تلاميذ هذه المدارس بعد أن يتموا دروسها بدور أرقى يزدادون فيها علما بفروع ماتلقوا أصوله عند الدراسة الأولية ، ولانظن أن هذه المرحلة الثانية تحتاج فى المستقبل إلا إلى قليل من المال، فإن بهذه الدور من الحاصلات مايجعلها عادة مصدرا وينبوعا لما يلزمها من النفقات .

والصناعات التى يتعلمها التلميذ فى المدن تنحصر غالبا فيما يأتى : —

الحدادة — النجارة — الدباغة — صناعة الخرص — صناعة السجاد — أنواع الحفر الخشبى وغيره — التصوير الشمسى (فتوغرافيا) — الحك (صناعة الكليشيهات ) — الغزل بالمغازل اليدوية والبخارية على اختلاف أنواعها — النسج بالمناول اليدوية والبخاربة — صناعة الأحذية — تقدير الملابس على اختلاف أنواعها — الخط — النقش — الحلى المستعملة للزينة — الكهربيات المستعملة للإضاءة والتدفئة ونحوهما — الأدوات الورقية — العلم بأجزاء الدراجات والسيارات والطيارات وإصلاحها — البستانيات كتشكيل البساتين وتعهدها ودرس مايتناسب من النبات والخضر ومايختلف منها .

ومن الصناعات الرائجة ذات الربح الوفير والخير الكثير صناعة التطريز والشبيكات (الدنتلات) ونسيج المناول اليدوية للبنات، وصناعة الخوص للذكور.

وإن فى صناعة الخوص لميدانا واسعا لمن يريدون أن يمدوا الأسواق العامة بمطالبها المتنوعة، وكذلك لمن يبتغون ترقية هذه الصناعة بابتكار الأشكال والأنواع فيها، وبذلك يمكن الإصدار إلى الخارج من مصنوعات الخوص متى بلغت حد الإتقان المرجو.

وقد كتب إلى المفتشون فى المدن والأقاليم بأكثر ما فى مناطق تفتيشهم من الصناعات ودور الصناعة وها هى تلك فى الأوراق الملحقة بهذا.

وفى الختام أتقدم إلى معاليكم بكبير الثقة وبشديد الرجاء أن يكون لهذا المشروع من نصرتكم وتأييدكم مايجعل عهدكم بوزارة المعارف عهد يمن وبركة وخلاص لهذه الأمة المسكينة، ومثلكم يامولاى خليق أن يأخذ بأيديها إلى مراطن السلامة والنجاح؟

# الأدب فى مصر

لحضرة الدكتور أحمد ضيف بك وكيل دار العلوم
وأستاذ الأدب بها

---

أدب كل أمة صورة لحياتها النفسية والسياسية والاجتماعية ومالديها من ثقافة وحضارة . ولاشك فى أن لنا ثقافة وحياة اجتماعية وعقلية تمثل عاداتنا وأخلاقنا وعقائدنا، وتظهر فى فنون الكلام وضروب التعبير وفى كل آثارنا الفنية.

ولكن هل هذه الثقافة ثقافة مصرية نشأت فى مصر ؟ وهل عقائدنا وحياتنا الاجتماعية مصرية خالصة ؟ وهل فنون الكلام البليغ والشعر الفصيح فنون مصرية حتى يقال أن لنا شعرا مصريا وكتابة مصرية وخيالا مصريا وثقافة مصرية وحتى يتبين أن هناك فرقا بين أدبنا وآداب الأمم الاسلامية الاخرى ، كما أن هناك فرقا بين الثقافة اللاتينية والجرمانية مثلا ، أو بين الأدب الإنجليزى السكسونى والأدب الفرنسى اللاتينى ؟

إذا كان لنا ثقافة خاصة وأخيلة خاصة وبلاغة خاصة ومذاهب خاصة فى الأدب والنقد كان لنا أدب مصرى خاص . ولكن ثقافتنا ليست ثقافة محلية أوليست ثقافة مصرية خالصة بل هى ثقافة عربية إسلامية منذ فتح العرب مصر إلى ماقبيل قرن من الزمن حين اتصلنا بالثقافة الأوربية الحديثة فامتزجت الثقافتان لدى طائفة من قادة الفكر وأصحاب الرأى لدينا .

أما ثقافتنا القومية العامة فكانت — ولاتزال — عربية اسلامية لأننا تعلمنا علوم العرب وأخذنا كل شىء عن العرب الذين « عربوا عقول الأمم التى فتحوا

بلادها وغيروا معالم الحضارة القديمة فيها بقوة سلطانهم وعقولهم ونشر دينهم وتعصبهم لقوميتهم، فصبغوا عقول هذه الأمم بصبغتهم العربية الإسلامية حتى فى بلاد إسبانيا وجزر البحر المتوسط التى كانت متأثرة قليلا أو كثيرا بالثقافة اللاتينية واليونانية . ولم يكد يتأثر أدب العرب بشىء من عادات هؤلاء الناس أو بثقافتهم . فإنك تجد الأدب فى بلاد المغرب هو بعينه أدب العراق والشام ومصر وبلاد الأندلس اللهم إلا ماحدث من بعض الأخيلة الجزئية والتأنق فى الصناعة اللفظية مما لايعد أدبا جديدا ولاموضوعا جديدا ولامذهبا جديدا فى الأدب ؛ لأن موضوعات الشعر بقيت واحدة كما كانت فى بغداد وبلاد الشام وجزيرة العرب: من مدح وهجاء ونسيب إلى آخره . وإذا كان هناك اختلاف فى أساليب التفكير وأساليب الصناعة فقد كانت نزعات فردية سائرة على حسب الأهواء والميول الشخصية للأدباء والشعراء . فتجد فى العصر الواحد والبلد الواحد جملة من الشعراء والكتاب ، كل له طريقة خاصة وأسلوب خاص فى الصناعة لاغير . أما الموضوعات وطرق التفكير ومايتصل منها بالحياة العامة فكانت متشابهة كل التشابه، فقد كان يرجع بعضهم إلى بعض فى ذلك ويأخذ بعضهم عن بعض المعانى والأخيلة ويتبارون فى الصناعة لاغير . حتى فتح النقاد بابا واسعا سموه « باب السرقة » وكان الروح السائد فى الأدب العرب هو مجاراة الشعراء والكتاب للعرب الأول فى أساليبهم ، فجعلوا هؤلاء المتقدمين نموذجا لهم فى كل شىء ووضعوا قواعد النقد على مجاراتهم . حتى عابوا على المتنبى وأبى العلاء طريقة التفكير لديهما ؛ لأنهما صبغا شعرهما بصبغة غير عربية أو بصبغة فلسفية كما يقولون . وأصبح الشاعر المقدم على غيره من يجيد محاكاة الشعر القديم فى جميع نواحيه . ولم يقتصر ذلك على قطر من الأقطار بل عم جميع الأقطار الإسلامية .

ولذلك انطمست الصبغة القومية المحلية فى الأدب العربى ولاسيما الشعر،

حتى صار الأدب العربى الفصيح من حيث الصفات العامة واحدا فى كل مكان وفى كل زمان . وإذا كان هناك شيء مبتكر حدث فى أحد البلاد كالمقامات أوغيرها مما أنبتته بيئة خاصة — حاكاه الكتاب فى بلد آخر فى موضوعه وفى أسلوبه . . . . ولم يحدث شيء جديد غير معروف عند العرب سوى ما كان من القصص على أثر ترجمة كليلة ودمنة وألف ليلة وغيرها، وأكثر ذلك يحسب من الأدب العامى الملحون .

ولقد جمع الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » طائفة من الشعر والنثر الجيد فى مختلف البلدان العربية ولجماعة من فحول الشعراء والكتاب . فإذا قرأته فأناجد عليم بأنك لاتفرق بين شعر وشعر ، ولا بين شاعر وشاعر من حيث الدلالة على الصبغة القومية أولون محلى كما يقولون .

ولاتنس أنه عندما اكتسح التتار بغداد هاجر الشعراء والأدباء إلى الأقطار الاسلامية ولا سيما مصر،ونشروا شعرهم وأدبهم،وحاكاهم الأهلون فى ذلك . فكان ذلك كله شعرا عربيا وأدبا عربيا ، لا شرقيا ولا غربيا ، ولا بغداديا ولا مصريا وأصبح هؤلاء الشعراء شعراءنا وشعراء البلدان الأخرى التى نزلوا بها . ذلك لأن الأدب العربى الفصيح فى جملته كان بعيداً قليلا أو كثيرا عن المسائل العامة القومية . أو أن المسلمين جميعا كانوا يعتبرون كل بلد إسلامى وطنا لهم ، وكل مسلم من قومهم ، ولأن المسائل الاجتماعية القومية كثيرا ما كانت بعيدة عن موضوعات الشعراء والأدباء ؛ لأن الشعر كان مدحا أو ذما أو رثاء يعبر عن حالة نفسية خاصة .

كذلك كانت الحالة العامة للأدب العربى فى جميع الأقطار الإسلامية . ومصر من بين هذه البلاد لم يكن لها أدب فصيح خاص ولا ثقافة خاصة تظهر فى الشعر أو النثر، بل كان كتابها وشعراؤها يتبارون فى محاكاة الشعر القديم والكتابة القديمة حتى الزمن القريب .

ونذكر على سبيل الاستشهاد . حفنى بك ناصف والسيد توفيق البكرى وحتى إبراهيم بك المويلحى وابنه .

وقد مدح المرحوم مصطفى المنفلوطى الشيخ محمد عبده فى نحو سنة ١٩٠٥ بقصيدة تحسب من الشعر البدوى الصميم قال فيها :—

سقاها فحيا تربها وابل القطر وإن أصبحت قفراء فى مهمه قفر
طواها البلى طى الشحيح رداءه وليس لما يطوى الجديدان من نشر
مرابض آساد ومأوى أرانم تجاور فى قيعانها الفيل بالجحر
فأنشأت أبكى فالأسى يتبع الأسى إلى أن رأيت الصخر يبكى إلى الصخر

فهل تجد فى ذلك شيئا من الصبغة المصرية . ألست تتنسم ريح الصحراء فى هذا الشعر . ولا نكاد نجد صبغة محلية فى الأدب إلا فى وصف بعض الشعراء لبعض الأماكن كوصف النيل والهرم وأبى الهول . فإذا كان هذا يعد من الشعر القومى فإن وصف الشعراء أو الكتاب للبلاد التى يطوفون ربوعها يعد شعرا قوميا محليا . وإنما يحسب وصف كاتب فرنسى لمصر أدبا فرنسيا، لأنه كتب ذلك بلغة فرنسية وعبارات ولهجة فرنسية، أما وصف الشاعر العربى العراقى مثلا لمصر فلا يعد أدبا مصريا لأنه كتبه بلغة العرب التى تحسب عباراتها واحدة فى كل زمان ومكان . فلا تظهر فيها صبغة خاصة قومية . ولا يحسب وصف الشيخ حسن العطار — المصرى الذى كان شيخا للأزهر — لربوع الشام شعرا شاميا بل هو شعر عربى .

وإنما الأدب القومى هو ما يصور النفوس والعادات لأمة من الأمم على أن يكون قائله من أهل ذلك البلد ليرسم حياته وحياة قومه الاجتماعية والسياسية . ويمتاز الأدب القومى باللهجة الخاصة القومية والعبارات الجارية على ألسنة هؤلاء الناس ، إذا كانت هذه حال الأدب العربى فى جميع البلاد الإسلامية . ومصر أحد هذه البلاد التى توطدت فيها دعائم الثقافة العربية والأدب

العربى . فليس لها أدب خاص فصيح يمتاز عن الأدب العربى فى البلاد الأخرى . وإذا كان لمصر أدب خاص أو صبغة خاصة فى الأدب فإن ذلك أظهر ما يكون فى الأدب العامى الذى انتشر فى القرن التاسع عشر ، وفى بعض كلام شعرائها وكتابها الحديثين.

✡✡✡

كان الشعر فى مصر إبان القرن التاسع عشر كما كان فى جميع الأقطار العربية محاكاة للقديم وجريا على أساليب شعراء العصور المتقدمه فى الموضوعات التى عرفت : من مدح وذم ونسيب ووصف وغير ذلك . حتى لم نعد نجد من بين شعراء هذا العصر الأخير إلا من يعمد إلى رصانه الشعر القديم فيقلده وإلى أسلوبه المتين فيحاكيه وإلى الأخيلة المعروفة فيقتبس منها . وكادت تكون هذه الأساليب كل أغراض الشعراء من قول الشعر . فلم يكن الشعر أكثر من صناعة من الصناعات اللفظية ؛ لا شعوراً ولا أثراً من آثار إلهامات النفوس ولا صورة من العصر والاجتماع الذى كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء . ولم يكن هناك وسيلة للتفرقة والتمييز بين شعراء مصر وغيرهم من الأقطار العربية الأخرى كما بينا ذلك .

وسار الشعراء عندنا على هذا المنوال بدون أن يكون لديهم أثر جديد فى الشعر ، ولا صبغه مصرية اجتماعية كما كانت الحال قبل ذلك فى عصر المماليك والعصر العثمانى .

وفى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى والقرن التاسع عشر الميلادى ظهر الشيخ رفاعه الطهطاوى بعد أن عاد من البعثة التى أرسلها محمد على باشا إلى باريس ، فحاول إدخال نوع جديد فى الشعر المصرى ، إذ تعلم الفرنسية ودرس آدابها ، وأراد محاكاة بعض الشعراء هناك ، وكان من أول آثاره فى ذلك أن نقل قصيدة المارسييز الفرنسية إلى العربية فى شعر ، تصرف فيه بعض التصرف ، حيث قال :

حيث قال :

فهيا يا بنى الأوطان هيا فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا مليا

✡✡✡

عليكم بالسلام أيا أهالى ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال
وجودكم غدا فيكم جلياً

✡✡✡

فماذا تبتغى منا الجنود وهم جمع وأخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة والوفود كذاك ملوك بغى لم يسودوا
تعصبهم لنا لم يجد شيّا الخ . . .

وقد جرى على هذا المنوال فى إنشاء أناشيد وطنية مصرية ومدائح لحكام مصر مزجها بذكر مجد البلاد ، ومن ذلك منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٢ من الهجرة — قال فيها يمدح فيها سعيد باشا الخديو .

بشرى لمصر سعدها بالعز لاح وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح
أبناء مصر نحن موطننا أصيل حسب عريق زانه مجد أثيل
ونخارنا فى الكون جل عن المثيل لرحابنا تطوى المهامة بالطلاح
بشرى . . . . . .
نحن السراة وشأننا حب الوطن ولشأننا السامى نزاحم من قطن
شانى حمانا ليس من أهل الفطن فهو الدعى وعرضه شرعاً مباح
بشرى . . . . . .
وطن عزيز لايهان ولايضام وحمى تعزز من علا علياه حام
مجد له لازال يخترق الغمام عين السها لفخاره ذات التماح
بشرى . . . . . .

يا أهل مصر بر مصر فرض عين في البر نبذل عن رضا نفس وعين
وإذا الرقيب رنا لها بلحاظ عين ما عندنا في فقئها إلا الرماح

بشرى . . . . . .
الخ . . . . ماقال . . . . . .

فكان الشيخ رفاعة من المجددين في الشعر المصري على هذا النمط ، وكان يمكن أن يكون لهذا الغرض الجديد من الشعر وأمثاله — مما يعبر عن الحياة المصرية من بعض وجوهها — أثر لو أن الشعراء نسجوا على منواله وساروا في هذا الطريق الجدي القومي لرسموا لنا الاجتماع المصري، وتركوا المدح ومايتبعه من ملق ورياء — ولكن الحركة الأدبية ، كانت حركة فردية ، كما قلنا فلم تسر الروح القومية في نفوس الشعراء جميعا. ولكن الصيغة المصرية أخذت تدب في نفوس الأدباء منذ أن ثارت نفس محمود سامي البارودي لأنه رسم في شعره صوراً من الحياة النفسية المصرية لتأثره بحوادث مصر السياسية والاجتماعية، فأثارت في نفسه التعبير عما يجول بها ، فرسم ذلك في شعر عربي فصيح جاري فيه القدماء في أساليبهم الرصينة ، فكانت أول خطوة في الأدب المصري خطاها سامي البارودي وتبعه بعد ذلك غيره وقد تأثر النثر البليغ أيضا بالاجتماع المصري، وأخذ الأدب يتطور من أثر انتشار الروح الوطني ومحاكاة الأمم الأوروبية في ذلك وكان لإسماعيل باشا صبري وأحمد بك شوقي وحافظ بك إبراهيم وغيرهم ممن جاراهم أثر في هذه الحركة الأدبية الأخيرة وتمصير الأدب العربي قليلا أو كثيراً . ولكن أكثر ما كان الأدب المصري ظهوراً في تلك الحركة التي ظهرت منذ حكم إسماعيل باشا وإبان ظهور الحركة العرابية الوطنية على ألسنة بعض الكتاب والشعراء في أزجالهم العامية ومقالاتهم النثرية العامية أيضا التي كانت تكتب في بعض الصحف ، وقد نشر هؤلاء الكتاب مقالات عبروا فيها عن الأفكار العامة وصوروا الاجتماع المصري ومايجول به في

أزجال شعرية أو أحاديث نثرية ، ووضعوا ذلك فى عبارات فنية لاتقل بهجة وجمالا عن ذلك الشعر العربى الفصيح .

وقد كان هذا الأدب العامى يمثل الاجتماع المصرى تمثيلا صحيحا ويصور أخلاق المصريين . فقد كانت الحالة الاجتماعية منذ استولى محمد على على مصر فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وأوائل القرن العشرين متأثر بأحوال سياسية بعضها كان عالقا بالنفوس من عصر المماليك ذلك العصر الاستبدادى الذى ولد فى الشعب المصرى الخضوع للحاكم خوفا من بطشه والتهكم عليه وعلى أعوانه والاستسلام للقضاء والاستهانة بأهوال الحياة وتحمل الظلم على أنه قضاء من الله والتسلى عند الآلام بالتهكم والسخرية والرضا بما ينال الإنسان فى عيشه حتى أصبحت هذه الصفات عامة فى المصريين ، وكانت أكثر ظهوراً فى سكان القاهرة الذين كانوا متصلين بالحكام وعلى كثب من أعمالهم ، وكان لتبسط بعض الحكام فى الحياة والإفاضات على العامة بالأموال أن ظهر بعض الأدباء والشعراء والمغنين فى هذا الميدان . كالشيخ على الليثى وعبده الحمولى وغيرهما حتى سرى فى البلد روح فنى أدبى ، وعلى أثر ذلك انتشر فى النفوس نوع من السرور والميل إلى التهكم والنقد الحلو والفكاهة العذبة ، فوافق ذلك الخلق المصرى فى جملته ، لأن المصرى خفيف الروح يميل إلى « التنكيت والتبكيت » فكم المجلس يمزج الهزل بالجد فى حديثه حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد أحيانا عن النظر فى المسائل الجدية ، كثير التسامح ليس الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصيبه من عدو يريد أن ينكل به أو صديق خبيث يريد أن يهزأ به بقهقهة ( أو بنكتة بلدية ) أو بفكاهة ظريفة ، ولقد يكتفى بالتهكم والسخرية لإظهار ألمه ويبتلع الكلمة المرة التى يغص بها غيره . وربما حمله الحياء أحيانا على أن يبقى على غيره وإن أساء لأنه صفوح عن الاساءات ، به كثير من « السذاجة » الفطرية التى قد تتغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه لأنه طيب

القلب، كريم النفس ضعيف الإرادة يحتقر نفسه أحيانا ، ومن هنا كان كثير التسامح.

كل هذا ظهر فى تلك الأزجال والأحاديث العامية التى تمثل حقيقة تلك الناحية الاجتماعية والفكرية فى مصر ، وقد انتشر ذلك على لسان الشيخ حسن الآلاتى فى أحاديث عامية كتبها فى كتابه المعروف ، وعبد الله نديم ، والشيخ القرصى والشيخ النجار . وقد امتلأت الصحف اليومية إذ ذاك بهذا الأدب العامى . وظهر بين ذلك أدب لم يكن معروفاً قبل ذلك العصر وهو تلك القصص التمثيلية المصرية المكتوبة بلهجة قريبة من لغة العامة ، وأول من ابتكر هذا النوع عبد الله نديم فى روايته « الوطن والعرب » كما كتب مقالاته بلغة قريبة من اللغة العامية فى صحفه مثل « مصرى تفرنج » وغيرها من هذا النوع ، وصف فيها الرذائل الفاحشة ونقد أحوال الاجتماع وغيرها.

هذا فى جملته مايسمى بالأدب المصرى إذا صح لنا إطلاق الأدب على نوع من الشعر العامى والكتابة العامية ، وقد يدخل هذا فى تاريخ الأدب القومى ، ولكنه لايدخل فى تاريخ الأدب الفصيح . ونعود فنقول إن الصبغة المصرية فى الأدب العربى ليس لها أثر ظاهر إلا فى بعض القصائد والمنشآت التى كتبت أخيراً فى أقلام البارودى وشوقى وحافظ والسيد توفيق البكرى وحفنى ناصف وإبراهيم المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » والآن تظهر على شبا أقلام بعض كتابنا الحديثين المعاصرين ؟

أحمد ضيف

# بين الحقيقة والخيال

## — ٦ —

## الموسيقا فى الأدب العربى

### «عرض ونقد»

للأستاذ عبد اللطيف المغربى

المفتش بوزارة المعارف

---

وفى أوبة من رحلة طويلة تستغرق بياض النهار ، جلست فى مكان من القطار فريدا ، أنفى عن النفس وحشة العزلة ووعثاء السفر بضروب من الوسائل: فتارة أردد النظر فى كتاب ، فأروض الذهن فى شعاب من التفكير وأودية من الخيال ، وأهيم فى آماق روحانية ندية أجدى على النفس من نغمة الطيب الذكى ، وأروح من بسمة الأمل الوضاء — وتارة أطوى الكتاب وأصبح فى عالم الذكريات ، وهو عالم يتملك فى مثل سرعة الوهم إلى شاطىء الماضى الخضم ، فيقفك على صور غابرة من الحياة عابسة وباسمة ، تفعم نفسك بضروب من اليأس الممض أو الارتياح العميق — وحينا أسرح الطرف من نافذة القطار فى مروج خضراء ذات وهاد ونجاد ، وأشجار وأنهار ، وغياض ورياض ، وقرى ودساكر ، وظلال وارفة ، وزروع ناضرة ، وبين كل أولئك صنوف من الحيوان منثورة ، وطوائف من الناس غادية ورائحة : منهم الطروب المرح

الذى يرسل غناءه الساذج حرا طليقا فى جوف ذلك الفضاء الجميل ، فيزيده رواء على روائه ، وكأنه يشارك الطيور المتنقلة الضاربة فى كل مذهب من هذا الفضاء فى شدوها ؛ شكراً لله على ماوهب من نعمة الحياة ، وقوة الخصب ، ومنابع الخير ، وفيوض الرحمة والبركة ، والجمال الساحر ، والحسن الأخاذ فى ذلك الريف المصرى القديم — ومنهم البائس المعتر الصامت كأبى الهول ، قد خطت السنون وتتابع المحن على وجهه سطورا ناطقة بما يحمل من أعباء ثقيلة أنهكت قواه ، وذهبت ببشره وأمله ، فهو صامت مستكين ، يرمقك بعينين ساجيتين تعرف فيهما طول الصبر والأناة ، وقوة الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره .

ولقد حانت منى النفاتة عارضة والقطار مسرع فى طريقه ، فرأيت طائرا يجارى القطار فى سرعة وجهد ، فحينا يبلغ مستوى النافذة ويصفق بجناحيه على زجاجها ، وحينا ينال منه الإعياء فيتخلف ، ولكنى كنت غير آبه لما أرى ، فقد قيد سمعى وبصرى وحسى ما أنا فيه من وحدة ووحشة ، ولما أدرك القطار المحط حفل المكان برجال تلوح عليهم سمات الفضل ، وشارات الثراء والنبل ، فطفق بعضهم يتحدث إلى بعض فى كثير من الغبطة والبهجة ، وأنا صامت ممسك عن الخوض معهم فى فنون الحديث الذى يخصب ويجدب ، ويسمو ويهبط — وفى الحق أنى أنست بالقوم وعددت ذلك من الفرص المواتية أستعين بها على قضاء يومى الطويل ، فإن للوحدة معان حائرة تغمر النفس ، وتلقى عليها ظلالا من الهدوء والانقباض والاستكانة والتفكير المتتابع ، ولقاء الناس والتفرج بحديثهم مما يقشع هذه الظلال ، ويرسل النفس على صفائها ، ويعيد إليها مألوفها من مرح ونشاط .

ولقد أثار انتباهى رجل فى المجلس آثر الصمت وجعل يدير فى الحاضرين عينين براقتين ، يشع منهما نور الذكاء والفطنة ، فهبته ووقع فى نفسى الإجلال

له ، وحرت فى إنصاته للحديث وترفعه عن المضى فيه . وودت أن يخرج عن صمته فأرى قدرا من كياسته وفضله وثقافته — وطال بى الانتظار لأمره حتى تفتحت آفاق جديدة للنقاش دفعتنى إلى مجاذبة القوم أطراف الحديث . والرجل الصموت ماح فى صمته مسترسل فى تحفظه ، ولما حمى وطيس الجدل وطغا النقاش ألفيت منه تحفزا إلى دخول المعركة ، وما لبث غير قليل حتى رأيته يعالج الحديث بصوت أجش لاعهد لى به من قبل فى أناة وصدق منطق واستقامة فكر ، مما حفز القوم إلى الاحتفاء به والإقبال عليه . وتنقل الكلام حتى انتهت دورته إلى فأدليت برأى ، فما كان من الرجل إلا اعتدال فى مجلسه وتقبض للهجوم وانطلاق فى الحديث وتحامل شديد فى جرأة وصلابة . فزايلنى ما كنت أضمرت له فى نفسى من تقدير وإجلال ، وعجبت لهذه المفاجأة الطارئة التى غيرت نظام الحديث ، وأبحت لنفسى أن ألقى هذا العدوان بشىء من المعارضة والزياد الحسن عن الرأى ، ولكن ذلك لم يجد نفعا فى وقف تلك الحملة الشديدة التى شنها ذلك المعارض اللسن علىّ . فزدت فى نقاشى حدة وافتحمت سياج الهيبة بيننا حتى بدت الخصومة واضحة قوية ، وانتهى الحديث إلى غايته ثم انقطع . ولذت بالصمت والصبر الجميل على ما نالنى فى هذا اليوم الذى كنت أرجو معينا عليه ، فوجدت معينا لد على إرهاقى وإيلامى ، وساد المكان صمت طويل رائع لما انتهى إليه الحديث من جفوة وتقاطع . وكأن نجوى النفوس سفير بين القلوب يحثها على التزام الهدوء والسكوت . فلا سبيل إلى الألفة والوئام .

وكان القطار قد بلغ بنا محطا جديدا فكان مما رجوته أن يفارقنى هذا الرجل الذى أثار غضبى ، ولكن ارادة الله الغالبة . فينصرف الناس جميعا ويبقى الرجل.

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا مايشاء

ففزعت إلى كتابى أتعلل به ، وهذا الجليس يرمقنى من حين إلى حين بنظرة

وادعة لاأثر فيها للغضب ولا الجفوة . فرابنى من نفسى لددها فى الخصومة وتسامحه . وإسفافها إلى مستوى الغرائز الانسانية من غضب ونقمة ، وإعراض وجموح ، وتساميه عن كل أولئك وأخذه بالخلق الحسن مما يندر أن يكون منهجا لإنسان . فعدت إلى إكبار الرجل ورضت نفسى على الخطة المثلى الجامعة لخلال الخير والبر ليكون لى حظ من ذلك السمو الذى رأيته .

وماهى إلا لحظة حتى بدأ الرجل يعتذر عما فرط منه فى كثير من الأسف والخجل بصوت هادىء عذب ، ولاحت على ثغره ابتسامة مشرقة دلت على دخيلة نفسه الصافية . فذكرت أنى أعرف الصوت وصاحبه ، وكأنه علم هذا منى فرنا إلى يتحسس ماتجيش به نفسى ثم قال : إن لى من حرمة الصداقة وسالف التعارف ماهو خليق أن يطمعنى فى رضا صديق وعطفه إذا بدرت منى بادرة كدرت صفو المودة . ولم أقصد بما لاقيتك به من تحوير لصوتى وإغراق فى نقاشى وانحراف عن طريق — سوى إرهاف حسك ، وإيقاظ فكرك . وطالما أعجبت بتفكيرك ومنطقك إذا غضبت للحق ، وصلت فى ميدان النقاش فلم أتمالك نفسى من الدهشة والطرب أن صحت « أأنت صديقى العصفور ؟ » فقال: « نعم » فقلت: وماجاء بك فى مثل هذا اليوم ؟ فقال: إن لقبيلتنا رحلة إلى هذه البقاع فى زمن الحصاد ، وكنت على مقربة من القطار فلما لمحتك أحببت أن أحظى بلقائك ومبادلتك الرأى ، فقد طال شوقى إلى حديثك . فشكرت له حسن عنايته بى . وبدأنا الحوار

العصفور — أعجبنى ماقد سقته فى مقالك السابق وسررت من دحضك بعض المظالم التى لحقت بالأدب العربى ، وأود أن تزيدنى من هذا النوع فإنه طريف مفيد .

أنا : من هذه المظالم مايعاب على الأدب العربى من الموسيقا الشائعة فى نسجه ، وأن ذلك من الزخرف والصناعة التى يراد بها التأثير فى النفوس

بوسائل مصطنعة ، فالأديب العربي يؤثر في الفكر بصناعته وموسيقاه . على حين أن الأديب اليوناني واللاتيني يؤثر بوساطة الجمال الخالص والفكرة القوية المتزنة — والمراد بالموسيقا في الأدب الائتلاف والانسجام في صوغ الكلام وتأليفه على أوضاع حسنة تكسبه جرسا ورنينا في الآذان ، فيجد السامع لذلك من الخفة والروعة مايجده سامع النغم الموسيقي من النشوة والطرب .

ونحن لاننكر الموسيقا في أدبنا واحتفاءه بها والحاجة في الإغراق فيها ، والذي ننكره ونعجب منه أن تعد من عيوبه وأسباب قصوره عن غيره من الآداب العالمية — وهذا أشبه بازدرائك للجميل لأنه جمع أسباب الجمال وأن تأثيره بهذه الأسباب في النفوس منقصة له . وهذا غريب .

إن هذه اللغة مطواعة ذات خصائص ميزها الله بها على سائر اللغات ، ولقد جعلت من محاسنها تلك الأوضاع الموسيقية لتزيدها قوة على قوة في التأثير . وروح الأدب — العاطفة — التي يزيدها الإيقاع يقظة واحتفالا وقوة ، وهل كان الشعر بموازينه وقوافيه إلا ضربا من الموسيقا يراد به إلهاب العاطفة والحماسة ، كما يراد بالطبول والمزامير تتقدم الجيوش الزاحفة إلى ميادين الوغى ، إذكاء نار الحماسة فيهم ، وإثارة العاطفة إلى أقصى حدودها ، حتى تفيض بها قلوبهم فيندفعوا إلى حياض الموت باسمين .

وليست اللغات الراقية للأمم مجردة من الموسيقا فلكل لغة موسيقاها . فلم عابوا علينا ولم يعيبوا عليهم ؟ وإن كانوا قد عابوا علينا احتفالنا بالموسيقا في أدبنا فذلك لطواعية لغتنا وثروتها اللفظية ، وابتهاج أفئدتنا الشرقية بهذا الضرب من الجمال ، واللغة مقياس الذوق لكل أمة ، ومرآة تطبع عليها صور أمزجتها وأهوائها ، ولامناص لها أن تحيط بخلجات أفكارهم وترصد نزوات أذواقها وعواطفها وإلا لم يكتب لها الخلود .

العصفور : جميل منك ياصديقي أن تثير هذا البحث فإني إليه جد مرتاح

لطرافته عندى ، وأرجو أن تزيدنى بيانا توضح لى به الطريق إلى صوغ الكلام موسيقيا وتقدر لى تأثير الموسيقا فى الفكرة الأدبية قوة أو ضعفا ، فذلك الطلب لاعلم لى به قبل اليوم

أنا : ليس للموسيقا فى الأدب طريق معبد مألوف إذا سلكه الكاتب أو الشاعر انتهى به إلى كلام موسيقى ضربة لازب ، فليس لها مقاييس ولا حدود تضبطها، وإنما هى أمر وجدانى مرجعه الذوق الناضج والأذن الموسيقية النقادة .

ويعين طول المرانة والدربة الطويلة على تربية هذا الذوق الأدبى، ويستعان على الموسيقا فى الأدب بأمور عامة تقريبية كالوزن والقافية فى الشعر، والفواصل وتقارب الفقر فى السجع وزيادة بعض الحروف أو إبدالها بما هو أخف منها، وقد يخالف بالكلمة أحيانا قياسها لتلائم كلمة أخرى فى الأسلوب ، ولحروف الكلمة الواحدة أوضاع خاصة من هذه الأوضاع ما يكون موسيقى التأليف والترتيب ، ومنها ما يحدث تنافرا ونبوا . وهذا الشأن تراه فى الكلمة تضمها إلى الأخرى ، فأحيانا ترى وضعا موسيقيا عاليا يأتيك عفوا عن طريق الحظ والتوفيق ، وأنت لاتعرف السبيل إلى اقتناصه ، كالصيد ترزقه وأنت على شاطىء البحر فتهش له ، وأحيانا ترى وضعا جافيا لاترتاح إليه أذنك كأرذل ما يخرج إليك فى الصيد من البحر ، وبحسب ترتيب حروف الكلمة فى ذاتها وترتيبها مع غيرها ينشأ جمال الأسلوب أو قيمته ، ومدار الأمر فى موسيقية العبارة راجع إلى ضبط التموجات الصوتية أو تقريبها والملاءمة بينها على قدر الإمكان، وليس لذلك قانون ولا نظام معروف ، ولا بأس هنا بإيراد كلمة للأستاذ « لاسل آبر كرمبى » فى هذا المرقف من كتابه قواعد النقد الأدبى المترجم إلى العربية ، لتلقى وضحا على ما يراد من الموسيقية اللفظية وتأثيرها فى العاطفة قال : « إن الكلمات تشتمل على شيئين : معان وأصوات . والمعنى والصوت كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطا لايقبل التفرقة . ولكن كلا منهما قابل لأن ننظر فيه على حدة

وكل منهما يمكن تقسيمه إلى قسمين فمن حيث المعنى نرى أولا أن لكل جملة معناها بحسب تركيبها المنطبق على قواعد النحو والصرف وهذا هو هيكل الجملة الذى تتمثل فيه الفكرة المجردة التى يراد وصفها .

ولكن هناك ناحية أخرى لمعانى الألفاظ . ذلك أن كل كلمة ذات معنى قد يكون لها بمفردها — مستقلة عن نحو الجملة وصرفها — تأثير خاص فى الخيال يتوقف على القرائن والموضوع ، فإن معنى كلمة من الكلمات ليس بالأمر اليسير السهل . والمعنى الذى نجده فى معاجم اللغة ماهو إلا النواة التى يتجمع حولها طائفة من المعانى الثانوية . . .

كذلك نرى أن كل كلمة إنما يعبر عنها بوساطة أصوات حروف الكلمة ، ولكن من الممكن أن يكون لهذه الأصوات فوق هذا دلالتها الخاصة بها ، فأما أولا الأصوات المقطعية الخاصة بكل حرف ساكن أو متحرك فى كل كلمة من الكلمات ، وهذه يمكن بترتيبها على طراز خاص وبتكرار بعض الأصوات أن يتألف منها ذلك النظام المسمى بالروى أو القافية . كذلك قد يراعى فى الألفاظ ناحية أدق وأخفى من هذه ، وهى أن يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة بحيث يكون فيها تقليد للشىء الموصوف أو وحى إلى الخاطر يصعب تحديده ، ولكنه محسوس . وهذه الخاصية للكلمات ينظر فيها إلى كل كلمة على حدة وتأثير أصواتها . ولكن هناك ناحية أخرى لتأثير الكلمات ، وهى التى ينظر فيها للكلمات متتالية متعاقبة . وهذا هو مايعبر عنه بالانسجام أو موسيقا اللفظ « rythm » فهنا لا ينظر إلى الأصوات المقطعية ونوعها بل إلى تموجات الأصوات وإلى مقدارها فى عدة جمل . وهذا الاختلاف فى المقدار قد يكون راجعا إلى اختلاف فى قوة الصوت وضعفه أو فى طوله وقصره أو فى ارتفاعه وانخفاضه . والتموجات الموسيقية عبارة عن تعاقب كل هذه الاختلاقات الصوتية أو بعضها بطريقة جلية واضحة .

وهذه الموسيقا اللفظية هى بلا شك أهم وسائل الانتفاع بالأصوات فى فن الأدب . لأن هذا الانسجام هو أكبر عامل فى الايحاء بذلك الجزء من العاطفة أو الشعور » .

وفى هذا الحديث ترى إشارة إلى الموسيقا فى الكلمة وفى الأسلوب، ولا تجد فيه نظاما معينا ولا مقاييس محدودة للموسيقا كما قلنا . وإنما هو كلام عام لأن الموسيقا اللفظية فى الأدب فى كل اللغات ليست مما يحد بأنظمة ومقاييس هندسية كالموسيقا الغنائية .

ويتضح من هذا الكلام أيضا أن الموسيقا أكبر عامل فى إيقاظ العاطفة والشعور .

وعندى أن الموسيقا اللفظية أكبر عون للفكرة الأدبية على الوضوح والتأثير فى الأفئدة ، فهى جمال يزيدها قوة كالصورة الزيتية ذات الألوان المؤتلفة تراها فتعجب بها وترتاح إليها ، ولو اقتصر فيها على الخطوط الأولى الساذجة وحرمت تلك الألوان الفاتنة ما كان لها ذلك التأثير .

ولقد يعلو الفيلسوف الانجليزى العظيم كارليل إلى أفق أسمى فى فهم الموسيقا الأدبية ؛ إذ يراها فى صور مختلفة مما يحيط به ، ويميل إلى أنها تقع فى جملة شريفة المعنى وهو بحث طريف من الخير أن نورده باختصار ؛ ليكون فيه متعة للقارئين ، وبصر بألوان جديدة فى الموسيقا الأدبية قال : « أما أنا فإنى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشعر . وهو أنه الكلام الموزون المودع شيئا من الموسيقا حتى لهو ضرب من الغناء — . وحقا لو اضطر الانسان إلى إعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزا ذلك التعريف القديم .

فإذا كان نظمك موسيقيا لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة ، وفى جميع الأفكار والمعانى والنظام والنسق فهو شعر وإلا فلا — والمعنى الموسيقى هو : ما إذا خرج من ذهن نفذ إلى لباب الشىء وأدرك مكنون سره ، أعنى النغمة

الكافية فى جوفه ، أعنى مايستسر فى ضمير ذلك الشىء من موسيقا الائتلاف والوئام.. ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شىء موسيقى ، أعنى إذا بدا للناس بدا فى منطق موسيقى أى بدا فى صوت الغناء . وإنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء باللسان ؟ ، والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق الذى يذهب بنا إلى شواطىء المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر . . .

ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فإنه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا .

بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشىء عميق فهو غناء . بل يظهر لى أن الغناء هو لبابنا الجوهرى » . ثم يقول بعد ذلك

« وقد قال كولريج فى بعض كتاباته : إن كل جملة موسيقية التركيب يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم ، فلا بد أن تكون ذات معنى جليل شريف ؛ لأنه مازال أبدا بين الجسم والروح « اللفظ والمعنى » ألفة وشبه ، والشعر القديم الجيد شعر هوميروس مثلا كله غناء ، بل كل شعر حر غناء ، وإن كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ، ولكنه قطعة نثر فصلت فى لفظ طنان ، فيه عقوق لقواعد النحو وأذى ومصاب على القراء » هذه النظرة العالية الفلسفية تسمو بقارئها إلى معان أبعد مما يتبادر إلى الذهن من الموسيقا اللفظية ، وفيها نواح جديدة عميقة النظر أوحت بها إلى هذا الفيلسوف فلسفته وروحه الممتزجة بحب مظاهر الكون وأسراره - والذى لانقر كولريج عليه « أن كل جملة موسيقية التركيب يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم فلا بد أن تكون ذات معنى جليل شريف » فأحيانا نرى العبارة موسيقية ومعناها ضئيل . وقديما استحسنوا نسج الأبيات الآتية ومافيها من موسيقا لفظية ، وعدوا معناها سخيفا وهى:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

ولقد امتاز شعر البارودى بالموسيقا اللفظية القوية ، وكثير من معانيه قريب أو مسبوق إليه . وكان المعرى يقول فى شعر ابن هانىء الأندلسى « ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا » ومعنى هذا أن أساليبه فيها فخامة وقوة جرس موسيقية ، ولكن معانيه غير رائعة كما يرى المعرى ، وإذا كان المعرى قد أخذ على ابن هانىء ضعف معانيه وأقر له بموسيقا اللفظ فما أحرانا فى هذا الموقف أن نقر للمعرى بقوة معانيه فى شعره وضعف الموسيقا فى كثير من أقواله.

ومن مقال للشاعر الكبير پول فاليرى عضو المجمع الفرنسى، عربه الأديب عبد الرحمن صدقى « والكلام يمكن أن يكون منطقيا عامرا بالمعنى، ولكنه خلو من الايقاع خلو من الوزن ، وقد يكون عذب الورود على السمع وهو سخف ولغو ، وقد يكون واضحا وفارغا ، غامضا ولذيذا »

ويحمل بى فى هذا المقام أن أذكر لك شيئا بهذا الموضوع من مقال للأستاذ أحمد أمين ، يزعم فيه أن الأدب الجاهلى جناية على الأدب العربى ، ولا يعنينا التعرض لهذا الرأى فى جميع نواحيه فلندعه فى تطرفه وغرابته بدعا بين الآراء ، ولننقل رأى الأستاذ فيما يمس الموسيقا فى الأدب العربى، فقد قال فى توضيح الآثار السيئة التى لحقت الأدب العربى من الأدب الجاهلى فى الشكل: « فمن ناحية الشكل قيد الشعر بقيود الوزن والقافية كما رسمها الشعر الجاهلى ، فالبحور الجاهلية هى البحور التى سار عليها الشعر العربى كله إلى الآن إلا أشياء قليلة ، وكذلك القافية ، مع أن البحور ليست إلا أوزانا ، والأوزان ليست موسيقا ، والموسيقا تختلف باختلاف العصور ، فكما أن الغناء الجاهلى لا يناسبنا، فكذلك كان يجب أن تكون الأوزان والقافية مسايرة للزمن ، وأن تحكم كل أمة عربية أذنها الموسيقية فى الأوزان الشعرية التى تناسبها والتى لا تناسبها ،

سواء وافق ذلك الأوزان الجاهلية وقوافيها أو خالفها، أما أن نخضع آذاننا للأوزان الجاهلية والقافية الجاهلية فحسب، فنوع من السجن لا يليق بأمة راقية تتحرر من القيود الثقيلة، وقد جنى هذا القيد علينا جنايات كبرى تتصل بالموضوع، فالتقيد بالقافية حرمنا من الملاحم الطويلة، وحرمنا من القصص الطويلة الممتعة؛ لأن اللغة مهما غنيت بالمترادفات لا تستطيع أن تقدم للشاعر مئات الكلمات على روى واحد وعلى حرف واحد، خصوصا بعد أن قيدوا الشاعر أيضا بألا يعيد الكلمة إلا على مسافات بعيدة».

وقد يكون من البر بلغتنا والوفاء لها قبل البدء فى نقد هذه الفكرة أن نعمد إلى بعض العبارات فنضعها بين قوسين مثل «سواء وافق ذلك الأوزان الجاهلية وقوافيها أو خالفها» و«جنايات كبرى» و«على روى واحد وعلى حرف واحد» أما الفكرة فإنا نراها غير موفقة فى نواح كثيرة، فالموسيقا التى تجرى عليها البحور العربية لا يقدح فى حسنها وملاءمتها قدمها، فليس كل قديم غير ملائم، وبقاؤها على قدمها إلى الآن ومرور دهر طويل عليها، دليل على صلاحيتها وملاءمتها للأذواق، وإلا ما كتب لها هذا البقاء الطويل — والدعوة إلى أن تحكم كل أمة أذنها الموسيقية فى الأوزان الشعرية التى تناسبها والتى لا تناسبها، فتح لباب واسع من الفرقة والاختلاف فى الذوق، وقضاء على صلة محكمة تربط بين الآذان الشرقية العربية جميعا، فتطرب كل أمة وتهتز، وتجيش صدورها بالأمانى والأحلام العذبة، كلما شدا على دوحة العربية شاد فى آفاق الأرض بهذا الطراز من الموسيقا. وبهذا وبغيره نحفظ للوحدة العربية كيانها. وإذا أبحنا لأنفسنا أن نبدل فى موسيقا الشعر وهى مظهر من مظاهر لغتنا لأن آذاننا لها حكمها فى وقتها، فلماذا لا نبيح غدا تغيير قواعد الإعراب والتحرر منها لأن حناجرنا فى وقتها لها حكمها أيضا وهى غير حناجر العرب الذين ارتضوا هذا الإعراب؟ إن المسألة ليست مسألة منطق وترتيب نتائج

لنقدم على هدم أمر من الأمور العظيمة ، بل علينا أن نتدبر الحقائق مجردة من زخرف المنطق ونتعرف آثارها السيئة فى رفق وهوادة فإن ذلك بنا أجمل - ثم ماهو المقياس الذى يراه الأستاذ للموسيقا الشعرية الجديدة ؟ ألا يرى معى أن فتح هذا الباب مدعاة إلى الخلط فى الأوزان والفوضى فيها ، فيأتى كل دعى فى الأدب بأوزان سخيفة ويتعصب لها ويناضل عنها ، فنعيش فى حرب كلامية طاحنة تفسد علينا أذواقنا ، وتقضى على بقية التراث العربى الكريم . ويقينى أن هذا لايرضى الأستاذ صاحب الدعوة ، فلندع أوزاننا كما هى ، فهى سر باح به الزمان ، فظل بقوته وخصبه صالحا لكل مكان .

أما الحملة على القافية وأنها حرمتنا الملاحم الطويلة فهذه الدعوة نصيبها من الحق كنصيب سابقتها ، فإن الملاحم لايشترط فيها اتحاد القافية ، وأقرب دليل على صلاحية العربية لها الملحمتان العظيمتان ( العمرية والعلوية ) اللتان صاغهما الشاعران العظيمان المرحومان حافظ وعبد المطلب ، فقد جعلا لكل غرض فيهما قافية ، وبذلك فتحا فتحا جديدا ، ومهدا سبيلا لكل من أراد الإحسان فى الملاحم ، فنحن لم نحرم الملاحم وأمثلتها بين أيدينا صارخة ، ولم تقصر قوافينا عنها — وفوق هذا فمشطور الرجز مجال واسع للملاحم وأمثالها وليس له غاية ، فقد درج شعراؤنا فى أراجيزهم الهائلة على النسج من مشطور الرجز كأبى العتاهية فى أرجوزته فى الزهد وكابن المعتز وابن عبد ربه فى أرجوزتيهما التاريختين وهما معروفتان .

— ٢ —

العصفور : بارك الله فيك . لقد أرضيت الحق وقمت بالنصفة فى نقدك ، وأطلعتنى على كثير معجب مما لم أكن أعلم . وأرجو أن تنال حظا من الراحة ، فقد عز علينا أن تجمع بين مشقتى السفر والبحث العلمى — ثم تقفنى على الغرض من حملات المجددين على القافية بإسهاب . فقد سمعت عن هذا الموضوع فيما مضى

كلاما يسرنى أن أرى له إيضاحا وتفصيلا .

أنا — لعلك تذكر أيها الطائر الأديب أننا أثرنا هذا البحث فى مقالنا الأول ، وقد ذكرت لك إذ ذاك إن أول من استحدث هذه الطريقة المرحوم الشاعر جميل صدقى الزهاوى . وأسمعتك شيئا من شعره على هذه الطريقة . وقد قويت الدعوة إلى هذا المذهب بعد ذلك ، ومال إليه المجددون ، ودعا إليه المجددون : إما فى قوة وصراحة ، وإما فى إيماء وتحفظ — وقام معارضون لهؤلاء الداعين ، فثار الجدل حول هذه الفكرة ولا تزال حجج الداعين إليها غير قوية ، على الرغم مما عرضوه على الناس من صور لهذا الرأى ، وتدور أدلتهم حول ضيق الشعر العربى بالتزام القافية وقصوره عن تصوير المعانى وصوغ الملاحم والقصص وقد تقدم فى هذا المقام دفع ماقالوا .

وقد صاغ الزهاوى أول قصيدة من هذا الطراز فى مستهل القرن العشرين ونشرتها له صحيفة المؤيد غير القصيدة التى سمعت بعض أبياتها وعرض بعض الكتاب قطعا من هذا النوع . منها قطعة مترجمة فى صورة نثرية مرة وصورة من الشعر المرسل مرة أخرى ، وهى من شعر شكسبير زعيم هذا الطراز من الشعر فى رواية عطيل . ولا بأس بأن أذكر لك قليلا من هذه القطعة فى حالتيها النثرية والشعرية

## النثر

ياجو : حسن السمعة للرجل والمرأة — ياسيدى العزيز — أثمن جوهرة من حلى النفس . من يسرق كيس نقودى يسرق شيئا زريا كان لى وأصبح له ، وكان قبلنا لألوف آخرين . أما الذى يسرق حسن سمعتى فيختلس شيئا لا يغنيه ويجعلنى فقيرا جهد الفقر . . .

## الشعر المرسل

ياجو: شرف الانسان أغلى سيدى
من سواد القلب هذا يستوى
فيه من كانوا ذكورا أو إناثا
إنما من يسرق مالى إنما
نال منى تافها غير خطير
إنما المال متاع هين
فلقد كان معى ثم مضى
ليديه بعد حين مثلما
كان قبل الآن عبد الائلوف
إنما سالب عرضى نال ما
ليس يغنيه وقد أفقرنى

ولست أرى تعليلا عن صوغ هذه القطعة بهذه الطريقة من الشعر البادى لك فى ضعفه وهزاله . وقد ذكر معنى هذه القطعة قول شاعرنا العربى حسان ابن ثابت رضى الله عنه :

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لابارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال إن أودى فأكسبه ولست للعرض أن أودى بمحتال

وعرض أيضا الاستاذ الكاتب قطعة أخرى ترجمة فى صورة نثرية وصورة شعرمرسل لقصة من وضع شكسبير تمثيل رثاء انطونيوس لقيصر، فلا داعى إلى إيراد شىء منها اكتفاء بما تقدم .

وظهرت كاتبة متحمسة لهذا المذهب من الشعر تدعو إليه في صدق وقوة وعزيمة ، ونضرب صفحا عن نقاشها فلا سبيل إلى اقناعها كما يتبين من بعض أقوالها التى نعرضها عليك ، لتعرف الحكمة فى العدول عن معارضتها،ومقدار

ماترمى إليه من تجديد فى الشعر . قالت:

« والغريب أنه بينما نتناقش فى الشعر المرسل يتناقش الأدباء الإمريكيون فى الشعر الحديث الذى لاوزن له ولا قافية — ليطمئن قرائى فسيفنى عمرى فى الدعوة إلى الشعر المرسل . فهل يتيسر لى أن أدعو إلى هذا الشعر الحديث الذى لاأستسيغه الآن ؟ ولكنى لاأعرف، فقد أستسيغه غدا » وقد أبدت هذه الكاتبة دعوتها بنسج قصيدة لها على هذا النوع من الشعر عنوانها « ذوالفأس » ومن يدرى لعلها تدعو إلى شعر لاوزن له أيضا ، لأنها قد تستسيغ ذلك غدا كما تقول . ولنذكر من قصيدتها قولها فى المطلع :

متكئا على الفأس فى انكسار منحنى الظهر من الهموم
ينظر فى الأرض بلا انتهاء فليس نحوها إلا المصير

وقولها فى النهاية :

ياسادة العبيد والأراضى كيف لقاء الرب يوم الدين
يوم مثوله أمام الله بعد سكون الساعى والسنين

ونحن نضن أن نعرض لهذه القصيدة بوصف فليست تستحق شيئا من العناية . وبذلك تعلم ياصديقى العصفور نشأة فكرة الشعر المرسل وتدرجها فى ظل الزمان ، فصاحبها الزهاوى ،وكل من كتب بعده داعيا إليها تبع له.

العصفور — لقد وضح الحق واستقامت الحجة ، وإذا كنت قد علمت صاحب هذه الدعوة وموقف الداعين بعده منه — فقد علمت شيئا جديدا أيضا خلص إلى من ثنايا الكلام : وهو أن هذه الدعوة وليدة المحاكاة للأدب الغربى ، فإن المجددين لما وجدوا شعرا مرسلا لشكسبير وغيره من الشعراء الغربيين ، أرادوا إحداث مثله فى العربية . وقد لمحت من حديثك أنهم يجدون للأدباء الإمريكيين شعرا غير موزون كما يقولون . وأرى أن الدعوة إلى هذه البدعة الحديثة ستجد لها أنصارا بين المجددين وحينئذ تقع الفوضى فى الأدب العربى لاقدر الله !!

والآن ياصديق أرجو أن تسمعنى فى ختام هذا البحث الطريف ، شيئا من النثر والنظم يمثل إلى الموسيقا فى الأدب العربى ، فأكون لك من الشاكرين أنا — يسرنى أن أجيب صديقى إلى ماطلب وإنى لسائق إليه من ذلك مايرضيه . فمن ذلك قول الشريف الرضى وقد حلق شعره بمنى فرأى فيه شيبا ، ومرسيقاه قوية رنانة . استمع إليه إذ يقول :

لا يبعدن الله برد شبيبة ألقيته بمنى ورحت سليبا
شعر صحبت به الشباب غرانقا والعيش مخضر الجناب رطيبا
بعد الثلاثين انقراض شبيبة عجبا أميم لقد رأيت عجيبا
فاليوم أطلب الهوى متكلفا حصرا وألقى الغانيات مريبا
إما بكيت على الشباب فإنه قد كان عهدى بالشباب قريبا
لو كان يرجع ميت بتفجع وجوى شققت على الشباب جيوبا
ولئن حننت إلى منى من بعدها فلقد دفنت بها الغداة حبيبا

ومن هذا النوع من قول البارودى فى حرب كريد

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربا بجران
لاتستبين العين فى ظلمائه إلا اشتعال أسنة المران
نسرى به ما بين لجة فتنة تسمو غواربها على الطوفان
فى كل مرأة وكل ثنية تهدار سامرة وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أجرد وتصيح أجراس ويهتف عان

ويغلب أن يكون هذا النوع القوى الجرس من الموسيقا فى البحور الكامل والوافر والمتقارب ، ومن الموسيقا الهادئة الوادعة المتزنة قول الوزير ابن الزيات يرثى زوجه وحال ابنه الصغير بعدها:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان

رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليـــل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى إن بـكيت فإنمـا أداوى بهذا الدمع ما تريان
فهبنى عزمت الصبر عنها لأننى جليد فمن بالصبر لابن ثمان؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة ولا يأتسى بالناس فى الحدثان
فلم أر كالأقدار كيف تصبنى ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى
أعينى إن لم تسعد اليوم عبرتى فبئس إذاً مافى غد تعـــدان

ويغلب أن يـكون هذا النوع الهادىء الوقور المؤثر فى البحر الطويل، ومن الموسيقا الفاترة قول أبى العلاء المعرى:

يغيبنى فى الترب من هو كاره إذا لم يغيبنى كريه الروائح
ومن يتوقى أن يجاور أعظما كأعظم تلك الهالـكات الطرائح
ومن شر أخلاق الأنيس وفعلهم خوار النواعى والتدام النرائح
وأصفح عن ذنب الصديق وغيره لسكناى بيت الحق بين الصفائح

وعندى أن سبب فتور الموسيقا قلة العناية باختيار الـكلمات العذبة ذات الجرس الحسن، فجاء الأسلوب عابسا، تموجاته الصوتية غير مؤتلفة ولا منسجمة كما ينبغى، ولنفس الشاعر وخفتها وظرفها فى اقتباس المعانى والألفاظ، أثر كبير فى تصوير الموسيقا؛ وفرق بين ابن الزيات الوزير المرح الظريف الذى تقلب فى بيئة الـكتاب وظرفهم والوزراء وترفهم، وبين أبى العلاء المعرى العالم رهين المحبسين وصاحب النفس المنقبضة المتبرمة بكل مايحيط بها، ولهذا كله وقعت الفرقة بين القطعتين مع أنهما من بحر واحد.

وأسمعك من النثر قطعتين إحداهما أقرب إلى الفطرة والثانية غارقة فى الصناعة، وكلاهما يفيض عذوبة وموسيقا: فالأولى من خطبة لداود بن على ابن عبد الله بن العباس حيث يقول:

«أيها الناس : الآن أقشعت حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه : فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس : إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لكثر لجيناولاعقيانا، ولانحفرنهرا ولانبنى قصرا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ،والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم . . . »

والثانية لزعيم كتاب الصناعة الأستاذ ابن العميد فى خطاب خارج على الدولة يهدده حينا ويتألفه حينا ، فأنصت إليه تر العجب من أسلوبه الرائع حيث يقول :

« لاجرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستيفائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسة فى الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء . . . . »

العصفور : إن سرورى هذا اليوم لعظيم بما أهديت إلى من ألوان الحديث الموفق فجزاك الله عنى خير الجزاء ، وإنى لمستودعك الله وعائد إلى أهلى وخلانى وأنا موقر بالطرف القيمة . وكنا إذ ذاك فى وقت الأصيل والليلة المقبلة من الليالى القمرية ، فما هى إلا لمحة البصر حتى اضطرب اضطرابة سريعة ، وقفز من نافذة القطار تاركا وراءه صدى للحن جميل قرت عذوبته فى أذنى وقتا طويلا.

عبد اللطيف المغربى

# الاتبـــــاع

للأستاذ مهدى أحمد خليل

---

قال أبو البقاء فى الكليات : الإتباع أن تُـتْـبِـعَ الكلمةَ الكلمةَ على وزنها أو رويها إشباعا وتوكيدا حيث لايكون الثانى مستعملا بانفراده فى كلامهم ، وذلك يكون على وجهين:أحدهما أن يكون للثانى معنى كما فى هنيئا مريئا، فيؤتى به للتوكيد لأن لفظه مخالف للأول؛ والثانى ألايكون له معنى بل ضم إلى الأول لتزيين الكلام لفظا وتقويته معنى،نحو حَسَن بَسَن،وهولايكاد يوجد بالواو.

وقال الثعالبى فى فقه اللغة : الإتباع من سنن العرب فى كلامهم ، وذلك أن تُـتْـبِـعَ الكلمةَ الكلمةَ على وزنها أو رويها إشباعا وتوكيدا اتساعا ، كقولهم: جائع نائع،وساغب لاغب،وعطشان نَـطْشَـان،وخَبٌّ ضَبّ،وخراب يَبَـاب.

وبعضهم اختار جواز العطف فى الإتباع.وبعضهم منعه كما قال ابن فارس فى فقه اللغة نحو حَيّـاكَ الله وبَيَّـاك ومعنى بياك أضحكك .

وفى الإتباع إذا كان الثانى بمعنى الأول كان للتأكيد ، وإنما يكون اللفظ مقضيا عليه بالإتباع إذا لم يستعمل فى كلامهم منفردا عن الأول ، كقولهم: عطشان نطشان،فنطشان لم يفصل عن عطشان،ولذا قيل فى نحو هذا **إتباع؛ لأنه** لامعنى له إذا جىء به وحده أو كان لايستعمل بهذا الوزن إلا مع غيره كما فى هَنأنى [1] الطعام ومَرَأنى [2] فإنهم إذا أفردوا الثانى قالوا:أمرأنى [3] . ويشبه هذا قولهم آتيه بالغدايا والعشايا إذا قرنوا بينهما ، فإذا أفردوا الغدايا ردوها إلى

---

(١) لم يحدث لى منه تعب ولا مشقة (٢) لم يثقل على معدتى وانحدر عنها طيبا

(٣) فى اللسان والتاج يقال: مرأنى الطعام وأمرأنى ( بلا اشتراط ازدواج لأنهما لغتان ، وعلى اللغة الأولى ليس فى الكلام إتباع )

أصلها وقالوا الغُدوات[١] . ومن الخبر المشهور : خَيْرُ المالِ مُهْرَةٌ مَأمُورة وسِكَّة مَأبُورة ( السِّكَّةُ الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة المُلَقَّحةُ . وقيل السِّكَّةُ سِكَّةُ الحَرْث،والمأبورة المصلحة له،أراد خير المال نِتَاج أو زرع ) . وظاهر كلام ابن عصفور فى شرح الجمل أن التابع نعت حيث عده من قبيل مايُنْعَتُ به ولا ينعت. ثم قال : إن الإتباع ليس بقياس:وتبعه فى ذلك السيوطى فى الهمع حيث قال: ومِنَ النعتِ مالا يقع إلا تابعا كالاسم الثانى من قولهم حسن بسن ، وشيطان ليطان . وبعضهم قال : إن الإتباع قسم من التوكيد ، لأن التابع توكيد للمتبوع غير مبين معنى بنفسه كأكتع وأبصع مع أجمع ، وقيل:إنهما مختلفان؛ والإتباع مالم يحسن فيه واو نحو حسن بسن.والتوكيد تحسن فيه الواو نحو حِلٌ وبِلٌ . وقال بعضهم:الإتباع داخل فى التوكيد بالتكرار عند الأكثرين لأنه لم يغير من الكلمة إلا حرف[٢] وقال ابن خالويه : ليس فى كلام العرب إتباع بخمس كلمات إلا فى كلمة واحدة مال كثير بثير بجير بذير عميرمرير، فأما الثلاث والاثنان فكثير(سيأتى أنهاست) نحو حَسَنٍ بَسَنٍ فَسَنٍ وحارٌّ بَارٌّ جارٌّ .

قيل لأعرابى:ماتريدون بقولكم فلان كَنَز لز؟فقال حرف نَتِدُ به كلامنا (نؤكده به)

قال الخفاجى فى شرح درة الغواص : الإتباع على قسمين : مالا معنى له أصلا غير التقوية كحَسَنٍ بَسَنٍ،وماله معنى ظاهر كقسيم وسيم : أو غير ظاهر كشيطان ليطان ؛ أى لاصق بالشر، وهو كما قال ابن فارس : إما معرب بإعرابه كحسن بسن،أو مركب معه كحَيْصَ بَيْصَ، فإنه إتباع، وقد يكون بأكثر من لفظ . وفى غير الأسماء نحو لابارك الله فيه ولا تارك ولا دارك،

(١) فى اللسان والتاج : يقال غدوة وغدية ( ومادام قد سمع فى مفرده غدية كان جمعه على غدايا قياسيا من غير احتياج إلى الازدواج ) (٢) هذا فى الغالب ومن غير الغالب : هنأنى الطعام ومرأنى

قال ابن الدهان فى الغرة: وهو عند الأكثرين قسم من التوكيد، وبعضهم جعله قسما من التوابع على حدة لجريانه على المعرفة والنكرة. وإذا كان توكيدا يحتمل أن يكون معنويا ولفظيا على أنه أبدل منه حرف لدفع صورة التكرار كما أشار إليه الرضى.

وفى البلغة فى أصول اللغة: وإنما سمى إتباعا لأن الكلمة الثانية إنما هى تابعة للأولى على وجه التوكيد لها وليس يتكلم بالثانية منفردة، فلهذا قيل إتباع، وظن بعض الناس أن التابع من قبيل المترادف لشبهه به والحق الفرق بينهما فإنهما يفيدان فائدة واحدة من غير تفاوت والتابع لايفيد وحده شيئا. بل شرطُ كونه مفيدا تقدم الأول عليه. كذا قال الرازى. وقال الآمدى: التابع لايفيد معنى أصلا. وقال السبكى: والتحقيق أن التابع يفيد التقوية، فإن العرب لاتضعه سُدى، والفرق بينه وبين التوكيد أن التوكيد يفيد مع التقوية نفى احتمال المجاز. وأيضا التابع من شرطه أن يكون على وزن[1] المتبوع، والتأكيد لايكون كذلك. وقال الفالى: الإتباع على ضربين: ضرب فيه الثانى بمعنى الأول فيؤتى به توكيدا لأن لفظه مخالف الأول، وضرب فيه معنى الثانى غير معنى الأول، فمن الأول قولهم قسيم وسيم، وكلاهما بمعنى الجميل، وضَئيل بَئيل، وهما بمعنى وشيطان وليطان.

ومثل هذا فى المزهر.

وفى الأشباه والنظائر للسيوطى: الاتباع أنواع: فمنه إتباع حركة آخر الكلمة المعربة لحركة أول الكلمة بعدها، كقراءة من قرأ الحمْدِ لله بكسر الدال إتباعا لكسرة اللام. وإتباع حركة أول الكلمة لحركة آخر الكلمة قبلها، كقراءة من قرأ الحمدُ لله بضم اللام إتباعا لحركة الدال.

وإتباع الحرف الذى قبل آخر الاسم المعرب لحركة الإعراب فى آخره

(١) ومن الشاذ رَغْما دَغْما شِنَّغْمَا كما سيجىء فى الأمثلة.

وذلك فى اْمرِىء (١) واْبنِم (٢) فإن الراءَ والنونَ يتبعان الهمزةَ والميمَ فى حركتهما نحو إِن اْمرُؤٌ هَلَكَ . مَا كَانَ أَبُوكِ اْمرَأَ سَوْء . لِكُلِّ اْمرِىء منهم...وكذلك اْبنُم ولاثالث لها فى إتباع العينِ اللامَ .

وإتباع حركة الفاءِ اللامَ وذلك فى مَرْء وَفم فان الميمَ والفاءَ يتبعان حركةَ الهمزةِ والميم فى بعض اللغات فيقال هذا مُرْؤ (٣) وفُم (٤) ورأيت

(١) فى إعراب اْمرِىء ثلاث لغات .

ا — إعرابه من مكانين تقول:هذا اْمرُؤ ورأيت اْمرأ ونظرت إلى اْمرِىء

ب — فتح الراء فى أحواله الثلاثة تقول هذا اْمرَأ ورأيت اْمرَأ ونَظرت إلى اْمرَأ .

ح — ضم الراء فى أحواله الثلاثة تقول:هذا اْمرُؤ ورأيت اْمرُؤا ونظرت إلى اْمرُىء .

(٢) هو ابن زيدت فيه الميم كما زيدت فى دُلقم من قولهم اْمرَأة دُلقم أى هَرِمة . وفى زُرْقُم والزرقم شديد الزَّرَق،اللون المعروف.وفى شَدْقَم وهو واسع الفم ، وفى فُسْحُم وهو واسع الصدر — وفى إعرابه لغتان :

ا — إعرابه من مكانين يقال هذا اْبُنمُكَ ورأيت اْبنَمَكَ ونظرت إلى اْبنِمِكَ .

ب — إعرابه من مكان واحد وهو الميم لأنها صارت آخر الاسم ، وتبقى النون مفتوحة فى جميع الأحوال .

(٣) المرء الإنسان وفى إعرابه لغتان :

ا — فتح الميم فى أحواله الثلاثة تقول: هذا مَرْء ورأيت مَرْءا ونظرت إلى مَرْء .

ب — إعرابه من مكانين تقول هذا مُرْء ورأيت مَرْءَا ونظرت إلى مرْءٍ .

(٤) فى إعراب فَم أربع لغات :

ا — فتح الفاء فى أحواله الثلاثة تقول هذا فَم ورأيت فَما ونظرت إلى فَم=

مَرْءًا وَفَمًا ونظرت إلى مرْء وفِم ولا ثالث لهما .

وإتباع حركة اللام للفاء فى البناء على الضم فى مُنْذُ فان الذال ضُمت إتباعا لحركة الميم ولم يعتد بالنون حاجزا ، ونظيرها فى ذلك بناء بَلْهَ على الفتح إتباعا لفتحة الباء ولم يعتد باللام حاجزا لسكونها،وقول الشاعر :

عَجِبْتُ لمولود وليس لهُ أبُ وذِى وَلد لم يَلْدَهُ أبوان

فتح الدال فى يَلْدَهُ إتباعا لفتحة الياء عند سكون اللام . وإتباع حركة الميم لحركة التاء ،والخاء والغين،فى قولهم مِنْتِن ومِنْخِر ومِغيرة، ومنهم من يقول: مُنْتُن بضم التاء إتباعا لضمة الميم . ومنه إتباع حركة فاء الكلمة لحركة فاء أخرى لكونها قرنت معها؛يقولون: ماسمعت له جَرْسا أى صوتا إذا أفردوا ، فإذا قالوا ماسمعت له حسًّا ولا جِرْسا (١) كسروا الجيم على الإتباع، ومنه سكون عين كلمة لسكون عين أخرى أو حركتها لحركتها يقولون: رِجْس (٢) نِجْس فإذا أفردوا قالوا نَجِس (٣) .

ومن إتباع الكلمة فى التنوين لكلمة أخرى منونة صحبتها كقوله تعالى: وجِئْتُكَ من سَبَأ (٤) بِنَبَأ يقين . إنَّا أعْتَدْنا للكافرينَ سَلاَسِلا

---

= ب — ضم الفاء فى أحواله الثلاثة تقول:هذا فُم ورأيت فُمًا ونظرت إلى فُم.

ح — كسر الفاء فى أحواله الثلاثة تقول هذا فِم ورأيت فِمًا ونظرت إلى فِم.

ى — إعرابه من مكانين تقول هذا فُم ورأيت فَما ونظرت إلى فِم . وأصل الفِم الفُوهُ بدليل قولهم:أفْوَهُ أى عظيم الفم وفُوَّهٌ أى يجيد الكلام.

(١) فى اللسان الجَرْسُ والجِرْس والجَرَس الصوت وعلى هذا فليس فيه إتباع .

(٢) الرِّجس القَذَرُ أو الشىء القَذِر .

(٣) النَّجَسُ القذِرُ غير النظيف .

(٤) اسم يجمع عامة قبائل اليمن،ممنوع من الصرف ، وقيل اسم بلدة كانت تسكنها بلقيس،وقيل هى مدينة مَأرِب .

وأغلا لا وسعيرا . فى قراءة من نوّن الجميع،وحديث«أنفق بلا لا (١) ولا تخش من ذى العرش إقلا لا » . ومنه إتباع كلمة لأخرى فى فك ما استحق الإدغام كقول النبى ﷺ فى الحديث لنسائه« ليت شعرى أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب تخرج فتنبحها كلاب الحوءب» (٢) . وإنما الأدبّ فأظهر التضعيف وأراد الأدبّ وهو الكثير الوبر ليوازن بين الحوءب .

ومنه إتباع كلمة فى إبدال الواو فيها همزة لهمزة فى أخرى كقول النبى ﷺ فى نهى النساء عن زيارة القبور (٣)«ارجعن مأزورات غير مأجورات» والأصل موزورات من الوزر وهو الاثم والذنب ، وإنما همز ليشاكل مأجورات من الأجر .

ومنه إتباع كلمة فى إبدال واوها ياء لياء فى أخرى كحديث (٤) لادريت ولا تليت والأصل تلوت من التلاوه . ومنه إتباع ضمير المذكر لضمير المؤنث كحديث«اللهمّ ربّ السموات السبع وما أظللن وربّ الأرضين وما أقللن

---

(١) بلال بن رباح المؤذن ممن سبقوا إلى الإسلام ، مات على الصحيح بدمشق سنة ٢٠ .

(٢) منزل بين البصرة ومكة وهو الذى نزلت به عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها لما جاءت الى البصرة فى وقعة الجمل،وقيل موضع بئر نبحت كلابه أمّ المؤمنين مقبلها من البصرة .

(٣) هذا الحديث منسوخ لأن الرسول أذن فيها بعد .

(٤) فى الحديث فى عذاب القبر أن المنافق إذا وضع فى قبره سُئل عن محمد ﷺ وماجاء به فيقول لاأدرى، فيقال:لادريت ولاتليت ولااهتديت قيل فى معنى قوله ولاتليت، ولاتلوت:أى لاقرأت ولادريت وقال:تليت ليعاقب بها الياء فى دريت ، وقيل:إنما هو أتليت ، وقيل:اتّليت أى أطقت واستطعت وقيل الصواب:ائتليت .

وربَّ الشياطين وما أَضللْن» الأصل أضلّوا بضمير المذكر، لأن الشياطين من مذكر من يعقل، وإنما أتت إتباعا لأظللن وأقللن. ومن إتباع اليزيد الوليد فى إدخال أل عليه فى قول الشاعر:

رأيتُ الوليد بن اليزيد مُباركا شديداً بأعباء الخلافة كاهلُه

ومن الإتباع قراءةُ أبى جعفر للملائكةُ اسْجُدُوا بضم التاء للإتباع.

مهدى أحمد خليل

# تحقيق وتمحيص

للأستاذ عبد العظيم فناوى

## ٢

عرضت فى مقال سابق مثلين من أمثلة كثيرة ينتظمها التاريخ الدينى ، ولو بترت منه أمثال هذه الأخبار لسلم مما يصلح أن يتخذ مادة لتمويه أخباره ، وتزييف آثاره ، وختمت المقال بدعوة الرجال الغير — وهم بفضل الله كثر — إلى تحقيق مايعتوره شك أو ماتكون فيه مظنة مبالغة ، أو مالا يتقبله العقل فقلت: « والآن ألم يأن أن نتبين نحن رجال الدين واللغة بعد هذا التحليل أن كتب السيرة جديرة بالتهذيب والصقل ، أو على اليسير الأدنى بالتعليق والتنقيح ؛ حتى ننفى اللبس عن كل مايمت إلى هذا الدين القويم بسبب قريب أو بعيد ؟ » .

والحمد لله أن جاء بعض ما يختلج به صدرى متفقا مع مايرمى إليه كبار رجال المعارف فهاهم أولاء يدعون إلى تهذيب طائفة من كتب الأدب ، ولعلهم يوسعون دائرة التشذيب والتهذيب فتضم إلى كتب الأدب كتب السيرة والتاريخ . فيخدمون حينئذ العلم فى شتى فروعه ومناحيه .

وفى هذا المقال أعرض مثلين أدبيين رواهما وأمثالها كثير من كتب الأدب العظيمة ، وفيهما من الغرائب مايحمل على اتهام رواتهما بحب المبالغة أو بالرغبة فى جعل الأدب معينا للقصة ، أو بهما معا .

صاحب المثل الأول عالم لغوى وأديب راوية ، ومخبر ثقة هو أبو سعيد أحمد بن أبى خالد الضرير ، ويكفى لبيان منزلته العلمية ذكر حديث عنه قال : كنت أعرض على ابن الأعرابى (١) أصول الشعر أصلا أصلا ، وعرض عليه — وأنا أحضر — شعر الكميت فحفظته بعرضه ، وحفظت النكت التى أفاد فيها ، فقال لى ابن الأعرابى يوما : لم تعرض على فيما عرضت شعر الكميت . فقلت له : عرضه عليك فلان فحفظته بعرضه ، وحفظت ما أفدت فيه من الفوائد والنكت والمعانى ، وجعلت أنشده وأعرفه من تلك النكت ، فعجب .

ذلك مبلغ علم الرجل ومقدار إحاطته بديوان العرب ، فلا غرو أن ينسب إليه ماليس له ، وليس غريبا أن يدعى عليه مالم يقل تعزيزا لرأى أو تثبيتا لحجة ، ولكن العجيب البعيد أن يسنه رأيه ، ويخطأ حكمه ؛ ليكون هذا دليلا على أن صاحب الرأى الثانى إبليس جاء فى زى مجنون معروف لجميع أهل نيسابور . كأن إبليس قد فرغ من الإغواء والاضلال ، فجاء يكفر عن تزيينه للناس حب الشهوات بإرشادهم فى اللغة وتوجيه معانى الأبيات ، فلله هؤلاء الرواة الثقات أنى يؤفكون !

روى معجم الأدباء فى ترجمة أحمد بن أبى خالد الضرير مايأتى :

حدثنى وهب بن إبرهيم قال : كنا يوما بنيسابور فى مجلس أبى سعيد المكفوف . . . إذ هجم علينا مجنون من أهل « قم » فسقط على جماعة من أهل المجلس ، فاضطرب الناس لسقطته ، ووثب أبو سعيد لايشك أن آفة لحقتنا من سقوط جدار أو شرود بهيمة ، فلما رآه المجنون على تلك الحال قال : الحمد لله رب العالمين . على رسلك ياشيخ لاترع آذانى هؤلاء الصبيان وأخرجونى عن طبعى إلى مالا أستحسنه من غيرى ، فقال أبو سعيد : امتنعوا عنه عافاكم

(١) ابن الاعرابى : هو أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفى . عالم ثقة راوية للاشعار خبير بالانساب كان كثير التخطئة لعلماء عصره ، فاستظهر عليهم .

الله ، فوثبنا وشردنا من مكان ورجعنا ، فسكت ساعة لايتكلم إلى أن عدنا إلى ما كنا فيه من المذاكرة ، وابتدأ بعضنا بقراءة قصيدة من شعر نهشل بن جرير التميمى حتى بلغ قوله :

غلامان خاضا الموت من كل جانب فآبا ولم تعقد وراءهما يد
متى يلقيا قرنا فلا بد أنه سيلقاه مكروه من الموت أسود

فما استتم هذا البيت حتى قال المجنون : قف أيها القارىء تتجاوز المعنى ولاتسأل عنه مامعنى قوله « ولم يعقد وراءهما يد » ؟ فأمسك من حضر عن القول ، فقال قل ياشيخ فإنك المنظور إليه والمقتدى به ، فقال أبو سعيد: يقول إنهما رميا بأنفسهما فى الحرب أقصى مراميها . ورجعا موفورين لم يؤسرا فتعقد أيديهما كتْفا . فقال ياشيخ : أترضى لنفسك بهذا الجواب ؟ فأنكرنا ذلك على المجنون ، فنظر بعضنا إلى بعض ، فقال أبو سعيد هذا الذى عندنا فما عندك ؟ فقال : المعنى ياشيخ آبا ولم تعقد يد بمثل فعلهما بعدهما لأنهما فعلا مالم يفعله أحد كما قال الشاعر :

قوم إذا عدت تميم معا ساداتها عدوه بالخنصر
ألبسه الله ثياب الندى فلم تطل عنه ولم تقصر

أى خلقت له ، وقريب من الأول قوله :

قومى بنى مذحج من خير الأمم لايضعون قدما على قدم

بمعنى أنهم يتقدمون الناس ، ولايطئون على عقب أحد ، وهذان فعلا مالم يفعله أحد ، فلقد رأيت أبا سعيد وقد احمر وجهه واستحيا من أصحابه ، ثم غطى المجنون رأسه وخرج وهو يقول : يتصدرون ويغرون الناس من أنفسهم فقال أبو سعيد بعد خروجه : اطلبوه فإنى أظنه إبليس فطلبناه فلم نظفر به »

هذا حديث يرويه كتاب من أمهات كتب الأدب شديدُ الاضطراب ظاهر الاختلاق بادى الوضع يكتنفه الريب من كل شق فيه .

فأولا : تلاميذ أبى سعيد يعرفون المجنون معرفة وثيقة ويعرفون بلده ، لأنهم يتعقبونه ويحصبونه شأن الأطفال مع ضعاف العقول ، وهذا ظاهر من شكواه منهم ، والمجانين لا يكونون علماء باللغة ملمين بمواقع الكلام ، وأحر بهم وقد عرفوه أن يطردوه ، أو يسخروا منه ، ويهزءوا به .

ثانيا : لو أنه كان إبليس حقا لحمد نفسه قبل أن يحمد ربه : لأنه نال من الصبيان كما نالوا منه ، إذ رعبهم كما رعبوه ، وأفزعهم كما أفزعوه عندما يرونه متمثلا بالمجانين .

ثالثا : كيف أخرجوه عن طبعه ؟ هل حملوه على أن يعقل ؟ أو أنها جملة قذف بها فى ثنايا الحديث قذفا دون أن يكون لها فى نفسه مأرب يقصده من إلقائها .

رابعا : لا أنكر أن المعنى الثانى أكثر وضوحا من المعنى الأول ولكن (الشرح اجتهاد) فكيف لم يدافع أبو سعيد عن رأيه كما عزز المجنون رأيه ؟ لاسيما أن الأبيات التى أوردها فى استدلاله على تفضيل تفسيره لا تتصل بالموضوع اتصالا قويا ، وما كان لعالم حجة ثقة كأبى سعيد أن يستخذى أمام « مجنون » ولا يحير قولا يقيم به حجته ، ويصوب رميته .

خامسا : كيف لم يعرف من سؤال الشيخ عن معنى البيتين فى شبه اعتراض وتحد أنه ليس المجنون الذى يعرفون . وحينئذ يفكرون من تلقاء أنفسهم فيمن يمكن أن يكون هذا المقتحم عليهم درسهم دون أن يلفت الى ذلك أنظارهم أبو سعيد الضرير . وسادسا وسابعا . . . الخ

الرأى الذى يغلب على ظنى أن ياقوتا تلقف تلك الرواية من الرواة الذين قد يكونون أعداء لأبى سعيد ، ليطنب بها فى ترجمة الضرير ، على أنه قد يزعم أنه يمدحه بإيراد ذلك الخبر إذا لم يسم على رأيه رأى سوى قول إبليس .

## ٢

أما الخبر الثانى فرواه غير واحد من رواة الأدب ، وذكره بعضهم على أنه حقيقة ، وتشكك فيه آخر ، واعتقد قوم أنه خرافة ، وما كان للأول أن يأخذه عن تحقيق جلال الإسناد أو إكبار أصحابه . وحسب هؤلاء أن يروضوا العقل على إفراره ، وإلا نبذوه ، ولكنهم لم يفعلوا ورووه فى حيرة يتشككون.

صاحب هذا الحديث أبو إسحاق إبراهيم الموصلى أمير الألحان عند الرشيد ، وذو الخطوة التى لا تسامى لديه ، فهو سميره لا يستطيب مجلسا دونه ، ولا يلتذ سمر حفل ليس الموصلى واسطته فإنه ليستأذنه يوما يقضيه لا بين أترابه وحواريه ، بل بين حوره وجواريه ، فيستكثر ذلك عليه ، فطورا يلبى رجاءه حفاظا على قلبه أن ينقبض ، وآخر لا يجيب نداءه حرصا على عقد مجلسه أن ينفرط ، وهو فى حاليه المعتز بمحضره ، القرير الطرف بلحنه وسمره .

سأله مرة فى ضراعة أن يهب له يوما يستمتع فيه بما لا يتاح له الاستمتاع به فى حضرة مولاه ، وتمنى أن لو منح يوم الجمعة ؛ ليكون فضل الخليفة عليه جزيلا ، وصنيعه فى صنيعته جليلا ، فأناله بعض طلبته ، وسمح له بيوم السبت الذى يستثقله ، ليسيم فيه سرح اللهو حيث أراد ، فكان ذلك العطاء من أعظم أعطيات الخليفة عنده ؛ إذ أخذ فى ذلك اليوم درسا لم يتلقه عن جوانويه [1] أستاذه الأول ولا عن المجنون [2] أستاذه الثانى ، فقد بلغ بثالثهما شأوا لم يبلغاه ، وأدرك به مدى لم يدركاه ، وأوتى موهبة لم يؤتها أحد سواه .

أمر إبراهيم بوابه أن يوصد الأبواب دون كل قاصد حتى يتم له الهناء الذى بغاه ، وهيأ مجلس أنسه ، ودعا جواريه يقصفن وبغنين ، ويغنى ويرقصن ،

---

(١) جوانويه : مغن مجوسى ذهب إليه الموصلى أول عهده بالغناء فأعجب به .

(٢) يزعم الموصلى — فيما يزعم — أنه تعلم الغناء عن مجنون كان يطعمه ويسقيه ، ويخدعه ويأخذ عنه ما يجيده من الأصوات كما كان يأخذ أصواته عن الهررة والكلاب .

وإذ هو على حاله تلك فوجىء بمحى يحييه ، هو شيخ وسيم جليل ، له وجه صبوح ولحية مهذبة ، وعليه أثواب مطرزة ، وبين أطرافه عصاقبضتهامفضضة . يفج الأريج من أردانه ، فداخل رب البيت منه رهبة منعته أن يسأله عن اسمه وأربه ، فأشار عليه بالجلوس فجلس ، واخذ فى حديث أفاض فيه الضيف وأجاد ؛ حتى سريت عن المضيف الوحشة وذهب الحنق ، فدعا بالطعام وأراده عليه فأباه ، فعرض عليه الشراب فلباه ، فتسافيا أرطالا من بنت الكرم ، وأخذت سورة المدام الزائر فقال : يا أبا إسحاق هل لك فى أن تغنينا ؟ فالراح نشوة الأشباح ، والغناء سلوة الأرواح ، فنستأثر بك لحظة نستمتع فيها بما بذذت به الأولين ، وبما سيتأثره بعدك الآخرون ، فكبر على كبرياء إبرهيم هـذا الاقتراح ، وخفف وقعه عليه مافيه من أدب وخلابة ، ومالرجل من نبل ومهابة فأمسك العود وعزف مغنيا ، وجود ما استطاع تجويدا حتى انتهى الصوت ، فقال له : أحسنت ياإبراهيم ، فزدنى غناء أزدك حباء ، فآلمه التقريظ ، وساءل نفسه ، من هذا المتطفل المتعالى الذى ما اكتفى بأن يدخل دون استئذان ؟ وبأن يقترح علىَّ الغناء حتى دعانى باسمى ، وما أجمل فى مخاطبتى ، وترفع علىَّ فوعدنى بمكافأتى ورغب فى أن يصل إلى قرارة الموضوع ، فغنى ، وأتى من الإجادة بمالا زيادة بعده لمستزيد ، حتى طرب الضيف وقال :أحسنت ياسيدى فهل تسمح لعبدك فى الغناء ، فكاد عقل إبراهيم يختبل لذلك الأبله المتعاقل ، وقال له : شأنك ! فأخذ العود وجسه ، فحسب إبراهيم أن العود ينطق بلسان عربى مبين ، وأخذ يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... بها كبدا ليست بذات قروح
أباها علىَّ الناس لايشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح ؟
أئن من الشوق الذى فى جوانحى ... أنين غصيص بالشراب جريح

فأخذ إبراهيم بالتوقيع ، وبهت حتى اختلط عليه الأمر فخال كل مافى

البيت يجيبه ، فلما رأى الضيف ولع مضيفه بغنائه غنى :

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة فإنى إلى أصواتكن حزين
فعدن ، فلما عدن كدن يمتننى وكدت بأسرارى لهن أبين
وعدن بترداد الهديل كأنما شربن الحميا أو بهن جنون
فلم تر عينى مثلهن حمائما بكين ولم تدمع لهن عيون

فساب من إبراهيم النهى ، وأفقده صوابه أن ضيفه قضى على فنه ، ورأى صاحبه ذلك منه فأبى إلا أن يقضى على البقية من لبه فغنى :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد؟ لقد زادنى مسراك وجدا على وجد
أ ئن هتفت ورقاء فى رونق الضحا؟ على غصن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الحزين صبابة وذبت من الوجد المبرح والجهد
وقد زعموا أن المحب إذا نأى يمل ، وأن النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

فتصدعت عبقرية إبراهيم بين يدى عبقرية ذلك المارد الفذ ، وصار ذلك المستطيل بصناعته المباهى ببضاعته قزما أمام ذلك الزائر ، فاستمع إليه خاشعا وهو يقول له : تعلم هذا الغناء الماخورى ، وانح نحوه فى غنائك ، وعلمه جواريك. فرجاه إعادة فرفض ، وقال له : لست إليها فى حاجة ، ثم غاب عن عينيه ، فارتاع إبراهيم أعظم ارتياع ، وقام الى سيفه فجرده ، وقصد إلى جناح حرمه فوجده مغلقا ، فسأل جواريه أى شىء سمعن ؟ فحدثته حديث الغناء ، وأنه ملك عليهن كل جارحة من جوارحهن ، وتمنين أن لو دام ويحرمن أطايب الطعام والشراب ، فيمم الباب فوجده مؤصدا ، فسأل البواب عن الشيخ الذى خرج الساعة: أى سبيل قصد ؟ فخاف البواب أنه ما خالف له أمرا ، ولا أدخل عليه أحدا ، فرجع فى بلبلة خاطر ، واضطراب فكر ، وخشى أن تكون قد خالطته جنة ، ولكن أخالطت كذلك كل أهل بيته ؟ وإنه لكذلك إذا هاتف يهتف

قائلا : لا بأس عليك يا أبا إسحاق، أنا أبو مرة إبليس ، وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع . وكان هذا الدرس أحد دروس عدة تتحدث بها كتب الأدب .

لا يخالج أحداً أدنى ريب فى أن تلك القصة وشبيهاتها من نسج خيال إبرهيم الخصب الممرع ، ليدخل فى روع مولاه الرشيد أنه أوتى ما لم يؤته أحد من رصفائه ، فأستاذه ليس من الأناسى ، وفنه أسمى فن ينتظر ؛ لأنه لن يخطر على قلب بشر .

وبمثل تلك الدعاوى العريضة الغريبة يبعث الخشية فى نفوس لداته ممن كانوا ينافسونه فى الزلفى لدى الخلفاء والوزراء ، ومتى ذاعت مثل هذه الأحاديث تطلع إلى سماعة كل عظيم القدر جليل الخطر يملئون فمه بالنضار ، فيشنف سمعهم بأعذب الألحان على أدق الأوتار ، ولا أسيغ أن يشك صاحب الأغانى فى اختراع هذا الخبر ، وإن كان بعض مرويه مثار شك ، إذ يقول : « هكذا حدثنا ابن أبى الأزهر ، وما أدرى ما أقول فيه ، ولعل إبرهيم صنع هذه الحكاية ليتنفق بها ، أو صنعت وحكيت عنه » ثم يروى — مع ذلك — أخبارا لا تقل عن هذه غرابة ، ولا يراها مستحيلة الحدوث .

وكأنى برجال الأدب يبهرهم لألاؤها ويأخذهم بريقها، فيغضون عن تزييفها . وكان أجدر بهم أن يجمعوا بين الحالتين ، ليبلغوا بعملهم الحسنيين ، فيرضوا العاطفة والعقل ، ويخدموا التاريخ والقصة ، ولكنهم لم يفعلوا ، فعلينا أن نتم ما بدءوا . فنخدم الأدب واللغة والدين والتاريخ كما خدموا .

عبد العظيم على قناوى
المدرس بأسيوط الثانوية

# ذكرى المرحوم حفني بك ناصف

فى مساء السبت ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٩ ، احتفلت محطة الاذاعة بانقضاء عشرين عاما على وفاة المغفور له ، العالم الاديب ، والمحقق اللغوى ، والمصلح العظيم ، والقاضى النزيه ، والمحدث البارع ، والراوية الامين ، الاستاذ الجليل حفنى بك ناصف

وقد أذاع ولده الاستاذ مجد الدين ناصف ملخصا لتاريخ حياة والده ، أبان فيه جهوده فى الميادين المختلفة ، فى خدمة الجامعة المصرية بما ألقى من محاضرات فى الادب وتاريخه ، وفى خدمة اللغة العربية بما ألف من كتب النحو والبلاغة ، وباشرافه على تدريس هذه اللغة حين كان مفتشا أول يستمد المدرسون من روحه ويهتدون بهديه ، وفى خدمة القضاء بتلك الاحكام النزيهة وبالبحوث الفقهية التى كانت — ولا تزال — مرجعا يعتمد عليه رجال القضاء

ولقد أثارت هذه الذكرى عند حضرة صاحب العزة الشاعر الكبير الاستاذ على الجارم بك عاطفة الوفاء ، فبكى أستاذه بشعر وزنه من نبض قلبه وبحره من ماء حفنه قال :

---

يا قبرَ حفنى أجبنى ماذا صنعت بحفنى ؟
ماذا صنعت بعلْم ؟ وما صنعت بفنّ ؟
وما صنعت بفكر ماضى الشباب وذهن ؟
طويت خير مثاب للطائفين وركن

✡✡✡

فى كل يوم رثاء لصاحب أو لخدن !
حتى لقد كاد شعرى يبكى لضعفى ووهنى
فإنما أنا منه وإنما هو منى
الوزن من نبض قلبى والبحر من ماء جفنى
رحى المنايا ، رويدا خلطت طحنا بطحن

وإنمـــا الناس ظعن يسير فى إثر ظعن
فمـــا جديد بباق ولا حـــذارى بمغن
وكل عقـــل مضىء إلى خمود وأفن
يكاد إن مال غصن يشكو الزمان لغصن
تعسا له كم نعزّى حينا وحينا نهنى
من اجتماع لعرس إلى اجتماع لدفن
والمرء يحيى الأمانى والدهـــر يبلى ويفنى
فكم تمنيت لكن ماذا أفاد التمنى ؟
دعنى أقلب طرفى فى ظلمة الليل ، دعنى
حيران أضرب كفى أسى ، وأقرع سنى
قد خاننى الدهر يوما ياليتـــه لم يخنّى
أكلما مر نعش أو طاف نعى بأذنى
طار الفؤاد فلولا بقية ندّ عنى
لولا التقى لم أجـــده بجانبى أو يجـــدنى
قالوا أجـــدت المراثى فقلت : إن ، وإنى (١)
دموع عينى قريضى وزفرة الوجد لحنى
علّى أداوى حزينا فالحزن يُمْحى بحزن
أو يشتفى ببكاء من شأنه مثل شأنى

✡✡✡

أين النبوغ توارى ؟ يا قبر حفنى أجبنى
أكلما لاح بدر رمته ريح بدجن
وخلّف الأرض حيرى سهل يموج بحزن ؟

(١) إن : بمعنى نعم .

ورب زهـــر شذاه يفوق أرواح عدْن
كأنمـــا منحته ألوانها ذات حسن
جمـاله الغض أغرى أغصانه بالتثنى
غذته أطبـاء طـــل حينا وأثداء مزن
تسرى به الريح رفقـا فى خشية وتأنٍّ
كأنهـا فم أم يمر فى وجنـــة ابن
النحل ترشف منـــه رحيقـــه وتغنّى
تجنى فتجنى خـــدودا من دوحه حين تجنى
طغت عليه سموم حرى كأنفاس جن
فغـــادرته ركاما أجف من عود تبن
والدهر أحرى رفيق بأن يخون ويخنى

✡✡✡

ياقبر حفـــنى أجبنى وارحم بقية سنّى !
قد راعنى منك صمت بحقـــه لاترعنى
ففيـــك أمضى جنانا من كل فصح ولسن
وفيـــك شعر نقى من كل وقص وخبن
كأنه بسمات للوصل بعـــد التجنى
أو نفحة من جميـــل طافت بأطياف بثن
أو رغوة من سـلاف تفيض من رأس دن
كم نكته فيه كادت تخـــفى على كل ظنٍّ
مصرية جال فيهـــا ذوق الأديب المفنّ

✡✡✡

لو كنت تعرف حفنى لقلت زدنى وزدنى

نحو يصك الكسائى ويزدرى بابن جنّى
وإن أثير جـدال رأيته خـير قرن
العلم خير سـلاح له وأوقى مجن
قد كان ضخما جسيما يبدو كشامخ حصن
فى وجهه لمحـات من روحه المستكنّ
والصدر رحب فسيح ما جاش يوما بضغن

✡✡✡

قد زارنى ذات يوم فى وقت قيظ وكنّ
فكان أنسا تدانت به المنى بعـد ضن
فاض الحديث زلالا عذبا وماقال قطنى!
فـكاهة من لدنه ونكتة من لدُنّى
فى الأذن قهوة كرم والكفّ قهوةُ بُنّ
أروى ويروى القوافى كالدر وزنا بوزن
يامجلسا عاد شوقا يذكى الفؤاد ويضنى
ضاع الصبا ورجعنا منـه بصفقة غبن

✡✡✡

حفنى، سـلام ونور لقلبك المطمـئن
فارقت أهـلا وسكنا لخـير أهل وسكن
تثنى إليك القوافى أعناقهـا ثم تُثنى

علي الجارم

# أثر الشخصية فى الأسلوب

للأستاذ عبد الوهاب حمودة
المدرس بكلية الآداب

---

ليس من السهل تحديد الشخصية وتعريفها تعريفا علميا جامعا مانعا ؛ فهى كالكهربا والمغناطيسة لاتعرف إلا بآثارها ، ولكن كل هذا لم يمنع علماء النفس من محاولة البحث عن سرها وتعريفها ولو تعريفا مقاربا ، فقالوا :

(١) الشخصية هى مجموع الصفات والمزايا الذاتية التى يمتاز بها الشخص عن غيره سواء أكانت تلك الصفات حسنه أم قبيحة .

أو هى :

(٢) مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التى يتصف بها الإنسان .

أو هى :

(٣) مجموعة الفروق التى تميز الشخص عن غيره .

والشخصية قد توهب بالفطرة ، وقد تكتسب بالتربية الحقة ، ولكن الطبيعية أقوى من المكتسبة.

فكما أن الناس يختلفون فى الذكاء والميول الفطرية يختلفون كذلك فى الشخصية ، فبينما تجد هذا قوى الشخصية تجد ذاك خاملا ضعيف الشخصية .

والشخصية تختلف باختلاف الأفراد فى أمزجتهم .

والمزاج : هو ذلك العنصر من عناصر الحياة العقلية الذى يختلف باختلاف الأفراد من الناحية الوجدانية، وكذلك من الناحية النزوعية .

وهو نتيجة امتزاج العناصر المكونة للطبيعة البشرية بنسبة خاصة ؛ ويكاد يكون من المتفق عليه عند علماء النفس أن للأمزجة آثارا بينة فى الشخصية ،

وأنها تختلف باختلاف الأفراد ، وأنها تحدد وجهة نظر الفرد نحو بيئته،وتؤثر فى سلوكه إلى حد بعيد جدا .

وهم قسموا المزاج الى الأقسام الآتية :

١ — المزاج الدموى : وصاحبه يكون سريع التأثر ، متقلبا ، مولعا بالمسرات ، مائلا الى الرعونة ، متحمسا ، غير مثابر ، قوى الخاطر .

٢ — المزاج الصفراوى : يكون صاحبه نشيطا ، قوى الوجدان ، مثابرا ، قوى الآمال ، عنيدا ، ثابت المبدأ ، شديد الغيرة حتى تصل به إلى الحقد .

٣ — المزاج السوداوى . يكون صاحبه كثير الظن ، مضطرب الخيال ولكنه قادر على أن يكون عبقريا نابغة .

٤ — المزاج البلغمى . يكون صاحبه ضعيف الانتباه ، كسلان ، بطيئا متثاقلا ، غير متحمس ، ملتوى السلوك ، مولعا بالراحة الشخصية .

٥ — المزاج العصبى . صاحبه سريع التهيج ، قوى الخيال ، خفيف الروح متقلب عرضة للاضطراب العصبى ، فيه نبوغ وعبقرية .

فالامزجة تجعل من الانسان المتفائل والمتشائم ، وسريع التأثير والبليد ، وكثير التردد وكثير الإقدام .

هل من الممكن تغيير المزاج ؟

قد اختلف العلماء فى الإجابة عن هذا السؤال فقال الفيلسوف الألمانى هرمان لوتز ( Herman Lotze ):إن مزاج كل منا يتغير بانتقاله من مرحلةمن مراحل الحياة إلى التى تليها . فكل مرحلة لها مزاج خاص يناسبها :

ا — فالطفل يبدأ حياته بالمزاج الدموى ، ولاشك أن مميزات هذا المزاج تتمثل فى الطفل لأنه متقلب سريع التأثر بالمثيرات الخارجية .

ب — والمزاج الملازم لمرحلة الشباب هو السوداوى ، إذا فهمنا من هذا المزاج مايشمل قوة العاطفة ، والميل إلى تمثيل الحوادث والأعمال .

حـ — ويمتاز عصر الرجولة بأنه عصر المزاج الصفراوى ، إذ الرجل العادى الذى حنكته التجارب يميل إلى التردى والتفكير فى العواقب .

ى — أما عصر الشيخوخة فهو عصر المزاج البلغمى ؛ لأن الكهل يكون فى العادة متعبا مثقلا متشائما يتوقع الموت ويحزن على حرمانه من مسرات الحياة وملذاتها .

على أن هناك عوامل أخرى لتغيير الأمزجة غير عامل السن .

منها المناخ فإن للمناخ تأثيرا كبيرا فى الأمزجة ، فأمزجة من يسكنون الأقاليم الباردة ليست مثل أمزجة من يسكنون الأقاليم الحارة . والأغذية ، فقد وجد أن لبعض الميول الإجرامية أو العادات المضرة بالمجتمع الناشئة عن بعض الأمزجة علاقة بنوع الطعام الذى تناوله المجرم . وقد لاحظ بعض الأطباء أن إطعام القتلة المجرمين نوعا خاصا من الطعام يخفف من أمزجتهم ويلطف من طباعهم . . وقد وجد أيضا أن تناول بعض العقاقير والأدوية باستمرار يؤدى إلى تغيير محسوس فى الأمزجة وتقدم فى الأخلاق وبعد عن الإجرام .

وقد لاحظ ابن خلدون ذلك فأنشأ فصلا (فى أثر الهواء فى أخلاق البشر) ذكر فيه :

«أن من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق فى كل قطر .

والسبب الصحيح فى ذلك أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس هو انقباضه وتكاثفه ؛ وقد تقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار ، مخلخلة له زائدة فى كميته . ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور مالا يعبر عنه ، وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه .

ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم

وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وأقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الأقاليم الباردة أشد حرا ، فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا؛ ويجىء الطيش على أثر هذه . وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية ؛ فلما كان هواؤها تضاعف الحرارة كانت حصتهم من توابع الحرارة فى الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة ».

وكما أن الشخصية تختلف باختلاف الأفراد، تختلف أيضا باختلاف الشعوب

ففى الشخصية الألمانية تتمثل الروح العسكرية والطاعة العمياء. وفى الشخصية الانجليزية تبدو الثقة بالنفس واحترام الذات وتقدير الحرية الشخصية ، وفى الشخصية الفرنسية تغلب العاطفة على التفكير والنظريات على الأعمال، وتكثر الآمال والميل إلى الخيال وحُبّ الظهور . وفى الشعب المصرى مايشبه الشعب الفرنسى من وجوه كثيرة.

وكذلك لمظهر الإنسان وقوامه أثر فى شخصيته .

فالرجل الصحيح الجسم الحسن القامة قد لايحتاج فى إظهار شخصيته والتأثير على غيره إلى مايحتاجه الشخص النحيف الجسم المشوه الخلقة ؛ فبينما نجد الأول طبيعيا فى معاملته ؛ لأنه لايشعر بنقص خارجى يريد أن يكمله ، تجد الثانى محبا للظهور متكلفا فى أقواله وأفعاله متخذا كل وسيلة يستطيع أن يظهر بها نفوذه ، فيتظاهر بالعلم تارة ويفخر بحسبه ونسبه تارة أخرى، ويلجأ إلى الخداع والمكر حينما يحس بنقص من الناحية العقلية أو الخلقية ، فالإنسان حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية مثلا ، تراه يعمل على أن يسد هذا الفراغ ، ويكمل هذا النقص من الناحية العقلية أو الخلقية حتى يظهر شخصيته للملأ :

فسقراط مثلا شيخ الفلاسفة من اليونان كان أفطس الأنف غليظ الشفتين جاحظ العينين قبيح المنظر، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية

إلى ذروة المجد ، ويكفيه فخراً أنه أستاذه أفلاطون .

والجاحظ أديب العلماء وعالم الأدباء ، كان دميم الخلقة جاحظ العينين ، ولكنه كان بجانب ذلك خفيف الروح ذكى الفؤاد واسع الاطلاع ، فإذا نقص الإنسان من جهة حاول أن يكمل نفسه من جهة أخرى .

والبيئة : ويقصد بها المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان ومنه يستمد حاجاته ، فتارة يحتاج الإنسان فى ذلك المجتمع — لكى يحقق رغباته — إلى كفاح شديد وصراع عنيف ، وكثيرا مايفشل ذلك المسعى وتخيب آماله . فيكره الناس ويبتعد عنهم ليعيش بينه وبين نفسه فى عزلة ناقما على الحياة متمردا على النظم — كأبى العلاء المعرى — وابن الرومى — والمازنى .

إذا عرفنا ذلك سهل علينا الوقوف على سر اختلاف الشعراء والكتاب والخطباء فى أساليبهم وطرق تعابيرهم . فقد يتفق شاعران فى معنى وترى لهذا أسلوبا ترتسم فيه شخصيته وتلمح فيه قسماته ، يخالف فيه أسلوب الآخر . فهناك شخصية عنيفة مجالدة صخابة متعجرفة ، وهناك شخصية لينة دمثة بسامة مواتية هادئة .

يقول دعبل فى أسلوب لين رقيق مستكين ، ترى فيه شخصية رجل مستسلم وادع ، خافت الصوت ، وطىء الجانب .

لاتأخذا بظلامتى أحدا ؛ قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

ويقول المتنبى فى المعنى نفسه ؛ فيريك شخصية حادة متعجرفة كثيرة الاعتداد بذاتها ، هجّامة صخّابة :

وأنا الذى اجتلب المنية طرفه فمن المطالب والقتيل القاتل؟

ثم يقول أبو نواس فى تواضع وهوادة شأن المستهترين الحريصين على لذاتهم ، المولعين بشهواتهم .

سنة العشاق واحدة ؛ فإذا أحببت فاستكن

يأخذه المتنبي فيملأ به فاه ، ويهزبه الأسماع ، ويأمر كأنه ضابط عسكرى يصدر أمرا ، أو زعيم ديكتاتورى يشير فيطاع :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما عاشق من لايذل ويخضع

وكذلك الشأن إذا وازنّا بين خطبة للحجاج مثلا ، وخطبة لمعاوية ؛ نجد الفرق واضحا بين الشخصيتين ، والتباين ظاهرا بين المزاجين .

ومن هنا كانت خطب آل البيت قوية فى مبناها صادعة فى معناها ؛ لقوة عقيدتهم فى حقهم ، وعظم ثقتهم بأنفسهم ، وامتلاء جوانحهم بإيمانهم .

فأى خطيب أفصح من على بن أبى طالب فى الخلفاء ؟ فقد كانت الحكمة تتفجر من جوانبه ، وتتدفق البلاغة على لسانه ، وكانت ألفاظه ملء السمع والقلب ، وحجته دامغة قاصمة ، والسر فى ذلك يرجع إلى شخصيته وقوة نفسه.

يقول ضرار الصدائى فى وصفه :

« يعجبه من اللباس ماقصر ، ومن الطعام ماخشن ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ؛ وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لانكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ».

وإذا انتقلنا إلى عصرنا ، وجدنا الفرق بين أسلوب شوقى وأسلوب حافظ كالفرق بين الشخصيتين والتباين بين المزاجين .

فالأدب مرآة تظهر فيها شخصية الشاعر ، ويرتسم عليها مزاج الأديب ، من تفاؤل وتشاؤم ، وأنفة واستخذاء ، ونارية واعتدال ، وكبرياء وتواضع.

**عبد الوهاب حمودة**

# ساحر الشمال

أو

## سير ولتر سكوت [1]

للأستاذ عبد الرازق حمدة

---

قدمنا فيما سبق من حديث أن « سكوت » بدأ حياته الأدبية شاعرا مجيدا ، وأنه لقى نجاحا عظيما فى الشطر الأول من حياته كناظم يؤلف الدرر ، وأن الجمهور كان يتلقى قصائده أحسن لقاء . وقلنا إن « سكوت » كان ينحو فى شعره ناحية رومانتيكية خاصة ، تعنى كل العناية بالأبطال السابقين وبتصوير مشاهد الفروسية ، ورجالها ، وبالحب البرىء ، بين نبيل من هؤلاء الأبطال ، وغادة من الغيد الحسان اللائى تزهى بهن قصص البطولة .

وقد ربح سكوت مالا وشهرة من وراء الشعر ، وكسب مجداً وثروة من آثار مانشره من قصائد غر ، مازالت مضرب الأمثال فى القوة والحلاوة ، وقد حاول النثر كما قدمنا ، وابتدأ روايته « ويفرلى » Waverly . ولكنه عرضها على صديق قبل أن تكمل . فنصح له أن ينصرف عن هذا الضرب من الأدب الذى لا يلائم استعداده ففعل « سكوت » . واستمر فى خطته الأولى ، حتى ظهر فى سماء الشعر نجم متلألىء صرف الأبصار تلقاءه ، وخسف « سكوت » ذلك هو لورد بيرون « Lord Byron » فرجع « سكوت » إلى قصته التى بدأها

---

(١) كنت أفضل أن أكتب هذا الاسم « سكط » « أو سكت » ( بتسكين الاول وضم الثانى وتشديد الثالث ) ليكون قريبا جدا من نطقه فى الانجليزية . ولكن من كتبوا عنه قبلى آثروا هجاءه فى اللغة العربية كما هو مكتوب فى العنوان ، فتبعت طريقتهم لانها شائعة ، لا لسبب آخر .

منذ أعوام ، وأتمها فى أسابيع قليلة ثم نشرها فلقيت أعظم حظوة ، وتطلع الناس إلى معرفة كاتبها ؛ إذ أنها نشرت غير منسوبة ، ولما يئسوا من معرفته أطلقوا عليه « العظيم المجهول » فشجعه ذلك على المثابرة والاسترسال ، وانصرف قلبه إلى القصص النثرى الذى يدور حول الفروسية التاريخية وحكايات الأبطال. وبرز قلمه قويا من أول يوم ، يستهوى القارىء ويأسر لبه . وتتابعت رواياته سريعا بعد « ويفرلى » وكثر إنتاجه كثرة تحمل على الشك فى أن يكون منشئها واحدا ، أو تدعو إلى الاعتقاد أنه كان عبقريا موهوبا ، وساعدته أرباحه من تلك القصص على أن يعيش عيشة النبلاء فى بيته ، وأن يجعله مثابة لأصدقائه ، يتلقاهم فيه على الرحب والسعة ، وينزلهم فيه منزلا كريما .

وقد أنتج فى الشطر الثانى من حياته روايات خالدة ، وقصصا فى البطولة ، مازالت تتمتع بمركز ممتاز بين أحسن القصص الرومانتيكية ، ومازال يتجدد شوق القراء إلى الكثير منها ، ويتمتعون به كمتعتهم بأى قصة جديدة لكاتب حديث .

أما خير هذه القصص على الإطلاق فهى .

**ايفانهو** Ivanhoe (١)

وهى رواية تاريخية بين فيها ( سكوت ) التنافس بين السكسون سكان انجلترا الأصليين ، والنورمانديين الذين جاءوا إلى انجلترا فاتحين قبل تاريخ هذه القصة بما يقرب من قرن من الزمان .

كتبها سكوت سنة ١٨٢٠ . وبدأها بوصف الغابة الجميلة التى تغطى بطون الأودية ، وسفوح الجبال بين شيفلد ودونكاستر فى المقاطعة التى ترويها مياه نهر ( دن ) River Don

(١) كانت هذه الرواية مقررة على تلامذة المدارس الثانوية فى سنة ١٩٣٦ وترجمت إلى العربية ترجمة مدرسية . وقد ترجم لسكوت غيرها رواية أخرى هى « الطلاسم » ترجمها أحد إخواننا الأفاضل بمدرسة فاروق الأول الثانوية .

كان ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا غائبا عن بلاده فى الحرب الصليبية الثالثة . وكان أخوه الأمير ( جن ) يحكم البلاد نيابة عنه حتى يعود من فلسطين، ولكنه كان يرغب فى اغتصاب العرش لنفسه ، وطرد أخيه ، ولم يكن الامتزاج قد تم بين الفاتحين من النرمانديين وبين السكسون سكان البلاد .

وفى مكان جميل من الغابة التقى أحد الرعاة عند سدريك Cedric — أحد رؤساء الاقطاع فى مقاطعة روذر وود Rother Wood — مع مضحكه وامبا « Wamba » وقد ضاق الراعى ذرعا بخنازيره التى لا تستجيب له دعاء ، ورجا ( وامبا ) أن يساعده ، فاستشار رجليه ثم رفض ، حتى خوفه الراعى من العاصفة والمطر فاستجاب المضحك لندائه ، وساعده على جمع الغنم فى صعيد واحد .

وقد سمع الراعى وقع أقدام خيل قادمة ، وأخبر المضحك بذلك . وبعد زمن ظهر لهما الفرسان ثم اقتربوا رويدا رويدا حتى وقفوا عليهما ، وكان يتقدم جماعة الفرسان فارسان عليهما سيما النبل والوقار ، وكان أحدهما قد تبدو عليه آثار النعمة والرفاهية ، وكان الثانى فارسا من الذين وهبوا أنفسهم للحرب فى سبيل الدين ، واستخلاص بيت المقدس من المسلمين . وعلى الرغم من تظاهر أمثال هذا الفارس بالتدين فقد كانوا سيئى السمعة مشهورين بالغلظة والشح ، وكان مظهر هذا الفارس يقذف الرعب فى قلب كل غريب ، وكان مع هذين الفارسين آخرون بعضهم شرقى الزى ، وبعضهم غربى الوجه واللسان .

وسأل القسيس عن الطريق إلى حصن سدريك Cedric ؛ أما الراعى فقد أبى أن يجيب عن هذا السؤال ، ولم يتأثر بتهديد أو وعيد ، وأما المضحك فقد شغل بهذا المنظر — منظر الركب — عن الرد ، حتى استهواه القسيس بالرشوة، فدلهم على طريق يضللهم ولا يهديهم ، فساروا فيه يتحدثون ، وفيه أخبرهم القسيس أن سدريك سريع الغضب ، وحذرهم أن يعرضوا للسيدة رونا Lady Rowena بسوء لأن سدريك لا يحتمل ذلك ، وأنه قد طرد ابنه إيفانهو (Wilfridivanhoe)

من منزله بسبب ماأظهره من تودد إلى ليدى رونا . واستمر الركب سائرا حتى أتوا إلى مفرق طرق فلقوا رجلا نائما فأيقظوه ، وسألوه عن الطريق إلى بيت سدريك ، فطلب منهم أن يتبعوه ، وانطلق أمامهم فى الغابة حتى وصلوا إلى الحصن ، ونفخوا فى أبواقهم ، فأفاق سدريك من أفكار كانت تدور برأسه؛ لتأخر الراعى والمضحك وغياب ابنه إيفانهو فى فلسطين ، وتأخر ليدى رونا خارج البيت ، ولم يمنعه من رد الضيوف إلا خوفه من أن يقال عنه إنه بخيل .

استقبل سدريك ضيوفه وهو جالس إلى مائدة العشاء ، ودخلت رونا بعد فترة ، فصوب إليها الفارس سهام نظره ، فاستحيت وغطت وجهها ، واسترعى ذلك انتباه سدريك فتميز غيظا وقال للقسيس : إن الخدود السكونية لم تخلق لمثل هـــذه النظرات المريبة ، فاعتذر الفارس وتمنى أن تكون ليدى رونا أكثر عطفا وائتناسا فى الاحتفال الذى يتلو العشاء . وقطع حديثه خادم دخل يؤذن بضيف جديد يطلب قرى ، وهمس فى أذن سيده أنه يهودى؛ فأذن له السيد ودخل دخولا غير محمود ، ولم يظفر بكثير من الإكرام ولا قليل . وتحدث القوم عن فلسطين وما أبداه الشجعان الإنجليز من إقدام وثبات فى ميادين القتال . وكان المتحدث عندئذ « حاجا » قد جاء حديثا من تلك الديار فمنحه سدريك خاتما من الذهب لما أنبأ به من أخبار الأبطال الإنجليز ، وطلب منه أن يذكر له أسماءهم ، فكانوا من السكان الأصليين لا من النورمانديين الفاتحين . وكان ولفرد إيفانهو Ivanhoe سادس ستة أبلوا بلاء حسنا فى الأراضى المقدسة ، وتمنى له « الحاج » عودا حميدا إلى انجلترا ، غير أن فارسا آخر تمنى أن يراه قريبا ليقابله فى مبارزة ، وتمنت ليدى رونا عودته سالما لتنعم بلقائه ، وخشى القسيس أن يحتدم الجدل . وانفض الجمع ؛ والتقوا بعد العشاء فى الردهة ، ومر الفارس يوزع نظراته هنا وهناك ، وكان ينظر إلى اليهودى نظرا شذرا ، وأخيرا قال له : أظنك سائرا فى الطريق الذى سنسير فيه . فطأطأ اليهودى رأسه

وأجاب بنعم ، ثم أجاب بالنفى عن سؤال خاص بما معه من النقود ، مدعيا أنه لا يملك منها شيئا .

وبعد أن انتصف الليل ذهبوا إلى مضاجعهم ؛ وبينما كان « الحاج » فى طريقه إلى حجرة نومه قابلته إحدى وصيفات رونا وأخبرته أن سيدتها تود أن تتحدث معه ، فلبى دعوتها وذهب إلى حجرتها وانصرفت الخادم ، فسألته رونا عن مصير إيفانهو ، فأخبرها أنه لا يعلم أكثر مما أفضى به عنه ، ودعا له بخير ، وأمنت رونا على دعائه ، وكانت تود عودته ليفوز بالجائزة فى المبارزة التى أقيمت ليلتئذ .

خرج ( الحاج ) من عندها إلى حجرة نومه المجاورة لحجرة اليهودى ، ونام على فراش خشن غليظ ، وفى الصباح استيقظ مبكرا ، ودخل غرفة نوم اليهودى فوجده مجهودا ، يتكلم وهو نائم ، ويقول : لن أعطيك شيئا ولو قطعت أوصالى ؛ ليس معى نقود ! فأيقظه الحاج ، وأخبره أن مكيدة تدبر لاغتصاب ماله فى الطريق ، وأمره أن يغادر المنزل فى الحال ، وساعده على الفرار من الباب الخلفى ، وخرج معه ليريه الطريق ، حتى أبعده عن سلطان الفارس ، ثم ودعه ، فوعده اليهودى أن يعطيه فرسا وعدة حرب على أن يردها ، ناسيا أن درع الفارس المهزوم فى مبارزة هى للغالب ، فلما ذُكِّر بذلك اضطرب ، ولكن إحساسا شريفا تغلب على حبه للمال ، فصرح ثانيا أنه لا يهتم ، ولكنه نصح للحاج بالأناة والحذر ، والمحافظة على شبابه ، ثم افترقا .

## أول يوم للمبارزة فى آشبى Ashby

وفى آشبى « Ashby » كانت الخيام مضروبة للمتبارزين ، وكانت فى صفين بينهما عرش تحيط به أعلام رسمت عليها قلوب دامية ، وسهام مخضبة ، وأقواس مشدودة ، وقد أعد ذلك العرش لتجلس عليه « ملكة الجمال والحب » ولكن من هى السعيدة التى ستحظى بهذا اللقب ؟

تجمع خلق كثير من كل طبقة فى يوم المبارزة ، ليشهدوها ، وحضر اليهودى إسحق ، وابنته الجميلة ريبكا «Rebecca» وفى الوقت الموعود جاء الأمير « جن » وحاشيته ، وهم فى أفخم الملابس . وعندما رأى الأمير ريبكا فتنه جمالها وسحره ، فاختارها لتكون ملكة توزع الجوائز على الفائزين ، فاعترض القسيس محتجا بأن ليدى رونا السكسونية أجمل منها ، وأحق باعتلاء هذا العرش ، ولكن الأمير « جن » لم يصغ إليه ، فثارت ثائرة الجمع ، فخضع الأمير لحكمهم ، ونحى ريبكا ، وتم الاتفاق على أن يكون للفائز الحق فى اختيار الملكة ، ودارت المبارزة ، وانتصر اللوردات النورمانديون ، فثار سدريك Cedric ، ولكنه صبر حتى جاء « الفارس الشريد » المعروف عند الحاضرين باسم « Homeless Kmight » فبارزهم وانتصر عليهم ، ولم يشأ أن يعرف نفسه أو يكشف عن وجهه غطاءه . فظن الأمير أنه أخوه ريتشارد قلب الأسد ، ولكنه كظم غيظه ، وأخفى شعوره ، وقدم إليه هديته ، وأمره أن يختار الملكة التى تجلس على عرش « الحب والجمال » فاختار ليدى رونا .

وذهب « الفارس الشريد » بعد النصر إلى خيمته ، ودخل عليه خمسة من الخدم مع كل منهم هدية هى درع وجواد مهداة إليه من سادتهم ، ففضل أن يأخذ هداياه نقودا من أربعة ، وأما الخادم الخامس فقد رده قائلا : إنه مازال بينى وبين سيدك ثأر ، والحكم بيننا غدا . ثم أرسل الراعى بقطع من ذهب إلى اليهودى رداً لجميله . فتسلم اليهودى النقود عدا ، والراعى يتطلع إلى واحدة منها ولعابه يسيل ، واكتفى اليهودى بشكره قولا لافعلا . وتركه يخرج من بيته ، أما ريبكا فتدلحقت به وردت إليه ماكان يحمله من ذهب مضاعفا ، وعينت له نصيبا كبيرا فيه ، ولسيده « الفارس الشريد » الباقى ، ورجته كذلك أن يغفر لوالدها إهماله ، فقد كان يود المزاح معه.

بينما كان الراعى فى طريقه إلى سيده سطا عليه لصوص ملثمون ، وطلبوا

أن يسلمهم مامعه ، فأخبرهم بقصة النقود ، وأنها مرسلة هدية إلى الفارس الشريد، ورأى قائد اللصوص أن يترك نصيب الفارس يذهب إليه ويأخذ الباقى ، فطار لب الراعى ، وغاب صوابه ، واستجمع قوته وأوسع القائد ضربا ، ولكنه لم يستطع الفرار، فقد تكاثرت عليه الأيدى وعطلته ، ومع هذا فقد أعجب به قائد اللصوص ، وقرر أن ينازله واحد من أعوانه ، فانتصر الراعى ، وكان جزاؤه من قطاع الطريق هؤلاء ، أن يذهبوا به إلى قرب خيمة سيده ، وأوصوه أن يبقى الأمر سرا مكتوما ، وإلا ناله من أذاهم ، فوعدهم بالكتمان . ولكنه ماكاد يرى سيده ( الفارس الشريد ) حتى أفضى إليه بماحدث ، فأعجب الفارس بنبل ربيكا ونبل قطاع الطريق .

## اليوم الثانى فى آشبى :

فى اليوم الثانى من المبارزة حمى النزال واستحر القتل[1] ، وانتهى بانتصار الفارس ، وتقدم إلى عرش ملكة الجمال ليتسلم جوائزه فأبى الحكام عليه أن يتقدم إلا إذا كشف رأسه،فكشفه ، فإذا هو مجروح ، وإذا حربة قد اندقت فى صدره فجرحته جرحا بليغا ، وإذا هو إيفانهو بن سدريك وحبيب رونا .

وكان لابد من أن يرث أرض المغلوبين وديارهم وأموالهم ، غير أن الملك نفس عليه الانتصار ، وأراد أن يحول بينه وبين رونا ، ففكر فى حرمانه هذه الثمرات ، وفكر كذلك فى تزويج رونا من واحد من الرماة الأبطال .

سقط إيفانهو مغشيا عليه من الجراح ، ووكل والده من يحمله إلى حصنه فى روذَرْوُودْ « Rorherwood » بعد انصراف الناس ، ولكنه

(١) فى مثل هذه المواطن يصور سكوت أماكن القتال أبدع تصوير ، ويصف الفرسان وجيادهم وملابسهم وحركاتهم ، وسكناتهم ، والمشاهدين وانفعالاتهم وسيماهم وما تدل عليه نظراتهم ، ويكون دقيقا فى وصفه حتى لتكاد ترى مكان الكلمات والجمل صورا ورسوما ناطقة .

اختفى ؛ إذ حملته « ريبكا » فى عجلة ، وسارت به فى طريقها إلى بيت أبيها وظلت سائرة حتى التقت فى الغابة بمن خوفها قطاع الطريق الذين ينتظرون مقدمها، ويسلبونها مامعها من نقود وحلى . فسمعت لكلام محدثها وانتظرت حتى مر بها ركب آخر فيه سدريك أبو إيفانهو وفيه ليدى ( رونا ) فطلبت منهم أن يصحبوها فى طريقها وأن يؤنسوها من أجل شخص عزيز على السيد (سدريك) وليدى ( رونا ) كما هو عزيز عليها . فرضى الركب وساروا معاً .

وبعد ثلاث ساعات التقوا بعصابة من قطاع الطريق نرماندية ، فأسرتهم وحبستهم ، وكلفتهم فى محبسهم أن يعمل كل منهم عملا ، وكان على ريبكا أن تغزل وهى فى أسرها . وكان آسرها هو ( فرن دبيف ) Front-de-Boeuf . وسمع الراعى والمضحك بما حدث لسيدهم فأرسلا خطابا إلى الآسرين يطلبان فيه إطلاق سراح الأسرى جميعا . فكان الرد عليهما أن هؤلاء سيقتلون ، وأن على مرسلى الخطاب أن يبعثا قسيسا يشهد الموت ويستغفر للمحكوم عليهم . فاهتديا إلى حيلة ، وذهب المضحك فى لباس قسيس ، وادعى عند وصوله إلى الحصن أنه قسيس تائه ، واستبطأ الآسرون مجىء قسيس آخر ، فرضوا بهذا ليقوم بالاستغفار والشهادة على التوبة . وكانت فرصة سعيدة انتهزها المضحك المتنكر . ودخل على سدريك ، وطلب منه أن يبدل ثيابه بثيابه ويخرج ليهرب، وعلمه كلمات لاتينية يتمتم بها فتكون جواز مرور ، يقتحم به كل عقبة . ولكن صادف أن التقى سدريك من أول أمره بمن يعرف اللاتينية فاضطرب ، وكادت تنكشف حيلته لولا اختفاؤه من محدثه فى جانب مظلم من الحصن . وأخيرا نجا ، وذهب إلى مقاطعته ، وجمع جموعه ، وهجم المنقذون على الحصن ، ونجا إيفانهو بعد احتراق الحصن . أما ريبكا فقد فر بها أحد الآسرين ؛ وهو ( بواجلبير ) Bois-quilbert

خرج اليهودى إسحق فى طلب ابنته ريبكا . فالتقى فى جولانه برهبان فى دير ،

واضطر إلى الإفضاء إليهم بما هو فيه من ضيق ومايسعى إليه ليسترد ابنته . وأطلعهم على خطاب توصية كان يحمله معه إلى ( بواجلبير ) ليطلق سراح ( ريبكا ) فلم يقتنع الرهبان بشيء مما قال ، واتهموا ابنته بالسحر، وقرروا موتها حرقا بعد محاكمة صورية . ولكن عادات تلك الأيام كانت تبيح لمثل ريبكا أن تقرر مصيرها بدعوة فارس تختاره ليبارز فارسا آخر يكون راضيا عن الحكم، والحكم الأخير لمن ينتصر من الفارسين .

أما إيفانهو فقد ذهب بعد خروجه من الحصن إلى دير سان بوتلف «Saint Botolph» ثم غادره مع الراعى ، وسارا حتى أدركا (الفارس الأسود) الذى ساعد إيفانهو على الانتصار فى اليوم الثانى من المبارزة ، والذى كان فى أشد الحاجة إلى مساعدة إيفانهو عندما أدركه ، إذ هاجم هذا الفارس الأسود كمين وضعه له الأمير ( جن ) ، وانتصر الاثنان على الكمين . وبعد الانتصار أظهر الفارس الأسود شخصيته ، وكشف قناعه وعرفه الناس ملكهم القديم ( ريتشارد قلب الأسد ) . وأمر الملك أن تزول من الرءوس فكرة الخلاف بين النرمانديين والسكسونيين ، وأمر أن يسوّى بينهما فى كل شيء . ثم أمر سدريك أن يصفو لابنه إيفانهو، ففعل.

## النجاة :

تلقى إيفانهو رسالة من ( ريبكا ) تخبره بما هى فيه من شدة وتستنجد بهمته وشجاعته، فذهب لنجدتها مع الراعى ، وأدركها وهى على وشك أن تلقى فى النار الموقدة لها ، والتى أعدت عدتها من قبل ، وأتى لها بالحطب الجزل ، ونصبت أعمدة فى وسطها لتشد إليها ( ريبكا ) ، وجيء بالقساوسة والأشهاد ، وقرئت دعوى الاتهام ، واجتمع كثير من الشامتين فى هذه اليهودية الجميلة الساحرة بجمالها لا بسحرها .

وانعقدت الألسنة ، وحبست الأنفاس ، ودار رأس ( ريبكا ) وتطلعت

عيناها ، فلم تجد من يرق لها ، أو يأخذ بنا صرها ، فأسلمت أمرها لله رب إبراهيم وموسى ، وتوكلت عليه . ثم استمهلت ، فأجلها القاضى فترة ، لاح بعدها على البعد فارس ينهب الأرض بجواده نهبا ، وقد ولى وجهه شطر هذا المشهد الرهيب ، ثم وقف عندهم ، وأخبرهم أنه قدم لنصرة ( ريبكا ) وأنه هو ( إيفانهو ) فبرز له آسرها بواجلبير Bois Guilbert واقتتل الفارسان ، ودارت الدائرة على الآسر ، وقضى الله لهذه الحسناء (ريبكا) أن تنجو .

وقبل أن ينصرف الناس جاء الملك وجنوده ، وأمر بالقبض على أعدائه والقصاص منهم . ثم تزوج إيفانهو من ليدى ( رونا ) وقدمت ( ريبكا ) إليه هدية قيمة حقا ، أما هى فقد وهبت نفسها لعمل البر ، ومواساة البائسين ومساعدة ذوى الحاجات ؛ شكرا لله على خلاصها من النار .

**نقد عام :**

ماتقدم هو خلاصة « إيفانهو » ، أحسن رواية نثرية أخرجها « سكوت » للناس ، وأصدقها تمثيلا لروحه الغالبة على رواياته ، وقد تخير لها وقتا انتشرت فيه انجلترا بدفاعها عن بيت المقدس ، ذلك هو زمن الحروب الصليبية الثالثة ، ولكنه وصف فيها حياة الفرسان فى العصور الوسطى ، وقدمهم لنا كما كانوا يعيشون : معاقلهم ظهور خيلهم ، والبطولة غايتهم ، والمجد والشهرة رائدهم ، والغارات أو الحروب أو قطع الطريق كلها ميادين تظهر فيها الشجاعة والمهارة فى الكر والفر ، والإفلات والإقدام ، فلا بأس من أن يحترف الفارس أيها شاء . وصور اهتمام الناس كبيرهم وصغيرهم بحفلات المبارزة . وحضور الملوك والأمراء فيها يدل على ذلك دلالة قوية .

ولا بد من أن تزين تلك الحفلات واحدة من الجنس اللطيف ، لتعتلى ( عرش الجمال والحب ) وتكلل جبين الظافر بالغار والريحان ، ولا بد أن يكون الفارس الأول من أولى النجدة والمروءة ، نبيل الشعور رقيق الإحساس ، كما

يصوره ( سكوت ) فى شخص ( إيفانهو ) .

أما قدرة ( سكوت ) على سبك القصص ففيها كلام ، فرواياته كانت تتوالى بسرعة مدهشة ، والفكرة التى تدور حولها الرواية كانت تتطور فى أثنائها بسرعة كذلك ، وكان لا يعنى كل العناية بنهاية القصة ، بل كان يختمها حيث يروق له ذلك ، ولا قاعدة له . وأما شخصيات الرواية فكانت تنتهى ضعيفة بعد أن بدأت قوية مثل ( ريبكا ) . ومع هذا فقد كان ( سكوت ) يفخر بتلك السرعة ويمجدها !

أما فضله على القصة التاريخية فهو فضل عظيم ، فقد أمدها بروح من عنده وخلع عليها قوة وحياة جعلت قارئها يشعر بفرق عظيم بينها وبين كتب التاريخ ، ولقد دعاه بعض الناقدين ( شكسبير النثر ) وذلك لما بينه وبين سيد الشعراء من شبه فى التحرر عند اختيار الشخصيات وترتيبها ووصفها . غير أنه تعوزه القدرة على التحليل النفسى الذى امتاز به عصر اليزابث ، وبخاصة شكسبير .

أما أسلوبه فهو قوى متين ، وأما وصفه فهو دقيق ، وفى كتابته جدة وشباب لا يذهب بهما تقادم العهد ، وقد كان ( سكوت ) عبقريا ، وكان رجل جد وعمل ، وكان مخلصا لصناعة الأدب إخلاص من وهب له حياته ونبوغه . فأصبح جديرا ببقاء اسمه على الزمن خالدا ، وسواء أأحسن إليه الناقدون أم أساءوا فقد ظلت رواياته محبوبة إلى الآن . ومازالت جزءا من الثروة الأدبية التى يفخر بها الميراث الأدبى الأنجليزى .

عبد الرازق حمدة

# التربية الاسلامية

للأستاذ محمد على مصطفى
المفتش بوزارة المعارف

---

مقدمة : معارف العرب فى الجاهلية .

غلبت الأمية على العرب ، فلم تكن لهم علوم مدونة ، ولا فنون متدارسة ، ومبلغ ماوصلوا إليه من العلم لايتجاوز مسائل متفرقة ، اهتدوا إليها بتجربتهم ، أو ورثوها عن آبائهم . أو وصلت إليهم عن الأمم المجاورة لهم : كالبابليين ، والفينيقيين ، والفرس ؛ إذ كانت طبيعة بلادهم تدعوهم إلى الارتحال والنجعة ، وطلب القوت أنى وجد ، فكانوا أهل بداوة ، ورعاة ماشية ، يزدحمون عند موارد الماء ، ويتنازعون مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ ، وتشب بينهم الحرب ، فيقتل بعضهم بعضا ، وتملأ الضغينة القلوب ، وتتدابر القبائل ، وتتناغر العشائر ، وتتفرق الأهواء . ولاشك أن حياة كهذه لاتساعد على نشأة العلم ، ولاتدع وقتا للتفكير الهادىء المنظم .

لذلك نجد المأثور عن العرب لايعدو شذرات متفرقة ، مرجعها فى الغالب حدس وتخمين ، أوخيال شارد ، أو تلقين الكبير الصغير ، أوتجربة عملية ، أو أخذ عن الأمم المجاورة .

وقد شملت معارفهم الظاهرات السماوية ، فعرفوا النجوم ومواقعها ، ومنازل الشمس والقمر ، ودرسوا الأنواء ومهاب الرياح ، وأدركوا خصائص كل نوع منها ، وميزوا بين مطير السحاب وكهامه ، واعتقدوا فى الكهانة وزجر الطير ، وبرعوا فى تتبع الآثار ، وتعبير الرؤيا ، وعالجوا مرضاهم بالعزائم والرقى ، والعقاقير والأشربة ، والحجامة والكى ونحوها . وبديهى أن هذه

كلها لم تصل إلى درجة القوانين المضبوطة ، ولم ترتق إلى درجة العلم المنظم .

وقد اقتضت طبيعة الحياة العربية ، وما كان للعرب من صفاء المزاج ، وحدة الذهن ، وقوة الخيال ، وما رزقوه من سماء صافية ، تتلألأ فيها الكواكب ، وأفق واسع — أن يمتازوا بالبلاغة واللسن ، وحسن إيراد الحجة ، وضرب المثل ، والإبداع فى التصوير ، والقدرة على إثارة المشاعر ، واستنهاض همة القبيلة ، للأخذ بالثأر ، ودفع العار ، والذود عن الحياض ؛ فكان ذلك سجيتهم : لا يتكلفون القول ، ولا يظهر فى كلامهم أثر الصنعة ، بل كانت المعانى التى تمليها عليهم البيئة تتوارد على أذهانهم سريعة ، والألفاظ تتسابق إلى ألسنتهم مسترسلة ، ولهذا كانت الخطابة عدتهم ، والشعر ديوانهم ، سجلوا فيه أيامهم ، وفخروا بأحسابهم وأنسابهم ، وأشادوا بذكر أبطالهم ، وصوروا وقائعهم ، ووصفوا راحلتهم وسيوفهم ورماحهم ودروعهم ، وتغنوا بحب أوطانهم .

وكان لهم مجالس عامرة بالأدب ، حافلة بالممتع من القصص ، وأسواق عامرة ، يقيمونها فى أيام معروفة كل عام ، يجتمع فيها مصاقع الخطباء وفحول الشعراء ، يتبارون فى القصيد ، ويحتكمون إلى واحد من العرب ، يقرون له بالزعامة فى فنون الكلام ، فيخضعون لحكمه ، وينزلون عند قوله . حكى التاريخ أن النابغة الذبيانى كان يفد على عكاظ أيام الموسم ، فتضرب له قبة حمراء من أدم ، وتأتيه الشعراء ، فتنشده أشعارها ، حتى إذا اعترف لواحد منهم بالفضل ، كتبت قصيدته بماء الذهب ، وعلقت على جدران الكعبة ، وسميت بالمعلقة على رواية .

وبعد فهذه معارف العرب فى الجاهلية ، فإذا تأملتها وجدتها وليدة البيئة ، وأثر الإقليم والمزاج ، فلم يكن لهم مدارس يتلقون هذه المعارف فيها ، بل كان الغلام ينشأ كما نشأ أبوه ، وليس له فى الحياة غرض ، إلا أن يحصل على

وسائل العيش ، بالطرق المألوفة بين أهله وعشيرته ؛ لذلك تستطيع أن تقول: إن التربية عند العرب فى الجاهلية — إن صح أن يطلق عليها هذا الاسم — كانت تربية فطرية عملية تقليدية ساذجة ، اقتضتها طبيعة الحياة وضرورة العيش.

على أن هناك جانبا آخر للحياة العربية لا يصح أن نغفله ، لما كان له من أثر فى تهذيب نفوس الناشئين ، وأخذهم بطائفة من الخلال الطيبة . فقد كان العربى شجاعا ، يأبى أن يضام أو يستباح حرمه ، يذود عن عرضه ، ويدفع عمن استجار به ، كان كريما يعز الضيف ، ويؤثره على نفسه ، فيقدم له آخر ما يملك ، حتى كان من عادته أن يوقد النار ليلا بجانب خيمته ؛ ليهتدى بها المدلج فى جوف الليل البهيم ، أو يربط كلبه بالقرب من الحى ، حتى يستروح فينبح . فيسير الأضياف نحوه .

وكان إلى جانب هذا وفيا الى أبعد حدود الوفاء ، عزيز النفس ، شامخا بأنفه ، محبا للحرية ، ذا مروءة ونجدة .

تأصلت هذه الصفات فى نفوسهم ، ففخروا بها ، وراضوا أبناءهم عليها ، وشجعوهم على التمسك بأسبابها ، وتواصوا بها فى شعرهم ونثرهم .

فقد نقل إلينا مؤرخو الأدب ، أن ذا الإصبع العدوانى ، لما حضرته الوفاة ، دعا ابنه أسيدا ومحضه النصح وقال له :

« ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك »

وأوصى حصين بن حذيفة بنى بدر فقال:

«اسمعوا منى ماأوصيكم به : لا يتكل آخركم على أولكم ، فإنما يدرك الآخر ما أدركه الأول ، ... واصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم ، ولا تخالفوا فيما اجتمعوا عليه ، فإن الخلاف يزرى بالرئيس المطاع ، وإذا حادثتم فأربعوا ، ثم قولوا الصدق ، فإنه لاخير فى الكذب ، وصونوا الخيل ؛ فإنها حصون الرجال ، وأطيلوا الرماح ؛ فإنها قرون الخيل ، وأعزوا الكبير بالكثير ، . . . وأعجلوا الضيف بالقرى ؛ فإن خيره أعجله .

ويقول المرقش الأكبر :

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبدا إلا أفتلينا غلاما سيدا فينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها فى الأمن أغلينا
إنا لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة : ألا أين المحامونا؟
إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم حد الظبات وصلناها بأيدينا

وبعد فهذه ناحية من آداب العرب فى جاهليتهم ، وتلك بعض أخلاقهم فى بداوتهم ، رفعتهم إلى ذروة العلياء ، وجعلت جيرانهم يخشون بأسهم ، ويرهبون صولتهم ، ولقد جاء الإسلام فعالج سوآتهم ، وزاد هذه الصفات رسوخا فى نفوسهم ، واستقرارا فى قلوبهم ، ثم جمع كلمتهم على الحق ، وآخى بينهم ، ونصب لهم غرضا يقصدون إليه . ثم استنفرهم إلى حروب الأمم المجاورة ، فنفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم حتى كتب لهم الفوز فى كل مكان ، وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم .

## القراءة والكتابة

كان رسول الله ﷺ أميا ، بعثه الله إلى العرب خاصة ، وإلى الناس كافة ، وأيده بالمعجزة الخالدة ، فأنزل عليه قرآنا عربيا غير ذى عوج ، شرع لهم فيه ماوصى به إبراهيم ونوحا ؛ ولذلك ازدادت عناية العرب بالقراءة والكتابة ،

منذ نزل القرآن الكريم ، فقد كانت الأمة العربية أمية . ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يكن من أبناء العرب من يستطيع أن يخط حرفا ، أو يقرأ كلمة ، كما يتوهم من إرسال الحكم على إطلاقه .

والواقع أن الكتابة كانت معروفة فى جهات من شبه الجزيرة العربية كالأنبار ، ومن أهلها تعلم أهل الحيرة ، وعنهم أخذ بشر بن عبد الملك الكندى، وكان يتردد على الحيرة كثيرا ، وحدث أن ذهب بشر إلى مكة فى بعض شأنه ، فلقيه سفيان بن أمية ، وأبو قيس بن عبد مناف ، فأراهما الخط ، فطلبا منه أن يعلمهما ، فكتبا ، وعلما أهل مكة .

ثم خرج ثلاثتهم إلى الطائف فى تجارة لهم ، وكان فى صحبتهم غيلان بن سلمة الثقفى ، فتعلم الخط منهم ، ثم فارقهم بشر إلى ديار مضر ، فعلم بعض أهلها ، ثم أتى الشام ، فتعلم الخط منه ناس هناك . وكان يتردد على وادى القرى — واد فى شمال المدينة — رجل من طابخة كلب له علم بالخط ، ثم طاب له المقام فى الوادى ، فاتصل به أهله ، وتعلموا عنه الكتابة .

وعلى هذا النحو وجدت القراءة والكتابة طريقا إلى بعض الجهات فى شبه الجزيرة ، حتى إذا جاء الإسلام كان فى بعض القبائل المختلفة عدد قليل يعرف القراءة والكتابة . روى الواقدى عن خالد بن إلياس قال: « دخل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب ، منهم عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب،

---

روى عن الأصمعى قال :

« أول من كتب بالعربية مرامر بن مرة ، من أهل الأنبار ، ومن الأنبار انتشرت فى الناس »

وعنه قال :

« ذكروا أن قريشا سئلوا من أين لكم الكتاب ؟ قالوا: من أهل الحيرة . وقيل لأهل الحيرة : من أين لكم الكتاب ؟ قالوا من الأنبار » انتهى .

من كتاب المعارف لابن قتيبة

وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة الجراح ، وطلحة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وحاطب بن عمرو ، أخو سهيل بن عمرو العامرى من قريش ، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وأبان بن سعيد بن العاص ابن أمية ، وخالد بن سعيد أخوه ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح العامرى ، وحويطب بن عبد العزى العامرى ، وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعاوية ابن أبى سفيان ، وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ومن خلفاء قريش العلاء بن الحضرمى »

وكذلك كان فى الأوس عدة نفر يعرفون القراءة والكتابة ، منهم سعد ابن عبادة ، والمنذر بن عمر ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن مالك ، وأسيد بن خضير ، وبشير بن سعد ، وسعد بن الربيع ، وغيرهم .

وكان من بين هؤلاء من يجمع بين معرفة الكتابة العربية والكتابة العبرية والسريانية ، كزيد بن ثابت الأنصارى ، كاتب الوحى لرسول الله ﷺ ، روى عن خارجة عن أبيه قال « أتى بى إلى النبى ﷺ مقدمه المدينة ، فقيل : هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، ثم أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود ، وقال : إنى لا آمن يهودا على كتابى . فلم يمر بى نصف شهر حتى تعلمته . فكنت أكتب له إلى يهود ، وإذا كتبوا اليه قرأت كتابهم » وعن زيد بن ثابت قال : قال له النبى ﷺ : إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا ، فتعلم السريانية . فتعلمتها فى سبعة عشر يوما » ولذا عده بعض مؤرخى الحضارة الإسلامية أول مترجم فى الإسلام .

وكان إلى جانب هؤلاء وأولئك عدد من النساء يعرفن القراءة وحدها ، أو القراءة والكتابة معا ، فمن عرفن القراءة والكتابة معا الشفّاء بنت عبدالله العدوية من رهط عمر بن الخطاب ، حتى روى عن النبى ﷺ أنه قال لها : « ألا

تعلمين حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » وكانت الشفاء كاتبة فى الجاهلية ، ومنهن أيضا حفصة زوج الرسول ﷺ ، وأم كلثوم بنت عقبة ، وكريمة بنت المقداد ، وكانت عائشة — رضوان الله عليها — تقرأ المصحف ولا تكتب ، وكذلك كانت أم سلمة .

وليس هناك شك فى أن الناس فى الجاهلية كانوا يقدرون الكتابة قدرها ، يدلنا على ذلك ما كانوا يفعلونه بالقصائد المطولة — إذا نزلت منهم منزلة الاستحسان — من كتابتها وتعليقها على جدران الكعبة ، وأنهم كانوا يسمون من يجمع إلى معرفة الكتابة الرمى والعوم « كاملا » وممن أطلق عليهم هذا الوصف سويد بن الصامت ، ورافع بن مالك ، وسعد بن عبادة ، وأسيد بن حضير ، وأكبر الظن أن تعظيمهم للكتّاب واحترامهم لهم ، هو الذى دفع عبدالله بن سعد بن أبى السرح ، إلى أن يرتد عن الإسلام . ويرجع إلى مكة ، ويقول لقريش : إنه يستطيع الإتيان بمثل ما يأتى به محمد ، بعد أن أخذ عليه أنه يحرف ما يمليه عليه الرسول ، إذ كان يملى عليه الظالمين ، فيكتب الكافرين ، ويملى عليه سميع عليم ، فيكتب غفور رحيم ، وأشباه ذلك ، ولكنه أسلم بعد ما كان منه من الردة ، وولاه عثمان مصر ، إذ كان أخاه من الرضاع .

يتبع

محمد على مصطفى

# الثقافة

للأستاذ عبد الحميد حسنه

المفتش بوزارة المعارف

— ٢ —

أجملنا فى كلمتنا السابقة (١) حقيقة الثقافة وأوضحنا أن عناصرها ثلاثة، وهى : المعلومات ، والمهارة المقرونة بصقل العقل وشحذ المواهب ، واللباقة فى استخدام الحقائق وحسن عرضها . وقلنا إن العنصر الأساسى فى الثقافة هو المعلومات التى أنتجها المجتمع ، والذخائر العلمية التى خلفتها الأجيال الماضية وصقلتها التجارب حتى أصبح الالمام بها مما لاغنى عنه فى حياتنا العامة .

فالمثقف يجب أن يكون مصقول العقل صافى المواهب لبقا ماهراً يحسن الصوغ والعرض ، ويجب أن يكون ملما بالمعلومات التى لابد منها فى الحياة وفى تبادل التفاهم بين طبقات المتعلمين .

ولنتجه إلى البحث فى العنصر الثالث وهو المعلومات؛ لنضع لها حدودها، ثم نبحث عن مواردها التى تستمد منها .

***

إن الثقافة صفة اجتماعية فى معظم عناصرها، والمعلومات التى تتطلبها الثقافة هى مما أنتجه المجتمع وارتضاه مما له صلة بالحياة وبالشئون العامة ، فهى معلومات ليست بالراكدة، وليست مما هو مهمل فى بطون الكتب وزواياها ، ولا من ذلك النوع الخالى من الحياة أو الذى تسير الحياة وشئونها دون حاجة إليه .

---

(١) انظر العدد الثالث من السنة الرابعة .

ولا ننسى أن المثقف يحتاج إلى جانب الالمام بهذه الحقائق إلى مقدرة على الانتفاع بها واستخدامها فى مواطنها استخداما يزيد من نشاط الحياة العامة وينهض بالمستوى العقلى والعملى .

ولعلك تتبين بجلاء مانقصد إذا أنت استمعت إلى حديث فى مجتمع مثقف وإلى حديث فى مجتمع غير تام الثقافة : إنك تجد فى الأول فنونا من القول صافية ، خالية من الغثاثة ومن الجفاف ، مستمدة من الحياة ، شديدة الاتصال بمرافقها ، تميل بك إلى السمو الفكرى ، وتشعر بأنها خلاصة منتقاة من تجارب الإنسانية ، تنير السبيل للعقل ، وترشد المرء إذا أراد استرشادا ، وتغذى قلبه وعقله بغذاء يبعث النشاط ويجعل الحياة خصبة نابضة .

وتجد فى المجتمع الثانى من الخلط وهبوط ألوان الحديث والنوائها وقصورها مايجعلك تدرك الفرق بين المثقفين وغيرهم .

تجد فى مجامع المثقفين حديثا ممتعا فى شتى ألوان المعرفة ذات الصلة بالحياة ، وتسمع تجاذب أطراف البحث فى حقائق تحس بأنها ليست مما مجته الحياة ولانما هو ضئيل القيمة قليل الجدوى ، بل تجد أصولا عامة صحيحة مطبقة على الحياة ، وتلمح من المعلومات مايمس اللباب فى الشئون العامة ومرافق البلاد .

وإذا تخيلنا مجتمعا مثقفا كالذى نشير إليه ، وكان يضم مثلا المهندس والطبيب والمعلم والقاضى والمحامى والاقتصادى ورجل الأعمال وصاحب المتجر والموظف الإدارى والكتابى وغير هؤلاء ، فإنا نجد من الجميع إلماما بشتى ألوان الحديث . فنجد من المهندس إلماما بالأغذية ومادتها وقيمتها وارتباطها بإنتاج البلاد ، وتجد من الطبيب خبرة بالمدنيات القديمة والحديثة ومراكزها على سطح الكرة الأرضية وصلة بعضها ببعض ، وتجد من المعلم إلماما بالمواد المعدنية فى البلاد ووسائل استخراجها ومدى الانتفاع بها وأثر ذلك فى حياة الشعب ورخائه ، وتسمع من القاضى حديثا فى المبانى وتنسيقها وأنواعها قديما وحديثا وأثر ذلك

فى الذوق السليم وفى حياة الأمة، وتجد من رجل الأعمال إلماما ببعض الأدباء والكتاب الاجتماعيين والقصصيين، وهكذا تجد لطوائف المثقفين إلماما بالشؤون العامة إلى جانب الإلمام بما اختصوا به من علم أو فن أو مابرعوا فيه من النواحى العملية. وتجد إلى جانب هذا منهم جميعا ميلا إلى قراءة مايجد فى عالم الفن والعلم والأدب.

ورب قائل يقول: وماذا يضير الانسان - إذا هو برع فى ناحية من نواحى العلم أو الفن واستقامت له الحياة فى عمل يشغله - ألا يلم بغيره أولا يستطيع التفكير أو التحدث فى الشؤون التى لاصلة لعمله بها؟ وما للمهندس والشعراء والأدباء؟ ومالطبيب والقناطر والسدود وأثرها؟ ومالرجال الجيش والروايات والقصص وأثرهما؟ مالكل هؤلاء ولهذه المعارف التى لاتمت إلى عملهم بصلة؟

قد يقال هذا أو شبهه ممن لايعنون بالحياة الاجتماعية ولايرون فائدة لتفهم الإنسان ماحوله، ولاينظرون إلى وحدة التفكير وتقارب العقول بين أفراد المتعلمين بمنظار الاهتمام.

على أنا لو تدرجنا فى حوار هؤلاء لوصلنا إلى إقناعهم بأنهم ليسوا على صواب فيما يقولون، فهم لو بحثوا فيما حصلوا قبل أن يتفرغوا للدراسة الخاصة لعلموا أن الذى أعانهم على التحصيل إنما هو قدر من الثقافة العامة صقلوا به عقولهم واستعانوا به على الدرس والتحصيل، ولولا هذا القدر من المعارف العامة ما استطاعوا تحصيلا ولا استساغوا علما. ولو كان لهؤلاء فوق هذا نصيب من الثقافة الشاملة والالمام بما أخرج المجتمع من معارف لكانت صلتهم به أقوى وفهمهم لما يجرى فيه أعم وأوسع، وقدرتهم على إفادته أتم. هذا إلى ما للثقافة العامة من أثر فى تبادل التفاهم بين طبقات المتعلمين وتتبع مايجد فى الحياة العامة مما يرتبط برقى بنى الإنسان.

إن الحياة ليست مادة فحسب ، وليست عيشة انعزال وبعد عن المجتمع ومايجرى فيه ، فالإنسان لاتهنأ له حياة إلا إذا تبادل التفكير هو وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه وكان بينه وبين طبقات المتعلمين صلة عقلية . فالثقافة من متممات الحياة الاجتماعيه ، وهى عون على فهم الشئون العامة وعلى خير المجتمع ، والمشرفون على الحياة العقلية والتعليمية فى البلاد هم الذين يوجهون الشعب إلى الوجهة الصحيحة فى الثقافة وإعداد المثقفين .

✡✡✡

فلنبحث فى موارد الثقافه ومداها :

أما مواردها فهى : المدارس ، والحياة العامة ، والكتب والصحف والمجلات .

(١) المدارس :

أما المدارس فهى معاهد التعليم والتثقيف ، وعليها من واجبات الثقافة نصيب عظيم ، وحين نذكرها تتجلى فى الأذهان أهم ظاهرة فيها ، وهى المادة العلمية المحدودة فى المناهج ، فهى التى اختارها رجال التعليم وارتضاها من فكروا فى المدارس وإنشائها .

ولسنا نريد أن نقصر الغرض من المدرسة على تحصيل المادة العلمية ، فالمدرسة إنما هى صورة مصغرة للحياة ، وميدان للنشاط العقلى والنمو الخلقى ، وعون على إعداد الفرد للحياة . ولكننا ونحن بصدد الثقافة والقدر المختار من المعارف العامة لتحقيق معناها — سنقصر بحثنا على المادة العلمية فى مناهج الدراسة ، فهى المظهر الذى ينال عناية الطالب والمعلم ، وهى الوسيلة الظاهرة للتحصيل .

ولكى نجلو طريق البحث يجدر بنا أن نحدد الغرض من المدرسة ومافيها من مناهج : أهو الاعداد للحياة ؟ أم هو تزوير المتعلم بطائفة من الحقائق العلمية ؟ وعلى أى أساس تختار هذه الحقائق ؟ أعلى أساس الحاجة إليها فى الحياة ؟ أم

على أساس الاستعانة بها على الثقافة ؟ أم على أساس أنها علوم جرت العادة باختيارها أو اختيار عناصرها؟ أم أن الاختيار أساسه ضرورة هذه العلوم لمراحل تالية من مراحل التعليم ؟ أم أن الغاية من هذه الحقائق هو شحذ العقل وتغذيته وتنميته ؟ أم أنها غاية تجمع بين كل هذا أو بعضه ؟

كل هذه أسئلة تجول بالخاطر حين البحث فى الثقافة ونصيب المدارس وموادها الدراسية منها ، ولعل مدرسة ماترى أن الثقافة لا تعنيها ، وأنها إنما تدرس المواد المختلفة لغايات أخرى ، وأن الثقافة يجب أن نتلمسها فى ميدان آخر .

قد يكون شيء من هذا ، وللمدارس أن تحدد وجهتها كما تشاء . ولكننا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الغرض من المدرسة إنما هو إعداد الفرد للحياة . وإن المواد الدراسية التى تختار فى المراحل الاعدادية من المدارس إنما تختار لأنها عون على إعداد الفرد للحياة . ولأنها لازمة لمعاملة الافراد وتفاهمهم وتعاونهم ، وليس الغرض منها أن نميل بالفرد إلى التخصص فى مادة معينة . فالمعلوم أن مدارسنا الابتدائية والثانوية فى مرحلة الثقافة العامة إنما تعد الفرد إعدادا عاما يشترك فيه من يستعدون للدراسة العالية ومن عساهم أن يتجهوا بعد ذلك إلى الحياة العامة ، ولا بغية لهم سوى الثقافة والاستعداد للعمل فى الحياة . وإن كنا لا نجادل فى أن الذين يذهبون إلى هذا النوع من المدارس فى بلادنا إنما يقصدون إتمام تعليمهم العالى إن ساعدهم الحظ ، والسير فى هذه المراحل التقليدية التى ألفناها رغبة فى الوظائف أو نحوها من المناصب المحدودة .

ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقرر الحقيقة الثابتة أو التى يجب أن تكون ثابتة ، وهى أن الغرض من هذه المرحلة إنما هو الثقافة لا التخصص . اللهم إلا إذا كنا نستكثر على الثقافة هذا الزمن الذى يصرفه الطالب فى المدارس الثانوية فنلجأ إلى مزج مرحلة الثقافة بشيء من التخصص لكى نعده للدراسة العالية فى جميع الفروع .

على أنه مهما تكن الغاية من مرحلة النقافة العامة فى مدارسنا، فإنه يحق لنا أن نتجه إليها فى تحقيق ما تتطلب الثقافة من القسط المدرسى منها .

فلننظر إلى المناهج فى هذه المراحل على أساس أنها مراحل ثقافة وإعداد عام للحياة . ننظر إليها من حيث أنها الجانب الأساسى فى الثقافة ، وإن لم تكن هى الكفيلة بكل ما تتطلب النقافة ، ونتجه فى البحث إلى معرفة ما هنالك من من صلة بين ما تضمنته هذه المناهج وبين النقافة ؛ لنعلم هل هذه الحقائق لازمة للمثقف وللنقافة ، وهل قصرت المناهج فيما كان يجب أن تتضمنه مما لابد منه للمثقف ، أى أننا سننظر للموضوع من ناحيتين : الأولى إيجابية وهى ما اشتملت عليه المناهج ، والثانية سلبية وهى ما أهملته:

## (ا) الناحية الأولى :

لانتكر أن فى هذه المناهج قدرا من الحقائق التى لاغنى عنها ، ولكننا إلى جانب هذا نلاحظ أن طائفة منها قد دونت لالغرض ثقافى ، بل تمشيا مع ظاهرة متغلغلة فى مناهجنا ، وهى أنها تسير على نمط الكتب المسطورة ، وعلى النهج الذى تدون عليه العلوم ؛ فهى فى بعض مظاهرها أقرب إلى فهارس الكتب ، أو إلى تمثيل التدرج المنطقى فى تدوين العلوم والفنون . ولقد سار واضعو المناهج طبقا لهذا ، فاستقر اختيارهم على حقائق ثابتة لم يغيروا منها كثيرا فى الأحوال التى تعاقبت على المناهج وهيأت الفرص للتغيير والتنقيح فيها . وكان جل مايعملون ، أن يقدموا موضوعا على آخر ، أو أن ينقلوا مبحثا من فرقة إلى أخرى .

ولقد كان الأجدى أن نراعى فى تخير الحقائق فى المناهج مايجب اتباعه من القواعد السائدة فى جميع الممالك ، نسير على حسب عقول المتعلمين وحاجاتهم ، وحاجات المجتمع الذى يعيشون فيه ، وبذلك نحقق من الأغراض التعليمية والثقافية قسطا عظيما . أما سرد الحقائق العلمية على أساس أنها قد سطرت فى

الكتب وأصبحت من العناصر المتممة لتدوين العلم تدوينا فنيا متماسكا ، فهذا بناء على أساس غير صحيح ، لامن الوجهة التعليمية ، ولامن الوجهة الثقافية ؛ فأصول التعليم تجعل الأساس فى تخير المناهج حاجة الفرد وتغذية عقله وتنمية خلقه وإعداده للحياة ، وحاجة المجتمع والعمل على خيره ورخائه ؛ والثقافة كما رأينا تتطلب تخير الحقائق على أساس فائدتها فى المجتمع ، لا تسلسلها العلمى وتماسكها من جهة فن التأليف والتسطير .

قلنا إن مناهجنا قد سيطرت عليها ظاهرة التأليف العلمى فجعلتها أشبه بفهارس الكتب وأبعدتها عن الوفاء بالغرض التعليمى والثقافى ، حتى أصبح قسط منها عبئا على عقول المتعلمين لايجنون منه نفعا ذا أثر . ولنضرب الأمثلة لما أشرنا إليه :

فى منهج قواعد اللغة العربية نجد البدء بالكلمة ، ثم تقسيمها إلى اسم وفعل وحرف ، وتقسيم كل من هذه أقساما من جهات شتى صرفية ونحوية . نجد هذه الظاهرة فى منهج المدارس الابتدائية وفى منهج المدارس الثانوية كذلك . ولايخفى أن هذا إسراف لايتطلبه الغرض الذى من أجله تدرس القواعد فى هذه المدارس .

ونرى أيضا فى منهج الأدب حرصا على دراسة التاريخ الأدبى لجميع العصور لايفسح المجال لدراسة الأدب نفسه والاستفادة منه .

وفى منهج التربية الوطنية تتجلى ظاهرة التسلسل العلمى . فترى البدء بالمجتمع ، ثم الأسرة ، ثم الأمة ، ثم الدولة ، مع التعرض فى خلال ذلك لنقط من البحث هى أشبه بعناصر لكتاب مؤلف ، ولو اقتصر على مايجب أن يعرفه الفرد من المعلومات المتصلة بالمجتمع وبالحياة لكان أجدى .

وفى منهج الجغرافية نلمح الحرص على دراسة القارات جميعها دراسة تتضمن من التفصيل فى الجغرافيا الطبيعية وغيرها ماليس بينه وبين حياة الطالب المصرى

كبير اتصال ؛ فنرى مثلا دراسة استراليا وجزائر المحيط الهادى من حيث التضاريس والمناخ والأقاليم النباتية والطبيعية ، ونجد مثل ذلك فى أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وفى آسيا وأفريقية،ونجد إلى جانب ذلك دراسة الأقاليم الطبيعية الرئيسية ، وأهم مميزاتها فى جميع هذه القارات ، مع العناية بدراسة أقاليم خاصة فيها والاشارة إلى مافيها من وسائل النقل والأقسام السياسية التى يشملها كل إقليم .

ولانظن أن الطالب المصرى يحتاج فى حياته إلى كل هذا التفصيل ، ولعله أشد حاجة إلى الافاضة فيما يتصل بحياتنا منه .

ونرى فى التاريخ مثل هذه الافاضة ، وكذلك فى بعض المواد الأخرى .

**(ب) الناحية الثانية :**

وهى ماأهملته المناهج ، وإنا نرى إلى جانب التفصيل الذى أشرنا إليه فى بعض المواد الدراسة أو معظمها أن المناهج لاتكفل للطالب الالمام بأمثال الموضوعات الآتية :

الشركات الأجنبية فى مصر — الشركات المصرية — المصارف المالية وعملها وأثرها — المصانع الأجنبية فى مصر — الفنادق — المطابع ومسابك الحروف — المعادن فى مصر واستخراجها — العقاقير الطبية وشركاتها — الحفر على المعادن — الجمعيات العلمية فى مصر — المياه المعدنية — الأجانب فى مصر وحياتهم وأعمالهم — الملاجىء — البواخر المصرية — إلى غير ذلك .

ولعل القارىء يرى أن هذه الموضوعات وأشباهها مما يجدر بالمتعلم أن يلم به ، فإذا كانت المواد الدراسية تتحمل البحث فيها فالأجدى أن نؤثرها على غيرها وإذا لم تكن فمن الميسور أن نتحين لها الفرص ، ولايثنينا عن تخيرها أنها ليست من العناصر التى ألفنا اختيارها من مباحث العلوم ، اللهم إلا

إذا تمسكنا فى وضع المناهج بتلك الظاهرة التى أشرنا إليها ، وهى السير طبقا للكتب وفهارسها ، والعلوم وعناصرها المدونة تدوينا متماسكا .

على أن عدم تماسك هذه المباحث تماسكا تأليفيا قد يكون من الأسباب التى تدعونا إلى اختيارها مادامت متصلة بالحياة ، وذلك أن من الطرق الحديثة للتعليم الآن « طريقة المشروع » وهى طريقة لاتسير فى التدريس طبقا لتبويب العلوم وفصل موضوعاتها بعضها عن بعض ، بل تبعا لتماسك المعلومات وارتباطها بالحياة ، واتصالها بالموضوع الأساسى الذى اختير للمشروع . فهل لنا أن نرى مثل ذلك فى منهج القسم الابتدائى ومنهج القسم الثانوى ؟

هذه هى مناهجنا ، ولعلنا مقتنعون بأنها فى حاجة إلى التغيير ، لاعلى أساس التقديم والتأخير والحذف فى أجزائها وموضوعاتها ، بل على الأسس التعليمية السليمة التى تكفل التربية الصحيحة ، وذلك بابقاء النافع المتصل بالحياة منها ، وإضافة ماتتطلبه بيئتنا ، مع اجتناب ذلك التكديس الذى لانجنى منه سوى الإرهاق ؛ وبهذا نحقق للحياة معناها ، وللدراسة والتعليم غايتهما الصحيحة ، وللثقافة نصيبها الذى يجب أن تقوم به معاهد التعليم .

ولعلنا لو خلصنا المناهج من هذا التكديس غير المجدى ، لظفرنا بقسط من الزمن نستطيع أن نشغل الطلاب فيه بالبحث الشخصى والاطلاع المقرون بالرغبة ، وأن نملأه بموضوعات عامة يجد المتعلم فيها ميدانا حرا فسيحا ، فتزداد رغبته فى القراءة ، ويعتاد ذلك بعد إتمام دراسته وفى أوقات فراغه ، وبهذا نعالج نقصا لايزال فاشيا بين أكثر المتعلمين ، وهو النفور من القراءة والاطلاع ، ونؤدى واجبا تعليميا يرى الجميع أن المدارس ونظم التعليم هى التى تتحمل تبعته ، وهو غرس الميل إلى القراءة فى المتعلمين .

(٢) الحياة العامة :

لسنا فى شك أن الحياة العامة لها شأن فى الغذاء الثقافى ؛ فالبيئة ومافيها من أحاديث حيوية ومحاضرات علمية ومغريات بالتسابق إلى الاطلاع والميل إلى البحث ، والمجتمع وميوله ونظامه فى صرف أوقات الفراغ فى المنزل وفى خارجه، والملاهى وأنواعها ، والحفلات العامة وغير ذلك ، كل هذا من عوامل صقل الحياة وإنهاضها والسمو بالمعارف العامة للشعب وبمعلوماته .

وإن ترقية هذا الجانب من حياتنا المصرية يتطلب عناية المصلحين من رجال الاجتماع والتربية ، والاهتمام بهذه الناحية لايقل أثرا عن الاهتمام بالمناهج ولجانها ودور التعليم وأدواتها وكتبها .

(٣) الكتب والصحف والمجلات والروايات :

أو بعبارة أخرى المؤلفون والكتاب : فهؤلاء هم قادة الفكر وحافزو الهمم ، وهم الذين يمدون الحياة العقلية بمايزيدها خصبا ، ويوجهون أفراد الشعب إلى مايزيد ثقافتهم وينهض بأذواقهم ويحبب إليهم القراءة فيقضون أوقات الفراغ على خير الوجوه .

وللمؤلفين والكتاب شأن فى تمصير ثقافتنا، وإنهاض أدبنا القومى المصرى، وتنشيط الحياة العقلية والفكرية. وهذا مما يجعل أثرهم عظيما؛ وإن العناية بهم وبتشجيعهم تتطلب من أولى الشأن فى البلاد جانبا من الاهتمام لتجنى البلاد ماتنشده من خير

✡✡✡

وبعد فإن منابع الثقافة فى مصر تتطلب إصلاحا ونهضة على الأسس التى سارت عليها الأمم التى نترسم خطاها فى الثقافة .

وإنا لنرقب أن ينشط هذا الإصلاح نشاطا شاملا، حتى يكون لهذا البلد ثقافة مطبوعة بالطابع القومى وذلك بما يبذل قادة الرأى من همة وعزم صادق فى هذا الشأن .

عبد الحميد حسن

حـــول تبسيط

# القراءة والكتابة ولغة التخاطب

ألقى هذه المحاضرة

**الأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد**

بالقاعة الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

---

خصومة علمية تلك التى دارت رحاها هذا العام بين فريق من الأدباء ورجال اللغة ، يرى فى النحو العربى وقواعده كما وصل إلينا فى كتب المتقدمين من النحاة ، وكما تواضعت عليه مناهج المعاهد المصرية ، « فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويسرفوا فى الافتراض والتعليل ، وإسرافا فى القواعد نشأ عنه إسراف فى الاصطلاحات ، وإمعانا فى التعمق العلمى باعد بين النحو وبين الأدب » . ويرى هذا الفريق ضرورة إحياء النحو وتبسيطه أو تيسيره – وبين فريق آخر من الأدباء واللغويين حريص على استبقاء تراثنا النحوى بفلسفته واصطلاحاته ؛ لما لهذا التراث من حرمة تاريخية وصلة بلغتنا وآدابنا وكتبنا المقدسة . ولأننا نحن المتأخرين لا نملك حق تغيير ما نص عليه المتقدمون من جمهرة النحويين وعلماء اللغة الذين هم أقدر منا على فهم النحو وأسراره وفلسفته. وبين هذا الفريق وذاك فريق وسط يرى أن نحافظ على القديم بقدر ما تظهر صلاحيته ، وإلا هذبنا منه بما لا يغير من جوهره ولا ينبو عن متعارفه .

ومحاضر الليلة ينزل لأول مرة الميدان الاجتماعى فى مصر ، وله من شبابه

وتجاربه المحدودة ما يغفر له سهوه أو خطأه ، وهو لا ينتمى إلى هذا الفريق أو ذاك وإنما ينشد الحقيقة لذاتها بقدر ماتسمح به معرفته باللغة العربية مزودا بشىء من الثقافة الأوربية ناله خلال سبع سنوات أمضاها فى دراسات مختلفة فى التربية وعلم النفس واللغات الشرقية والغربية . فإن أصبت فبها ونعمت وإلا فيكفينى خلوص النية .

لا تلم كفى إذا السيف بنا صح منى العزم والدهر أبى

لا أريد هنا أن أعرض لتعريف النحو أو الصرف ، ولا لاختلاف النحاة فى أنهما علمان مستقلان أو علم واحد . فلا أعتقد إلا أن حضرات سامعى الكرام على علم بما قيل فى تعريف النحو والصرف ، غير أنى سأكتفى فى حديث الليلة بذكر كلمة « النحو » كلما قصدت النحو والصرف معا أو أحدهما .

أعرف النحو بأنه الوسيلة للقراءة الصحيحة ، والتخاطب الصحيح ، والكتابة الإنشائية الصحيحة . وأقصد بالصحيح ماهو متفق عليه بين متكلمى اللغة وعارفيها . وإذاً فكل مايهمنا من دراسة النحو أن تكون قراءتنا صحيحة ، وأن نتخاطب بعبارة صحيحة ، وأن نكتب كتابة إنشائية صحيحة ، ومتى وصلنا إلى هذه النتيجة فقد أدى النحو مهمته ، ولو أن هناك نوعا من السحر أو التعاويذ يمكننا من القراءة الصحيحة والتخاطب الصحيح والكتابة الإنشائية الصحيحة — لاستغنينا عن النحو وفلسفته ومصطلحاته ، ولكفينا أنفسنا شر الجدل والنقاش .

ولنبدأ إذاً بالقراءة الصحيحة لنعرف إلى أى حد نحن موفقون فيها ، وما هى عوامل الضعف ، وكيف نمحو هذه العوامل .

تمتاز اللغة العربية كغيرها من اللغات السامية بأن لأحرف العلة فيها — أعنى الواو والياء والألف — قيمتين صوتيتين : القيمة الصوتية الكاملة ، والقيمة الصوتية النصفية . فاذا قلت « ينام » فإن للألف بعد النون فى « ينام » قيمتها الصوتية العلية الكاملة . وإذا قلت « لم ينم » فإن هناك أيضا بعد النون فى ينم

حرف علة له قيمته الصوتية ولكنها نصف قيمة الألف فى « ينام » . ولذلك سميتها مؤقتا فى محاضرتى هذه « حروف العلة ذات القيمة الصوتية النصفية » . وتعارف علماء مخارج الحروف والقراءة والنحو على أنها حركات : حركة الفتح وحركة الضم وحركة الكسر .

فلنتقبل إذاً هذه التسمية ، ولنذكر دائما أن لكل حركة نصف القيمة الصوتية لحرف العلة الذى تمثله . ولست أستطيع أن أزعم أو أن أؤيد زعما بأن حروف العلة وجدت قبل الحركات أو العكس ؛ فمثل هذه الفروض لاتجدى ولا حاجة لنا بها هنا . وإنما يهمنى أن أذكر أن هذه الحركات — ويضاف إليها السكون — لها فى الإملاء العربى رموز تعبر عنها ، فهذا رمز الفتح ـَ ، وهذا رمز الكسر ـِ ، وهذا رمز الضم ـُ ، وهذا رمز السكون ـْ .

وقد اتفق واضعو الشكل على أن يكون الرمز فوق الحرف أو تحته . فلو أننى أستبيح لنفسى أن أكتب كلمة « ينام » كما أنطقها وبالحروف اللاتينية مثلا كما اصطلح عليه فى علم الأصوات Phonetics لمثلتها هكذا yanàm ، ولمثلت جملة لم ينم هكذا lam yanam . ولو حاولت محاكاة هذا النظام الإملائى الصوتى واستعملته فى لغتنا العربية فعوضت بدل الفتحة رمزا حرفيا خاصا يكتب بعد الحرف الصحيح ، وبدل الكسرة أيضا رمزا حرفيا آخر ، وكذلك الحال فى الضمة ، واستغنيت عن السكون إطلاقا فلم أجعل له رمزا ، لأمكننى إذاً أن أكتب العربية بحيث يستطيع كل قارىء أن يقرأها صحيحة متى قرأ بعناية .

ولكن لم أفترض وضع رموز للحركات بعد الحروف الصحيحة ، وقد اتفق علماء الشكل على وضع هذه الرموز فوق الحروف أو تحتها لا بعدها ؟ وأصبحت هذه خاصة من خواص الكتابة الإملائية العربية — كما هى الحال أيضا فى العبرية والسريانية — وإذاً أستطيع أن أقول لو أننا نستعمل دائما هذه الرموز

المسماة بالشكل فى كل مطبوعاتنا أو حيث يحتمل اللبس أو الخطأ — لأمنا الخطأ النحوى واللغوى فى القراءة . وهنا أتساءل : لم لانتخذ نظام الشكل فى كل مطبوعاتنا وكتبنا وبخاصة ماهو منها فى متناول الأطفال حتى نسهل عليهم مئونة القراءة الصحيحة ؟ أليست الحركات جزءا من نطق الكلمة ؟ فما هو اذا ذلك التعسف التقليدى فى كتابة الحروف الصحيحة وحروف العلة فقط وإهمال حروف العلة « ذات القيمة الصوتية النصفية ؟ على أننى أستطيع أن أؤكد لحضرات السامعين أن التلاميذ فى مدارسنا المصرية لايجدون الآن صعوبة فى القراءة الصحيحة مادامت الكتب مشكولة . ومايقع من خطأ فى القراءة إنما هو نتيجة إهمال وعدم عناية من القارىء . وإذا فليس للنحو أو قواعده ذنب فيما يقع فيه القارىء من خطأ نحوى أو لغوى ، وإنما الذنب هو ذنب الوضع الإملائى والشكل فى لغتنا . ذلك الوضع الذى أصبح من مميزات لغتنا (١) .

وبعد ، فلو أننا نجحنا فى أن يكون كل ما يقرؤه الطفل أوجله مشكولا لكسبنا نصف المعركة ؛ ذلك لأن تعود القراءة الصحيحة منذ الصغر يعين على الكتابة الصحيحة والتخاطب الصحيح فينشأ الطفل وقد نما عنده شعور مكتسب بالتعبير النحوى الصحيح . ذلك الشعور الذى يقوى حتى يصير عادة لها أثرها فى صحة الكتابة والتخاطب .

ولننتقل إذا إلى التخاطب الصحيح ( أعنى نحويا ) . ومشكلة لغة التخاطب ليست قاصرة على العربية ، فهى مشكلة فى كل اللغات ، غير أنها تختلف قوة وضعفا بأختلاف عوامل سأعرض لها بعد هنيهة . والذى أريد أن أقرره هنا هو أن لغة التخاطب بين الفلاحين الفرنسيين أو الإنجليز أو الألمان تختلف كثيرا

(١) نشرت الصحف بعد إلقاء هذه المحاضرة أن مجمع فؤاد الأول اللغوى كون لجنة من أعضائه لبحث وضع نظام إملائى يمكن أن يستغنى به عن الشكل مع الاحتفاظ بالحروف العربية .

عن اللغة الأدبية لغة الكتابة الانشائية . ويظهر هـذا الاختلاف فى نطق الكلمات ، واستعمالها ، وتطبيق القواعد النحوية . وإننى لأذكر ماسمعته مرة من فلاح إنجليزى زرته ذات يوم فوجدته فى حجرة الجلوس مع ابنه وبيده كتاب مطالعة وهو يشير بإصبعه إلى صفحة فى الكتاب ؛ فسألته ماذا يعمل مع ابنه فقال : Ilearn'm يقصد بذلك Iteach him فاستعمل كلمة Learn بدل teach وكذلك يستعمل الإنجليزى العادى فى لغة حديثة عبارة Ihave not got يريد Ihave notbing . notbing ويظهر الخطأ النحوى متفشيا بين الفلاحين والعمال الألمال لأن النحو الألمانى يشبه فى صعوبته النحو العربى . ولذلك قل أن يستعمل العامل الألمانى فى لغة التخاطب الإضافة الصحيحة Genativ أو يحافظ على عمل الحروف ( كحرف الجر مثلا ) أو يعرف استعمالها الصحيح فهو يقول مثلا Ich gehe nach den Eltern فيستعمل nach بدلا من zu .

ومشكلة لغة التخاطب عندنا هى من نوع هذه المشكلات المعروفة فى اللغات الأخرى مع الفارق العظيم ، وهو أن لغة التخاطب فى العربية تختلف جد اختلاف عن لغة الكتابة الإنشائية ؛ فى نطق الكلمات واستعمالها ، بل فى النحو وهو مايهمنا هنا . على حين أن الفرق بين لغة التخاطب ولغة الكتابة فى اللغات الأخرى ضئيل جدا بالنسبة لذلك الفرق فى اللغة العربية . هذا إذا لاحظنا أن نحو اللغات الأخرى سهل جداً إذا قورن بالنحو العربى .

ومما لااختلاف فيه هو أن لغة التخاطب فى العربية قد أهملت النحو إهمالا تاما ، وأصبح فهمها لايحتاج إلى نحو . بل قد أصبحت فيها استعمالات خاصة لنفى اللبس فى الفهم ؛ وذلك كشيوع الجملة الاسمية بدل الفعلية ، مثال ذلك : « القطر قام بدل ( قام القطر ) ، الأولاد رجعوا من المدرسة ، النجار جه ، العربجى عاوز الفلوس ، القلم انكسر » . وفى كل هذه الجمل نلاحظ استعمال الجملة الاسمية بدل الفعلية . ولعل السبب فى شيوع الجملة الاسمية هو الإشارة إلى أن الاسم

هو المتحدث عنه والمقصود فى العبارة، ولتفادى اللبس الممكن فى بعض الأحيان كما فى جملة ( الخدام ضرب البواب ) فلو استعملنا الجملة الفعلية مع إهمال النحو لقلنا ( ضرب الخدام البواب ) ولكان فى هذا الاستعمال مايحتمل أن يكون الضارب ( الخدام أو البواب )

ومهما يكن من الأمر فإن سبب هذا الفرق العظيم بين لغة التخاطب ولغة الكتابة الإنشائية فى العربية ، وبالتالى إهمال النحو فى لغة التخاطب، هو الأمية السائدة فى الشعوب المتكلمة بالعربية، وجهل الأسرة بالقراءة والكتابة ، وإذا فليست هناك وسيلة لنشر اللغة العربية الصحيحة واستعمال النحو فيها وإحلالها محل العامية لتكون لغة التخاطب، مادام الأمى لايستطيع القراءة ولايسمع إلا اللغة العامية ، وإنا لنرى أولئك الذين ينالون قسطا من التعليم الأولى أو الابتدائى، لايلبثون أن يطمسوا فى المنزل معالم ماتعلموه فى المدرسة من عبارات التخاطب الصحيحة . ولذلك فإن جهود المدرسين المبذولة لإحلال اللغة الصحيحة محل لغة التخاطب العامية لم تنتج الإنتاج المنتظر منها.

ولكن هب أن عندنا أسرة متعلمة أخذت على نفسها أن تتكلم العربية الصحيحة لغة ونحوا، ورزقت هذه الأسرة ولداً ذهب إلى المدرسة حيث لا يسمع إلا التخاطب بالنحو الصحيح، وحيث لايقرأ الا صحيحا ،إذاً لشب ذلك الولد يتكلم بالنحو الصحيح .

وبعد هذا المثال أستطيع أن أقول إن إهمال النحو العربى فى لغة التخاطب أو الخطأ النحوى فيها لا يمكن أن نعزوه عزوا كليا إلى صعوبة النحو العربى وفلسفته وإمعان النحويين فى التعمق العلمى فيه .

على أننى لا أشك مطلقا أن استعمال النحو الصحيح فى لغة تخاطبنا ينمو يوما بعد يوم، وهو أكثر شيوعا بين طبقات المتعلمين منه بين من هم دونهم من الطبقات الأخرى . واستعمال النحو فى لغة التخاطب ليس أثرا لتذكر المتكلم

قاعدة النحو وتطبيقها كلما تكلم ، بل هو نمو تدريجى وعادة مكتسبة ككل العادات الاجتماعية التى يحتاج الفرد فى تكوينها أولا — كما يقول علماء النفس — للنية والعزم والانتباه والتكرار ، ولكن بمرور الزمن تصبح طبيعة ثانية .

والآن وبعد معالجة ناحيتى القراءة الصحيحة والتخاطب الصحيح ، أجرؤ على استنباط النتيجتين الآتيتين :

النتيجة الأولى : ليس ضروريا للقراءة الصحيحة فى العربية أن يعرف القارىء قواعد النحو ومصطلحاته كما وصلت إلينا فى كتب المتقدمين ، مادامت الكتب مشكولة .

النتيجة الثانية : يمكن أن تكون لغة التخاطب صحيحة نحويا إذا نشأ المتخاطبون فى بيئة من اللغة العربية ، سليمة من الخطأ النحوى ، سواء أكانت تلك البيئة فى المدرسة أم فى خارجها . غير أن تعلم قواعد النحو ليس كافيا للتخاطب الصحيح .

ولما كانت سلامة البيئة من الخطأ النحوى مستحيلة الآن ، فقد دعت الحال لتعلم النحو كوسيلة للتخاطب الصحيح نحويا .

للمحاضرة بقية

عبد العزيز أمين عبد المجيد

# المنظـــــــار

مسرحية من ثلاثة فصول ألفها الكاتب الإنجليزى

« سدنى جرندى .Sydney Grundy » وقدمت

إلى مسرح جارك «Garrick theatre»

فى لندن سنة ١٨٩٠

ترجمة الأستاذ عبد العزيز عتيق

## الفصل الثانى

المنظر :

١ — نفس المنظر السابق . فى الصباح التالى يدخل الخادم « جويس » متقدما « دك » إلى الحجرة .

جويس : سأخبره ياسيدى أنك هنا ، ولكنه لم يستيقظ بعد .

دك : لم يستيقظ ؟ إلى هذا الوقت ؟

جويس : وكذلك سيدى ، لقد تناول كل منهما طعام الصباح فى الفراش . لقد أكل والدك بشوق وشره ، أما سيدى فلم يذق شيئا !

دك : أسهرا كثيرا ليلة أمس ؟

جويس : نعم ، كانا فى الخارج طول المساء ، إن سيدى فى هذا الصباح يبدو منحرف المزاج ، متغير الطباع . لقد كان مظهره وهو ينهض من الفراش يدل على أنه لم ينم كثيرا . أما السيد جريجورى — والدك — فيبدو فى هذا الصباح مرحا جدا .

دك : ومسز جولدفنش ، أين هي ؟

جويس : فى الكنيسة ، إنها تذهب دائما إلى الكنيسة فى يوم الأربعاء .

دك : حسن . سأنتظر «يخرج جويس» والدى مرح جدا فى هذا الصباح ؟ أذلك صحيح ؟ سأجرب حظى معه ، قد يتحمل ديونى ويدفعها لو كان مرحا حقا . ولكن باللعجب ماذا جرى ؟ «يدخل جريجورى» صباح الخير ياوالدى !

جريجورى : خيرا ، ماذا تريد ؟

دك : لقد أتيت لأحيي والدى فقط .

جريجورى : ماذا ؟ أمشيت كل هذه المسافة لتحيي والدك فقط ؟

دك : «على حدة» يظهر أنه غير مرح !!

جريجورى : كم تضيع وقتك ! أصغ إلىّ . الوقت من ذهب ، وكل من يضيّع وقته يضيّع ذهبا . لا تفعل ذلك مرة أخرى

دك : ولكنّ لى عملا فى هذا الشارع .

جريجورى : عمل ! إذا كنت قد أتيت لعمل فالأمر جد مخالف . أتقبض من هذا العمل شيئا ؟

دك : أرجو ذلك كثيرا .

جريجورى : إذاً هات يدك . لا يمكنك أن تأتى فى وقت أحسن من هذا الوقت . إننى مرح جدا هذا الصباح .

دك : «على حدة» تُرى ماذا قد سرّه ؟

جريجورى : لقد كسبت رهانا فى الليلة الماضية . نعم وقد أعطيت عمك درسا لم يُشفَ منه حتى الآن . ها ، ها !!!

دك : أكنتما تلعبان الورق ؟

جريجورى : الورق ؟ ومتى عرفت ذلك عن والدك ؟ إننى لا ألعب الورق ؟

دك : آه ، عفوا ياوالدى !

جريجورى : لقد أخبر شخص عمك فى خطاب بقصة طويلة عن الحياة فى نهاية سلم

دك : نهاية سلم ؟

جريجورى : نعم ، مع أب أعمى ، وأم كسيح . لقد راهنت على أن هـــذه القصة غير حقيقية .

دك : وكيف اكتشفتما الحقيقة ؟

جريجورى : قصدنا المكان لنكتشف الحقيقة . إن الأبله قد أعطى عنوانه ؛ لم يكن العنوان الصحيح ، ولكنه كان قريبا جدا من العنوان الحقيقى . ولهذا وجدناه .

دك : فى نهاية السلم ؟

جريجورى : كلا ، ولكن فى الدور الأول . لقد فتحت الباب فجأة ، وهناك رأيناه يشرب ويلعب الورق مع ثلاثة أصدقاء ؛ لقد كاد يغمى على عمك من هـــذا المنظر ؛ لابد أنك رأيته ؛ لقد ألقى بمنظاره الذهبى على الأرض وكسره ؛ لهذا أعرته منظارى .

دك : والأب الأعمى ؟

جريجورى : كان سكيراً أعمى . هذا كل مافى الأمر .

دك : والأم الكسيح ؟

جريجورى : لم نعثر لها على أثر .

دك : وماذا قال عمى ؟

جريجورى : قال : « بزارد ، سائق القديم ؟ » لم يزد على هذا ، لقد أرتج عليه .

دك : وماذا كسبت من هذا الرهان ؟

جريجورى : لاشىء أكثر من عشاء فاخر فى مطعم « سمبسن » لم يذق عمك الطعام ، ولهذا تمتعت بأكلة طيبة !

دك : الرحمة لعمى المريض .

جريجورى : لاشك أنه مريض من جراء هذه الصدمة ؛ إن ماحصل يابنى درس لمن يسمح ليده أن تمتد إلى جيبه كثيرا . يجب أن تتعلم من الدرس الذى أعطيته لعلك . أصغ «يادك».

دك : هأنذا مصغ .

جريجورى : لنشكر الله على أن أعطاك أبا مثلى . لقد استوليت على كل مافى الأسرة من عقل وذكاء .

دك : نعم ياوالدى، إنى أشكر الله كثيرا على ذلك

جريجورى : والآن بخصوص العمل

دك : أى عمل ؟

جريجورى : عملك .

دك : نعم ، إن لى موكلا فى هذا الشارع

جريجورى : كنت أظن أن موكليك يأتون إليك !

دك : هذه قاعدتى ؛ ولكن هذا مستثنى .

جريجورى : إذاً يجب أن تطلب منه أنت أيضا أتعابا استثنائية .

دك : من غير شك . سأطلب

جريجورى : كم؟

دك : جنيهين .

جريجورى : أرنيهما .

دك : لم آخذهما بعد .

جريجورى : قل لى ما العمل ، لأعرف هل طلبت منه أتعابا كافية فى نظير الحضور إليه أم لا .

دك : «يتحدث إلى نفسه» فكرة حسنة ؛ سأخبره بحالى ومركزى الحرج فى صورة قضية

جريجورى : والآن

دك : قضية عائلية ؛ إن موكلى رجل صغير ، مثابر مجد ، وأمين مستقيم

جريجورى : مثله يكوِّن ثروة

دك : وأبوه لايظهر أى انعطاف نحوه ، ولاعجب فأحسن الآباء من لايظهر لابنه الحب والحنو . وهذا الأب كريم . . . كريم بالنصائح والوصايا الذهبية ، غير أن أفكاره فى باب الاقتصاد وجمع المال صعبة قاسية

جريجورى : ينبغى أن يشكر على ان رُزِق أبا كهذا

دك : إنه شاكر ، ولكنه لسوء الحظ وقع فى دين صغير .

جريجورى : وقع فى دين ؟

دك : ليس كبيرا ، إنه مائتا جنيه فقط .

جريجورى : أخبر موكلك أنه مجرم صغير . من العار أن يكون ابنا لمثل هذا الأب العاقل !

دك : رويدا ياأبى ، فهناك كلام يجب أن يقال .

جريجورى : كفى كفى ! لا شىء يجب أن يقال بعد هـذا . لو كان ذلك ابنى لأجبرته أن يقضى بقية أيامه فى ماجأ . ألسنا متفقين ؟ أليس موكلك مجرما صغيرا . . . ؟

دك : حسن . . .

جريجورى : أتوافقنى على أنه مجرم صغير ؟

دك : نعم . . . إنه مجرم

جريجورى : إذاً هات يدك .

دك : «على حدة» يجب أن أحاول معه مرة أخرى فيما بعد .

جريجورى : أنت محاميه وناصحه ، فأخبره أنه مجرم ، وطالبه بجنيهين أتعابا لهذه النصيحة .

دك : أتظن أن هذا المبلغ يكفى ؟

جريجورى : هذا إذا لم تقدر أن تحصل على أكثر . والآن اذهب لتراه . تسلمْ المبلغ وأحضره إلى حجرتك أولا ، سآتى للغذاء ، ولألقى نظرة على أثاث منزلك ، لاتنسَ .

دك : متى تأتى ؟

جريجورى : فى الساعة الواحدة .

دك : إذا صباح الخير ياوالدى .

جريجورى : دك ، كم أنا مسرور منك . إنك شهادة لى أفتخر بها. إنك مستشار عاقل ، كما إنك ماهر فى جمع المال . هات يدك . صباح الخير .

( يخرج دك فى حزن )

( يدخلُ جولدفنش شاحبا منقبضا . فى الفصل الأول كان لابسا منظاره ذا الاطار الذهبى ، ولكنه منذ هذا الحادث ، وبعد أن كسر منظاره الذهبى ، يلبس منظار أخيه جريجورى ، هذا المنظار ذا الاطار الأسود ، وقد غير هذا المنظار معالم وجهه — ينظر إلى أخيه نظرة جامدة دون أن يبتسم ) .

جريجورى : «حينما جلس جولدفنش» والآن كيف حالك .

جولدفنش : لست حسنا اليوم .

جريجورى : يظهر أن ماحصل البارحة لايتفق مع ميولك .

جولدفنش : لقد تأخرنا الليلة الماضية خارج المنزل طويلا — وليس ذلك من عادتى .

جريجورى : وكيف تمتعت بالمسرح ؟

جولدفنش : لم أتمتع بشىء مطلقا .

جريجورى : لاشك أنك متأثر قليلا بما حدث . ألا رسائل جديدة عن آباء عمى فى هذا الصباح ؟

جولدفنش : جريجورى !

جريجورى : ولا عن أمهات كسيحات ؟ آه ! يظهر أنك لاتحب الكلام فى هذا

جولدفنش : إن « بزارد » رجل منافق . وماذا يكون ؟ إنه أحد الطيور الشرهة !

جريجورى : كلهم متشابهون . إننى أعرفهم .

جولدفنش : هل دفعتُ ثمن العشاء ؟

جريجورى : نعم ، لقد خسرتَ الرهان ودفعتَ .

جولدفنش : جريجورى ، أرجوك ، لاتتكلم كثيرا عن هذا الموضوع . لقد قطعت الأمل من السائق .

جريجورى : لقد كان عشاء فاخرا ، كم دفعت ؟

جولدفنش : لا أتذكر .

جريجورى : لاتتذكر ؟

جولدفنش : نعم . فأنت الذى أمرت بإحضاره .

جريجورى : ولكنك دفعت ثمنه !

جولدفنش : لم أنظر فى قائمة الحساب . آه هاهى ذى القائمة ، لاتزال معى . جنيهين ونصف جنيه .

جريجورى : جنيهين ونصف جنيه ؟ هذا كثير جدا .

جولدفنش : هاهنا الأصناف . سمك . خمسة قروش .

جريجورى : لم آكل سمكا !

جولدفنش . ربما كنتُ أنا .

جريجورى . أنت لم تأكل شيئا !

جولدفنش . غاطة ! ربما لم أقرأ القائمة صحيحا . لستُ معتادا على مناظارك . وعلى أى حال فالأشياء تبدو مختلفة من خلال هذا المنظار

جريجورى : غلطة ؟ إننى أسمى ذلك سرقة .

جولدفنش : ياللعجب ، لقد أكرمتُ هذا الخادم كثيرا ، فقد ظل يخدمنى مدة طويلة ، ومع ذلك فالمسألة كما ترى ؟ سمك بخمسة قروش ! !

جريجورى : ألم أخبرك أنهم جميعا متشابهون ؟

جولدفنش : رباه من يقدر على تصديقه ؟ خادم مائدتى القديم ! أيجب أن أقطع الأمل من الخدم كما قطعته من السائق ؟

جريجورى : لقد اعتدت قبل دفع أى شىء أن أراجعه أولا . وغير هذا فإنى لاأترك مشروبا فى خزانة الشراب ، فمن المحتمل أن يختفى وبدهشنى أنك تترك شرابك طليقا فى أيدى الخدم !

جولدفنش : إن خادمى « جويس » قد استمر معى عشر سنوات ، وإنى لآتمنه على حياتى .

جريجورى : ليس على زجاجة نبيذ ! إنهم جميعا متشابهون كما أخبرتك . يظهر أنك أبله !

جولدفنش : جريجورى !

جريجورى : لقد أثبتّ البلاهة . أثبتّها تماما على نفسك .

جولدفنش : كيف ؟ وبأى طريقة ؟

جريجورى : ألم تتزوج فتاة صغيرة؟

جولدفنش : ذلك دليل على عقلى الناضج .

جريجورى : ها ، رجل عجوز مثلك !

جولدفنش : رجل عجوز . لست عجوزا جدا .

جريجورى : لن ترى الستين أبدا .

جولدفنش : ولكنى سأرى الخامسة والستين إذا عشت .

جريجورى : نعم ، وهى سترها أيضا .

جولدفنش : ماذا تعنى ؟

جريجورى : أعنى أنك لن تقدر على الحياة طويلا . وإذا عشت طويلا فاتندم على هذا العمل . إنه عمل ضد الطبيعة .

جولدفنش : ضد الطبيعة ؟ أعندما يتزوج الشيخ المُسِنُّ امرأة صغيرة يكون ضد الطبيعة ؟

جريجورى : ضد الطبيعة أن تتزوج المرأة الصغيرة بالشيخ المسن . إنها تزوجتك فقط لمالك وثروتك . ولكن إلى متى تظل قانعة بشيخ مسن مثلك ؟ إن الزوجات الصغيرات جميعَهن متشابهات . وأنا أعرفهن !

جولدفنش : ولكنك لا تعرف زوجتى . إنها تحبنى وتحب منزلها ، وهى هادئة الطباع ، تحب الذهاب إلى كنيستها .

جريجورى : ويحك ! تلك أخطر أنواع النساء !

جولدفنش : إنها فى الكنيسة هذا الصباح .

جريجورى : فى الكنيسة ؟ كم عمر القسيس ؟

جولدفنش : الأب (لُفِى بُوند) Lavi bond ؟ إنه لا يتجاوز الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين على الأكثر .

جريجورى : أهو جميل ؟

جولدفنش : جدا .

جريجورى : آه .. إننى أعرف أولئك الآباء «القساوسة» !

جولدفنش : ماذا ؟ أتريد أن تحنقنى عليه وتنفرنى منه ؟ هيهات أن تنجح . إن الأب (لُفِى بوند) نبيل ، وأنا أكبره وأحترمه .

جريجورى : ويل للأزواج المسنين ! لتسرْ فى الحياة على أسلوبك الخاص ، ولكن إياك أن تقول فيما بعد إنى لم أنصحك . واسمح لى ، فإنى خارج لأتغدى اليوم مع «دك» .

جولدفنش : مع السلامة .

جريجورى : كان ينبغى أن أكون فى منزل «دك» الآن ، ولكنى عندما نظرتك شاحبا حزينا رأيت أن أنتظر لأخفف عنك ببعض كلمات. صباح الخير

( يخرج )

جولدفنش: إن جريجورى لم يتهذب عن آخر مرة رأيته فيها . بل لقد ازداد سوء ظنه وشكّه فى كل شىء . هو مخطىء إذا ظن أنى بسبب حادثة ( بزدّاد ) السائق يجب أن أشك فى كل شخص حتى ... زوجتى ! إننى أصبحت أشك فقط فى السائقين وخدم المائدة .

( يمشى إلى خزانة أوانى المائدة وينظر إلى زجاجة النبيذ )

ليس خدمى ، وليس بالتأكيد « جويس » خادمى الطيب الأمين الذى يخدمنى منذ عشر سنوات . إنه لا يمكن أن يسرق من نبيذى .

( يخرج منديلا من جيبه ويقيس ارتفاع النبيذ فى الزجاجة ، ثم يعقد عقدة فى منديله )

أظن جريجورى يقيس ذلك ، ويعقد عقدة ليتأكد من أن أحدا لا يمس نبيذه ، ينبغى أن أخجل ( يرفع المنظار عن عينيه وينظفه ) على أى حال إن منظار جريجورى لا يوافقنى

( يدخل بارثولوميو الحذاء ، ومعه حذاءان جديدان )

بارثولوميو : إن خادمك أخبرنى أن أصعد إليك ياسيدى .

جولدفنش : هل أحضرت أحذيتى ؟

بارثولوميو : اثنين فقط ياسيدى .

جولدفنش : أهكذا صنعتهما بسرعة ؟ لقد أرسلته إليك أمس فأحضرتهما اليوم . أتصنع حذائين فى يوم واحد ؟

بارثولوميو : نعم ياسيدى ، فقد اشتغلت فيهما طول ليلة أمس حتى انتهيت منهما

جولدفنش : ما أشق عمل الحذائين ! ( يتحدث الى نفسه ) لو كنتُ أفكر مثل جريجورى .. بارثولوميو

بارثولوميو : نعم ، سيدى .

جولدفنش : إن أخى جريجورى إذا سمع أنك صنعت حذائين فى يوم واحد قد يقول إنهما قديمان . وإنه يعرفك .

بارثولوميو : لا ياسيدى ، إنهما جديدان جدا

جولدفنش : الجلد ؟

بارتولوميو : لا ، الحذاءان . والجلد أيضا من أحسن الأنواع . إنه جلد عجل

( يدخل حذاء آخر ومعه حذاءان )

جولدفنش : حذاء آخر ؟ رباه أتمطر السماء حذائين ؟ أهذان لابنى ؟

الحذاء : نعم ، سيدى . إن جلدهما من أحسن الأنواع . إنه جلد عجل. أما الأحذية التى معك فهى من جلد بقرة . تستطيع أن ترى الفرق

( يعطيه حذاء )

جولدفنش : ( يعطى الحذاء لبارثولوميو ) أى جلد ذلك ؟ ( بارثولوميو يختبر جلد الحذاء )

بارثولوميو : جلد بقرة ياسيدى أما أحذيتى فمن جلد عجل .

جولدفنش : « يتكلم الى نفسه وفى كل يد حذاء » إن أحد هذين الرجلين منافق ، وربما كان كلاهما « بصوت عال » لقد انتهينا من أمر الأحذية، تفضلا

الحذاءان: شكرا ياسيدى « يخرجان »

جولدفنش : « واضعا كل الاحذيه على المنضدة أمامه » لقد قطعت الأمل من خدم المائدة، كما قطعت الأمل من السائقين قبلهم ، والآن يجب أن أقطع الأمل من الحذائين !

إن الساعة الحادية عشرة أوشكت على الانتصاف ، وزوجتى لم ترجع بعد إلى المنزل. إن اجتماعهم فى هذا اليوم طويل جدا! لو كان جريجورى هنا الآن لادّعى أن اجتماعات الأربعاء فى الكنيسة قصيرة .

عجيب أخى جريجورى ، إنه يثير دخانا كثيفا حول كل شىء ولكنى لا أنكر أن جانبا كبيراً من الحق فيما يقول . لست صغيرا جدا كما كنت واهما ، و ( ماريون ) Marion زوجتى جميلة . إنها تقضى أوقاتا كثيرة فى الكنيسة و ( لُفِى بوند ) قسيس شاب ، وقوى جذاب . طالما تردد على منزلنا فى طلب المال مساعدة للفقراء أحقا إنه كان يأتى من أجل ذلك ؟ رباه إننى الآن أظلم زوجتى ، وأسىء إليها . ولكن وِزْر ذلك كله على جريجورى !! (برفع المنظار) ما الرأى فى هذا المنظار ، كل شىء يظهر لى من خلاله أخضر . لا بل أسود ! ( ينظفه ثم يلبسه ثانيا . يدخل پرسى ) .

پرسى : أريد أن أتكلم إليك يا أبى .

جولدفنش : وأنا أيضا أريد أن أتحدث إليك يا بُنىّ . إن لدى شيئا أريد أن أخبرك به . إن حذّاءك رجل منافق ، وكذلك حذائى ، هـذا ( يلمس جلد الاحذية ) ليس جلد عجل ، وإنما هو جلد بقرة .

پرسى : عمَّ تتحدث يا أبى ؟

جولدفنش : دعنى أنصحك ، لتشك دائما فى الحذّائين وخدم المائدة ؛ إذا لم تراجع قوائم حسابهم ، فإنهم سيقيدون عليك فيها سمكا ، على حين أنك لم تره ولم تأكله . تذكر ذلك يابنى . والآن ماذا تريد !

پرسى : أريد التكلم إليك فى موضوع سبق أن تحدثت به إلى مسز جولدفنش .

جولدفنش : إلى زوجتى ! ( يتحدث إلى نفسه ) أين هى الآن ! لا أثر لها !

پرسى : نعم ، إلى زوجتك .

جولدفنش : أمك ! لماذا لا تدعوها أمك !

پرسى : يعدنى الناسُ أحمقَ . إنها صغيرة جدا .

جولدفنش : أصغر من أن تكون زوجتى !

پرسى : لا ، لا ، صغيرة عن أن تكون أمى ( لنفسه ) ماذا وراءه ؟

جولدفنش : ( يتحدث إلى نفسه ) إنه يتفق مع جريجورى ( بصوت عال ) لماذا لم تستمر فى الكلام ؟

پرسى : لأختصر قصة طويلة . . . إننى أحب . . . . . .

جولدفنش : أمك ؟ طبعا!

پرسى : طبعا ، أنا أحب أمى . ومن لايحب أمه ؟

جولدفنش : أحبّ كلاهما الآخر ، ( متكلما إلى نفسه ) هل أدرك مايدور بنفسى؟

پرسى : وأحب شخصا آخر . أحب ابنة ( لوريمر ) أريد أن أتزوجها !

جولدفنش : « لُوسى » ! إنها ملاك ، ملاك كامل !

پرسى : إذاً ستسمح لى ياوالدى !

جولدفنش : من كل قلبى . لقد أحسنتَ الأختيار ( يرفع المنظار عن عينيه ) أتمنى لك كل هناءة وسعادة .

پرسى : لقد تكلمت إلى أبيها .

جولدفنش : وماذا قال ؟

پرسى : قال . ماذا تنتظر ياپرسى أن أقول ؟ لاسعادة لابنتى أرجوها فوق هذا ، إنك تشبه أباك . ويقينى أنك تكون لها خير زوج . وكل ما أستطيع أن قوله اليوم هو أن تفعل كما أفعل فترجو !

جولدفنش : أقال ( لوريمر ) ذلك ؟ لا ، لم يقله بالتأكيد إن مركزه الحالى لايسمح له أن يقول كلاما كهذا .

پرسى : مركزه ؟ لماذا ؟ إن مركزه حسن كمركزنا

جولدفنش : لقد خسر كل أمواله . وقد نويت أن أقرضه خمسة عشر ألف جنيه ، وسيأتى الليلة من أجل هذا .

پرسى : إن السيد ( لوريمر ) نبيل أمين . وأعتقد أنه سيرد إليك المبلغ .

جولدفنش : لاشك فيه . إنه صديق لاسائق . وليس من الذوق وهو فى هذه الظروف السيئة ، أن أفاتحه فى أمر زواجك بابنته . هو يعرف أنى سأعطيك من المال فوق ماتحتاج لمعيشتك الجديدة ، كما يعرف أن ابنته لن تملك شيئا . لو كان عمك جريجورى هنا الآن ، لسمعته يقول . . . .

پرسى : لست أحفل بقوله . إن الذى يترك ابنه يجوب الشوارع هنا كـكلب هزيل ، لارحمة فى قلبه ، ولا يؤخذ بقوله !

جولدفنش : يابنى ؛ عمك يعرف الدنيا ، وقد بدأت أتشبه به منذ الليلة الماضية السائقون ، وخدم المائدة ، والحذاءون كلهم جميعا متشابهون . إننى أعرفهم . والآن أقطع الأمل من «لوريمر» أيضا .

پرسى : ولـكن السيد «لوريمر» صديقك القديم . كيف يمـكنك أن تشك فى صديق قديم ؟ إننى لم أسمعك ياوالدى قبل اليوم تتكلم بقسوة عن أى إنسان !

جولدفنش : لاذنب علىّ فى ذلك . إن الوزر فيه على عمك جريجورى ( ينظر الى ساعة على الحائط ) نحن الآن فى الثانية ، ومع ذلك لم تعد . سأخرج لأبحث عنها .

پرسى : أين تذهب ياوالدى ؟

جولدفنش : إلى الـكنيسة لأحضر أمك .

( يخرج مسرعا )

پرسى : رباه ، لقد بدأ ينطوى على شىء غير صحيح ! إن روحا غريبة بدأت تساوره وتعذبه ! إلى الـكنيسة ليحضر أمى ؟ من كان معه فى الحجرة المجاورة منذ ساعة ونصف ساعة ؟ إن عشاءه البارحة

قد قلبه رأسا على عقب؛ إننى أرى شخصا آخر غير والدى منذ اليوم !

( تدخل مسز جولد )

مسز جولد : پرسى ، ألم تر مظلتى فى أى مكان !

پرسى : لا يا أمى . سأدعوك منذ اليوم أمى .

مسز جولد : « ضاحكة » من يقول هذا !

پرسى : أبى

مسز جولد : لم أراه منذ الصباح . عندما رجعت من الكنيسة كان مشغولا مع عمك فى حديث . لم أشأ أن أقطع حديثهما . أين هو الآن !

پرسى : ذهب إلى الكنيسة

مسز جولد : إلى الكنيسة !

پرسى : نعم ، ليحضرك إلى المنزل .

مسز جولد : كم هو عطوف ! لا بأس فقد يحضر مظلتى معه . لقد تركتها بعد الكلام مع الأب « لفى بوند » عن مهرجان الأطفال . لقد وعدت أن أكسو عروسا للأطفال ( تفتح درجها ، وتضع فيه الكتاب المقدس الذى كان معها )

پرسى : يالله ! ماذلك المظروف الجميل ؟

مسز جولد : آه ! أرأيته ؟ ذلك خاص جدا . إنه يحتوى على رسائل أبيك التى كان يكتبها إلى .

پرسى : هل احتفظت برسائله ؟

مسز جولد : نعم . بكل سطر كتبه إلى . تصور ياپرسى أنه لا يعرف عنها شيئا، إنى أحب هذه الرسائل ولا أقدر ان ابتعد عنها . إن رسائل الحبيب الذى يصير زوجا تذكر المرأة منا بأسعد أيامها ، بالأيام

التى تكون فيها ملاكا فى سمت (١) انسان . پرسى ، يجب أن تفتخر بأبيك .

پرسى : نحن كلانا نفتخر به.

مسز جولد : تعال سأريك العروس

( يخرجان — يدخل جريجورى مع دك )

جريجورى . لقد كان غداؤك طيبا يابنى . هات يدك . أظنك كنت تفهم أنى لا أحبك لأنى لا أمدك بالنقود أو الهدايا . ذلك كان لمصلحتك ونفعك . لو أنى أصغيت لقلبى ، لكنتَ الآن شابا طائشا متعطلا.

دك . ليتك أصغيت إلى قلبك .

جريجورى . لا ، لا ، هذا خطأ . يجب أن تعتمد فى حياتك على نفسك، يجب أن تروض نفسك منذ الصغر على الجد والعمل والكفاح ، وأن تتعلم قيمة النقود . أصغ يابنىّ .

فى كل رجل منا روح شريرة ، روحٌ تزيّن له الدَّعةَ وتقوده إلى الهلاك إذ انقاد إليها ، وصلاحه يتوقف على تطهير ذاته من هذه الروح الخبيثة، ومسلكى السابق معك لم يكن إلا لتطهير نفسك من تلك الروح بأوزارها .

دك : ولكن درسك لايزال قاسيا علىّ .

جريجورى . وكذلك الدواء الناجع قاس مرير . إنك يا ( دك ) كلُّ ما أملك فى هذه الدنيا ، كل الذى من أجله أسعى وأحيا ، ولا تنس أن عندى مائتى ألف جنيه ، وعندما تصير غنيا مشهورا ، ستستولى عليها .

دك . شكرا لك .

جريجورى . هات يدك . إنى فخور بك . لقد نشأت رجلا صغيرا وديعا. يجب أن أعطيك شيئاً .

---

(١) صورة

دك : أأنت شارع فى أن تعطينى شيئاً؟

جريجورى : نعم ، دبوسى الماسىّ . إن قيمته ستون جنيها . احذر أن تضيعه لقد اعتدت أن ألبسه فى أيام الآحاد فقط منذ عشرين سنة . إذا كنتَ لاتستطيع أن تحافظ عليه ، أو كان مصيره معك إلى الضياع والسرقة فلا تأخذه .

دك : آه ، لا ، ابداً .

جريجورى : لاينبغى أن أعطيك إياه ، إنك لاتزال أصغر من أن تعنى به . آه ، إنى أشعر بدوار فى رأسى .

( يضع رأسه على يده )

دك : ( يحدث نفسه ) الفرصة مواتية الآن . والدى ، أريد أن أتكلم .

جريجورى : ( بدون حركة ) استمر ، إنى مصغ .

دك : إنّ لدى بعض شىء فهل تفسح صدرك لسماعه ؟ إن الموكل الذى تكلمت إليك عنه . الرجلَ الصغير الذى لايتكرم عليه أبوه إلا بالنصائح والوصايا ، الرجلَ الذى أثقل بالدين — إن هذا الرجل الذى قلت عنه إنه مجرم لم يكن موكلا قط . إنه ولدك ( دك ) ( يظل جريجورى كما كان قبلا ) نعم أنا الذى استدان مائتى جنيه ، سأكون ممتنا إذا رحمتنى ودفعت دينى ( ينتظر ) لايتكلم ، إنه لاشك يتقبل كلماتى بقبول حسن .

جريجورى : ( رافعا رأسه ) دك .

دك : نعم ، والدى

جريجورى : هل نمتُ كثيرا !

دك : نمتَ كثيرا ؟ ( متحدثا الى نفسه ) أكان نائما ؟ إذاً لم يسمع أى كلمة

جريجورى : يجب أن أضطجع رويدا . إن طعامك قد تصاعد إلى رأسى .

قابلنى بفندق ( جريفن ) فى الساعة الخامسة. أين ذهب دبوسى الماسى؟

دك : إنه معى . لقد أعطيته لى .

جريجورى : متى ؟

دك :الآن؟

جريجورى : لا بد أنى كنت سكران ( يخرج جريجورى ) .

دك : أبدا ان أقدر على سؤاله مرة أخرى . لقد استجمعت كل شجاعتى لأخبره، وهيهات أن أقدر على ذلك مرة أخرى . رباه ، أشعر بأنى محموم جداً : يالقسوة الآباء ( يمشى إلى خزانة المائدة ) نبيذ ؟ ذلك حقا ما أريد الآن !

[ يصب قليلا من الزجاجة التى قاسها عمه بمنديله ثم يشرب . يدخل جويس ]

دك : جويس . أحضر لى قلما ومحبرة وورقا.

جويس : ستجدها جميعا هنا ياسيدى ( لنفسه ) هذا الرجل الصغير يتصرف كأنما هو فى منزله الحقيقى !

دك : ( يشرب الكأس ثم يجلس فيكتب )

سليمان إسحاق .

دع القانون يأخذ طريقه ياسيدى ، تستطيع أن تقبض علىّ فى الساعة الخامسة بفندق « جريفن » griffin سيكون والدى حاضرا ، وربما يدفع .

دك .

فكرة حسنة — سيعرف الحقيقة بهذه الوسيلة ، ولن أضطر إلى قول أى شىء . قد يدفع المبلغ أولا يدفع ، على أى حال سأرسل الخطاب ، فإذا لم يُجْدِ سألت عمى ( بن[1] ) أن يدفع عنى

(١) اختصار بنيامين جولدفنش.

هذا المبلغ . إنه رحيم كريم! رباه لماذا لم يكن أبى مثله . ( يخرج ).

[ يدخل پرسى ومسز جولد ]

مسز جولد : لقد أكل عمك بِشره . إن حركاته أثناء الأكل غريبة !

پرسى : إنه لا يتردد كثيرا على لندن ، فالتمسى له العذر .

مسز جولد : على كل لست متضررة منه ، ولا أبالى متى يعود إلى ( شيفلد ) .

پرسى : تصورى كيف حاول أن يقبلك اليوم ؟

مسز جولد : إنه كان أحمق جدا . أين هو الآن ؟

پرسى : مضطجع فى حجرة النوم . سأذهب إليه ( يخرج ) .

مسز جولد : كم سيضحك ( بن ) عندما أخبره بمحاولة جريجورى ؟ لقد تأخر كثيرا فى الخارج . أرجو أن يكون قد وجد مظلتى .

[ يدخل جولدفنش والاضطراب باد عليه ]

جولدفنش : أأنت هنا أيتها السيدة ؟

مسز جولد : نعم إننى هنا منذ وقت طويل . آه لقد وجدتها .

جولدفنش : نعم ، وجدتها . هذه هى مظلتك .

مسز جولد : ماذا جرى؟ أأنت محموم ؟

جولدفنش : كيف تجرئين على سؤالى ؟ أهذه مظلتك ؟ أتقدرين أن تزعمى أن هذه ليست مظلتك .

مسز جولد : أبدا ياعزيزى ، إنها مظلتى .

جولدفنش : حسن ، لقد اعترفت بأنها مظلتها . وهل تستطيع أن تنكر ؟ إن اسمها منقوش على مقبضها .

مسز جولد : ( متحدثة إلى نفسها ) أأكل « بن » كثيرا ؟

جولدفنش : ماذا كنت تفعلين فى حجرة القسيس أيتها السيدة ؟

مسز جولد : ذهبت لأتكلم إلى الأب « لفى بوند »

جولدفنش : « لفى بوند » ؟ إنها تعترف أيضا .

مسز جولد : عن حفلة الشاى والعروس التى سأكسوها .

جولدفنش : حفلة شاى ! عروس ! أعرف هذه الحفلة ، وأعرف تلك العروس

مسز جولد : لاشك أن ( بن ) أكل كثيرا .

جولدفنش : طبعا أنهم كل شىء . إننى شيخ مسن ، وأنت امرأة صغيرة . النساء الصغيرات جميعهن متشابهات . إننى أعرفهن . والآن أصبحت أفهم لماذا تذهبين إلى الكنيسة كثيرا .

مسز جولد : هل الذهاب إلى الكنيسة جريمة كبيرة جدا ؟

جولدفنش : إن ( لفى بوند ) لم يتجاوز الثانية والثلاثين ، وأنت لاتقنعين بشيخ مُسن مثلى ! أعطينى رسائله . إننى أطالب رسائله !

مسز جولد : إنه لم يكتب إلى أبدا

جولدفنش : تكلمى الصدق . إن هناك دائما رسائل

مسز جولد : ماذا بيننا يدعوه أن يكتب إلى

جولدفنش : نعم ماذا يدعوه أن يكتب اليك ؟ ولماذا يقبلك أيتها السيدة ؟

مسز جولد : ( بغضب ) إنه لم يقبلنى ابدا

جولدفنش : أتعنين مانقولين ؟

مسز جولد : نعم أعنيه وأقصده !

جولدفنش : إن هذا الكلام غير مقنع .

مسز جولد : لاشك أن أعصابك متعبة

جولدفنش : ألم يحاول أى رجل أن يقبلك أبدا ؟

مسز جولد : ( ضاحكة ) بلى — شخص واحد . . . هـذا الصباح !

جولدفنش : ماسمه ؟ إننى أطالب اسمه .

مسز جولد : لن أذكره عقابا لك . ( تخرج )

جولدفنش : سأكشفه . وسأكتشف رسائله . إن جميع رسائله فى درجها (يذهب إلى الدرج) مقفل . ولكنى سأحصل عليها . سأسأل جريجورى يجب أن أصدق فقط ماأرى . آه ، ولكنى أشعر بالحمى . يجب أن أتناول بعض النبيذ .

(يذهب إلى خزانة أدوات المائدة ، وعندما يهم بصب قليل من النبيذ يرى الكأس التى استعملتها دك فيبتسم — ينظر إلى الزجاجة ثم يخرج المديل من جيبه ويقيس ارتفاع السائل كما فعل من قبل) حقا إن الأمر كما قدرت . لقد شرب (جويس) قليلا من نبيذى . أيمكن أن يتصور أن (جويس) الذى عاش معى عشر سنوات ، والذى مارفضت له طلبا ، يخوننى أيضا ؟ يجب أن أقطع الأمل من الخدم أيضا !

(يدخل دك)

دك : (لنفسه) إنه الآن وحده . سأخبره بكل شىء . لست خائفا من عمى (بن) هذا الشيخ المحسن . عمى .

جولدفنش : آه ، دك . إنى سعيد بحضورك . لقد أتيتَ فى اللحظة المناسبة إنها لدنيا محزنة !

دك : أهى دنيا محزنة ياعمى ؟

جولدفنش : أجل ، إنها دنيا الشر والأشرار . ولكنك أحد أبطالها يا (دك) لقد ظننتُ فى وقت ما أنك أضعتَ وقتك ونقودك ، ولكنى كنت مخطئا . أنت بطل . لم أكن أعرف — حتى ليلة أمس — المصاعب الجمة التى واجهتك ياولدى . ولم أكن أعرف كذلك كيف كنت تعمل وتتحمل مع فقرك وحاجتك ، فقد كنتَ صامتا . إنك لم تخبرنى مطلقا عن متاعبك . أنت بطل يا (دك)

دك : ولكنْ لدى شىء أريد أن أخبرك به ياعمى . شىء مختلف عن هذا .

جولدفنش : شيء مختلف ؟

دك : لست بطلا ، ولست محاميا ، ولست ذا قضايا وموكلين ، ولست أكسب فى الأسبوع خمسة جنيهات .

جولدفنش : ولكن والدك معه صورة شمسية لك وأنت فى لباس المحامين

دك : إنها ثياب ( پرسى ) لقد اعارنى إياها لأرتسم فيها .

جولدفنش : ماذا ؟ أأنت منافق أيضا كالباقين ؟

دك : لم أقدر على دراسة الحقوق . إنها تكلف نفقات كثيرة كما تعلم . ولم يكن لدى نقود .

جولدفنش : كان يلزم أن تطالب من والدك .

دك : لقد طلبت منه بعض شيء لآكل فقط .

جولدفنش : لكن ما كان يصح أن تضلل والدك .

دك : كنت خائفا منه ، وقد دفعت القسط الأول من نفقات امتحان الحقوق ، وهذا ما ألجأنى إلى الاستدانة .

جولدفنش : ألجأك إلى الاستدانة ؟ كم دينك ؟

دك : نحو مائتى جنيه .

جولدفنش ( جالسا ليحرر حوالة « شيكا » ) أذلك كل دينك ؟ هل مائتا جنيه تصلح حياتك وتنظمها ؟

دك : لقد كنت شارعا فى طلب هذا المبلغ منك لثقتى بطيبه قلبك . . .

جولدفنش : ثقتك بطيبة قلبى ؟

دك : إننى الآن خال من جميع الأعمال !

جولدفنش : خال من جميع الأعمال ؟ أين سمعت هذه الكلمات من قبل ؟

دك : ألا تكون كريما فتساعدنى مرة أخرى ؟

جولدفنش : لقد أخطأتَ فى تضليل والدك.

دك : لكن مع والد أعمى كوالدى . . .

جولدفنش : ( ملتيا بقلمه ) آه الوالد الأعمى ؟

دك : نعم أعمى فى سبيل مصالحه .

جولدفنش : كفى كفى ؛ أعرف البقية.وأمك كسيح

دك : إن أمى قد توفيت ياعمى .

جولدفنش : أبدا ، إن المحتضرة هى زوجتك ، وأمك كسيح ، وأطفالك يصيحون من أجل الخبز .

دك : ليس لى زوجة ، وليس لى أطفال .

جولدفنش : لديك ؛ وأنا أعرفهم ، إنهم يأتون جميعا من ( شيفلد ).لقدسمعت تلك القصة من قبل .

دك : حسن جدا سينقلب عمى والدا جديدا يضايقنى . إننى ذاهب . أولا إلى فندق ( جريفن ) ، وثانيا إلى سجن (هولواى).Holloway

[ يخرج دك ]

جولدفنش : وها أنا ذا أقطع الأمل من أبناء الأخ .

[ يدخل جويس ]

جولدفنش : جويس . أعطنى مفاتيحك .

جويس : مفاتيحى ياسيدى ؟

جولدفنش : نعم .

جويس : مشيئتك [ يعطى جويس سيده مجموعة من المفاتيح ] .

جولدفنش : واطلب من سيدتك مفاتيحها أيضا .

جويس : أأطلب منها أنا ؟

جولدفنش : نعم اطلب منها مفاتيحها .

[ يخرج جويس ]

جولدفنش : إن جريجورى محق . الحياة جميعها متشابهة . السائقون ، ومنظمو المائدة ، والحذاءون ، والخدم ، والأصدقاء ، وأبناء الأخوة ، والزوجات — جميعهم سواء ؛ لقد عشت فيما مضى أبله ، ولكنى قد تعلمت الحكمة أخيرا . يجب أن أقطع الأمل منهم جميعا إلا جريجورى . سأشرف من الآن على كل شىء بنفسى .

( يدخل جويس ثانيا )

جويس : هاهى ذى المفاتيح ياسيدى . وسيدتى تقول . . . .

جولدفنش : اذهب .

( يخرج جويس )

جولدفنش : مفاتيحها ؟ لاشك أنى واجد رسائلها ، رسائل هذا الأب المنافق أيضا ( يمشى إلى درجها ) ستكون هنا . ماهذا ؟ ( يخرج مظروفا كبيرا ) رسائله ، لا ، لن أقرأها الآن ( يضعها فى جيبه ) لابد أنّ هناك رسائل أخرى ( يبحث فى الدرج مرة ثانية ) . ماهذا ؟ كتابها المقدس ، ربما كان هذا الكتاب يغير من رأيى فيها بالأمس ، ويخفف من ثورتى ، ولكنْ هيهات أن أخدع اليوم بمثل هذا . لقد ازددت عقلا وفهما وعلما . شكرا لجريجورى أخى وأستاذى . ولكن أين سعادتى ؟ لقد كنتُ بالأمس أسعدَ منى اليوم ! ماهذه الآية التى وضعتْ علامة أمامها ( يقرأ ) : « فى الحكمة الكثيرة هم كثير ، وكلما ازداد الانسان علما ازداد هما وحزنا » .

( يرفع منظاره ، ثم يجلس ناظرا إلى الكتاب المقدس بين يديه )

﴿ نهاية الفصل الثانى ﴾

ملحوظة : تمثيلها ممنوع إلا باذن من المعرب

( محمد على الملكية )

عبد العزيز عتيق

# أمثـــــل الطرق

## لتدريس اللغة العربية

نقلنا إلى القراء فى العدد الماضى من صحيفة دار العلوم ، أن لجنة تألفت فى وزارة المعارف لدراسة أمثل الطرق لتدريس اللغة العربية ، وكان سبب دعوتها إلى الاجتماع كلمة بدر بها عضو من أعضاء اللجنة الموكول إليها تحديد السن التى ينبغى أن تبدأ فيها دراسة اللغة الانجليزية . ولقد لخصنا للقراء فى العدد الماضى مادار من المناقشات بين أعضاء هذه اللجنة فى جلستها الأولى، وما أجاب به معالى وزير المعارف .

فاليوم نقول : إن أعضاء هذه اللجنة قد عقدوا بعد ذلك جلسات عدة . ليتبادلوا الرأى فيما اجتمعوا له ، وهو النظر فى أمثل الطرق لتدريس اللغة العربية بالمدارس الابتدائية والثانوية ، فقسموا أنفسهم شعبتين ، تنظر كل شعبة فى شأن مرحلة من مرحلتى التعليم العام ؛ أما شعبة المدارس الابتدائية فيرأسها صاحب العزة محمد أحمد جاد المولى بك ، وأعضاؤها حضرات الأساتذة : زكى المهندس أستاذ التربية بدار العلوم ، ومحمد عبد الواحد خلاف ناظر مدرسة فاروق الأول الثانوية ، وعلى خليل ناظر مدرسة عابدين الابتدائية ، وإسماعيل توفيق ناظر مدرسة مصر الجديدة الابتدائية ، والشيخ سيد مهدى شوشة المدرس الأول للغة العربية بالمدرسة الابراهيمية ، ومحمد سعيد العريان مدرس اللغة

العربية بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات ، ومحمد سيد أحمد النجار مدرس اللغة العربية بمدرسة شبرا الابتدائية للبنين، واختير الأستاذ محمد سعيد العريان مقرراً لها .

وأما شعبة المدارس الثانوية فيرأسها صاحب العزة على الجارم بك ، وأعضاؤها حضرات الأساتذة : حسن خالد ناظر مدرسة شبرا الثانوية ، والدكتور زكى مبارك المفتش بوزارة المعارف ، وبيلى الفار المفتش بوزارة المعارف ، وإبراهيم عبد النبي المدرس الأول للغة العربية بالمدرسة السنية، ومحمد موسى عفيفى المدرس الأول للغة العربية بالمدرسة السعيدية ، ومحمد شتا المدرس الأول للغة العربية بمدرسة الخديو إسماعيل ، وعبد الحليم سالم الموظف بإدارة الشئون العامة بوزارة المعارف . واختير الاستاذ محمد شتا مقرراً لها

ومضت كل شعبة من الشعبتين فى عملها . وتوالى اجتماعهما حتى انتهوا إلى رأى جميع ، ثم اجتمعت الشعبتان اجتماعا عاما لتبادل الرأى فيما قررت كل منهما ؛ ثم رفعت اللجنة تقريرها إلى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف برأيها فى أمثل الطرق لتدريس اللغة العربية ، فى مرحلتى التعليم الثانوى والابتدائى . وإلى القراء خلاصة ما انتهى اليه بحث اللجنة ، وهو ما يزال معروضاً على معالى الوزير لدراسته قبل الاخذ فى وسائل تنفيذه :

### ا — فى التعليم الابتدائى

تناولت اللجنة موضوعها من ست نواح .

١ — صلة رياض الأطفال بالمدارس الابتدائية .

٢ — الكتب المدرسية .

٣ — أساليب التدريس .

٤ — مكتبة التلميذ .

٥ — النشاط المدرسى واستغلاله للنهوض باللغة العربية .

٦ — المدرس .

— ١ —

أما صلة رياض الأطفال بالمدارس الابتدائية ، فقد أشارت اللجنة بالإبقاء على نظام رياض الأطفال الحالى ، على أن يعمل ترتيب خاص فى خلال السنة الأولى الابتدائية من شأنه أن يكفل التوازن بين قوى التلاميذ المختلفة ، سواء منهم من أتم دراسته فى رياض الأطفال ، ومن جاء من المدارس الأولية وغيرها.

وقد حرصت اللجنة فى هذه الناحية على التنبيه على مايأتى :

ا — زيادة العناية باللغة العربية فى رياض الأطفال .

ب — ضرورة حذف اللغة الانجليزية من السنة الأولى مبدئيا ، ريثما يتقرر تحديد السن التى ينبغى أن يبدأ فيها تعليم اللغة الأجنبية .

حـ — أن يكون مدرس اللغة العربية هو ( مدرس الفصل ) فى السنتين الأولى والثانية ، يدرس فيهما كل المواد .

— ٢ —

وترى اللجنة زيادة العناية بالكتب المدرسية فى المدارس الابتدائية ، ولتحقيق ذلك تشير بما يأتى :

ا — السهولة والتدرج فى لغة الكتاب وفى موضوعه .

ب — يكون أكثر الكتب فى المدارس الابتدائية قصصيا . بحيث تشمل القصص الموضوعة مبادىء الثقافة العامة مبثوثة فى تضاعيف الكلام لمناسباتها .

حـ — يراعى فيما يقدم للتلميذ من كتب المطالعة ، التنويع والكثرة ، مع العناية بطبع هذه الكتب وشكلها وصورها .

— ٣ —

وفى أساليب التدريس ، ترى اللجنة أن تكون اللغة العربية وحدة فى التدريس أساسها المطالعة فى كتب يتحقق فيها ماتقدم من شروط ، بحيث يمكن

أن تكون المطالعة فيها وسيلة إلى تدريس القواعد، والإنشاء، والمحفوظات، وغيرها من فروع اللغة.

وفى تقرير اللجنة عن أساليب التدريس نماذج تبين طريقة استخدام المطالعة أساسا لتدريس سائر فروع اللغة العربية، وإرشادات للمدرس إلى ما يأخذ وما يدع.

— ٤ —

وترى اللجنة للنهوض بالمكتبات المدرسية ما يأتى:

ا — تشجيع التأليف بالمكافأة المادية والأدبية.

ب — تكليف طائفة من الذين تخصصوا فى الكتابة للطفل ونجحوا فيما حاولوا أن يعملوا على تزويد مكتبة التلميذ بما يمكن أن يضعوا من القصص

ح — يقوم على شئون المكتبة مدرس خاص بها فارغ لها، ومن حقه إنفاق مبلغ مافى شراء النافع من الكتب.

د — يصحب مدرس اللغة العربية تلاميذه إلى المكتبة فى بعض دروس المطالعة باعتبار ذلك درسا من دروس اللغة العربية فى جدول التدريس.

— ٥ —

وتشير اللجنة بالعمل على استغلال النشاط المدرسى فى تقوية التلاميذ فى اللغة العربية، بالتمثيل وغيره، على أنها تشترط لذلك أن يخفف العمل عن المدرس الموكول إليه الاشراف على اللغة العربية فى أوقات النشاط المدرسى حتى لا يدفعه مايشعر من مشقة العمل على التهاون.

— ٦ —

ويتحدث تقرير اللجنة بعد ذلك عن المدرس قائلا:

« . . . إن كل إصلاح مقترح لا يؤتى ثمرته إلا إذا كان المدرس عنصرا من أهم عناصره، والمدرسون على اختلاف وجهتهم يشعرون بعظم تبعتهم

وزحمة أعمالهم ، لذلك تشير اللجنة على الوزارة أن تضع نظاما لتشجيع السابق منهم تشجيعا يحفز المتخلف إلى العمل ، وأن تخفف عنهم بعض الأعباء التى تستنفد وقتهم وتشغل الكثير منهم عن محاولة التزوّد فى المادة أو التجديد فى الطريقة ؛ ووسيلة ذلك ألا تزيد حصص مدرسى اللغات على عشرين حصة فى الأسبوع ، وألا يزيد عدد تلاميذ الفصل الواحد على خمسة وعشرين تلميذا . »

وتقترح اللجنة بعد ذلك على الوزارة ، أن تنشىء مجلة للمعلمين تعنى بعرض الآراء الجديدة فى فن التربية ؛ ليجد فيها المعلمون العون على التجديد والابتكار فى وسائلهم .

## ب — فى التعليم الثانوى

بحثت اللجنة هذا الموضوع من ثلاث نواح ، هى :

١ — الفروع التى تدرس فى مرحلة التعليم الثانوى ، وأمثل الطرق فى دراستها ( ماعدا السنة التوجيهية )

٢ — أهم العوامل التى لها الأثر فى ضعف التلاميذ وعدم اهتمامهم .

٣ — أهم الوسائل التى تحفز التلاميذ إلى العناية بدراسة اللغة العربية والإقبال عليها .

### ١

تناولت اللجنة بالبحث فروع اللغة العربية التى تدرس بالتعليم الثانوى فاقترحت أن تكون دراسة الأدب فى السنتين الأولى والثانية مقصورة على نصوص مختارة تمثل أغراضا مختلفة ، مع الإلمام بحياة الكاتب أو الشاعر ، وذكر المناسبة التى قيل من أجلها النص .

وتكون دراسة الأدب فى السنتين الثالثة والرابعة مقصورة على نصوص للشخصيات البارزة فى أزهى عصور الأدب : فى السنة الثالثة تختار النصوص

من العصر الفاطمى والعصر الأيوبى وعصر الأندلس ، وتختار للسنة الرابعة من عصر النبوة والعصر الأموى والعصر العباسى .

واقترحت اللجنة فيما يختص بالقواعد أن يبقى على المنهج المعدل .

وفيما يختص بالإنشاء رأت اللجنة تتبع الطريقة الآتية :

١ — تلخيص موضوع قرأه التلميذ .

٢ — تلخيص موضوع سمعه التلميذ .

٣ — الكتابة فى موضوع يختاره التلميذ أحيانا .

٤ — حل أبيات سهلة من الشعر .

٥ — استغلال مايقرؤه التلميذ فى المكتبة .

ومن ناحية المطالعة رأت اللجنة أن تتوفر فى دروسها حياة تبعث فى نفوس التلاميذ الرغبة فى الاطلاع بأنفسهم فى داخل المدرسة وفى خارجها، وأن يصل المدرس تلاميذه بالحياة الخارجية بين حين وحين ، فيطلب منهم قراءة ما يستحسنه من مقالات الصحف .

وأن يمرن التلاميذ على الكلام فى الدرس بشرح المعانى والتحدث عن الموضوعات المختلفة التى تعرض لهم .

أما المحفوظات فإن من رأى اللجنة أن يكون الشطر الأكبر منها مختارا من الأدب الحديث، وجزء منها من الأدب القديم المستساغ، وأن يختار منها النوع الشائق السهل .

## توزيع حصص العربية :

وعلى هذا الأساس توزع حصص اللغة العربية على الوجه الآتى :—

عدد

٢ — للمطالعة .

١ — للإنشاء تتعاقب بين الخطابة فى أسبوع والكتابة فى أسبوع ثان وتصحيح الأخطاء فى ثالث .

١ — للقواعد والتطبيق .

٣ — للأدب والنصوص والمحفوظات .

## ٢ — أسباب ضعف التلاميذ :

ولقد أرجعت اللجنة العوامل التى لها الأثر فى ضعف التلاميذ وعدم اهتمامهم ، إلى التلاميذ أنفسهم فنصحت بأخذهم بسياسة أحزم . كما رأت أن يراعى عدم ازدحام الفصول بهم، وأن يعاد النظر فى الامتحانات وأنظمتها فتعدل على أساس أحكم وأمثل .

## ٣ - وسائل الاقبال على اللغة :

أما الوسائل التى تحفز التلاميذ إلى العناية بدراسة اللغة العربية والإقبال عليها فقد حصرتها اللجنة فى المعلم ، والمكتبة ، والنشاط المدرسى ، ومجلة من أقلام التلاميذ يضمنونها مقالاتهم . كما أوصت اللجنة بالإكثار من الرحلات المدرسية ، وزيارة الآثار التاريخية التى تتصل بالحياة العربية كدار الكتب والأزهر ومسجد عمرو وبعض الأندية الشهيرة فى مصر وغيرها من الآثار .

✡✡✡

هذه خلاصة للتقريرين المقدمين من لجنة أمثل الطرق لتدريس اللغة العربية فى المدارس الثانوية والأبتدائية .

وما زال التقريران بين يدى معالى وزير المعارف ، وينتظر أن يدعو معاليه أعضاء اللجنة إلى اجتماع قريب ، لينافشهم الرأى فيما قدموا من مقترحات تمهيدا للأخذ بها؟

# فى النقد اللغوى

للأستاذ على السباعى

المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

---

راج النقد اللغوى فى هذا العصر؛ فخصصت له الصحف أياما ، وأوسعت له المجلات صفحات ليسطر فيها المعنيون باللغة وبحوثها مايرونه من تصويب وتخطىء . وقديما كان هذا النوع إما فى ثنايا كتب اللغة كما فعل الفيروزابادى فى قاموسه حين اهتم بتوهيم الجوهرى فى صحاحه وعنى بذكر خطئه أو تقصيره، وإما فى كتب خاصة بالنقد كما فعل ابن قتيبة فى كتابه أدب الكاتب، والحريرى فى درة الغواص، ولم يسلما من التعقيب عليهما ونقد مادوناه من آراء فى التخطئة والتصويب ، فإن البطليوسى تعقب ابن قتيبة فى كتابه الاقتضاب ، وله عبارة لابأس أن نوردها بنصها؛ ليرى المولعون بهذا النقد كيف كان تحرز القدماء، وحرصهم على عدم التخطئة إلا بدليل قاطع وجحود أغلب العلماء . قال أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسى فى رده على ابن قتيبة فى كلمات جعلها من لحن العوام « القسم الثالث أشياء جعلها من لحن العامة وعول فى ذلك على مارواه أبو حاتم عن الأصمعى وأجازها غير الأصمعى من اللغويين كابن الأعرابى، وأبى عمرو الشيبانى ، ويونس وأبى زيد وغيرهم ، وكان ينبغى له أن يقول: إن ماذكره هو المختار أو الأفصح أو يقول : هذا قول فلان وألا يجحد شيئا وهو جائز من أجل إنكار بعض اللغويين له، فيقول: ذلك رأى غير صحيح ومذهب

ليس بسديد » وكذلك تعقب الشهاب الخفاجى والألوسى - الحريرى فى الدرة فصوبا كثيرا مما خطأه وأثبتا بالنصوص صحته ، وفى عصرنا هـذا ظهر كتابان فى هذا النوع أحدهما « لغة الجرائد » وهو مجموع المقالات التى كان ينشرها العالم الكبير المرحوم الشيخ ابرهيم اليازجى فى مجلته « الضياء » والثانى تذكرة الكاتب للأديب الضليع أسعد داغروهو شبيه بلغة الجرائد فى موضوعه وطريقته وإن امتاز بالتجديد فى بعض الأبحاث، وذكر الأساليب الجديدة، وكلا الكتابين لايخلو من مؤاخذات سنفرد لها بعد بحثا يتضمن وجه الحق فيما ارتأياه .

ويعتمد النقد الأدبى على الطبيعة المواتية ، والفطرة الصافية، والذوق السليم، والذكاء الوقاد ، والتجارب الدقيقة والاطلاع على الآداب العربية والأجنبية، والتمكن من الناحية الفنية، أما النقد اللغوى فأساسه التمكن من العلوم العربية، والاطلاع الكثير ، فهو إلى حافظة قوية وذاكرة واعية أحوج منه إلى الذوق والتجربة؛ومع هذا فليس ميسورا كما قد يتوهم بعض الناس،فإن له شروطا إن لم تتوافر فيمن يحاوله ركب الصعاب،واستقبل أمرا ذامئونة وربما عثر فى سيره، فيصبح مغلوب الرأى مردودالقول — لاتافهالايعبأ به كما يحسب آخرون يقولون: ماصواب كلمة لاتقوم بها مدنية ؟ وماتخطئة أخرى لاتنهدم بها حضارة ؟ فإن التهاون فى استعمال كلمات محرفة أو ملحونة أو عامية قد يجر على اللغة أخطارا داهمة، تفسد الذوق وتضيع الدين وتبعدنا عن الغاية من البيان .

فعلى الناقد اللغوى ليكون ثبتا دقيقا شديد الحذر بعيدا عن النقد والتشهير أن يتذرع بالوسائل الآتية :

١ — أن يكون كثير الاطلاع على المعاجم المشهورة وكتب الأدب المتداولة مستفيدا من مطالعته فلا يكتفى بمعجم يظنه وسع معظم المفردات ويهمل غيره ؛ إذ قد يأتى المصباح المنير مثلا ، أو مفردات الراغب ، أو أساس

البلاغة، أو المختص بما لا يوجد فى سائر المعاجم ، وقد رأيت بعض الأفاضل اهتم بالقاموس فقط وجعله سنده وحجته فى نقده فكان يشهّر به ويردعليه نقده من المصباح أو المختار .

ولا يعتمد على المعاجم دون كتب الأدب فإن مؤلفيها جزاهم الله خيرا على طول الدرس واحتمال المشقة فى التحقيق لم يستوعبوا مانطق به العرب أو يستقصوا ماروى عنهم – واللغات مما لا يحيط به إنسان — بل يقرأ كتب الأدب الشهيرة المعتمد عليها ليأخذ من نصوصها وشواهدها ماعسى أن يكون قد تركته المعاجم ، وسيرى القارىء بعض الكلمات التى عثرنا عليها فى كتب الأدب ولم توجد فى المعاجم .

٢ — أن يكون دقيق الملاحظة يقظا حين يطلع على المعاجم، فقد ينفى المعجم كلمة فى مادة وبثبتها فى أخرى،وقد يذكر ماهو صريح الخطأ ظاهر البطلان، وقد يضع الناسخ أو الطابع حركة ما فيظن المطلع أنها وضعت عن تثبت وثقة، فإذا بها بعد البحث غلطة شنيعة لا وجه لها من الحق : فمثلا يذكر القاموس كلمة فة فى باب الهمزة مرهما أن لامها همزة ثم يجمعها على فئات وفئين. وجمعها جمع مذكر سالما يدلك بلا تردد أن لامها محذوفة وعوض عنها التاء،فيكون الصواب ذكرها فى باب الواو ووزنها فوة،وكذلك فعل أيضا فأثبتها فى الواو ، وتعقبه الشارح حين ذكرها فى الهمزة، فلو لم تكن متذكرا القاعدة لوزنتها فله، وحذفت العين مع أن الذى يحذف فى مثل هذا البناء الفاء أو اللام

ومثلا يذكر اللسان فى مادة وهب (هبنى فعلت ذلك أى احسبنى واعددنى ولا يقال هب أنى فعلت ) ثم يروى فى مادة شرك مايدل على صحة ماأنكره إذ يقول ص ٣٢٤ فى الجزء الثانى عشر: « كان عمر رضى الله عنه حكم فيها ( الفريضة المشتركة ) بأن جعل الثلث للأخوة للأم ولم يجعل للأخوة للأب والأم شيئا فراجعه الأخوة للأب والأم وقالوا :لهب أن أبانا كان حمارا فأشركنا بقرابة أمنا فأشرك بينهم » فأنت ترى أن اللسان يذكر فى الحكاية

قولهم هب أن أبانا وكذلك يذكرها ويرويها غيره ولم ينكر عليهم عمر قولهم - وهو الناقد البصير الخبير بأساليب الأدباء - ولو كانوا مخطئين لردهم وعلمهم كما علم غيرهم حين أخطئوا، ويظهر أن صاحب اللسان تأثر بالحريرى فى هذه المادة فسها حين ذكر النص أن يعود فيبطل ماقرره ويمحو ما أثبته .

وتجد القاموس يذكر فى مادة ( القتر ) اقتوى على وزن افتعل، ويقول: وهو لازم ألبتة وفى هذا خطآن ظاهران : الأول أنه حسب التاء زائدة فوزن الكلمة على افتعل مع أنها أصلية ووزنها أفعلّ كارْعَوى واجأوَى . الثانى أنه قرر أن افتعل لازم البتة ويرده استمع واشترى واصطنع واصطحب وهكذا من مئات على وزن افتعل وهى متعدية .

وتجد الواقفين على طبع أساس البلاغة فى دار الكتب فى مادة قفل يشكلون الفعل قفَل بفتح الفاء ويعدونه مع أن اللسان والتاج ينصان على إنكار مقفول ، فيقول اللسان« وقد أقفل الباب وأقفل عليه فانقفل واقتفل ، والنون أعلى، والباب مقْفَل ولايقال مقفول »وكذلك يقول التاج أما نظيره فى المعنى وهو أغلق فقد ورد فيه غَلَق ونصوا على أنها لغة رديئة ؛ ولذلك يقول أبو الأسود الدؤلى فى بيان فصاحته :

ولا أقول لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدار مغلوق

فأنت ترى من إنكار اللسان والصحاح والتاج كلمة مقفول، ومن عدم ورود قفَل متعدية فى قاموس ما إلا فى الطبعة الجديدة من أساس البلاغة — أن الصواب قفّل بالتشديد لا قفَل، وأن المصححين أغفلوا الشدة فأوهموا القراء بأن الفعل متعد مع أن النصوص متضافرة على لزومه ، وهكذا من مسائل تخدعك فيها المعاجم وتقفك موقفا نعيذك بالله منه إن لم تحذرها .

٣ — أن يكون متمكنا من قواعد الصرف والنحو وعلوم البلاغة؛ وسوف يثور قوم من المجددين على هذا، وما علينا إن ثاروا بعد أن تمنوا ألا يكون فى

المدارس شيء منها؛ لأنا من الذين يقدرون مجهود السابقين فى تقريب العلم وتفهيم المتعلمين الفصيح والأفصح والصحيح والملحون، ولو كان عملهم عبثا لطلبنا المعلمين أن يكفوا أيديهم ويطووا كتبهم؛ لينطق الناس بما يشاءون وترضاه بيئاتهم، وإنما طلبنا التمكن فى هذا لأنا وجدنا لغويين ناقدين يقفون عند حرف الكلمة ولا يفقهون فحواها أو يصرفونها تصريفا يساير العرف والاشتقاق والتجوز، فالمرحوم اليازجى ينـ ر كلمة نصوح لأنها لم ترد فى المعاجم، وفاته أن المقيس لا داعى لذكره أو التنبيه عليه والفعل نَصَح ثلاثى متعد: ينقاس فى فاعل منه التحويل إلى صيغ المبالغة الخمس على مذهب البصريين (١)، ولو كان عليا بالقاعدة ما تعرض لنقد هذه الكلمة؛ على أنها واردة فى شعر عدى بن زيد إذ يقول فى إحدى الروايتين.

من لقلب دنف أو معتمدْ قد عصى كل نصوح ومُفَدّ (٢)

كما أنكر اليازجى أن كلمة سفساف تجمع على سفاسف لأنها لم ترد إلا مفردة، ولكن القواعد لا تأبى جمعها وقد جمعت فى قول ابن سلام صاحب الطبقات يشرح قول العلاء بن جرير فى الموازنة بين الشعراء الثلاثة: جرير، والفرزدق، والأخطل (جرير يجىء سابقا، ومصليا، وسكيتا) قال ابن سلام: «جرير له روائع هو بهن سابق، وأوساط هو بهن مُصَلٍّ، وسفسافات هو بهن سكيت» فابن سلام جمع الكلمة جمع مؤنث سالما ومرت القرون على قولته، ولم ينكر عليه منكر، وحسبك بابن سلام عالما، وقال جعفر أحد بنى قُرَّة.

منعناه من عُليا مَعَدّ وأنتم سفاسيف رَوْح بين فُرح وخيبرا (٣)

فجمعه الشاعر جمع تكسير. وعدم تعرض المعاجم للجمع لا يعنى نفيه أو

(١) راجع حاشية يس على التصريح ص ٧٤ جزء ثان.

(٢) راجع الأغانى ص ١٢٨ جزء ثان.

(٣) فرح: سوق وادى القرى وقصبتها راجع الأغانى ص ٩٣٨ الجزء الثامن

إنكاره ، فالوجه فى النقد اللغوى ألا نجحد كلمة من أجل إنكار بعض اللغويين أو إغفال أصحاب المعاجم ؛ فإن فى هذا تضييقا على المنشئين والكتاب ، وتحجيرا للواسع المستفيض ومادام يمكننا التوسع باطراد القواعد أو الاشتقاق أو التجوز ، فما علينا من بأس إن استعملنا مايتفق مع هذه الأبواب .

وللدلالة على أن المعاجم لم تستوعب ، نذكر لك كلمات مشهورة مستعملة ومذكورة فى كتب الأدب ، وبها تقتنع أن مصادر اللغة ليست محصورة فيها بل شواردها مبثوثة فى كتب الدين والأدب واللغة :

١ — عمة : خطأ أستاذنا العلامة صاحب كتاب تهذيب الألفاظ العامية الأدباء فى استعمال هذه الكلمة ، واستبدل بها كلمة عمامة لأنها لم ترد فى معجم ، اللهم إلا على أنها اسم هيئة من الاعتمام شذودا ، وكذلك صرحت كتب الصرف ولكنها وردت نثرا وشعرا ، فى النثر يقول نعيم ابن قبيصة الأسدى لامرىء القيس : « والتاج والعمة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم » وبدهى أنها لا تكون هنا اسم هيئة بل هى اسم ذات [1] وفى الشعر قول عروة بن حزام العذرى الشاعر الأموى :

فَرُحت من العراف تسقط عمتى عن الرأس ما ألتاثها ببنان [2]

٢ — التحق . وتلك كلمة وقعت فيها كما وقع غيرى فأنكرتها فى مقال « تحقيقات لغوية » فى صحيفة المعلمين سنة ١٩٢٣ معتمدا على قول صاحب تاج العروس فى مستدركه على مادة لحق إذ قال : « والتحق به أى لحق مولدة قال الصاغانى : لم أجده فيما دُوِّن من كتب اللغة فليجتنب ذلك » وأنكرت طلبات الالتحاق ، واستبدلت بها طلبات اللحاق أو اللحوق ، ولكنى وجدتها فى النثر والشعر أيضا ، فى النثر يقول يزيد بن معاوية حين خطب أمام أبيه يشد أزر عبيد الله

(١) راجع الأغانى جزء رابع ص ١٠٤ .

(٢) راجع النوادر لأبى على القالى ص ١٥٩ .

ابن زياد : « يا أمير المؤمنين : إن للشاهد غير حكم الغائب ، وقد حضرك زياد وله مواطن معدودة بخير ، لا يفسدها التظنى ولا تغيرها التهم وأهلوه أهلوك : التحقوا بك وتوسطوا شأنك فسافرت به الركبان الخ (١) » .

وفى الشعر يقول عنترة العبسى :

ولى جواد لدى الهيجاء ذو شغب يسابق الطير حتى ليس يلتحق (٢)

٣ — المعروف أن فاعلا وصفا لمذكر عاقل لا يجمع على فواعل إلا ماشذ، وقد عدت المعاجم من الشاذ فوارس ، وهوالك ، ونواكس، وزاد بعضهم كالمصباح سابق وسوابق، خالف وخوالف ، وزاد البغدادى فى الخزانة عند التكلم على قول الفرزدق ،

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضعَ الرقاب نواكس الأبصار:

غائب وغوائب ، وشاهد وشواهد ، وخاشع وخواشع وهذه عن ابن خالويه ، وخاطىء وخواطىء ، وحاجب وحواجب ، وحاجّ وحواجّ ، وداج ودواج بمعنى الأعوان والمكارين عن الجواليقى، رافد وروافد عن المفضل ولم يذكروا من بين الشواذ باسل وبواسل ومن أجل هذا نبهنا عليها فى كتاب إنشاء المقالات واستبدلنا بها بسلاء وبسلا ، وقد ذكر الشيخ محمد على الفيومى شارح شواهد شذور الذهب عند شرح الشاهد السابق: بواسل وقرأت فى شعر باعث بن صريم اليشكرى من شعراء الحماسة قوله :

وكتيبة سُفع الوجوه بواسل كالأسد حين تذبُّ عن أشبالها

فإن قال قائل إن الجمع هنا ساغ لرجوعه إلى الكتيبة، قلنا وهل تكون الكتيبة من غير العقلاء ؟ إذا جاز أن تكون من غيرهم فعلى الجيوش المجاهدة العفاء، وإذا صح هذا الجمع فليس لمن اعترض على الشاعر المفلق والأستاذ الكبير

(١) راجع العقد الفريد ج٢ ص ١٤٠ وجمهرة خطب العرب للأستاذ أحمد صفوت بدار العلوم جزء ثان ص ٢٧١

(٢) راجع ديوانه المطبوع فى أوربة وشعره فى شعراء النصرانية .

على الجارم بك أدنى وجه من الصواب فى تخطئته فى كلمة بواسل حين قال فى تأبين عاهل العراق المرحوم الملك غازى الأول:

طرحنا رداء البأس عنا بواسلا وإن هزنا يوم العراق وإن أدّا

٤ ــ زاد عن : أنكر الأدباء تعدية الفعل زاد بعن وقرروا أنها لا تتعدى إلا بعلى مستدلين بقول ذى الأصبع العدوانى .

وأنتم معشر زيد على مائة فأجمعوا أمركم طرا فكيدونى

ولكن قبيصة الجرمى وهو شاعر جاهلى من شعراء الحماسة يقول :

يزيد نبالة عن كل شىء ونافلة وبعض القوم دون

ويقول صاحب الكليات « والزيادة تلزم وقد تتعدى بعن كما تتعدى بعلى؛ لأن نقص يتعدى به وهو نظيره أى المقابل له »؟

للبحث بقية

**على السباعى**

# الجزاء العادل

رواية خلقية يقوم بأدوارها التلاميذ « ذات فصول ثلاثة »

أشخاص الرواية : أب . ولص . ابنة . جند . ناس . قضاة . شهود . نظارة . الكلب « هول » سجان .

---

## الفصل الأول

أب مسروق يندب حظه :

لم يُبْقِ لى اللصُّ مالاَ ولم يَذَرْ لى شَيَّا
فمن يقُوتُ العِيَالاَ ؟ إذا حَفِظْتُ المُحَيَّا
يارَبِّ لم أَجْنِ إثمـاً ولم أَضِرْ آدميَّـا
وأنت أعـدلُ حكمًا فيمن أغارَ علَيَّـا

---

ابنته تواسيه:

أبى ، ألا عِمْ صباحَا أبى . فدتْكَ العيونُ
أبى ، سمعت صياحَا ترَى أبى ما يكونُ !

---

حوار بينهما:

رُدِّى عليكِ الدُّموعَا فالخَطْب سهْلٌ يسيرُ
واسْتطلعِى لى الجُمُوعَا يَبِنْ لعينِى المَصيرُ

---

البنت :

جُندٌ وناسٌ وزَحمَـةْ وضَجّةٌ ورَبيلُ
أتَوْا هنا فى مُلِمّـةْ تَحارُ فيهـا العقولُ

بين البنت والأب والجند :

هاهُم أُولاء . أجَلْ من ! مَنْ مُسعدى عِنْد وَيْلِى
الجندُ . فيمنْ ، وعَمَّنْ ، طَرَقتمُونى بِلَيْلِى

---

بين الجند والأب :

هل ذَاك مالُكْ ، مالى فيه احْتَملْتُ المُحَالاَ
هاتُوا الشقىَّ حيَالِى وأوْثقُوه حِبَالاَ

---

الأب :

الحمْدُ لله حقًّا مَنْ مثلُه فى جَلاَله؟
إلى القضاء ليَلْقَى كلٌّ جزاءَ فِعَاله .

---

## الفصل الثانى

بين منادى المحكمة واللص :

مَنِ الشقىُّ الجرىءُ السالبُ الشيخِ مالَهْ
عذرا فإنى بَرِىءُ وما أردت اغتيالَهْ

---

اللص للحاضرين :

إنى تقىٌّ أمينُ ولستُ بالعيَّار
ولى وَقارٌ ودينُ فكيف اغتالُ جارى

---

القاضى :

هل من شُهودٍ فنقضى ؟ أو مِنْ مُحامٍ كليمِ ؟
أوْلاَ . فدُونَك وامضِ نسمعْ كلامَ الغَرِيمِ

---

أحد الشهود: إنى رأيتُ بعيْنِى هذا الشقىَّ المشوَّهْ
تسلّق الدارَ ، بينى وبينَــه قِيدُ خُطوَةْ

---

شاهد آخر: أبصرتُ هــذا يُهَرْوِلْ وفى يديهِ متاعُ
وحين ناديتُ أمْهِلْ بدا عليــه ارْتياعُ

---

القاضى: إلىَّ بالـكلب هَرْل يَقْتافُ منه الأَثَرْ
السارق: ويْلى إذا طاف حَوْلَى هوْلٌ سيَجلُو الخبرْ

---

## الفصل الثالث

القاضى: قامتْ عليك الأدلَّةْ فصرتَ لصًّا مُهِينَا
ومالديْك تَحِلّةْ فالسجنُ خمسَ سنينَ

---

السارق يندب حظه: أطعتُ شيطان جهــلى وعشتُ عيش الطَّغَامِ
ولَفَّ بى كلُّ نَذْلٍ فبُؤتُ بالآثامِ

---

حكمة: من لم يُؤدّبْه عِــلمُ ولم تُقَوِّمْ خِصالُه
ولم يُهذّبْه حِــلمُ فالسجنُ حتماً مآلُه

---

القاضى : وأنت ياشيخُ فاهنأ العــدلُ أنفذَ حُكمَهْ
ونم بدارك واهــدأ فى ظلِّ عــدْلٍ ورحمَهْ

---

ها إنَّ فى مصرَ عَيْنَا تَرْعَى الحقوقَ وتسهرْ
الظــلمُ إن دام أفنى والعــدْلُ إن دام عمَّرْ

---

هتاف من الحاضرين : عاش القضاءُ لمصرَ يَحْمى حِمَى المُستضَامِ
وعاش ذا النيلُ حرّا فى ظلّ مَلْكٍ هُمامِ

عبد العزيز محمد خليل
مدرسة الحلمية للبنات

# فهرس

## العـــدد الأول من السنة السادسة


| الصحيفة | الموضوع | الكاتب |
|---|---|---|
| ٣ | مقـــدمة . | التحرير |
| ٨ | المدرسة الأولية . | المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بك |
| ٢٢ | الأدب فى مصر . | الدكتور أحمد ضيف |
| ٣١ | بين الحقيقة والخيال . | الأستاذ عبد اللطيف المغربى |
| ٤٩ | الإتبـــاع . | « مهدى أحمد خليل |
| ٥٦ | تحقيق وتمحيص . | « عبد العظيم قناوى |
| ٦٤ | ذكرى المرحوم حفنى بك ناصف . | صاحب العزة على الجارم بك |
| ٦٨ | أثر الشخصية فى الأسلوب . | الأستاذ عبد الوهاب حمودة |
| ٧٤ | ساحر الشمال ( أو سيرولترسكوت ) . | « عبد الرازق حميدة |
| ٨٥ | التربية الإسلامية . | « محمد على مصطفى |
| ٩٢ | الثقـــافة . | « عبد الحميد حسن |
| ١٠٢ | حول تبسيط القراءة والكتابة . | « عبدالعزيز أمين عبدالمجيد |
| ١٠٩ | المنظـار ( قصة مترجمة ) . | « عبد العزيز عتيق |
| ١٣٣ | أمثل الطرق فى تدريس اللغة العربية . | التحرير |
| ١٤٠ | أصول النقد الأدبى . | الأستاذ على السباعى |
| ١٤٨ | من أدب الطفولة .<br>«قصة الجزاء العادل» | « عبد العزيز محمد خليل |

السنة السادسة (رمضان سنة ١٣٥٨هـ — أكتوبر سنة ١٩٣٩م) العدد الثانى

# صحيفة دار العلوم

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

**السباعى بيومى**
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى ..... ٢٠ قرشاً
خارج القطر ..... ٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد ..... ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

# احتفال جماعة دار العلوم

## بتخليد ذكرى المرحوم

### أبو الفتح الفقى

---

فى الساعة السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ١١ يوليه سنة ١٩٣٩ احتفلت جماعة دار العلوم فى نادى دار العلوم بتخليد ذكرى المغفور له «**أبو الفتح الفقى**»

قد انتظم النادى كثيرين من صفوة القوم ورجال التربية والتعليم بمصر وكان فى مقدمة الحاضرين حضرة الشيخ الجليل صاحب السعادة أمين باشا سامى وأصحاب العزة الأساتذة محمد العشماوى بك ومحمد عوض إبراهيم بك ومحمود الدرويش بك وأمين سامى حسونه بك ومحمد رفعت بك وعبد الرازق القاضى بك ومحمود البطراوى بك ومحمد أحمد جاد المولى بك وغيرهم من أعضاء مجلس الإدارة وهيئة التدريس بدار العلوم وأساتذة اللغة العربية فى المعاهد المختلفة .

وكان فى استقبالهم حضرة الأستاذ نجيب حتاته رئيس جماعة دار العلوم تعاونه اللجنة التنفيذية التى ألفت للإشراف وتنظيم الاحتفال .

ولما حضر صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف قابله الأعضاء واستقبلوه أحسن استقبال ، ثم مدت الموائد تحمل مالذ وطاب وجلس إليها المدعوون فأكلوا وشربوا ثم وقف الأستاذ نجيب حتاته وألقى الكلمة الآتية :

معالى الوزير

أستاذنا أمين باشا سامى

حضرات الإخوان

أحييكم أجمل تحية ، وأرحب بكم أتم ترحيب ، وأشكر لكم تلبيتكم دعوتنا ، وتفضلكم بتشريف حفلة ذكرى المغفور له أبى الفتح الفقى رئيس جماعتنا السابق.

سادتى :

تخرج الفقيد فى دار العلوم سنة ١٩٠٧ ثم اختير عضوا للبعثة فى انجلتره ، وعاد موفقا فاشتغل بالترجمة والتحرير فى الإدارة التى أنشأتها وزارة المعارف فى ذلك الوقت لوضع مصطلحات للعلوم والفنون كى تكون أساساً لتدريس المواد المختلفة باللغة العربية بعد أن كانت تدرس باللغات الأجنبية .

ثم اختير للتفتيش فى مدارس الوزارة وجاءت الثورة الوطنية فكان من البارزين فى ميادينها وقد اختير نقيبا للمعلمين فقام بأعباء هذا العمل على أكمل وجه ، ودافع عن حقوق المعلمين دفاعا مجيدا ، ثم رشحته كفايته ليكون عضوا فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ وفى سنة ١٩٢٥ عاد إلى الوزارة مفتشا ، ثم معاونا لمراقب التعليم الأولى ، وأخذ يتقلب فى الوظائف حتى انتهى به المطاف إلى دار العلوم ، إذ عين وكيلا لها فأخذ يعمل لإسعاد أبنائها والمحافظة على كيانها حتى عاجلته المنية أشد ما تكون الحاجة إليه .

ولقد كان فى كل وظيفة تولاها مثال الرجل العامل والقائد المحنك ، يريح مرءوسيه ، ويأسرهم بطيب شمائله ، ورقة قلبه ، ودقة عمله .

ولم ينس الفقيد واجبه الاجتماعى بجانب عمله الحكومى بل كان قائداً للمعلمين سنين طويلة ، ثم قائداً لطائفته يسهر لراحتها ، ويعمل على رفع مكانتها ، ويتعرض للأذى بسببها حتى كون لها جماعة محترمة ، وأسس لها ناديها ، الذي يضم أبناء دار العلوم ويوجه جهودهم لخير التعليم .

فكان لزاما علينا وعلى الإخوان أن نحيي ذكراه ونقدر فضله ؛ وفاء بحقه واعترافا بجليل خدماته ، فجمعت مبالغ من المال اشترينا بها ٥٦ سهما من سهوم مصرف مصر جعلنا ربحها جائزة سنوية تمنح للفائزين الأول والثانى من خريجى الدار فى امتحان اللغة العربية ، وقد استحق الجائزة الأولى الأستاذ أحمد عبدالعظيم ، والجائزة الثانية الأستاذ عبد العال فج النور .

ثم قدم الجائزتين إلى حضرة صاحب المعالى الوزير فقدمهما إلى الفائزين، وبعد ذلك ألقى معاليه الخطبة الآتية :

إخوانى :

لايسعنى إلا أن أشكر لحضرة رئيس جماعة دار العلوم على ماوجهه إلىمن ثناء . وحق على قبل هذا أن أقدر عملكم الجليل لتخليد ذكرى فقيدكم بالاكتتاب لهذه الجوائز التى توزع على الناجحين الأولين اليوم . وستوزع على الناجحين الأولين فى مثل هذا الموعد من كل عام ، وإنى إذ أقدر ماقمتم به تخليداً لذكرى رجل كان له فى العمل العظيم الذى تضطلعون به ، وأعنى تعليم اللغة العربية — أثر كبير لايفوتنى القول بأن هذا قليل بالقياس إلى مايجب علينا للذين يغادرون الحياة بعد أن يتركوا فيها أثراً خالداً .

إخوانى :

يخطىء جداً من يظن أن العاملين الصالحين المصلحين يزولون من الحياة بموتهم ، فهذا الجسد الذى يفنى ليس شيئا فى تقويم الرجال ، وإنما قيمتهم فيما يقومون به من أعمال صالحة ، والأعمال الصالحة باقية شاهدة لأصحابها فى هذه الحياة الدنيا ، شاهدة لهم عند الله فى الحياة الآخرة .

وإنه ليسعدنى أن يكون إلى جانبنا فى هذا الحفل ذلك الرجل الكبير أمين سامى باشا الذى عمل كثيرا فى هذه الحياة ، وإننى وإن لم أسعد بالتلمذة له فقد كان والدى وبعض أعمامى من تلاميذه ، وإذا كنت مدينا لهؤلاء بالفضل

كابن ، فإنى مدين لأمين باشا كفيد .

كان أمين باشا ناظراً لدار العلوم وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من معاصريه فتحدث عن اللغة العربية فقال « تموت اللغة العربية فى كل مكان وتحيافى دارالعلوم » .

ولقد كان أمين باشا يقدر المهمة العظيمة الملقاة على عاتق معلم اللغة العربية ومعلم اللغة فى كل أمة .

ولهذا كان يتقدم للدار ثلثمائة طالب فلا يختارمنهم — كما قال لى — سوى أربعة أو خمسة .

إخوانى :

لقد ظلت دار العلوم سبعين عاما تنهض بمهمتها على وجه يدعو إلى الفخار، ولكن الزمن يتغير ، ومهمة دار العلوم تتغير ، ولهذا دعوتكم إلى التفكير معى فيما يجب أن يدخل على دار العلوم من إصلاح حتى تساير العصر .

لم يكن فى مصر منذ مائة عام أكثرمن بضعة كتاب . فلما أنشئت دارالعلوم كانت مهمتها شاقة ويكفى أن تتأملوا كتابات الجبرتى وابن إياس ومن إليهما من العلماء والمؤرخين لتروا مبلغ ما اضطلعت به الدار من عبء ، نرى غزارة فى المادة ، واستقلالا فى الرأى ، وحرية فى التفكير ، وابتكاراً فى المعانى ، ولكننا نرى مع هذا أسلوبا مهلهلا ، وتعبيرا متخاذلا.فكان غرض دار العلوم إحياء موات اللغة وبعث هذا الكنز الذى كاد يختفى تحت الركام .

استطاعت دار العلوم بجهد رجالها أن تعيد هذا الضياء الخابى إلى اللغة العربية فى قواعدها وأدبها وبلاغتها وأن تحيى مجدها القديم الذى كان يفاخر به الأمويون والعباسيون ، بل استطاعت أن تبعث فيها القوة والنشاط ، وإذا كنا — نحن كتاب اليوم — مدينين لأحد فدينا لأبناء دار العلوم .

لقد ألفت كتب فى الأدب وفى القواعد وليكن الحكم عليها مايكون ،

ولكن الذين جمعوا ورتبوا هم أبناء دار العلوم ، وإذا كانت كل مهنة تتغير بتغير الزمن ، فمهمة رجل اللغة أخطر مهمة ، ولهذا يجب أن يظل صاحبها فى دأب مستمر واطلاع متصل ، وأن يبعد عن ذهنه أنه بتخرجه من المعهد الذى تعلم فيه قد أتم العلم وجمع المعرفة ، فمن يقول بهذا — إن لم يكن قد وهبه الله سرا لانعلمه — دعى مغرور لاخير فيه ، ولا رجاء منه ، فابعثوا فى نفوس أبنائكم حب الاطلاع والرغبة فى التحصيل ، وقد خطت مصر خطوات واسعة فى سبيل نقل العلوم من اللغات الأجنبية إلى العربية ، ونحن نطالب الجامعة الآن بأن تدرس العلوم جميعا باللغة العربية ، لأن اللغة مقوم أساسى من مقومات القومية ، فإذا كانت أجنبية كان الشعور بالقومية ضعيفا ، وكانت نفسية الشعب ضعيفة .

وعليكم بعد الجهد الماضى ، أن تخطو خطوة جديدة ، تلك هى قومية اللغة وقومية العلم ، وتيسير اللغة لتتسع لهذا العلم ، فنحن نعلم أن العربية غنية ، وأنها كفيلة بأن تسد مطالب العلوم كلها . وإنى إذ أدعو إلى هذا لا أدعو إليه كوزير للمعارف — ولقد مكنتنى هذه الصفة من أن ألمس جهدكم بوضوح — ولكنى أدعو إليه ككاتب عربى .

ثم عليكم أن تقربوا بين لغة الكتابة ولغة التخاطب ، وليس تحقيق هذا بالأمر العسير ، فقد كانت فرنسا منذ خمسين عاما مختلفة اللهجات باختلاف المقاطعات ، ولكنها استطاعت بعد انتشار التأليف وذيوع الصحف ، أن توحد بين هذه اللغات جميعها ، وبينها وبين لغة التخاطب .

وقد انتشر التأليف فى مصر وذاعت الصحف إلى حد كبير ، وعليكم أن تواصلوا هذا الجهد حتى يؤتى ثمرته المرجوة .

وإنى لواثق من أنكم جميعا تشعرون بشعورى ، وتحسون إحساسى ، ومتى اتحد الشعور كفى أن يقول إنسان كلمة الحق ليستجيب الناس نداءه .

وإنى أقرر اطمئنانى إلى أن اسم دار العلوم سيبقى دائما علما لنهضة اللغة العربية، وسنسير بها خطوة بعد خطوة، ومرحلة إثر مرحلة، وأن رجالها سيشعرون دائما بأنهم كلما أتموا مرحلة تفتحت أمامهم أبواب مراحل جديدة، شأنهم فى ذلك شأن طالب السعادة كلما أمسك بشىء شعر بأنه ينقصه أشياء. وشعور الإنسان بالنقص آية الأمل فى الكمال.

وإن اعترافى بالدين لأبناء دار العلوم فى تعلم اللغة العربية يشعرنى بأنه واجب على أن أسير معهم، وأن أتعاون وإياهم على تحقيق مانرجوه جميعا للغة العربية.

ويشجعنا على الاضطلاع بهذا العبء شباب مليكنا المحبوب الذى يبعث الحياة قوية فتية فى هذا الوطن وفى جميع مقوماته.

✡✡✡

هذا وقد أعد كثير من أبناء دار العلوم مجموعة طيبة من الخطب والقصائد لم يتسع وقت معالى الوزير لسماعها ومن بينها قصيدة للأستاذ عبد العزيز عتيق، وقصيدة للأستاذ عبد العظيم بدوى وقد نشرناهما فى موضع آخر.

✡✡✡

# مسألة تدريس اللغة العربية

## توحيد التعليم فى المعاهد

### مذكرة معالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف السابق

---

أشار معالى الوزير فى مقدمة المذكرة، إلى ناحيتى المشكلة: وهما مسألة تهيئة معلم اللغة العربية، ومسألة المسابقة بين خريجى المعاهد الثلاثة: دار العلوم، وكلية الآداب فى الجامعة، وكلية اللغة العربية فى الأزهر.

ثم قال: وهذه « المسألة الثانية ثانوية الأهمية فى الواقع. وهى إنما نشأت عن الوضع الخاص بمحاولة إصلاح المعاهد الدينية، وقد ترتب على هذا الوضع أن تخرج عدد من أبناء كلية اللغة العربية فى الأزهر. وفى نفس الوقت أوشك عدد من أبناء قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ممن تتحقق فيهم شروط خاصة من حيث الثقافة الإسلامية - على التخرج؛ لذلك فكر هؤلاء وأولئك فى مستقبلهم. وكان اعتماد خريجى كلية اللغة العربية بالأزهر على النص الذى ورد فى قانون المعاهد الدينية سنة ١٩٣٦.

« فلما نظر مجلس الوزراء فى مطالب هؤلاء الخريجين من الأزهر لم يجد خيرا من المسابقة بينهم وبين الذين تخرجوا فى دار العلوم وفى جامعة فؤاد الأول، على ما فى هذا الحل من مساس بما لوزير المعارف من حق مطلق فى اختيار المعلمين الذين يعينهم فى مدارس الوزارة، يقابل مسئوليته عن التعليم فى هذه المدارس.

أما والمسابقة مسألة ثانوية فإن وزارة المعارف تدع تفاصيل الكلام فيها إلى المعاهد الثلاثة التى يعنيها أمرها بالذات. وكل ما تلاحظه أن نتائج هذه

المسابقة يجب أن تكون متساوية بالنسبة لجميع الذين يدخلونها . ومعنى ذلك أن يكون للمتفوقين الأولين منهم حظ التعيين فى جميع وظائف اللغة العربية بمعاهد الدولة سواء أكانت معاهد دينية أم معاهد مدنية .

ومن الحيف أن يفضل قوم على قوم من المتسابقين فى هذه الناحية لغير شىء إلا لاختلاف المعاهد التى تخرجوا فيها . ويبدو هذا الحيف ظاهرا فى الوضع التالى : تفوق الخمسة الأول من دار العلوم فعينوا فى وظائف وزارة المعارف المبينة بقرار مجلس الوزراء ، وتلاهم خمسة أو أكثر من دار العلوم كذلك ، ثم جاء المتأخرون من كلية الآداب أو من كلية اللغة العربية بالأزهر . أبناء كلية اللغة العربية بالأزهر لا يصيبهم أى ضرر مهما تأخروا إذا احتفظ لهم بوظائف التدريس فى المعاهد الدينية . فأما إذا تفوق جماعة من أبناء الأزهر واشترك معهم فى التفوق جماعة من أبناء دار العلوم ، فإن الأولين يشاركون فى وظائف التعليم بوزارة المعارف ، بينما يمتنع على الآخرين الالتحاق بوظائف التعليم فى المعاهد الدينية .

لذلك يكون من الإنصاف كما قدمنا أن يتساوى المتفوقون فى الحقوق . وليزول كل لبس فى هذا الأمر ، نرجو أن يكون رأى اللجنة فيه صريحا وأن تقترح عند الضرورة تشريعا مؤقتا يشبه ما يأتى :

« الحاصلون على إجازة التدريس من دار العلوم يكون لهم حق التدريس بالمعاهد الدينية .

ويكون هذا الحق للحاصلين على ليسانس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، بشرط أن يكونوا حاصلين على الشهادة الثانوية من الأزهر أو من تجهيزية دار العلوم أو على دبلوم معهد التربية .

ويترتب لهؤلاء وأولئك هذا الحق ، إذا اجتازوا امتحان مسابقة يعقد

بينهم وبين خريجى كلية اللغة العربية بالأزهر » .

✡✡✡

« أما مسألة تهيئة معلم اللغة العربية فتلك هى المسألة الجوهرية . ويجب بحثها أن نفصل أولا فى إمكان توحيد التعليم أو عدم إمكانه فى المعاهد الدينية والمعاهد المدنية فى القسمين الابتدائى والثانوى منهما . فلا ريب أن الفصل فى هذه المسألة ييسر تحديد الجهة التى تتولى تهيئة هذا المعلم ليكون قديرا على الاضطلاع بمهمته وعلى أدائها أحسن أداء .

« ويجب أن نسارع إلى القول بأننا متى فصلنا فى مسألة توحيد التعليم من حيث إمكانه وعدم إمكانه ، فقد وجب أن يترتب على الرأى الذى نصل إليه كل آثاره .

لقد لاحظ واضعو الدستور المصرى الحال التى كانت عليها المعاهد الدينية حين وضعه . فجعلوا لهذه المعاهد كيانا خاصا ونظاما خاصا باعدا بينها وبين النظام الدستورى العام للدولة . ذلك لأن هذه المعاهد كانت وحدة مستقلة لاصلة لها بوظائف الدولة وأعمالها . بل كان رجال القضاء الشرعى يتعلمون فى مدرسة القضاء الشرعى تحت سلطان وزارة المعارف . وكان معلمو اللغة العربية — كما لايزالون — يتعلمون فى دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف . وكان وزير المعارف هو المسئول دستوريا عن هاتين المدرستين . يضع لهما النظم والبرامج ، ويختار لهما الأساتذة ويهيىء لهما الامتحانات ، كل ذلك يقوم به مستقلا لاشريك له فيه ، متمتعا بحقه وبمسئوليته الدستوريين .

أما المعاهد الدينية فكانت بعيدة عن الاشتراك فى شئون الدولة ، وكان عملها دينيا بحتا كاسمها ، وكان الذين يتخرجون من أبنائها يعودون إلى التعليم فيها ، لاشأن لهم بما سوى ذلك من وظائف الدولة ولا مطمع لهم فيه ، فلم يكن

لذلك عجبا أن تخرج هذه المعاهد عن النظام الدستورى العام ، وأن يكون لها استقلال خاص .

فلما تولى الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى مشيخة الجامع الأزهر فى سنة ١٩٢٨ ، رأى أن المعاهد على وضعها ذاك ، لا تؤدى الغرض الذى أنشئت أول أمرها لأدائه ، بل لعلها تتهم بالتأخر والرجعية ؛ لذلك وضع مذكرته الموجودة تحت نظر اللجنة ، وطالب فيها توحيد التعليم بين القسمين الابتدائى والثانوى بالمعاهد الدينية والقسمين الابتدائى والثانوى بالمدارس الأميرية ، مع فارق بسيط : ذلك أن تحل العلوم الدينية فى المعاهد محل اللغات الأجنبية فى المدارس الأميرية ، أما فيما سوى ذلك فتكون البرامج هى برامج المدارس الأميرية . وعلى أساس هذا التوحيد أقام فضيلة الأستاذ الأكبر نظام الكليات الثلاث ، وجعل للمتخرجين فيها أهليات خاصة للقضاء الشرعى ولتعليم اللغة العربية ، ورتب على ذلك إلغاء مدرستى القضاء الشرعى وتجهيزية دار العلوم تمهيدا لإلغاء دار العلوم .

النتيجة الطبيعية لهذا النظام الذى أدمج المعاهد الدينية فى الدولة وجعل لخريجيها أهليات لتولى وظائفها ، أن تندمج هذه المعاهد فى النظام الدستورى للدولة ، وأن تضم إلى وزارة المعارف ، شأنها فى ذلك شأن المعاهد فى بلاد العالم جميعا . ولعل الأستاذ الأكبر قد قدر هذه النتيجة المنطقية بدليل أنه رأى أن يكون لوزارة المعارف اشتراك جوهرى وإشراف فعلى على كلية اللغة العربية من حيث وضع برامجها ، والتفتيش عليها ، وامتحان طلابها ، والاستعانة بأساتذة وزارة المعارف على تعليم المواد التى لا يوجد لها معلمون بين رجال المعاهد الدينية . بل لقد ذهب فضيلته إلى وجوب أن يكون الامتحان النهائى لكلية اللغة العربية هو بعينه الامتحان النهائى لدار العلوم مع أن وزارة المعارف هى التى تضع هذا الامتحان النهائى وهى التى تشرف عليه وتقوم به فى كل أدواره .

لكن الاتجاهات السياسية والدستورية فى ذلك الوقت حالت دون تنفيذ

هذا الإصلاح الذى أراده الشيخ الأكبر للمعاهد الدينية للبلوغ بها إلى غايته، وقد أدت هذه الظروف إلى أن استقال فضيلة الأستاذ الشيخ المراغى من مشيخة الأزهر، ثم استقالت الوزارة التى اقترح فى عهدها ذلك النظام الذى يرمى إلى توحيد التعليم فى الدولة — وكانت وزارة حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا — وقد شغلت مصر بعد ذلك بانتخاب عدلى باشا فى سنة ١٩٢٩ ثم بمفاوضات النحاس باشا فى سنة ١٩٣٠ ثم بالانقلاب الدستورى الذى تلا ذلك فى سنة ١٩٣٠ أيضا والذى لم ينفذ إلا فى يونيو سنة ١٩٣١ .

فى هذه الفترة المضطربة سياسيا ودستوريا صدر قانون الأزهر فى سنة ١٩٣٠ وقد أهمل هذا القانون فكرة توحيد التعليم التى رسمها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ونص عليها صراحة فى مذكرته. ومع ذلك استبقى هذا القانون الصورة الظاهرة للكيان النظامى الذى أراد فضيلته أن يقيم المعاهد الدينية على شاكلته : أنشئت كليات، وأنشئت معاهد ابتدائية، وثانوية، ولكن الجوهر الذى طالب به الشيخ الأكبر لم ينفذ شىء منه . لم تغير الكتب . لم تغير برامج التعليم إلى الحد الذى يحقق فكرة توحيد التعليم مع المدارس الأميرية. لم يتغير الأساتذة بأكثر من استعارة بعض أساتذة وزارة المعارف عن طريق الندب للتدريس فى المعاهد الدينية وتعيين طائفة من مدرسى العلوم الحديثة ثم الاستغناء عن أكثر هؤلاء بعد أن عدلت مناهج التعليم مرة أخرى فى سنة ١٩٣٦ كما سنشير إليه فيما بعد .

على ذلك ألغيت مدرسة القضاء الشرعى اكتفاء بكلية الشريعة وألغيت تجهيزية دار العلوم تمهيداً لإلغاء دار العلوم نفسها . ثم بقيت المعاهد الدينية محتفظة باستقلالها بعيدة عن النظام الدستورى للدولة .

✡✡✡

ولقد عاد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى إلى مشيخة الجامع الأزهر

فى سنة ١٩٣٤ ، وكان المفهوم أن يعود فضيلته بهذه المعاهد إلى النظام الذى أراده لها . لكن الحوادث كثيرا ما تكون أقوى من الرجال على حد تعبير الساسة وكثيرا ما تضطرهم إلى السير فى طريق غير الذى رسموه . والظاهر أن ذلك هو الذى واجه فضيلة الشيخ الأكبر والذى اضطره إلى الرجوع عن فكرته الأولى مجاراة للأحوال التى لم يكن من مجارتها بد .

بل لقد رجعت المعاهد بعد فترة من عودة فضيلته إليها ؛ لتكون أكثر اتصالا بماضيها ! فقد ألغى قانون سنة ١٩٣٠ — على ما كان بينه وبين فكرة فضيلته الأولى من اختلاف — وصدر بديلا منه قانون سنة ١٩٣٦ الذى رد المعاهد الدينية إلى نظامها الأول وإن بقيت فى الصورة على الوضع الذى يسمونه «الوضع النظامى» ؛ إذ أنقص من تدريس العلوم الحديثة بحجة أنها تطغى على العلوم الدينية والشرعية . ولقد كان هذا التعديل فى القانون إمعانا فى الابتعاد عن فكرة توحيد التعليم العام فى بلاد الدولة ؛ إمعانا يدعو إلى التفكير فيما إذا كان هذا التوحيد مستطاعا حقا مع الأطوار التى مرت بها المعاهد الدينية فى أدوارها المختلفة.

ولو أن التوحيد كان مستطاعا وكانت مذكرة الشيخ الأكبر فى سنة ١٩٢٨ قد نفذت ، لوجب أن تضم المعاهد الدينية إلى وزارة المعارف كما قدمنا ، وعند ذلك تحل مسألة تهيئة معلم اللغة العربية حلا طبيعيا ؛ لأن وزير المعارف سيكون مسئولا عن المعاهد المدنية والمعاهد الدينية جميعا ، وسيضع فى حدود مسئوليته الدستورية النظام الذى يكفل تهيئة معلم اللغة العربية لهذه المعاهد القائمة على أساس من توحيد التعليم .

أما والتوحيد غير مستطاع ، حيث تبقى المعاهد الدينية فى وضعها الخاص من حياة الدولة ، فالطبيعى أن يكون وزير المعارف وحده هو الذى يضع النظم الكفيلة بتهيئة معلم اللغة العربية فى المدارس التابعة له والمسئول هو عنها ،

وألا يكون للمعاهد الدينية أى حق فى التداخل فى شئونه ، وألا يكون لخريجيها أية أهلية خاصة للتعليم فى مدارس الوزارة .

والواقع أن وزارة المعارف تعانى فى الوقت الحاضر متاعب فى تعليم اللغة العربية شعر بها وزراء المعارف المتعاقبون جميعا ، وحاولوا وسيظلون يحاولون إلى زمن غير قريب التغلب عليها . هذا مع أن معلم اللغة العربية نشأ فى مدرسة دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف وإشرافها الدقيق منذ سبعين عاما .

وسبب هذه المتاعب يرجع إلى أن أبناء دار العلوم يؤخذون دائما من الأزهر ، بحجة أن معلم اللغة العربية يجب أن ينشأ فى ظلال الدين الإسلامى الذى اختصت المعاهد الدينية بتعليمه ، وقد أنشئت تجهيزية دار العلوم للتغلب على هذه المتاعب ، فحوربت حربا انتهت بإلغائها تنفيذا لقانون سنة ١٩٣٠ . ولما أرادت وزارة المعارف إنشاء قسم إعدادى لدار العلوم حورب إنشاء هذا القسم ، واضطرت وزارة المعارف على أسف منها إلى العدول عنه .

والواقع أن معلم اللغة العربية يجب أن يهيأ فى ظلال القرآن على أنه الحجة الثبت فى اللغة ، والمثل الأعلى فى البلاغة ، فأما ماسوى ذلك من علوم الدين فحسب معلم اللغة العربية منها أن يأخذ بقسط كاف من العلوم التى تمكنه من فهم القواعد الدينية العامة والثقافة الإسلامية .

لكن معلم اللغة العربية بحاجة مع فهمه القرآن وبلاغته ، ومع إحاطته بقواعد اللغة نحوا وصرفا وبلاغة ، إلى تتبع اللغة فى تطورها على اختلاف العصور . بحاجة إلى معرفة الأسباب الحقيقية التى أدت إلى ازدهارها حينا وإلى جمودها أحيانا . بحاجة إلى معرفة تاريخ الأدب العربى حديثه وقديمه . بحاجة إلى مقارنة هذا الأدب بآداب اللغات الأخرى وإلى معرفة تأثر هذا الأدب بتلك الآداب وأثره فيها فى العصور المختلفة . بحاجة إلى إدراك صلة اللغة بالعلوم المختلفة جميعا . فاللغة الحية لا تكون حية إلا بمقدار وفائها بحاجات هذه العلوم

كوفائها بحاجات الدين وبحوثه ، وبمقدار وفائها بهذه الحاجات فى أحدث طور وصل إليه العلم وأحدث صورة وصل إليها التفكير الأدبى والفلسفى .

✡✡✡

لم يكن الناس يشعرون منذ سنوات ماضية بحاجة معلم العربية إلى هذا كله ؛ لأن الحياة الجامعية لم تكن قد نشأت ، أو لأنها كانت فى بدء نشأتها ، ولأن المدارس العليا كانت تدرس فيها أكثر العلوم باللغات الأجنبية ، فكان إتقان اللغة العربية معتبرا أمرا مقصودا لذاته ، يحمد من يبلغه ، ولا يلام من يقصر فيه ، فلما بدأت الحياة الجامعية تؤتى ثمرها ، ولما بدأت الدراسات باللغة العربية تستقر فى كليات الجامعة المختلفة ، ثم لما بدأ الشعور بضرورة تمصير العلم كله يقوى فى النفوس ، بدأ رجال وزارة المعارف وغير رجال وزارة المعارف يدركون أن اللغة ليست غاية لذاتها ، وأن التفوق فيها ليس كمالا يستحق صاحبه الحمد ولا يلام من لا يبلغه ، وإنما اللغة أداة لنقل العلم وألوان الفكر ووسيلة للتفاهم ، فالتقصير فى إتقانها موجب للوم ضار بالحياة الفكرية فى البلاد غاية الضرر .

من هنا تكشفت حقيقة تعتبر بديهية فى غير مصر ، ولكن الظروف التى سبقت إنشاء الجامعة عندنا أحاطتها بكثير من الإبهام . هذه الحقيقة هى أن مدارس الدولة الابتدائية والثانوية تهيىء أبناءها للالتحاق بالجامعات المدنية . وطبيعى لذلك أن يعد تعليم اللغة العربية فى مدارس الدولة إلى هذه الحياة الجامعية إعداداً تتم به الدورة التعليمية ، وأن يكون معلم اللغة العربية قد هيىء للقيام بهذه المهمة على خير وجه . وقد هيىء لها من أول تنشئته ، شأنه فى ذلك شأن غيره من معلمى المواد الأخرى . ولعل ما لوحظ من ضعف طلاب الجامعة فى اللغة العربية يرجع إلى أن هذه الشرائط لم تتحقق وإلى أن تعليم اللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية غير متصل بالتعليم الجامعى الاتصال

الواجب ، وهذا ماقرره الممتحنون فى كليات الجامعة المختلفة إذ رأوا ضعف الطلاب فى التعبير باللغة العربية تعبيرا صحيحاً .

فكرت وزارة المعارف فى السنوات الأخيرة فى التماس الوسيلة إلى علاج هذه الحال ، واتجهت فى تفكيرها فى هذا العلاج نحو الكتب التى تدرس وتقرأ فى المدارس الابتدائية والثانوية فتألفت فى يونيو سنة ١٩٣٥ لجنة من بعض رجال وزارة المعارف والجامعة لوضع كتب للقواعد والمطالعة للمدارس الثانوية ، كما تألفت لجنة أخرى لمراجعة هذه الكتب . وفى سنة ١٩٣٧ عدل تأليف اللجنتين. وفى أغسطس سنة ١٩٣٧ صدر قرار بتشكيل لجنة من بعض رجال وزارة المعارف لوضع كتب الدين وفق المنهج الحديث ، كما تألفت لجنة من بعض رجال وزارة المعارف والجامعة لوضع كتب فى تاريخ الأدب العربى والمحفوظات ولجنة أخرى من رجال الجامعة لوضع كتاب فى تاريخ الأدب للسنة التوجيهية.

هذا فيما يتعلق بالمطالعة الأصلية ، أما المطالعة الإضافية أو المطالعة الخاصة فكانت إلى سنة ١٩٣٥ مقصورة على مراجعة التلاميذ كتبا مختلفة يستعيرونها من المكتبات . وهى الكتب التى كانت تقتنيها الوزارة من مؤلفات المؤلفين المختلفين سواء فى مصر أو فى غيرها من الأقطار العربية . أو على كتاب يوزع على التلاميذ لقراءته فى البيت ، على أن التلاميذ لم يكونوا يعنون عناية كبيرة بهذه المطالعات ؛ لأنهم لم يكونوا يقومون بها مع أساتذتهم من ناحية ؛ ولأنهم لم يكونوا مسئولين عنها فى امتحان ولا فى غير امتحان من ناحية أخرى .

وفى سنة ١٩٣٥ فكرت الوزارة فى تزويد التلاميذ فى أثناء العطلة الصيفية بكتب يقرءونها ، فاقتنت مقادير كبيرة من كتب بعض المؤلفين المحدثين ووزعتها على التلاميذ .

لم تنجع هذه الوسائل للعلاج فأمعنت وزارة المعارف فى السنة الأخيرة التفكير فى الأمر وذهبت تلتمس أسباب الضعف تريد أن تشخصها ؛ ليكون

العلاج ناجعا منتجا . وآخر نظرية لوزارة المعارف فى هذه المسألة و فى غيرها من مسائل التعليم جميعا أن المعلم هو مصدر كل قوة وكل ضعف فى التعليم. فالمعلم الصالح يصلح البرنامج المعوج ويمهد السبيل أمام الوزارة بقوة حجته لتلافى أسباب الفساد . هو يشعر فى حبه لمهنته بضرورة العمل لأن تبلغ الكمال فهو بسعيه يهيىء الوسائل إلى بلوغها هذا الكمال ؛ لهذا وجهت الوزارة همها إلى معاهد إعداد المعلمين ومن بينها دار العلوم تريد إصلاحها، وذلك بعد أن درست أسباب الضعف وعلل المتاعب التى توجهها فى هذا الطور الجديد من أطوار حياة مصر الذى يختلف اختلافا كبيرا عن الطور الذى سبقه .

✡✡✡

وقد تبينت الوزارة أن من أسباب الضعف فى تعليم اللغة العربية قصر اختيار الطلاب لدار العلوم من الحاصلين على الشهادة الثانوية للأزهر . ليس يرجع هذا الضعف إلى قلة فى الرغبة من جانب هؤلاء الطلاب، ولا إلى ضعف فى حرصهم على أن يبلغوا الكمال ، كلا ، بل هم يجهدون أنفسهم ويبذلون كل مايستطيعون بذله للقيام بواجبهم كطلاب وكمعلمين . وإن كثيرين منهم ليبلغون فى أحيان كثيرة مقاما محمودا. لكن تأثرهم بطرائق التدريس فى الأزهر وبالكتب التى تدرس فيه وبغير ذلك من العوامل التى تسود بيئته . كل ذلك يضطر هؤلاء الطلاب إلى بذل جهد عنيف لتفهم النظريات الحديثة فى التربية وتطبيقها ، كما أن اختيارهم ذلك يجعل الصلة بينهم وبين التعليم الجامعى مقطوعة فى أول الأمر ، ويزيد لذلك فى مشقتهم . ثم إن اختيار معلمى اللغة العربية من طائفة واختيار معلمى سائر العلوم من طائفة أخرى كان سببا لمتاعب لم يقف أثرها عند التنافس الطائفى ، بل تعداه إلى أن الطرائق التى يسير عليها هؤلاء والطرائق التى يسير عليها أولئك تدفع إلى نفس التلميذ حيرة قد لا يعيها بعقله، ولكنه يضطرب أمامها بفطرته، فهو بين هذه الطريقة وتلك يسلك سبيله إلى الجامعة، فإذا بلغها تعقدت

طرائقها أمامه وصار فى حيرة حتى يتعود الدراسات الجامعية، وقد يضيع عليه ذلك سنة أو أكثر من سنى الدراسة . وهذا فى رأينا هو سبب السقوط الفاحش فى السنوات الأولى من كليات الجامعة .

وقد لمست وزارة المعارف هذا الاضطراب بسبب اختلاف الطرائق فى تنشئة الأطفال أنفسهم حين قارنت بين من ينشئون فى رياض الأطفال وبين من ينشئون فى التعليم الأولى . هؤلاء وأولئك إذا اجتمعوا فى فرقة واحدة لم يستطع بعضهم أن يساير بعضا فى اللغة العربية بنوع خاص . فأما أبناء رياض الأطفال الذين تعلموا على الطريقة المتبعة فى مدارس البنات فيبدون ضعافا إلى جانب الذين يعلمون فى المدارس الأولية . وأما بنات رياض الأطفال اللائى يتلقين اللغة العربية على معلمة فى مدارس البنات فيسرن فى طريقهن ويتفوقن فى امتحان الشهادة الابتدائية على البنين . ومرجع هذا وذاك من الأمر إلى اختلاف الطريقة فى إعداد المعلم وفى إعداد المعلمة وفى الطريقة التى يتبعها كل منهما فى التدريس كنتيجة لهذا الإعداد.

أما والشأن ما تقدم فليس ثمة شبهة فى أن إعداد المعلمين لمدارس وزارة المعارف يجب أن يترك لوزارة المعارف لا يشاركها فيه أحد من بداية الأمر إلى نهايته، ويجب أن يعدل التشريع فى قوانين الأزهر وفى غير قوانين الأزهر بما يحقق هذه الغاية .

***

وهنا شرح معالى الوزير طريقة تنفيذ فكرته فقال :

«وتطبيقا لهذه القاعدة التى تتفق وحدها مع المنطق ومع الدستور ومع مسئولية وزير المعارف البرلمانية ، والتى أخذت بها الأمم المتحضرة كلها . لأنها تعتبرها من البديهيات التى لا تقبل جدلا — يجب أن تنظم العلاقة بين المعاهد الدينية ووزارة المعارف فى هذه الحدود . فأما إن حرصت المعاهد على استقلالها مع

بقاء نظامها الحالى فيجب أن تضم كلية اللغة العربية وكلية الشريعة إلى وزارة المعارف عودا إلى النظام الطبيعى الذى جعل مدرسة القضاء الشرعى ومدرسة دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف وإشرافها . وقد تكون هذه خطوة صالحه لتوحيد التعليم إذا أخذ معلمو اللغة العربية فى المعاهد الدينية ممن تعدهم وزارة المعارف لتعليم هذه اللغة .

وأما اذا رئى بقاء المعاهد الدينية بصورتها الحاضرة بعيدة كلها عن وزارة المعارف ، فإن هذه المعاهد يجب أن تكتفى فى أمر إعداد معلم اللغة العربية بإعداد معلميها هى ، ويجب أن تكون وزارة المعارف حرة تمام الحرية فى إعداد معلم اللغة العربية لمدارسها ، وفى اختيار من يصلح لهذا الإعداد . شأنها فى ذلك شأنها فى إعداد المدرسين لسائر المواد التى تعلم فى مدارسها » .

ثم ختم معاليه هذه المذكرة قائلا :

« هذه فكرة إجمالية عن تهيئة معلم اللغة العربية ومايجب أن تكون عليه فى مصر . ووزارة المعارف مقتنعة بأن اللجنة الموقرة ستوافقها عليها تمام الموافقة ، وأنها لذلك ستقترح إلغاء كل مايخالفها فى القوانين الحاضرة ، وسنبدى هذا الرأى لمجلس الوزراء تحقيقا لمصلحة الدولة ، وحرصا على حياة اللغة نفسها » .

# هل جني الشعر الجاهلى

## على الأدب العربى ؟

للأستاذ على النجدى ناصف

المفتش بالمعارف

---

قرأ الناس فى مجلة الثقافة بضع مقالات للعالم الأديب الأستاذ أحمد أمين ، بعنوان « جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى » . وقد حمل الأستاذ فى هذه المقالات حملة شعواء قاسية على الشعر الجاهلى والمحسنى الظن به ، ودعا فى غير تحرز ولا هوادة إلى نبذ كل أثر من آثاره قد يكون عالقا بأدبنا الحاضر . وهو يرى أن السكوت عن هذا سكوت عن خطأ قديم ، وقع السلف فيه ، ولم يسلم الخلف منه جيلا بعد جيل . بل هو يرى هذا السكوت إذعانا لأسر مهين ، واحتفاظا بقيود ثقال ، ألغت شخصيتنا الأدبية ، ومنعتنا أن نفكر بعقولنا ، ونعبر عن عواطفنا ووجداناتنا ، ونتحدث عن مشاكلنا ، وعن العصر الذى نعيش فيه والبيئة التى تحيط بنا ؛ فظل أدبنا على العهد به قبل النهضة الحاضرة — أقوالا مرددة ، وصوراً معادة مكرورة .

وليس يعنينى فى هذا المقام أن أصف الدهشة التى شملت الناس ، والعجب الذى تولاهم حين قرءوا هذه المقالات ، واطلعوا على مافيها من الآراء والأفكار . وليس يعنينى كذلك أن أبين سبب هذه الدهشة وذلك العجب : أهو شدة الخلاف بين مارأى الناس فى هذه المقالات ، وما اعتادوا أن يروا

فى سائر آثار الأستاذ : من أصالة الرأى ، والتوفيق فى البحث ، والاعتدال فى العرض والتعقيب ، أم هو شىء آخر يخالف ذلك كله ، أو يضاف إليه ؟ وإنما الذى يعنينى أن أتناول هذه الآراء بالنقد ، وأن أرد كل وجه من أوجه الخلاف إلى أصله الذى أراه له أصلا .

وهذا لا يعنى بالبداهة أننى أقدس الأدب العربى ، وأبرئه من كل مأخذ ، وأنزه أصحابه عن المؤاخذة ، كما يذكر الأستاذ عن ناقديه فى إحدى مقالاته ؛ فإنى لأعلم أن هذا الأدب ليس وحيا منزلا ، وأن أصحابه ليسوا أنبياء معصومين. كلا ، ولا ملائكة مقربين . وإنما معناه أن آراء الأستاذ فى هذا الموضوع غير مسلمة ولا متفق عليها .

وأول ما نقف عنده مع الأستاذ فيما ذهب إليه من رأى — هو جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى . فما تكون هذه الجناية ؟ وما مبلغ اتهامه بها من الحق والإنصاف .

هذه الجناية كما يراها الأستاذ — هى أن الشعر الجاهلى طغى على الأدب العربى فى جميع عصوره ، فصبغه بصبغته ، وخلع عليه من سمته ؛ فإذا هو عصرى فى ظاهره ، جاهلى فى حقيقة أمره . وعندى أن الأستاذ لم يتحفظ فى عرض هذه الفكرة ، ولم يحدد معناه منها ؛ فإذا هى فضفاضة مرسلة ، فيها من الإسراف والمبالغة ، وفيها من الشيوع والانطلاق . فالأدب العربى قد تأثر بالشعر الجاهلى فى شتى العصور ، ما فى ذلك شك ولا جدال . لكن هذا التأثر كان طبيعيا ، وكان يختلف قوة وضعفا بحسب الظروف التى لابسته ، والأحداث التى تعرض لها.

ففى صدر الإسلام كان الشعر جاهليا فى جملته ، لم يطرأ عليه من ظواهر التغيير إلا القليل ؛ لقرب عهد الناس بالجاهلية ، وبقاء الحياة العامة على العهد بها فى الكثير من مناحيها ، ولاسيما حياة الكافة وسكان القاصية ومن يليهم. أما النثر فكان حظه من التغير أوفر ، وتأثره بالإسلام أوضح ؛ أن كان كتاب الله

نثرا لاشعرا . وحديث رسوله ﷺ أشبه الكلام بكلام الله ، بلاغة منطق ، وروعة بيان .

وفى العصر الأموى انبسطت رقعة الدولة ، وثبتت أصولها ، وعز سلطانها ، وفشا فيها الغنى . وتفرق الناس فى أقطار الأرض ؛ فرأوا حضارات لم يروها ، واطلعوا على عادات وأساليب لاعهد لهم بها ، وخالطوا أجناسا شتى ، فأخذوا عنهم ماأخذوا ، ورفضوا مارفضوا ، مع الاعتزاز بالعصبية العربية ، والاحتفاظ بخصائص العرب الراسخة ، ومزاياها المتوارثة ، فكان هذا العصر حقا عصر التهيؤ للانتقال من طور إلى طور ، عبرت فيه الدولة من طور البداوة أو شبيه بها ، إلى طور الحضارة المؤثلة والملك العريض . وكان الأدب على مثال الحياة الاجتماعية فى ذلك ، كان حدا وسطا بين طرفى القديم والحديث ، أو مجازا عبر عليه الأدب العربى من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة ، كما قال أستاذنا الإسكندرى ( رحمه الله ) عن شعر بشار بن برد .

وفى العصر العباسى بذخت الحضارة ، واستبحر العمران ، وازدهرت الفلسفة ، وأينعت العلوم والفنون . واعتمد الخلفاء على الأعاجم فى توطيد سلطانهم وتدبير ملكهم ، والقيام على الصغير والكبير من أمورهم ، فاشتدت صولتهم وعظم خطرهم ، وما زال يعظم حتى صاروا آخر الأمر أصحاب الحل والعقد ، وأصبح الخليفة ، لاشأن له ولا سلطان ، وأصبح بقاؤه فى الخلافة رهينا بإرادة المتغلبين إن شاءوا عزلوه ، وإن شاءوا أبقوه . فتمازجت العرب والعجم ، ووهنت العصبية العربية ، وتمزقت الدولة مزقا شتى تكونت منها دويلات متنافسة متقاطعة ، لاتكاد تهدأ الحرب بينها أو تنقطع ، وانقرضت أجيال وخلفتها أجيال ، فتبدلت الحال غير الحال . وتغيرت عادات بعادات ، وحلت أساليب فى الحياة محل أساليب ، فتحول الأدب أيما تحول ، وشمله التغيير من كل جانب ، ولم يبق فيه من آثار الشعر الجاهلى إلا بمقدار مابقى فى القوم من آثار العروبية الأولى ، وسيأتى بيان ذلك فى شىء من الإيضاح والتحديد .

وفى عصر الجمود والتقهقر ركدت الحياة الأدبية أو كادت ، وانصرف الأدباء عن الابتكار والتجديد ، إلى أساليب من الصناعة الفارغة ، والزخارف اللفظية التافهة ، فلم يكن فى أدبهم من صراحة التفكير العميق ، ولا جهد التغلغل والاستيعاب ، ولم يكن فيه من سراوة الطبع السمح والخاطر المطواع ، ولكن كان فيه من عبث الخليين ، وتهافت المقلدين .

ولما جاء عصر النهضة تلفت الأدباء حولهم يبحثون عن مثال يحتذونه ، وفيض يستمدون منه ، فلم يجدوا مثلا أعلى ، ولا فيضا أغزر مددا ، وأعذب وردا من الأدب القديم ، فأقبلوا عليه ينهلون منه ، ويأخذون إخذ أصحابه فى التفكير وطرائق التعبير ، ويمهدون للناس سبيله بالدعاية له ، وإحياء مصادره ، ونفى الشوائب عنه . وأنجح الله مسعاهم ، فحى الأدب القديم ، ولاقى ما يستحق من حفاوة وإقبال ، فاصطبغ به أدب النهضة فى مستهل أمره ، ولا يزال متأثرا به إلى اليوم . وأعتقد أن ستبقى الصلة بينهما ممدودة ، مهما تمتد به الأيام ، ويتوارد عليه من أسباب الخلاف ، فكل فرع إلى أصله ينزع ، ولو فى المشابه العامة ، والخصائص النوعية .

يتضح من هذا البيان أن الأدب العربى فى عصوره المختلفة كان يساير حياة الناس ، ويتأثر بما يقع فيها من أحداث ، وما تمر به من أطوار وتقلبات ، وأنه كان مع ذلك موصول الأسباب بالشعر الجاهلى فى جميع العصور ، وإن اختلفت الصلة بينهما بحسب الظروف والملابسات . وما كان الأدب وهو يجرى على هذا السنن حيال الشعر الجاهلى — بدعا فى الطبيعة ، ولا شاذا من شواذها ، ولكنه كان يجرى على نمط مألوف ، يقتضيه التسلسل والتشعب ، وأحسب أنه على اتفاق مع قانون الوراثة فى الأحياء . فلا ندرى إذا كيف يسمى ذلك جناية ، وكيف يستحق الشعر الجاهلى بسببها غضب الأستاذ ونقمته ؟

على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالشعر الجاهلى ولا مقصورة عليه .

فما من عصر إلا فيه شية مما قبله ، وله أثر فيما بعده . ذلك لأن لكل عصر نتاجه الذى يحيا فيه ، وتمتد به الحياة إلى الذى يليه ، على تفاوت فى مدى العمر ومبلغ الحياة . وقد يكون فى بعض الأحيان إنسانيا خالدا ، يرتفع عن القيود والحدود ، فإذا كانت هذه جناية فهى من آداب العصور السالفة عامة ، على آداب العصور الخالفة عامة كذلك ، وإذا هى جناية مرزعة التبعة ، تشترك فيها الآداب فى جميع العصور . فما قصرها إذا على العصر الجاهلى ؟ ألأنه كان أشد العصور تأثيرا ، وأوفرها من هذه ( الجناية ) نصيبا ؟ إن كان ذلك فدليل الحيوية وشدة الأسر . وتلك إذا مزية تذكر له ، ويحمد بها ، وليست منقصة تغض منه ، ويتهم لأجلها بالجناية .

إنا لنبخس هذا الشعر فضله ، ونزرى بقيمته الفنية الخالدة ، إذا كان كل ماذكر عنه فى هذا المقام أنه برىء من تهمة الجناية التى ألصقت به إلصاقا ، من قبيل تسمية الأشياء بغير أسمائها ، ووصفها بضد ماتستحق من صفات ، ونحس فى قرارة أنفسنا أن واجب الإنصاف وعرفان الجميل يقتضينا فى غير هوادة أن نشيد بجزيل عائدته وجميل أثره فى الأدب وتاريخه ، واللغة ومايتصل بها ويتفرع عنها من العلوم والفنون . فالشعر الجاهلى قد حفظ لنا صورا فنية خالدة ، تمثل بيئة الجاهلية ومايضطرب فيها من أحياء ، ويتراءى من مشاهد الطبيعة وأفاعيل الانسان ، وتمثل حياة الجاهلية وما كانت تجيش به من عواطف ووجدانات ، وتخضع له من تقاليد وعرف ، ويشيع فيها من عادات ، ويقع من أحداث ، ثم هو قد أمد اللغة بثروة ضخمة من المفردات والتراكيب المختلفة تجول فى شتى مطالب التعبير ، وتترجم عن ألوان كثيرة من المعانى . وإليه اتجه العلماء وواضعو العلوم اللسانية يستنبطون أصولها ، ويؤثلون قواعدها ويلتمسون لها الشواهد ، ويصححون الأخطاء ، ويستوضحون المستبهم ،

ويحلون المشكل ، فهو قد أدى رسالته فى خدمة اللغة والأدب وما يتصل بهما كأحسن ما يؤديها الشعر ، وعلى وجه لا نكاد نعرف له مثيلا .

أما لو أن الشعراء والأدباء الذين خلفوا شعراء الجاهلية عصرا بعد عصر — نظروا إلى الشعر الجاهلى كما ينظر الأستاذ أحمد أمين إليه ، فأغفلوا أمره . وقطعوا صلتهم به ، لاستغلق أمره على الخالفين ، وصار فى الأذواق بعد حين كلاما مر ذولا ، وفنا مستكرها ، لا يستسيغه إلا خواص الخواص من المنقطعين لدراسة الآثار البالية ، والتنقيب عن العاديات البائدة . لكنهم أبوا لحسن الحظ إلا أن يمضوا على سننهم القويم ، فإذ الأدب فى جميع العصور امتداد للأدب الجاهلى ، وتفريع منه ، وزيادة عليه ، رعاية لمقتضيات الزمن . ومسايرة له فى أطواره ، وحفاظا على الأصول الأولى أن تنقطع الصلة بها مع الأيام ، فيتناكر الماضى والحاضر ، ولا يتفاهم الأول والآخر .

ويرى الأستاذ الفاضل أن التغيرات التى طرأت على الشعر فى العصر العباسى لا تعد تغيرات ذات بال ؛ لأنها لم تصل إلى الصميم ، بل وقفت عند الحواشى والأطراف ، فلم تمس الوزن والقافية ، ولم تتناول الحياة الاجتماعية بالوصف المستفيض والتحليل الدقيق . وهو يعزو هذا القصور فيه إلى طغيان الشعر الجاهلى عليه ، واستبداده به ، يوجهه وجهته ، ويملى عليه إرادته .

ونحن إذ نرجع إلى الشعر العباسى فنبتليه من هذه الناحية — نراه قد أوفى على الغاية المأمولة ، وأدى الرسالة على النحو الذى يريد الأستاذ ، فاستحدث المستطيل والممتد والموشحات فى الأوزان ، وكثر النظم من البحور التى لم تستكثر العرب منها ، كالمضارع ، والمجتث ، والمتدارك ، واستحدث التسميط ، والتخميس ، والازدواج فى القافية وتغيرت الألفاظ والمعانى تغيرا كبيرا ، بما دخل عليه من الرقة ، والعذوبة . والإطلاق ، والتقييد ، وما استجد من الأساليب وطرق الأداء ، وشاع من الزخارف والتأنق وحسن الترتيب وإحكام الصنعة ،

وما اخترع من الأخيلة والتشبيهات ، والتزم من الافتنان فى إزجاء الخواطر وعرض الفكر . أما الموضوعات فالتغيير فيها شامل مستفيض ، تناول الحياة من كل ناحية ، ودخل عليها من كل باب : فجد وهزل ، وتقوى وزهد ، وخلاعة ومجون ، وشراب وندمان ، ونساء وغلمان ، وطرد وصيد ، وسياسة وحكم ، ودعاية وأحزاب ، وفلسفة وحكمة ، وديانة ومذاهب ، وقوانين وأنظمة ، وليل ونهار ، وسماء ونجوم ، وشمس وقمر ، وسحاب وأمطار ، وأرض وأجواء ، ومياه ورياض ، وأزهار وثمار ، وطير وحيوان ، وآلات وأدوات ، وسلم وحرب ، وكرّ وفر ، وخوف وأمن ، وغير هذا أو أشباهه مما يطول تعداده ، وتشق الإحاطة به . ولولا مخافة الإطالة وأن كتب الأدب ودواوين الشعراء زاخرة بذلك كله لسقنا له الشواهد ؛ ليستيقن الذين يرتابون ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا .

ومن آثار هذا العصر الأدبية ما يتسع لبعض مشا كلنا الحاضرة ، ولا يقصر عن الإلمام ببعض مخترعاتنا العتيدة ، كأن أصحابها يوم قالوها فى موضوعاتها كانوا ينظرون بالغيب إلى أشباه لها ونظائر ، ستتمخض عنها العصور المستقبلة .

فهذه سياسة العالم اليوم ، يتنازعها فريقان يختصمان : فريق يتنزى للغزو وبسط السلطان ، كأنه لا يكترث فى سبيل هذه الغاية لما يصيب العالم من خراب وتدمير . وفريق يجنح للسلم ، ولكن فى غير ذلة ولا استخذاء ، ويتخذ الأهبة للطوارىء الفاجئة فى غير اعتداء ولا استفزاز . فهل من الشعراء المعاصرين من لخص هذه السياسة بأصدق وأجمع مما لخصها أبو الطيب المتنبي إذ يقول :

وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه ، وأن نتعانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ، ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحى لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا
كل مالم يكن من الصعب فى الأنـ ـفس سهل فيها ، إذا هو كانا

وهذا ابن هانىء الأندلسى يصف الخيل فى إسراع عدوها ، فكأنما يصف الطائرات فى إسراع طيرانها قال :

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب ، ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها ، لا أنهـا علقت بهـا يوم الرهان عيون
وأجل عـلم البرق فيها أنهـا مرت بجانحتيه وهى ظنون

ويصف المتنبى سيرورة شعره ، وشيوع روايته فى الآفاق ، فإذا هو كواصف الإذاعة بالواحى ، تجتاز العامر والغامر ، وتقتحم السهل والحزن ، لا يعوقها عائق ، ولا تحدها حدود . قال :

فشرّق حتى ليس للشرق مشرق وغرّب حتى ليس للغرب مغرب
إذا قلته لم يمتنع من وصوله جدار معلى ، أو خباء مطنب

وقال :

وعندى لك الشرد السائرا ت ، لا يختصصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مقولى وثبن الجبال ، وخضن البحارا

فلا ندرى بعد هذا مامراد الأستاذ الكبير بقوله : إن التغيرات التى اعترت الشعر العباسى لم تمس الوزن والقافية ، ولم تتناول الموضوعات من الصميم ؟ أتراه يقول مايقول عن تغيرات الموضوعات ؛ لأن الشعراء فى أغلب الأحوال لم ينشئوا فى هذه الفنون الجديدة قصائد خاصة وإنما تصدوا لما تصدوا له منها عرضا فى قصائد المدح وغيره ؟ إن كان هذا هو السبب فليس فيه ماينتقص الشعر العباسى أو يعيبه ، مادامت الغاية محققة ، والمطلوب مدركا . وماجناية الشعر الجاهلى فى ذلك ، وهو لا يعرف الكثير من موضوعات هذا الشعر ، ولا تعلقت بمعانيها خواطر شعرائه ؟ وإنما وجه الشعراء وجهة الكسب بالشعر ،

وجعل المدح أول مقاصدهم به — ظروف الحياة الاجتماعية نفسها ، ورضا أولى الجاه والثراء عن هذا الضرب من الزلفى ، وتشجيعهم على الافتنان فيه والاستكثار منه ، ببذل الرغائب وإسناء الجائزة .

ويعزو الأستاذ ماينسبه إلى الشعر الجاهلى من التمكن والغلبة إلى دعاية الرواة وأئمة اللغة من أمثال الأصمعى ، وأبى عمرو بن العلاء ، وابن الأعرابى .

ولاخلاف أن هؤلاء السادة كانوا بحكم ثقافتهم ، ووحى رسالتهم التى تجردوا لأدائها — يتعصبون للشعر الجاهلى ، ولايحتجون بغيره إلا ماكان من شعر المخضرمين والإسلاميين ولكن أنى لهم تأثير السحر فى إعلاء كلمة الشعر الجاهلى وبسط نفوذه ، وكيف ظهرت على أيديهم المعجزة التى هيأت لهم اجتذاب الناس إلى طريقتهم ، وإغراء الشعراء بترسم خطا سلفهم من الجاهليين فى مذاهب الشعر ومرضوعاته ؟ يقول الأستاذ : إنهم كانوا لدى الخلفاء أسمى مكانا وأنفذ رأيا ، وكانوا فى الناس أقوى ناصرا وأكثر شيعة ، ثم إنهم مكروا بالناس ، واستغلوا عواطفهم الدينية لبلوغ أربهم ، فوصلوا الشعر الجاهلى بتفسير القرآن الكريم ، وزعموا أنه يعين على تفهم مفرداته ، والكشف عن المكنون من أسراره .

والمعروف أن مكانة الشعراء عند الخلفاء لم تكن أقل من مكانة الرواة ومن إليهم ، إن لم تكن فى بعض الأحوال على الأقل — أرفع شأنا ، وأمنع جانبا ، فإن الشعراء ينتجون وهؤلاء يجمعون ، أوهم فى الواقع رواة منتجون ، ومنهم طائفة لاتقل عن الرواة المنقطعين غزارة رواية ، وتدفق حفظ ، وهم بعد يملكون مالايملك غيرهم من تأييد السلطان ، ومحاجة الخصوم ، ونشر المزية ، على نمط يكفل لها الذيوع وقوة الأسر ، صنيع الصحف السيارة فى العصر الحاضر أو أشد ، فلو نشبت حرب بين الفريقين لكان النصر فيها للشعراء لامحالة .

وليس أدل على خلوص نية هؤلاء الأئمة ، وانتفاء الهوى عن مذهبهم فى

الاجتماع من أنهم إلا قليلا جدا — لايجيزون الاستشهاد بأحاديث رسول الله على إثبات اللغة والاحتجاج لقواعدها .

روى البغدادى عن أبى حيان فى شرح التسهيل قال : « قد أكثر المصنف من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ومارأيت أحدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره . . . وإنما كان ذلك لأمرين : أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى .فتجدقصةواحدة قد جرت فى زمانه ﷺ لم تقل بتلك الألفاظ جميعها نحو ماروى من قوله: زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن. خذها بامعك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فنعلم يقينا أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لانجزم بأنه قال بعضها ؛ إذ يحتمل أنه قال لفظامرادفا لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمراد ، ولم تأت بلفظه . . . الأمر الثانى أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث ؛ لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو ؛ فوقع اللحن فى كلامهم وهم لايعلمون ، ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب »(١) .

وكذلك لم يكن هؤلاء الأئمة خادعين ولامضلين حين ربطوا الأدب الجاهلى بتفسير القرآن الكريم ، بل كانوا برره أتقياء مخلصين ، يقرنون كلام العرب إلى كلام الله ، احتجاجا له ، وتبيينا لمكنون سره ، فيقيس الناس مالايعلمون من كلام العرب ، ويرون عن بينة كيف يكون الكلامان من نوع واحد ، وبلسان واحد ، ثم يختلفان فى المرتبة والمزية جدا ، ويبتعدالفرق بينهما بعد مابين المشرقين ، فيكون أحدهما معجزا غاية الإعجاز ، لاتستطيع الأنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله ، ويكون الآخر ممكنا غاية الإمكان ،لايستعصى على علاج الكفاة ومحاولة الأنداد . وفى هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين ،وتمكين

(١) خزانة الأدب : ١ : ٢٤ ، ٢٥

لرسالة النبى وتأييد لحجته الخالدة على هدى وبصيرة .

على أن النواسى وأبا تمام اللذين يضربهما الأستاذ مثلا للشعراء المجددين ، الذين أوذوا فى سبيل التجديد ، بما بخس بعض الأئمة من جهدهم فيه ، وما أثاروا حولهم من دعاية السوء بسببه — لانرى فى أطوار حياتهما ، ولا فى المأثور من أخبارهما أن أحدهما أو كليهما حورف فى حظه ، أو أقصى عن منزلته بسبب التجديد .

فهذا أبو نواس على ماشاع من خلاعته واستهتاره ، بل فسوقه وإرفاثه . قد اتصل ببعض الأمراء وعمال الولايات ، ومدح الرشيد ، وانقطع لمدح الأمين ، ونال جوائزهم جميعا . وأقر أئمة اللغة والأدب بفضله ، وأثنوا على عبقريته ونبوغه . قال أحمد بن يوسف الكاتب : «لقد وصف أبو نواس الخمر وصفا لو سمعه الحسنان ( الحسن البصرى وابن سيرين ) لهاجرا إليها ، واعتكفا عليها» . وقال الجاحظ : «وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد ، والعدة اثنان . بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ، ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إذن » . وقال المبرد : «ماتعاطى قول الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبى نواس» . وروى الثعالبى : «أجمع أهل العلم بالشعر على أن أجود بيت للمحدثين فى المدح قول أبى نواس:

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك تأسو كل ماجرحا

وقال أبو عبيدة : «أبو نواس للمحدثين مثل امرىء القيس للمتقدمين . . . بل لقد كان بعض النساك يستنشد شعره ويعجب به . روى أن سفيان بن عيينة قال لرجل من أهل البصرة : أنشدنى لأبى نواسكم ، فأنشده :

ماهوى إلا له سبب يبتدى منه وينشعب

فقال سفيان : آمنت بالذى خلقه . وعجب سفيان أيضا من قوله .

ياقمرا أبصرت فى مأتم يندب شجوا بين أتراب

يبكى فيلقى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب [١]

واستشهد صاحب الكافية فى باب المبتدأ والخبر بقوله :

غير مأسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن [٢]

ولم يكن أبو تمام بأقل حظا من صاحبه ، بل لقد أربى عليه وفاقه. اتصل بالمعتصم ، وحظى عنده ، ومدح وزيره محمد بن الزيات ، والحسن بن وهب وغيرهما ، ورحل إلى كبار العمال بمالكهم ، ومدحهم بالقصائد الخالدة،فقربوه منهم إلى حد الصداقة ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر ، وولاه الحسن بن وهب بريد الموصل ، فأقام به أقل من سنتين ، وتوفى [٣].

واستشهد صاحب الكافية فى المبتدأ والخبر أيضا بقوله :

على مثلها من أربع وملاعب تذال مصونات الدموع السوا كب [٤]

واستشهد كذلك صاحب الكشاف على تعدى الفعل أظلم فى قوله تعالى : « وإذا أظلم عليهم قاموا » — بقوله :

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلاميهماعن وجه أمرد أشيب

ثم قال : وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية فاجعل مايقوله بمنزلة مايرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك ؛ لوثوقهم براويته وإتقانه [٥] ؟

فأنت ترى أن ماقيل عن أبى نواس وأبى تمام ، مما يرويه الأستاذ عن بعض الأئمة ، ويتأول فيه أذى لهما ، ومثلا من جنايات الشعر الجاهلى على الشعر العربى،

(١) أدب اللغة العربية فى العصر العباسى ، ص ١٦١ — ١٦٣ ، وخزانة الأدب : ١ . ٣١٥

(٢) خزانة الأدب : ١ . ٣١٣

(٣) أدب اللغة العربية فى العصر العباسى ، ص : ١٧٥

(٤) خزانة الأدب . ١ . ٣١٦

(٥) الكشاف : ١ : ٣٥

أو من جنايات الجمود على التجديد — ترى كل ذلك كأنه لم يقل ، ولم يسمع الناس به . وإلا فأين أثره ، وأين موضع الشكاة منه ؟ وقد نال كلا الرجلين على ماأسلفنا — حظه المقسوم فى الحياة ، ونال من أئمة اللغة وأساطين الأدب وأصحاب الجاه والسلطان غاية مايستأهل من الثناء وحسن التقدير ، أداء لحق العبقرية والنبوغ ، كأفضل مايؤدى الحر الكريم المنصف ، برغم ماجناه أبو نواس على الفضيلة والأخلاق ، بما كان يشيع من الفواحش ، ويحرض عليه من المآثم .

والذين قالوا عن أبى تمام : إنه خرج على عمود الشعر ، حين رأوه يحيد عن المألوف فى بعض مذاهبه الشعرية — لم يصدروا فى هذا عن انتقاص لفضله ، أو غض من شأنه ، وإنما كانوا يصدرون عن رأيهم فى الشعر ، وفهمهم لطريقة تعبيره عن خواطر الشعراء . فهم كانوا يرون أن الشعر لا شأن له بالفلسفة ، ولا ينبغى للشاعر أن يتناول موضوعه على نمط الفيلسوف بل على نمطه المألوف ، القائم على الملاحظة الغريبة ، والفكرة القريبة ، والعاطفة الرقيقة ، والإحساس المتيقظ ، والخيال السرى ؛ لئلا تعتاص معانيه ، ويشيع سوء التأليف فى تراكيبه . ولهذا قالوا : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى ؛ إذ كان أكثر منهما التزاما لهذه الطريقة ، وأشد منهما انطباعا عليها ، واقتدارا على الافتنان فيها . ومانرى فيما قالوا تفضيلا للبحترى على صاحبيه ، ولكن نرى فيه وضعا له ولهما بالموضعين اللذين يتفقان مع رأيهم فى الشعر ، وفهمهم لرسالة الشاعر .

ونحن نعجب كيف يرى الأستاذ أن مجرد وصل الأدب الجاهلى بالتفسير ، وهو بعض ما جاء الإسلام به — كان كافيا لإغراء الناس بهذا الأدب ، واحتفالهم له ، وتهالكهم على دراسته ، وتقديس كل مافيه من أمثال وقصص وأخبار ، ثم لايكون الشعر الإسلامى نفسه أثيرا مقدما ، وهو قد نشأ فى كنف الإسلام ، وترعرع على عينه ، وتأثر به تأثرا بليغا ، ومنه ماقيل دفاعا عن النبى ، وردا على منكرى رسالته ، وتشيعا لآل بيته الكريم ؟

وعندنا أن الشعر الجاهلى إنما فتن الناس به ؛ لأنه أدب الطبع الخالص، الجارى على سنن الفطر البريئة من تكلف الصناعة، واضح المذهب، قريب المتناول ؛ صادق التعبير، مرسل الصياغة. فهو أقرب إلى الطبع صلة، وأخف على النفس مئونة، وألطف إليها مدخلا، وأجمل منها موقعا. ولبعض هذه الأسباب يلقى الأدب الخفيف من الارتياح والإقبال مالا يلاقى مثله الأدب العويص، ويخف الناس للتمثيل والخيالة، ويتثاقلون عن محاضرات العلوم والفنون. ثم إن قدامى المؤلفين فى الأدب قدروا الأدب الجاهلى حق قدره، فأطروه إطراء جميلا، ولم يغفلوا الحديث عنه وإيراد الأمثلة منه.

قال الجاحظ: «ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع، ولا آنق، ولا ألذ فى الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة؛ ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء»(١). وقال: «وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام. وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة. وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجزيوم الخصام، أوحين أن يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع، أو فى حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر . . . . ونحن (أبقاك الله) إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج ومالا يزدوج، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذى

(١) البيان والتبيين: ١ : ٨١

لايستطيع أشعر الناس اليوم ولاأرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير »[١].

أما أيام الجاهلية فمرجع الأمر فى إعظام قدرها ، والإعجاب برجالها ، والارتياح لرواية أنبائها — إلى براعة القصاص فى تفخيم أحداثها بروعة التخيل وجهارة التهويل ، وإلى حسن افتنانهم فى تصوير الأبطال ووصف محامدهم من الشجاعة وبعد الهمة ، والسخاء والنجدة ، والوفاء بالعهد ، وإباء الضيم ، وحماية الذمار ، وهلم جرا . يتخلل هذا وذاك حوار ممتع ، وشعر أخاذ ، كله خفة وظرف ، وحكمة وأدب ، ثم إن أيام الجاهلية كانت أقدم عهدا من أيام الإسلام ، والنفس شيقة إلى البعيد ، حريصة على تعرف أنبائه ، والاحاطة بدخائله ؛ لما فيه من الغرائب والأعاجيب ، ولا كذلك القريب المألوف .

وسبب آخر : أن أيام الجاهلية إنما تنطوى على مفاخر خاصة ، تتفاضل بها القبائل ، وترجح إحداها الأخرى فى السيادة والمجد ؛ إذ كانت القبيلة عندهم هى الوحدة التى ينتسب إليها الفرد ، وتتعاون لخيرها الجماعة ؛ فرواية أيام الجاهلية رواية أخبار مجد تليد ، وإحياء ذكرى سيادة ذاهبة ، للخلف فيها فخر ، وله بها دالة واعتزاز ، أما أيام الاسلام فالفضل فيها لأصحاب دين على أصحاب دين آخر ، لاذكر فيه للقبيلة ، بل لاذكر فيه للوطن والجنس ، فالفخر بها شائع شامل ، والمزية موزعة على التعميم .

يدعو الأستاذ بعد هذا فى غير تحفظ ولاتوقف إلى التحلل من قيود الوزن والقافية كما وضعتها العرب فى الجاهلية . وهى دعوة جريئة ، والمراد بها مع ذلك غير مفهوم . فهل تراه يريد أن يبتدع كل شاعر مايشاء لشعره من الأوزان لايرعى فى ذلك قانونا ، ولا يرجع إلا إلى ذوقه وإرادته ؟ أم هل تراه يبيح ذلك فريقا بعينه من الشعراء ، لايشركهم فيه شريك ، ولايتطاول إلى مجاراتهم

(١) البيان والتبيين . ٣ . ١٣

فى ميدانه منازع ؟ إن تكن الأولى فالفوضى لايكاد يعرف معها للشعر نغم، أو تفهم لهم موسيقا ، فيضعف تأثيره ، ويضطرب رنينه ، ولا يستقيم لغير صاحبه أن يقرأه قراءة موزونة ، لأن الوزن كما لايخفى - يقتضى تغييرات شتى فى نطق بعض الكلمات بتسهيل المهموز وقطع الموصول ، ومد المقصور ، وقصر الممدود ، وتسكين المتحرك ، وصرف الممنوع من الصرف ، ونحو ذلك. لأن العربية لغة شكل وإعراب . وهيهات أن يدرك الناس هذه التغيرات على وجهها ، مأخوذين باتساق الأنغام ، إلا إذا اعتادوا موسيقا الوزن ، وطال استماعهم لها ، وتمرسهم بجرسها . وكيف يمكن من هذه الفوضى تمرس واعتياد. وإن تكن الأخرى فقد رجعنا إلى مايسميه الأستاذ نوعا من السجن لايليق بأمة راقية أن ترضى به أو تسكت عنه . ثم من هؤلاء الذين يستأثرون بهذا ( الامتياز ) من الشعراء ؟ ومن الذى يختارهم ؟ وكيف يكون اختيارهم ؟ أتؤلف لذلك حكومة يوكل إليها حق المنح والحرمان . فلا ترد لها إرادة ، ولايخالف لها أمر ؟ الحق أن المسألة كما أسلفنا غير مفهومة ولا محدودة .

ثم يقول الأستاذ : إن التزام القافية كما التزمها شعراء الجاهلية قد حرم الشعر العربى الملاحم والقصص الطويلة . ونحن نرى أن خلو الشعر العربى من الملاحم إنما يرجع إلى سبب آخر يتصل بطبيعة العقلية العربية والخيال العربى، لا بالقافية ونظامها الحاضر، ولو أن الشاعر العربى أحس حاجة إلى هذا النوع من القصيد ، وتعلقت نفسه بنظمه لاحتال له ، وذلل العقبات التى تعترض دونه ، أيا كان نوعها . ثم إننا لانرى على الشعر العربى من بأس أن خلا من الملاحم ، فلكل أدب طبيعته ومزاياه المستمدة من طبائع أهله وخصائصهم وهيهات أن يجتمع فى أمة واحدة خصائص الناس جميعا ، فيجتمع فى أدب واحد خصائص الآداب كافة . أما أن القافية على نظامها الحاضر حرمتنا القصص الطويله الممتعة فغير مسلم ، ولانرى أن الشاعر يعيا بهذه القصص مع التزام

القافية إلا إذا كان بكيئا قليل البضاعة ، فج الملكة . أما الشاعر المتمرس الفياض الطبع ، الوافر الذخيرة ، فلا .

وهذا شوقى ( رحمه الله ) وضع قصصه البارعة شعرا عربيا خالصا ، دون أن يشكو ضيقا ، أو يجد عنتا من القافية . فمن آنس من نفسه المقدرة فليتقدم ، والسبيل أمامه ميسرة ، والمحاولة مجدية . ومن لم يجدها فى النثر له متسع ، وليس بضائره ولا بضائر الأدب واللغة ألا يكون شاعرا .

إن الدعوة إلى نبذ القافية جملة دعوة سخيفة ، وليس لها سند من ذوق أو نظام ؛ لأنها تفضى إلى تعدد مقاطع الأبيات ، واضطراب النمط فى تأليفها . وخلو الشعر منهما يحرمه سمة من أبرع سماته ، ويجعله أشبه بالمنثور ، وأجدر أن يتسمى باسمه ، ويضاف إلى جملته ، بل إنه يجعله مسخا شائها ، ولونا من القول مذبذبا ، لا إلى الشعر ولا إلى النثر ؛ فإن من طبيعة النثر الاسترسال والانطلاق ، وهذا مقيد بالوزن فى صياغته ، مطلق من كل قيد فى قوافيه : كالشقة من الديباج أحكمت رقعتها نسجا واتساقا ، وأغفلت طرتها ، فإذا هى ناسلة مفككة .

وينكر الأستاذ أن يقول الناس الشعر فى الموضوعات التى قالت الجاهلية فيها ، مدحا ، ورثاء ، وهجاء . ولا نرى فى ذلك موضعا للإنكار أو الزراية ، فالمدح والرثاء من الموضوعات الانسانية العامة ، لا تختص بعصر دون عصر ، ولا بأمة دون أمة ، فاستحسان المحاسن ، واستقباح المقابح كلاهما طبيعة فى الإنسان ، تدفعه إلى الإعجاب والإطراء ، أو الاشمئزاز والهجاء . والحزن على فقد الأعزة شعور غلاب يهيجه الوفاء والمرحمة ، أو ألم الفوت والحرمان . وقد تترجمه العيون بكاء ، والألسنة رثاء . فلا على الشاعر أن يمدح ويرثى ويهجو ، وأن يقول فى كل فن سبق إليه الأقدمون ، كلما جاشت نفسه بالقول فيه . فما التجديد أن تقول فى الموضوع الجديد وكفى ، ولا الجمود أن تقول كذلك فى

الموضوع القديم وكفى . إنما التجديد فيما تأتى به من المعانى المبتكرة، والتوليدات العجيبة ، وماتقع عليه من الآفاق المجهولة ، التى تزيد فى ثروة الفكر الإنسانى . والجمود أن يلغى المرء عقله ، ويعطل حسه ، ويردد أفكار غيره، وإن كان المرضوع طريفا . والأستاذ حين يطالب إلى الشعراء أن يمسكوا عن القول فيما قال الأقدمون فيه لمجرد أنهم سبقوا إليه — إنما يتحكم فى فنهم ، ويملى عليهم إرادته ، ويوجههم الوجهة التى يراها ، وهو ماينكره أشد إنكار ، ويدعو بقوة إلى الخلاص منه .

ينعى الأستاذ بعد هذا على الأدباء أن يستعملوا أمثال الجاهلية وكناياتها، المنتزعة من بيئتها ، مثل : أخذ الشىء برمته ، وألقى حبله على غاربه ، وليس فى العير ولا فى النفير ، وعلى طرف الثمام ، وأعق من ضب . . . . . ونرى أن هذا إسراف فى الرأى شديد ، معناه قطع الصلة بين اللغة وأصلها الأول ، والقضاء على كثير من التراكيب والتعبيرات الجامعة ، تصطنع فى ألوان من المعانى شتى، دون أن يكون فى الإبقاء عليها غضاضة ، أو فى استعمالها مجانبة للصدق فى التعبير، كما يذهب إليه الأستاذ ، فكثير منها تنوسيت معانيه الأصلية ، وأصبح يستعمل عند جمهرة المتكلمين فى معانيه الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . فالذى يسمع: أخذه برمته مثلا ، يفهم منها لأول خطرة أخذه جميعه ، لا أنه يفهم معناها الأصلى أولا ، ثم معناها العرفى بعد ذلك ، مثلها فى هذا كمثل الكثير من الكلمات التى تصرف أدباء العصر الحاضر فى استعمالاتها من مثل : منطقة الامتياز ، وقطار البحر ، وتفتيش الدائرة ، وهلم جرا . فإن كان الأستاذ يحرم مايريد تحريمه لأن لبعضه مدلولات لايسيغها الذوق الحاضر ، فقد أسلفنا أن بعض هذه المدلولات قد تنوسى أصلها ، وأصبحت ألفاظا تستعمل فى المعانى الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . والذوق الأدبى العام ، وهو الحكومة الطبيعية فى ذلك — زعيم بنفى مالا يسيغه من هذه التراكيب ، حتى أحس منها نفورا ، ولم يجدها حقيقة بالبقاء والمداولة ، فتموت بمرور الأيام ، كما مات الكثير من

من أمثالها فى شتى العصور .

فليهدأ الأستاذ بالا ، وليطمئن إلى أن الزمان فاعل فعله من الإماتة والبعث، والتغيير والتحويل . أما الأمر باستعمال هذا ، والنهى عن استعمال ذاك ، فما لايجوز فى الأدب إذا كان جائزا فى لغة الشرائع والقوانين .

وإن كان يريد التحريم لأن مدلولات بعضها مسميات لاوجود لها فى بيئتنا، واستعمالها مع ذلك تقليد وإلغاء للشخصية ، فإن اللغة العربية كلها ليست من وضعنا ، واستعمالنا إياها قائم على المحاكاة والتقليد . فما للأستاذ لايدعو إلى تغييرها برمتها ، واتخاذ لغة غيرها من وضعنا ؟ وإذا كنا نعلم أبناءنا أن (الشوفان) من حاصلات الزراعة فى جهة كذا ، و ( الرنة ) حيوان يعيش فى جهة كذا ، ونفق ( سانفوتار ) قائم فى جهة كذا ، ونطلب إليهم أن يتحدثوا عنها بالغيب، ولسنا فى هذا بدعا فى خلق الله — فما للأستاذ لايريد أن نعلمهم معنى الثمام ، والضب ، والخزامى ، وموطنها بلاد العرب ، مهد العربية ، ومهبط الوحى ، ومستقر الكعبة ، ومثوى قبر الرسول ﷺ ؟ وهل يعلم الأستاذ مصريا واحدا رأى كل مافى مصر من حيوان ونبات وأزهار وثمار ؟ وما رأيه فى أدب العميان ، الذين يتحدثون عما لايبصرون ؟

ويشخص الأستاذ علاجا لهذه الحال التى يضيق بها ، وينكر الإبقاء عليها أشد الانكار — أن يذاد الشداة وتلاميذ المدارس الثانوية عن دراسة الشعر الجاهلى ومايشبهه من أشعار العصور الأخرى ، اكتفاء بشعر العصر الحاضر ومايشبهه من أشعار العصور الأخرى كذلك .

وهو علاج عجيب ، بل بالغ فى العجب ، معناه صد جمهور المتعلمين عن دراسة شطر كبير من الشعر العربى ؛ لأن الأدب كما لايخفى — لايدرس بعد مرحلة التعليم الثانوى إلا للقليل جدا من الطلاب . ومعناه كذلك أن يصبح الشعر العربى بعضه حلال وبعضه حرام ، وليس الحلال حلالا لمزية فيه سوى أنه ليس بجاهلى ولا يشبه الجاهلى ، وليس الحرام حراما لمنقصة فيه سوى أنه

جاهلى أو كالجاهلى ، وذلك مقياس جائر ، ماأنزل الله به من سلطان .

وماندرى ماذا عسى أن يصنع الأستاذ بالذين يخالفون عن أمره ، مكابرة وعنادا ، أو تولعا بالمحظور ، أوحبا فى الاطلاع ؟ أتراه يتوسل إلى أولى الأمر أن يضعوا قانونا يحرم دراسة الشعر الجاهلى على غير أهله ، ويرصدوا الجزاء للعصاة المخالفين ، والدعاة المحرضين ؟ وهل تراه يعتقد أن هذا العلاج يؤتى النتيجة التى يرتجيها ؟ كيف وهو يقرر أن الشعر العربى فى جميع عصوره مطبوع بطابع الشعر الجاهلى ، متأثر به تأثرا شديدا ؟ والنهضة الأدبية الحاضرة نفسها إنما قامت على ساقين من الأدب القديم . فليس بواجد إذا شيئا من الشعر على الصورة التى يريدها ، نقيا خالصا من شوائب الشعر الجاهلى .

الحق أن ليس هناك جناية جناها الشعر الجاهلى على الأدب العربى ، لكن هناك فضلا يراد غمطه ، وأثرا محمودا يرادطمسه ، هناك دعاية ظالمة . بل نزوة غالبة ، لها على بعض كتابنا سلطان قاهر ، ولهم بها ولوع شديد . وهى التى تغريهم بالنيل من ماضينا والازراء بحاضرنا ، والإعجاب بكل أجنبى عنا ، وتصويره للناس أمثلة عليا يجب احتذاؤها ، والجد فى بلوغ شأوها ، كأننا من دون الناس أمة مضيعة : ليس لها قديم تستند إليه ، ولاجديد تعتز به .

وإذا قيل لهم : بعض هذا ؛ فليس ضرره مقصورا على مقوماتنا ، ولكنه يمتد إلى النفوس ، فيوهن من الثقة بها ، ويصرف عن الاعتماد عليها ، إذا قيل لهم ذاك قالوا : جامدون . عيونهم فى أقفيتهم ، ينظرون إلى ماوراءهم ، ولايرون شيئا مما بين أيديهم . وتالله لأن يكون الناس حيال قديمهم كما يتخيل هؤلاء الدعاة خير ألف مرة من أن تكون عيونهم فى أصداغهم ، لاينظرون بها إلى ماخلفهم ولا إلى ما أمامهم وإنما ينظرون إلى ماعند غيرهم ، تحرفا عن الجادة ، وانقيادا لنوازع التقليد ، وتهالكا مع الشخصية المتداعية : لاتتماسك تخاذلا وانحلالا . ولو شاء الله مافعلوه .

**على النجدى ناصف**
مفتش المعارف بالأسكندرية

# الخلال

للأستاذ محمد أحمد برانق
المدرس بالابراهيمية الثانوية

فى كتب اللغة : هو وزير الملك : الذى يوازره أعباء الملك ، أى يحامله ، وليس من المؤازرة بمعنى المعاونة. ووزر فلان للأمير يزرله وزارة ، واستوزر استيزارا . واستوزره الأمير ، فتوزر له ، ووازره ، وحاله الوزارة بالكسر ويفتح . والجمع : أوزار ووزراء .

ولقب وزير بهذه المعنى ، مستحدث فى الملة الإسلامية ، وإن كان قديما فى اللغة . فإن ملوك العرب فى اليمن والشام والحيرة كانوا يسمون من يوازرهم أعباء الملك « الراهن » ؛ لأنه مرتهن بالتدبير . « والزعيم » لأنه زعيم بصواب الرأى. « والكافى » ؛ لأنه كاف للملك مهمات الأمور . « والكامل » ، لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل .

والملوك لايستغنون عن الوزراء : إذا أرادوا الخير لرعيتهم ، فإنه « كما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره الخيل إلى السوط ، وأحد الشفار إلى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير »[1] . وفى كتاب كليلة ودمنة « لايصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان » .

✡✡✡

وملوك بنى أمية كان يعاونهم كبار الكتاب فى عهدهم ، ولم يسموهم وزراء؛

(١) المستطرف ج ١ ص ٧٦ .

أنفة منهم ، لأن الخليفة عظيم ، فهو أعلى وأجل من أن يحتاج إلى الموازرة أو يحمل عنه أعباء الملك ، أو هو لا يعترف بها رسميا على الأقل . فلا يخاطب كبير كتابه بالوزير . وإن كان القرآن نزل فيه على لسان موسى عليه السلام : « واجعل لى وزيرا من أهلى : هرون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى » .

فلما كانت دولة بنى العباس التى قام ملكها على سواعد النابهين من الأعاجم لم ير خلفاؤها بأسا من أن يسموا كاتبهم وزيرا ، ولذلك لم يعرف هذا اللقب قبل العباسيين ، وأول من أذن به أبو العباس السفاح ، أول خلفائهم .

وأول من لقب به أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وجرى على ذلك الخلفاء من بعده ، ولم يكن « الخلفاء والملوك تستوزر إلا الكامل من كتابها ، والأمين العفيف من خاصتها ، والناصح الصدوق من رجالها ، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها ، وتثق بحزمه ، وفضل رأيه ، وصحة تدبيره فى أمورها »[1] هذا كلام المسعودى فى الصفات التى كان الخليفة يتوخاها فى اختيار وزيره ، وإن من يتصف بها يكون حقيقا بأن يوازر الملك أعباء الملك ، ولكن تعرفها يكون مبنيا على اجتهاد الخليفة فى معرفة حاشيته وبطانته ، وقد يصدقه فى ذلك اجتهاده ، فيغنيه وزيره ويسعده ، وقد لا يصدق اجتهاده ، فيكون الوزير المختار سببا فى قلقه وتعبه ، وإفساد رعيته عليه . « ومثل الملك الخير ، والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ، ولا يمكنهم من الدنو منه — كالماء الصافى فيه التمساح ، فلا يستطيع المرء دخوله وإن كان سابحا وإلى الماء محتاجا »[2] .

ولأن الوزير كان قبل بنى العباس يسمى الكاتب ، فإن أكثر الذين ألفوا عن الوزراء من المتقدمين ، كانوا يؤلفون أيضا عن الكتاب . وممن ألفوا عن

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٩٤ .
(٢) المستطرف ج ١ .

الوزراء ، أو الوزراء والكتاب جميعا إلى عهد المسعودى : أبو عبد الله محمد ابن داود بن الجراح ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار ، وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى وابن الماشطة الكاتب ، وأبو بكر محمد ابن يحيى الصولى الجليس ، وعلى بن الفتح المعروف بالمطوق(١).

والذى اطلعنا عليه من مؤلفات هؤلاء لم يزد على أنه جمع أخبارا معنعنة غالبا ، وتكاد تكون خالية من الترتيب والتبويب والتسلسل والنقد والتحليل ، شأن مؤلفات المؤلفين فى العلوم والفنون المختلفة فى تلك العهود .

✡✡✡

وهم جميعا متفقون على أن أبا سلمة الخلال أول من خلع عليه هذا اللقب فى الدول الاسلامية .

وليس يعنينا أن يكون تلقيبه بالخلال نسبة إلى الخل ، أو أن يكون منسوبا إلى خلل السيوف ، يعنى جفوتها لأن العرب تسمى من يعملها الخلال . ولكن الذى يعنينا أنه مولى حارثى ، فهو ليس عربيا ، وإنما هو أعجمى ، صاهر بكر بن ماهان كاتب إبراهيم الامام . فلما حضرت الوفاة بكرا كتب إلى إبراهيم يخبره أنه استخلف حفص بن سليمان الخلال فى الكتابة ، ويوصيه به خيرا ، وكان ذلك مبدأ اتصال الخلال بإبراهيم الامام ، ولعله أيضا أول اتصال له بشئون السياسة الاسلامية فى خراسان التى ذهب اليها فقبل القوم أمره ودفعوا إليه شيئا من أموالهم .

ظل الخلال كاتبا لإبراهيم الإمام حتى ظفر مروان بإبراهيم وقتله ، وإذ ذاك ظهرت نية أبى سلمة ، وكان هواه فى الشيعة . فلقى رجالا من شيعة على ، وناظرهم على نقل الأمر إلى ولد على ، وأراد أن يعقد الأمر لواحد من ثلاثة هم : جعفر بن محمد ، وعبد الله بن حسن ، وعمر بن على بن الحسين ، وكتب

(١) ص ٢٩٨ من التنبيه والاشراف .

إليهم كتبا ، وبعث إليهم رسولا يحمل هذه الكتب ، وأمره أن يذهب أول مايذهب إلى جعفر ، فإن قبل أن يحمل أمانة الخلافة ، مزق كتابى عبدالله وعمر ، ورجع إليه برد جعفر . وإن لم يقبل ذهب إلى عبدالله ، فإن قبل رجع إليه برده ، ومزق كتاب عمر ، وإن لم يقبل عرض الأمر على عمر ، ثم وافاه برده .

فأما جعفر ، فإنه أخذ كتاب أبى سلمة ، وأحرقه بلسان السراج قبل أن يقرأه ، وقال لرسوله : الجواب مارأيت ، وتمثل ببيت الكميت بن زيد :

أيا مرقدا نارا لغيرك ضوءها ويا حاطبا فى حبل غيرك تحطب

وأما عبدالله فإنه قبل مادعاه إليه أبوسلمة ، فحذره جعفر عاقبة القبول ، وأخبره أن أهل خراسان ليسوا بشيعة ، وأن أبا سلمة مخدوع فيهم ، مغرور بما يراه من ظاهرهم ، وأشار عليه ألايقبل ، فنازعه عبدالله الكلام حتى اجترأ على جعفر ، وهو أسن منه ، وقال له : والله مايمنعك من ذلك إلا الحسد ؛ فرد عليه جعفر ، والله ماهو إلا نصح منى لك ، ولقد كتب إلى أبوسلمة بمثل ما كتب به إليك ، فلم يجد رسوله عندى ماوجد عندك ، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه .

✡✡✡

وضع أبو سلمة بتصرفه هذا نفسه فى مأزق حرج ، فلا هو عباسى كما كان مع إبراهيم الإمام ، ولاهو وجد من الشيعة من ينصره ويأخذ بيده ، ولم يكن بعيد النظر ، فإنه كان فى أهل خراسان ، وأهل خراسان لم يكن هوى جمهرتهم مع الشيعة ، فليسوا ناصريه جميعا إذا جهر بالدعوة العلوية ، ولاسيما أن أمر بنى العباس كان يزداد قوة يوما بعد يوم ، وكان أتباعهم يطاردون مروان بن محمد ، وكانت انتصاراتهم تتوالى ، وهزائم مروان تتتابع .

✡✡✡

علم إبراهيم الامام أن لانجاة له من مروان ، فكتب إلى أخيه أبى العباس

يوصيه : « بالقيام بالدولة ، والجد والحركة ، وألا يكون له بعده بالحميمه لبث ولا عرجة حتى يتوجه إلى الكوفة ، فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة » . وأنفذ إليه الوصية مع أحد موالية ، وأمره إن حدث به حدث من مروان فى ليل أو نهار ، أن يركب أسرع سابق فى السير ليبلغ أبا العباس وصيته .

ويبدو لى أنه من أسباب نجاح الدعوة العباسية تبكير مروان بن محمد بالقضاء على إبراهيم الإمام ، فإنه نبه إلى ذلك أذهان القوم ، وحفزت وصيته همتهم ، وإنه بعد أن نفذت وصية إبراهيم إلى أبى العباس ، ونُعِى إليه بالحميمة — أمر أبو العباس الرسول أن يستر الوصية ، وأن ينعى إبراهيم الإمام أخاه ، ثم قام أبو العباس ، وكاشف أخاه أبا جعفر المنصور بالأمر كما كاشف غيره من أهل بيته ، ودعاهم إلى موازرته ، وتوجه بهم مسرعا إلى الكوفة ، وكان ينشر الدعوة لهم هناك أبو مسلم الخرسانى .

وبينما كان أبو العباس سائرا فى طريقه إلى الكوفة قابله عمه داود بن على ، وسأله عن مسيره ، فأخبره الخبر ، فقال داود : يا أبا العباس — تثبت بالكوفة !! فمروان شيخ بنى أمية وزعيمهم فى أهل الشام والجزيرة ، يطل على أهل العراق ، وابن هبيرة شيخ العرب ، وحلبة العرب بالعراق ، ولكن أبا العباس لم يأبه بقول عمه ، ولم ينثن عن عزمه ، وقال له : ياعماه — من أحب الحياة ذل ، وتمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

فتأثر داود من كلام أبى العباس ، والتفت إلى ابنه ، وكان يصحبه ، وقال له : أى بنى ، صدق عمك ، ارجع بنا معه ، نحى أعزاء ، أو نمت كراما ، ثم عطفا ركابهما معه .

خرج إذن أبو العباس إلى الكوفة ، وخرج معه إخوته وأعمامه وبنو

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨١ .

أعمامه ، لموازرته ، وفعلوا ذلك تنفيذالوصية إبراهيم الإمام أخيه الذى حذرهم المقام بالحميمة ، وأمرهم بالمسير إلى أبى سلمة بالكوفة ، وأمر أهل بيته أن يسمعوا لخليفته الذى أوصى له ويطيعوا ، وكان أبو سلمة على غير علم بهذا الأمر ، فهو لا يعلم أن إبراهيم أوصى لأخيه العباس بالخلافة من بعده ، ولا يعلم أن أهل بيت العباس يظاهرون السفاح فى السعى إلى الخلافة ، ولا يعلم أنهم موصون بالخروج من الحميمة إلى الكوفة .

ولعله كان إذا علم أن القوم قادمون إليه ، وأن إبراهيم نصب أبا العباس خليفة من بعده ، وأن أمرهم آخذ فى الظهور بمعاونة أبى مسلم ، لعله كان إذا علم ذلك كله يغير سياسته فى إظهار تشيعه ، أو يغير سياسته مع أبى العباس وظهيره أبى مسلم وأعوانه من أهل بيته ؛ ولذلك عند ما شارف القوم الكوفة ، وعلم أبو سلمة بمقدمهم أنكر عليهم قدومهم فى وقت رآه غير مناسب ، وعلى غير علم منه ، وقال : خاطروا بأنفسهم ، وعجلوا ، فليقيموا بقصر مقاتل «وهو على مرحلتين من الكوفة » حتى ننظر فى أمرنا .

نعلم مقام أبى سلمة ومركزه السياسى فى خراسان من أن العباسيين قدموا إليه لينصرهم ، ومن أنه استطاع أن يظهر غضبه منهم ، وسخطه عليهم ، ومن أنه أمر بحبسهم فى دار نائية عن الكوفة حتى ينظر ؛ وأراد بذلك أن يؤخر دخولهم الكوفة حتى يعود إليه الرسول الذى أرسله إلى العلويين الثلاثة ، يطلب إلى أحد منهم أن يقبل الخلافة ، حتى إذا ظفر بذلك شغب على العباسيين ، وهم فى تلك الدار النائية فى البرية ، فسجنهم أو قتلهم ، أو ردهم مقهورين إلى الحميمة حيث أتوا ؛ ولكنهم استوحشوا من المقام فى تلك الدار ، وكتبوا إليه يلتمسون منه أن يأذن لهم بدخول الكوفة ، لأنهم إن بقوا فى ذلك المكان لم يأمنوا على أنفسهم أن تغير عليهم جيوش الشام ، فتنال منهم ، وهم إذا دخلوها يتحرزون بها . فأذن لهم على كره منه ، ولكنه أنزلهم فى دار مولى من موالى

بنى هاشم ، وكتم أمرهم نحوا من شهرين ، فلا القواد يعلمون ، ولا الشيعة يعلمون ، وولى هو الأمر « وفرق عماله على السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته ، والكتب تنفذ منه ، وترد عليه ».[1]

وكانت فترة توليه الأمر فترة انتظار لها ما بعدها لم تطل أكثر من شهر ، سئم أكثر الخراسانيين فيها أبا سلمة ، وبرموا به ، وارتابوا فى أمره ، وتحدثوا فى شأنه ، وقالوا: يا أبا سلمة . مالك خرجنا ، ولا إليك دعونا ، وما أنت لنا إمام ، وبينما هم فى ذلك معه ، إذ خرج أبو حميد الطوسى من العسكر إلى الكوفة ، فلقى سابقا أحد موالى إبراهيم الإمام ، فسأله عن مولده ، فقص عليه قصته ، وأخبره أن مروان بن محمدة له فى الحبس ، وكان قد أوصى بالخلافة لأخيه أبى العباس ، وهو الآن بالكوفة هو وجماعة من عمومته وأهل بيته منذ شهرين .

عجب أبو حميد الطوسى من ذلك ، وسأل عن الدار التى يقيمون فيها ، وضرب موعدا بينه وبين صاحبه ، على أن يلقاه فى غد ليوصله إليهم ؛ فأما أبو حميد فإنه أخبر جماعة من قواد خراسان فى عساكر أبى سلمة بالأمر ، وأما صاحبه ، فإنه استأذن أبا العباس فى أن يحمل إليه أبا حميد ، فأذن له ، فلما كان الموعد المضروب من اليوم التالى تلاقى الرجلان ، ومضيا حتى دخلا على أبى العباس فى محبسه هو وأهل بيته ، ثم سأل أبو حميد : أيكم ابن الحارثية ؟ فأشاروا عليه ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبل يديه ورجليه ، وبايعه ، ثم سار إليه جماعة من وجوه العسكر فى أصحابهم ، يحملون سلاحهم وبايعوه[2].

كان أبو سلمة إذ ذاك مشغولا بأمره ، وبأمر شغب عسكر خراسان عليه ، ومنتظرا أوبة رسوله من حضرة العلويين ، فخرج أبو العباس وأهل بيته من الدار التى حبسوا فيها نحوا من شهرين ومعهم بعض وجوه العسكر الخراسانى ، ونزلوا بأحسن زى ، وركبوا الخيول ، وأتوا قصر الامارة ، فلما علم أبو سلمة بذلك ،

(١) الجهشيارى ص ٥٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ١ .

وجد نفسه أمام الأمر الواقع ، وأنه لابد له من حسن السياسة حتى يسلم من تلك الغمرة ، وحتى لاتنجلى عن غضب العباسيين عليه ، فسار إلى دار الامارة فى جماعة من أصحابه ، فأغلق الباب دونه ، « فاستفتح أصحاب أبى سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد ، فأسمعوه بعض مايكره ، فقال أبو حميد : افتحوا له ، حتى يريه الله مايرغم أنفه ، فدخل ، فاستقبل القبلة ، ثم سلم ، وقبل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ فى الاعتذار . فقال له أبو العباس : عذرناك يا أباسلمة غير مفند ، وحقك لدينا معظم ، وسابقتك فى دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكرك لايدخله خال » (١).

وبالرغم من أن السفاح دخل فى نفسه شىء من أبى سلمة ، لأنه كان يحاول رد الأمر عنهم إلى غيرهم ، فإن حسن السياسة وحزم التدبير ، جعله يتغاضى عن سيئات أبى سلمة ، مع أنه لم ينس أنه يقيم ملكا ويهدم ملكا ، ولم ينس أنه قضى على بنى أمية وهم قوم لهم فى العرب عصبية ، ولهم فى ولاية أمر المسلمين زهاء تسعين عاما ، ولم ينس أنه وثب إلى خلافة طالما منى العلويون أنفسهم بها ، وطالما سعوا إليها ، ولم ينس أن بعضا من أهل بيته كانوا يريدون أن يلوا أمر المسلمين من دونه ، ولم يسكتوا إلا احتراما لبيعة إبراهيم الامام ، وتهيبا من الدخول فى أمر لايعرفون عاقبته ، ولأنهم كانوا فى قلة من النصراء والأعوان ولم ينس أن أبا سلمة كان له نصراء وأعوان يغضبون له ، وقد يثورون من أجله — لم ينس أبو العباس السفاح كل هذا ؛ ولذلك كان رده على أبى مسلم الخراسانى عند ما كتب إليه يشير عليه بقتله ، ويقول له : قد أحل الله لك دمه لأنه قد نكث وغير وبدل — كان رده : « ما كنت لأفتتح دولتى بقتل رجل من شيعتى ، لاسيما مثل أبى سلمة ، وهو صاحب هذه الدعوة ، وقد عرض نفسه وبذل مهجته ، وأنفق ماله ، وناصح إمامه ، وجاهد عدوه » . فهو لا يفتتح دولته بقتل أبى سلمة ، ثم يكتب فيه مايكتبه فى أحسن المخلصين له ، وإن كان يجد

(١) الجهشيارى ص ٢٨ .

فى نفسه عليه ، ولعله يريد بذلك أن يعرف أبا مسلم الخراسانى أنه ليس من شأنه أن ينتقم ممن أخلص له إذا أخطأ ، ثم رجع عن خطئه فتاب وأناب ، حتى لاتملكه رهبة الملك ، وخشية السلطان ، فيخلص ظاهره ولايخلص باطنه ؛ إلا أن أبا مسلم كان يريد أن يتخلص من أبى سلمة ، لأنه يزحمه فى مكانه ، ويحد من سلطانه ؛ فلما رد عليه السفاح ذلك الرد ، الذى يرفض فيه أن ينفذ ما أشار عليه به ، وهو قتله والتخلص منه لخيانته وانحيازه إلى جانب الطالبيين ؛ لم يقطع أمله ، وسعى سعيه عند أخ للسفاح هو أبو جعده ، وعم له هو داود ابن على ، فكتب إليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله ، فقال السفاح : « ما كنت لأفسد كثير إحسانه ، وعظيم بلائه ، وصالح أيامه ؛ بزلة كانت منه وهى خطرة من خطرات الشيطان ، وغفلة من غفلات الانسان » ، وبذلك لم يبلغا منه مايريد ان ومايريده منهما أبو مسلم الخراسانى ؛ ولعل أبا مسلم كان قد استطاع أن يقنع أبا جعدة ، وداود بن على بوجوب التخلص من أبى سلمة. ولكنهما حينما لم يفلحا فى إقناع السفاح بوجوب التخلص منه ، نصحا له بأنه ينبغى له أن يحترس منه لأنهما لايأمنانه عليه ، لأن له سابقة غدر وخيانة ، ومع ذلك فإن أبا مسلم لم يتزحزح عن رأيه وقال لهما : « إنى لآمنه فى ليلى ونهارى ، وسرى وجهرى ، ووحدى وجماعتى [1] » .

ولكن الذى تفهمه من الجهشيارى أن السفاح هو الذى هم بأبى سلمة فقال له عمه داود بن على : « لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش ، ولكن اكتب إليه ، فعرفه ما كان من أبى سلمة ، فكتب أبو العباس إلى أبى مسلم ، يعلمه ما كان من أمر أبى سلمة فى الكتاب إلى من كتب إليه من ولد على وما كان أجمعه من صرف الدعوة إليهم ، فوجه أبو مسلم بالمرار بن أنس الضبى ، لقتل أبى سلمة » . وهذا لايتنافى مع ما قدمنا ، فإنه طبيعى أن يغضب السفاح من أبى سلمة أول الأمر ، ولاسيما أنه حبسه هو وأهل بيته شهرين بالكوفة ،

(١) مروج الذهب ج ٣ .

يكتم الناس أمرهم منتظرا رد من كتب إليهم من الطالبيين ؛ ولولا أن الله قيض له من علم أمره من العسكر الحانقين على أبى سلمة لخرج الأمر من يد السفاح إلى يد الطالبيين ، ولولا أنه كان يخشى غضب الأعاجم الذين عاونوه على الوثوب إلى الخلافة لقتل أبا سلمة أول مالقيه ليبايعه،ولاسيما أنه كان يعلم أن له شيعة تغضب له ، وقد تثورإذا أمكنتها الفرصة؛ولعل أبامسلم الخراسانى كتب إلى السفاح يشير عليه بقتل أبى سلمة بعد أن كتب إليه السفاح يخبره فيه خبر خيانته ، وخروجه عليه ولعل تحذير داود بن على عم السفاح قتل أبى سلمة كانت قبل موافقه أبى مسلم على قتله وإلحاحه فى ذلك .

فلما هدأت الأحوال ، واستقر الأمر فى يد السفاح ، و انحاز إليه أبو مسلم فى شأن أبى سلمة أعلن رأيه للناس فى أبى سلمة ليطمئنه ويطمئن أشياعه ودعاه ليسمر عنده مع السامرين ، وأرسل مناديا ينادى فى الكوفة أن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة ، ثم دعاه وخلع عليه .

ويظهر أن ما كان يتصف به أبو سلمة من حميد الصفات ، وما كان عليه من فصاحة اللسان ، والعلم بالأخبار والأشعار والجدل وتفسير القرآن ، وما كان عليه من حضور الحجة ، وكثرة الجد ، وكثرة العطاء والبذل ، والتأنق فى السلاح والدواب — يظهر أن ذلك كله مضافا إليه ماتستلزمه الحنكة السياسية والدربة على تدبير الأمور — جعل السفاح يقرب أبا سلمة إليه . ويجلسه فى مجالسه ، ويفسح له فى أوقات السمر ، إيهاما لهم برضاه عنه .

ظن أبو مسلم أن الخليفة رضى من قلبه عن أبى سلمة ، وأنه لايبيت له شيئا فى نفسه ، وأن ماأعلنه للناس عن رضاه عنه صحيح ، فأكبر ذلك الخاق فى الخليفة بالرغم من أنه هو الذى كان يحاول أن يدفعه إلى قتل أبى سلمة .

وهنا يختلف المؤرخون فيمن أمر بقتل أبى سلمة ، فإن الخليفة رضى عنه ظاهرا ، وأنس به ، ودعاه يسمر عنده ، لأنه كان فكها ممتعا أديبا عالما بالسياسة

والتدبير كما قدمنا ، ومع ذلك يقول بعضهم : إنه هو الذى دس عليه من قتله بعد أن سمر عنده ليلة ، وخرج يريد الانصراف إلى منزله ، فكمن له كمين وقتله ، فلما علم بذلك السفاح قال : لليدين وللفم . ويرى آخرون أن أبا مسلم الخراسانى خاف من ناحية أبى سلمة أن يقصده بالمكروه ، فوجه جماعة من ثقات أصحابه فى أعمال الحيلة فى قتل أبى سلمة ، فلما انصرف ليلة من عند السفاح ، وليس معه أحد ، وثب عليه أصحاب أبى مسلم وقتلوه ، فلما علم السفاح الخبر ، قال :

إلى النار فليذهب ومن كان مثله  على أى شىء فاتنا منه نأسف !!

ومهما يكن من شىء فإن أبا سلمة قتل ، وكان قتله عند منصرفه من مجلس السفاح ، وأن السفاح سره أن يتخلص منه ، وكان قتله فى رجب سنة ١٣٢ هـ أى بعد بيعة السفاح بشهرين وبعض شهر ؟ .

محمد أحمد برانق

# نص المحاضرة التى ألقاها

## الأستاذ عبد الرازق حمیدة

بالنادى مساء يوم الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٣٩

سيدى الرئيس :

أساتذتى الأفاضل وإخوانى الأكرمين .

أشكر لنادينا تلك الفرص السعيدة التى يهيؤها لنا لنتلاقى ونتحدث بعضنا إلى بعض أحاديث لانعرض فيها لأحد بسوء ولانذكر أحدا بما يكره ، وليست من لهو الحديث الذى يضل الناس بغير علم . وإنما هى أحاديث دائرة حول خدمة الدين ولغة الدين .

ولا أخفى عليكم أنى كنت قد أعددت لحضراتكم شكرا جزيلا على تفضلكم بالحضور لسماع حديث عن الخرافات مضحين بوقتكم . ولكنى نسيت ما أعددت ، وما أنسانيه إلا ظرف أستاذنا الرئيس الكريم وجميل ثنائه على ، حتى أخجل تواضعى . رفوت على فرصة عظيمة أشكر فيها للاخوان حسن تشجيعهم .

على أنى أرجو أن يكون فى حديثى سرور لكم وإمتاع . فقد أعددته غير مسبوق إليه فى لغتنا ، ورجائى أن يوفقنى الله فى عرضه عليكم كما وفقنى فى كتابته . وهو ولى التوفيق .

---

## الخرافات ( Fables )

نقصد بهذا العنوان مايسمى بالانجليزية fables وبالفرنسية Fables وهى « قصص أدبية من النثر أو الشعر فيها عنصر التمثيل ، ومثلوها شخصيات غير عاقلة من البهائم أو الطير أو الجماد ؛ تبدو فيهم دائما طبيعة الانسان ، ( ويقصد منها التعليم أو الامتاع واللهو ) ، باطن هذه الخرافات الحكمة ، وظاهرها لهو وإمتاع .

ومن الممكن أن نطلق عليها « الخرافات » فقط ، بدلا من الحكايات الخرافية : وقد سماها ابن النديم كذلك فى الفهرست إذ عقد فصلا سماه : « باب الأسمار والخرافات » . ومثل للأول بقصة ألف ليلة وليلة . وللثانى كليلة ودمنة . وكلمة « خرافة » الآن أوسع معنى ، إذ تشمل إلى جانب القصص السابق وصفها ، كل مالا أساس له من العقل أو الدين من عقائد وعادات ؛ ولكن الاستعمال كفيل بتخصيصها بالمعنى الذى شرحته آنفا .

أما كلمة « خرافة » فمأخوذة من اسم شخصية عربية مشكوك فى وجودها ، وصاحبها رجل اسمه خرافة . يقال إن الشياطين استهوته فى الأرض وغاب عن قومه زمانا ثم عاد إليهم وحدثهم أحاديث بعيدة عن المعقول . فكذبوه ثم شبهت بأحاديثه كل الأحاديث التى هى بعيدة الاحتمال . وفى لسان العرب مايؤيد هذه الكلمة ترجمة للكلمة الإنجليزية أو الفرنسية .

أما هذه الحكايات فلها علامات مميزة لها ؛ منها ، أن عالم الحيوان الذى تستمد منه أشخاصها لابد أن يحتفظ بحقيقته وغرائزه فى القصة . ومنها أن يركب صاحب الحكاية فى الأبطال عقولا وألسنة من عقول الناس وألسنتهم لتفهم وتفصح عن أغراضها . ولابد من اشتمال هذه الحكايات على كلا النوعين ثم لابد من أن يكون مغزاها عاما ، ينطبق على كل الأزمان والأمكان .

## نشأتها الأولى :

عرف الانسان الأول هذا النوع من الحكايات ، ومن السهل أن نفهم وجودها عنده . فقد كان يعيش عيشة سهلة ساذجة . وكان عقله بسيطا ساذجا ، وكان قريبا من الحيوان فى تفكيره ومعيشته ، وكان يساكنه ويتصل به اتصال نفع أو خوف . فبعض الحيوان يؤدى له خدمات مهمة ضرورية وبعض غرائز الحيوان عجيب مدهش حتى فى عصور الحضارة والمدنية ، فلا غرابة إذن أن يرى الإنسان الأول نوعا من المساواة بينه وبين الحيوانات ، وأن

يرى فيها أنصاف أناسى . وأن يتصور قدرتها على القول والفهم والتمثيل، وأن يصوغ ذلك فى قالب حكايات .

ثم تطور الإنسان . ونما عقله ، وزادت معرفته بالحيوان وغرائزه.والجماد وخواصه . فزاد إكباره لهذه الغرائز والخواص ودهشته منها ، وزادت تجاربه فى الحياة ، ودقت ملاحظته للأخلاق عامة . فبعثه ذلك إلى صوغ تجاربه . وملاحظته فى قالب قصص ممتع هو الحكايات التى على ألسنة البهائم والطير والجماد ، وضمنها الحكمة البالغة ، والرأى الصواب ، والمغزى الخلق القويم ، وأصبحت لهذه الحكايات على مر الزمن قيمة جدية ، وفائدة عظيمة :

وقد وجد من هذه الحكايات نوع على ألسنة الجماد والزهر يفسر بعض مظاهر الطبيعة . وهو تفسير فلسفى ساذج ، فى الأمم القديمة ، كالفرس واليونان والمصريين ، ولكن هذا داخل فى دائرة الأساطير .

ويلاحظ بوجه عام أن مايختار من عالم الحيوان هو أذكاه كالقردة والفيلة، أو أنفعه كالثور والحمار ، أو آلفه ، كالقط والكلب ، أو مايمتاز بصفة ظاهرة كالثعلب لمكره ، والنمل لصبره ، والنحل لنظامه ونظافته .

**أنواعها :**

الحكايات الخرافية بحسب البيئة التى نشأت فيها نوعان : غربية وشرقية أما الغربى منها فقد وجد من عنى بتاريخه كل العناية من علماء الغرب . وأما الشرقى فقد أجهدت نفسى رجاء أن أكشف عن حقيقته وقيمته وأجمل تاريخه فى هذه الصفحات القليلة العدد .

والآن أبدأ بالكلام عن النوع الأول :

**(١) الخرافات الغربية :**

ليست الخرافات الغربية سابقة فى الوجود على الشرقية . ولا معاصرة لها ، وإنما هى وليدتها ، ومن المؤكد أن الخرافات جاءت إلى اليونان من آسيا

الصغرى ، واشتهر السوريون بأنهم مبتدعوها ، أوناقلوها من الشرق الأوسط إلى اليونان ، والإغريق الذين استعمروا آسيا الصغرى هم آخر مرحلة انتقلت فيها — القصص التهذيبية الرمزية من الهند إلى بلاد الاغريق .

وقد زاد اليونان على ما نقل إليهم ، ولكن هناك أصلا مشتركا للخرافات الهندية والاغريقية هو الحكم الطبيعية . أوالثروة الموروثة من الروايات والتقاليد أو من الأساطير والمعتقدات التى حملها معه الجنس ( الهندى — الآرى ) النازح من أواسط آسيا إلى الغرب . وكان منه الاغريق . وقد انتفع هؤلاء بما نقل إليهم . وزادوا فيه . وحولوه بعقولهم الناضجة وخيالهم القدير على الاختراع . وصبغوه بصبغة قومية . ضيعت معالمه الأولى .

وتمتاز الخرافة الغربية بقصرها وسهولتها . وخلوها من الاستطراد .

بعد هذه السطور القليلة أعرض لشخصية عظيمة من واضعى الحكايات هى شخصية Esope إيسوب :

## ايسوب

ولا يعرف عنه شىء على وجه التأكيد ، ويقال إنه رقيق يونانى عاش فى سامس Samos حوالى القرن السادس قبل المسيح . وهو الذى «أقلم» الخرافة اليونانية . وجعلها سهلة طبيعية محبوبة إلى الناس . ويرجع إليه الفضل فى الاختصار والسهولة اللذين عرفت بهما الخرافات فى الغرب بعد ذلك .

واسمه يشبه اسم هومر ، فى أن كلا منهما مبتدع لنوع عظيم من أنواع الأدب الغربى ، فهومر مخترع الملاحم ، وإيسوب مخترع الخرافات ، وقد كثر الكلام حول وجودهما التاريخى فأثبته قوم وأنكره آخرون ، أما هيرودوت فيثبت وجود إيسوب . ولكن وجوده التاريخى لايؤيد صحة مانسب إليه من الخرافات ، ولا أنه هو كاتبها . فمن الجائز أن يكون قد أنشد بعضها وعرف عنه ثم جمع من بعده مضافا إليه مازاده المقلدون والمنشئون ، وجمع ذلك كله

منسوبا إليه فى مجموعة واحدة .

وبعده بثلاثة قرون ألف رجل اسمه ديمتریاس فالير Demetrinus Phalére مجموعة ( من الخرافات ) جاء بها من الخرافات المصرية ، ولكنها ضمت إلى المجموعة الأولى ونسبت إلى إيسوب .

وجاء من بعده شخص اسمه بابرياص Babrius حوالى خمسين سنة قبل المسيح ، فنظمها شعرا متينا ، وقلده من بعده كثيرون فى اليونان والرومان من أشهرهم دوشياص ماجيستر « Dosiirrpus Maqister » فى عهد هادريان وأفيانوس Avianus فى عصر تيودوس Tneodose .

أما الخرافات اللاتينية فليست إلا تقليدا لليونانية ، وقد نظمها Phedre شعرا ، وهو من الشعراء الذين عاشوا فى زمن أغسطس Auqust ولا يعرف عنه إلا القليل ، وقد جهلته القرون الوسطى ، وأعرضت عن خرافاته حتى كشف عنها فى عصر النهضة ، وكان عددها مائة وسبعا وعشرين حكاية ،

وبعد زوال المجد الرومانى ، اختفت هذه الحكايات ، وحفظت مجموعاتها فى الأديرة « الديورة » وأشهر ماعرف منها هو المجموعة المسماة روميولص Romulus وهى ليست إلا حكايات Phedre منثورة .

## فى العصور الوسطى

نهضت فى العصور الوسطى أمم متعددة فى الغرب ، وتجددت الأفكار والمعانى فى تلك الأيام ، وتجددت الحكايات الخرافية كذلك وأخصبت ، واستحدث بعضها وأعيدت كتابة القديم منها ، وعرفت الحكايات الشرقية الخصيبة طريقها إلى أوربا عن طريق عرب إسبانيا والحروب الصليبية . وزيد فى الحكايات المأخوذة من كليلة ودمنة ، ونشأت حكايات جديدة مأخوذة من التجارب ومن عمل الخيال حتى كانت هناك فى هذه العصور أنواع ثلاثة متميزة من الحكايات الخرافية ، أولها من النوع القديم « الكلاسيكى » الذى جاء من اليونان والرومان

وثانيها من الشرق عن طريق العرب فى إسبانيا ، والحروب الصليبية ، والثالث مبتدع ، وامتاز النوع الشرقى فيها بوجود الشخصيات الغريبة ، والحوادث ، والأخلاق ، وقد اختلطت أحيانا بغيرها من النوعين الآخرين فى مجموعة واحدة.

وكثير من خرافات القرون الوسطى لا يعرف قائله ، ولا جامعه ، اللهم إلا ماينسب إلى مارى الفرنسية Marie oF France التى عاشت فى انجلترا وبلجيكا حوالى منتصف القرن الثالث عشر فى عصر هنرى الأول الإنجليزى ، وكان للحكايات سوق رائجة فى هذه العصور ، وعرفها الناس على اختلاف درجاتهم ما بين منشىء لها ومعيد لما عرف منها ، وكانت محببة إلى الجمهور الأمى ، وكان طريقها إلى القلوب ممهدا .

وفى القرن السادس عشر كسدت سوقها إلا عند المتعلمين . غير أنها لم تلبث أن عادت إلى الحياة فى صورة جديدة ، فذيلها الكتاب بأسمائهم ، وخلت من التعقيد والاستطراد ، وأصبحت قصيرة ، وسميت الحيوانات بأسماء ، أعنى أنها خلت من الأثر الشرقى ، وكان الفضل فى كل ذلك للإيطاليين .

حوالى ذلك الوقت نبذت إسبانيا التعصب جانبا ، وأظهرت تفضيلها للخرافات الشرقية على الوطنية ، وآثرت ماورثته من العرب الذين استعمروها وعمروها مئات السنين .

وقد حدثت فى فرنسا نهضة تشبه نهضة إيطاليا ، واتخذ كتاب الحكايات من سبقوهم مثالا لهم . غير أن الضعف لحقهم فى أوائل القرن السابع عشر ، إذ انصرفت القوى إلى شعر البطولة والسياسة ؛ حتى جاء لافنتين فنهض بالخرافات نهضة قوية .

### جين دى لافنتين La Fontaine

ولد فى يوليه سنة ١٦٢١ فى حصن تيرى Chateau Tierry فى بلدة

لابارى La Barie على المارن . وهو أكبر أولاد شارل لافونتين رئيس المياه والغابات فى دوقية تييرى .

وكانت أسرته غنية ، وبيته بيت علم وأدب ، فلا غرابة أن يدرس الآداب القديمة ، وأن يكون له ذوق فى الشعر . وكانت الأرستقراطية تتودد إلى الطبقة الوسطى ، طبقة العلم والأدب فى أيامه ، فساعده ذلك كما ساعد راسين وبوالو وفولتير .

وقد دخل دير سانت ماجلوار Saint Macloire فى العشرين من عمره غير أنه ضاق ذرعا بالحياة هناك ، فعاد إلى الدنيا .

واتصل بفوكيه العظيم ، وزير مالية فرنسا فى عصر لويس الرابع عشر .

وقد ورث محبته للشعر عن والده ، فقرأ كثيرا ، وأحب الريف ، وغذى خياله منه ، وقرأ لشعراء فرنسا وغيرهم من القدامى أمثال هوارس وفرجيل .

وعرف الحكايات الهندية ، وكليلة ودمنة ، وكثيرا غيرها من الحكايات الشرقية ، التى نقلت فى العصور الوسطى ، وعرف المشهور من حكايات أفيانوس وبابرياس ، وإيسوب وفدر ، وقرأ مانسب إلى الطليان والفرنسيين ، وأحب رابليه « Rabelais » ومارو « Maror » وكل كتاب الحكايات فى القرن السادس عشر ، وأضاف إلى ذلك كله قوة إبداعه . وقدرته على نسج الشعر الرصين .

Les Fables des la Fontaine ( خرافات لافنتين )

أهم ماتمتاز به على وجه الإجمال: أنها مصوغة فى قالب قصة ، فيها حوار أو حديث بين الأبطال ، وفيها الشخصيات مصورة بدقة ، وفيها المغزى الخلقى ، والانسجام والترتيب فى سرد الحوادث ، وفيها تنويع ، وتجديد ، وقد لبس الشاعر لكل حكاية لبوسها وصور أبطالها من الحيوان أو الطير تصوير عالم بطباعها ، وأبرز المغزى الخلقى أو السياسى أو الدينى أو الفلسفى واضحا فيها ،

ولكل هذه الميزات يكاد يعتبر لافنتين سيد من كتب الحكايات الخرافية فى العصور الحديثة . أوهو سيدهم كما تقول دائرة المعارف البريطانية ، تحت عنوان « Fables ».

وننتقل بعد هذا العرض القصير إلى النوع الثانى الذى يعنينا أكثر من غيره ، وهو :

## (٢) الخرافات الشرقية :

قلنا إن الخرافات الشرقية أقدم من الغربية فى الوجود ، وأقدم الخرافات الشرقية هى الخرافات الهندية ، وأقدم مابين أيدينا منها هو المجموعة المسماة (الفصول الخمسة «Lecinq Chafptres Pantcha tantara ) ، ويرجع تاريخها إلى القرون المسيحية الأولى ، ولكل فصل منها عنوان مستقل مثل حرب البوم والغربان «La guerre Dcs Cerbeaux et des Hilboux» وشراء الأصحاب « L'aquisition des amis » .

ومؤلف هذه « الفصول الخمسة » — كما فى النسخة السنسكريتية — هو فيشوكارمن « Vishocarman » .

ولكن من أين جاء اسم بيدبا أو بلباى Bidpai أو « Bilpai » الذى تنصرف إليه الأذهان عند مايذكر اسم الخرافات الشرقية ؟

فى القرن السادس ترجمت الفصول الخمسة إلى البهلوية ، وهذه الترجمة غير موجودة الآن . وفى القرن الثامن الميلادى — الثانى الهجرى — ترجمت هذه الفصول إلى العربية تحت عنوان « كليلة ودمنة » .

### كليلة ودمنة :

والذى ترجمه هو ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وقد سمى الكتاب باسم بطلى القصة الأولى فيه ، وكليلة ودمنة ليسا إلا نوعين من أنواع الثعالب ، وقد تخيل مترجمه أن الكتاب من عمل قسيس هندى اسمه « بيديا » ومعناه

الحكيم أو الفيلسوف — وأنه كان يعيش فى زمن ملك اسمه دبشليم . وكان هذا الملك غاشما ، يظلم الناس ويبغى فى الأرض بغير الحق ، فضاق به ذرع « بيدبا » ورأى من الواجب عليه أن ينصح للملك ، وأن يرده عن ضلالته ، ولتكن عاقبته ماتكون ، فكان جزاؤه السجن ، وجزاء أنصاره التشريد . ثم ثاب الملك إلى رشده فدعا بيدبا من سجنه ، واعتذر إليه ، وأمره أن « يضع له كتابا بليغا . . . يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته » ، فجمع تلاميذه وأخبرهم بأمر الملك واصطفى منهم رجلا ، يملى عليه ويكتب ، « حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام » ، وسماه « كليلة ودمنة » .

« ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير » . « ورتب فيه أربعة عشر بابا ، ثم قدمه إلى الملك فأكرم مثواه وأحسن جزاءه . وضم الكتاب إلى نفائس كتبه .

## نقله الى فارسى :

يحدثنا ابن المقفع أن بيدبا كان يخشى على كتابه من الفرس ، ثم يحدثنا بعد ذلك أن كسرى الفرس أنوشروان العادل سمع بهذا الكتاب فأمر وزيره بزرجمهر بن البختكان أن يختار له من يحتال على نقله من خزائن الهند ، فاختار له ( برزويه ) المتطبب ، فأنفذه إلى بلاد الهند ، فمكث بها عشرين عاما يتعلم الهندية ، ويتخير واحدا من الرجال يأتمنه على سره ، ويستعين به على قضاء حاجته ، حتى وفقه الله إلى أمين الخزانة الملكية فمكنه من الكتاب ، فنقله ليلا ، ثم عاد إلى بلاده ، فعظمت منزلته عند سيده كسرى ، وأراد جزاءه ، فآثر برزويه بقاء اسمه على الأيام ، وطلب أن يجزى على عمله بتدوين سيرته فى صدر الكتاب ، فأمر الملك وزيره بزرجمهر أن يضطلع بهذا الأمر ، وأن يسعف برزويه بحاجته وطلبته ، وأن يكتب بابا مضارعا لتلك الأبواب فى

الكتاب ، ويذكر فيه خبر برزويه تفصيلا ، ففعل .

وقد اتفق على نسبة هذا الكتاب إلى الهند كل كتاب الغرب تقريبا ، فالأستاذ براون يقول فى الجزء الثانى من كتابه تاريخ الفرس :

« أما أصلها — أصل الترجمة العربية — فهو هندى ، ونقلت إلى فارس فى القرن السادس للميلاد ، فى عهد كسرى أنوشروان ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها إلى السريانية والعربية ، ومن العربية إلى لغات كثيرة شرقية وغربية » .

ويقول الأستاذ « نيكلسن Nickelson » فى كتابه تاريخ الأدب العربى « أما ابن المقفع فقد ترجم كتابه من الفهلوية ، وأصل الكتاب فى السنسكريتية ومعناه « خرافات بيدبا » ) .

وكذلك كتاب الشرق ، اللهم الا ابن النديم فيما نقله عن محمد بن اسحاق صفحة ٣٠٣ ( تحت عنوان باب الأسمار والخرافات ) إذ يقول : « قال محمد بن إسحاق : «وكان قبل ذلك — قبل الجشهيارى الذى حاول جمع ألف سمر وخرافة وجمع منها ٤٨٠ ليلة ، كل ليلة سمر تحتوى على خمسين ورقة أو أقل أو أكثر ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم — جماعة ، منهم عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم » وقد استقصينا أخبار هؤلاء وماصنفوه فى مواضعه من الكتاب ، فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف فى أمره فقيل عملته الهند ، وخبر ذلك فى صدر الكتاب — كليلة ودمنة — وقيل: عملته ملوك الاسكانية ونحلته الهند ، وقيل: عملته الفرس ونحلته الهند ، وقيل: إن الذى عمله بزرجمهر الحكيم اجزاء ، والله أعلم بذلك .

ويقول ابن اسحق فى المصدر نفسه « أول من صنف فى الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن ، وجعل ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأول ،

ثم أغرق فى ذلك ملوك الأشغانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ثم ذلك واتسع فى أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء ، فهذبوه ونمقوه ، وصنفوا فى معناه مايشبهه » .

أما الكتاب نفسه فله قيمة إنشائية سامية ، وهو مثل صادق تتجلى فيه صفات الخرافات الشرقية من الطول ، والاستطراد ، واستمداد المغزى الخلقى من التجارب العملية ، لامن التفكير الفلسفى . فباب الأسد والثور وهو أول باب فى الكتاب ، يبدأ بالصحيفة الحادية والتسعين ، وينتهى فى الرابعة والخمسين بعد المائة .

والاستطراد ظاهر جدا فى كل القصص . خذ لذلك مثلا ، « باب الحمامة المطوقة » . ساق الفيلسوف قصتها حديثا عن إخوان الصفاء ، كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض :

كانت الحمامة مقيمة بأرض سكاوندجين ، ومعها غراب وجرذ ، ومر الصياد ذات يوم ونصب شبكته ، فوقعت فيها المطوقة مع كثيرات غيرها من بنات جنسها ، فأشارت عليهن ، فجمعن أمرهن وطرن بالشبكة ، والصياد من ورائهن حتى يئس فرجع ، أما المطوقة وصاحباتها فقد سرن حتى أتين إلى مسكن الجرذ فسقطن ، وكان له مائة جحر للمخاوف ، فنادته باسمه فخرج ، ثم ابتدأ يسألها عن سبب هذه الورطة فأمرته أن يقرض الشبكة أولا ثم يسأل ، فأراد أن يقرض العين التى هى فيها ، فأبت عليه ذلك ، حتى ينقذ صاحباتها أولا ، وذلك لئلا يدركه الكلال قبل إنقاذها .

كان الغراب قد تبع الحمائم فى سيرهن إلى الجرذ ، فلما رأى نفعه ومعونته فى الشدائد ، رغب فى مصادقته فأبى عليه الجرذ . قائلا : ليس بينى وبينك تواصل ، غير أنه لان أخيرا وقبل صداقة الغراب ؛ وحمله هذا بعد مدة إلى صديقة له من السلاحف ، فلما جاءا قص الفأر عليها قصته ، وسبب بلائه ونكبته

فى طلب المال ، ثم أنس كل منهما إلى صاحبه ، وانضم اليهم ظبى نافر فأكرموا لقاءه ، وأمنوه ، وصاحبهم ، ثم غاب يوما ، فأرسلوا الغراب يستطلع خبره فوجده فى حبائل صياد ، فعاد وأخبر الجرذ والسلحفاة فذهبا لإنجائه ، فما كاد الجرذ ينتهى من قطع الحبالة حتى جاء القانص ، ففر الظبى ، واختفى الفأر ، وطار الغراب ، ووقعت السلحفاة فى يد القانص فربطها ، فاحتال الفأر والغراب والظبى حتى نجوها بحيلة لطيفة .

وقد ختمت القصة بحث الناس على الاقتداء بهذا الحيوان الأعجم ، أما لغتها فهى عالية ، وأمثالها كثيرة ، ومواعظها متمشية مع قصصها الاستطرادية ومغازيها عادية كالتعاون ، والإيثار ، والحذر ممن لايشاكل ، وفائدة الصداقة عند الشدائد ، ومايجلبه حب المال على صاحبه من ويلات .

أما أبواب الكتاب الآن فهى خمسة عشر ، وكلها تسير على هذا النحو من الطول والاستطراد ووجود الموعظة فى ثنايا القصة صريحة .

هذه خلاصة للكتاب ، أصله وترجمته ، وعلاماته المميزة له وللخرافة الشرقية بوجه عام ، وقد ترجم إلى كثير من لغات العالم حديثها وقديمها ، فترجم إلى الفارسية مرة ثانية ، فى عهد الدولة الغزنوية وقد نظمها فى الفارسية شاعر اسمه روداجى « Rudagi » فى عهد الدولة السامانية .

وقد قفى على أثر ابن المقفع كثير من رجال الأدب فى الشرق والغرب ، فهذا سهل بن هرون أمين خزانة الحكمة عند المأمون ، قد كتب على نظامها كتابا سماه « ثعلة وعفراء » وقد كان شعوبيا فارسيا ، وهو صاحب رسالة « البخل » المشهورة التى كتبها لبعض أقاربه ، وقدمها إلى الحسن بن سهل ؛ فجازاه عليها بقبولها ، ولم يصله [1] ؛ وأبان بن عبد الحميد اللاحقى قد نظمها شعرا ، وهناك كتاب الصادح والباعم لابن الهبارية ، ومجموعات أخرى قليلة

(١) معجم الادباء صفحة ٢٦١ من الجزء ١١

لغيرهم من الأدباء .

وأما لقمان الحكيم الذى تنسب إليه بعض الخرافات العربية ، مثل ما ينسب بعض آخر منها إلى الفيلسوف بيدبا ، فهو فى نظر مؤرخى الآداب الغربية خيالى مثل بيدبا ، وقد كادوا يجمعون على أنه هو المعروف عندهم باسم «إيسوب» الإغريقى ، للتشابه العظيم بين الخرافات المنسوبة إلى كليهما .

وأما وجهة نظرنا نحن المسلمين فهى أن لقمان شخص تاريخى ، آتاه الله الحكمة ، ويقول ابن جرير الطبرى فى تفسيره : « قال قتادة لم يوح إليه ولم يكن نبيا ، وعن مجاهد أنه كان صالحا ، ولم يكن نبيا ، وعنه ، أنه كان عبدا حبشيا مصفح القدمين قاضيا على بنى إسرائيل ، وأنه كان عبدا حبشيا نجارا ، فأمره سيده أن يذبح شاة ويخرج بأحسن مضغتين فيها فأخرج القلب واللسان ثم أمره أن يذبح شاة أخرى ، ويأتيه بأخبث مضغتين فيها ، فأتاه بالقلب واللسان ، فسأله سيده فى ذلك فأجابه : لم أجد أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا » .

وأما الخرافات العبرية ، فقد وردت فى الكتاب المقدس قصصا على ألسنة الحيوان ، والقصد منها أن توضح العقائد ، وتشرح الواجبات شرحا وافيا ، « وهى المعروفة بالأمثال »

وهذه الخرافات تختلف اختلافا أساسيا عن الخرافات الهندية ، فهى مختصرة اختصارا بليغا ، وفيها قوة وروح استقلالية تخلق فيها الحياة ، وبوساطتها تصل الحقائق إلى العقول واضحة ، وتترك أثرا ظاهرا لا يمحى ، وهذا يبين لنا السبب فى بقائها منذ عهد عهيد قوية ناجحة ، فعالة الأثر .

## فى العصور الحديثة :

ومازالت الخرافة تنتقل فى خلال القرون ضعيفة لا يعنى بها إلا القليل ، حتى جاء العصر الحاضر ، ورأينا من شعرائنا من عرف لغة لافنتين ، وأعجب

بخرافاته فاقتبس منها أوترجمها . ومن أشهر هؤلاء المرحوم محمد عثمان جلال ، صاحب كتاب « العيون اليواقظ ، فى الأمثال والمواعظ » .

وهو كتاب نظم فيه الشاعر مائتى قصة معظمها على ألسنة الحيوان ، وبعضها شعر وبعضها زجل .

وها كم أهم مايسترعى انتباه القارىء فى هذا الكتاب :

(١) أن شعره من نوع غير جيد .

(٢) على الرغم من هذا نجده خفيف الروح تمتزج فيه العامية بالعربية فيحلو هذا الامتزاج ويخف على نفس قارئه وسامعه .

(٣) يختم كل حكاية بمثال كيفما اتفق ، فتارة يكون عاميا . وتارة يكون عربيا معترفا بعربيته ، وتارة يكون من وضعه .

(٤) يحاول أن يعطى حكاياته صبغة وطنية ، ويجعل حوادثها تقع فى بلاد مصرية أوشرقية ، مع أنها حكايات عالمية ، صفحة ( ٥٦ ) الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج . أو يرويها عن علم مشهور من أعلام الدين أو الأدب وقد لايكون بينهما صلة إلا ضرورة الشعر .

(٥) قربها من الخرافات الغربية فى الخلو من التعقيد والاستطراد . وكثرة الشخصيات ، وذلك لتأثر منشئها بالأصل الفرنسى .

وأسوق هنا الحكايات الآتية برهانا على دعواى :

مثل الحكاية الحادية عشرة فى الثعلب والعنب :

حكاية عن ثعلب مر من تحت العنب
وشاهد العنقود فى لون كلون الذهب
وغيره من جنبه أسود مثل الرطب
والجوع قد أودى به بعد أذان المغرب
فهم يبغى أكلة منه ولو بالتعب

عالج ما أمكنه يطلع فوق الخشب
فراح مثل ما أتى وجوفه فى لهب
وقال هـذا حصرم رأيته فى حلب
والفرق عندى بينه وبين تين العلب
فإن هـذا أكله يشبه لحم الأرنب
ولحم ذاك مالح كالضرب فوق الركب
قال له القطف انطلق ثعلب ابن ثلعب
طول لسان فى الهوا وقصر فى الذنب

فالشعر هنا من نوع غير جديد أو « كالضرب فوق الركب » تمتزج فيه العامية بالعربية . وقوله « وقصر فى الذنب » ليس إلا المثل العامى « قصر ديل يا أزعر » ولكنه خفيف الروح يمثل الظرف المصرى ، ويعبر عن المزح الذى عرف به المصريون .

« والحكاية الرابعة والخمسون ، فى الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج » تتجلى فيها عدا ماذكرت محاولة الشاعر أن يصبغ خرافاته بالصبغة الوطنية فيقول :

حمّار بولاق له حمـير وفى البلاد شغله كثير
حمل جحشا حمل ملح قاسى وصار لايرثى ولايواسى
وحمل الآخر بالسفنج وقال سبحان الاله المنجى
فحامل السفنج صار يسعى وحامل الملح النهيق قطعا
وحين أقبلا على المعادى ونزلا الماء ببطن الوادى
امتلأ السفنج صار مثقلا والملح حين ذاب خف محملا
فغطس الحامل للسفنج كغطسة البذرة فى النارنج

... ... ... ...

وطلع الملاح وهو ينهق وهكذا رب أسير يعتق
فاصبر على أهوالها ولا تضجر فربما فاز الفتى إذا صبر
وربما جاءك بعد اليأس روح بلا كد ولا التماس

فالحكاية شائعة عندنا وعند غيرنا ، ولم يكن صاحب الحمارين « بولاقيا » ولا ذهب الحماران فى طريق المعادى ، اللهم حين قادهما محمد بك جلال فى شعره من بولاق إلى المعادى ، وأغرق أحدهما فى النيل ونجا الآخر ، ورجع « وهو ينهق » .

ويروى فى الحكاية الخامسة والخمسين.

حكاية عن شجر البلوط نقلتها عن شيخنا السيوطى

والحق أن الشيخ السيوطى لم يأت هنا ، ولم يذكر اسمه إلا لأنه متزن مع « شجر البلوط » الذى فخر على الفول بعلوه وعظمته فجاءت الريح فكسرت كبرياءه ، وانحنى لها الفول واستوى هو على ساقه بعد ذهابها .

وهناك أديب آخر نظم حكايات ظريفة . وهو إبراهيم بك العرب صاحب كتاب « آداب العرب » ، وفيه حكايات غير الخرافات ، وكل شعرها جيد . وأمثالها التى تختم بها عربية .

وقد نظم المرحوم شوقى بك كثيرا من قصص لافونتين نظما جيدا ، ولكنه لم يوجه همته العالية ، ومقدرته العظيمة إلى الاختراع أو الترجمة فى هذا الباب الواسع من أبواب الأدب

بعد كل هذا العرض الموجز لتاريخ « الخرافات » من الناحية الأدبية أعرج على آثارها فى تربية النفوس فأقول : إن علماء التربية لم يتفقوا جميعا على فائدتها بل رأى بعضهم أنها خطر ، ومنهم روسو الذى قال: إنها غير خلقية ومفسدة للشبان ، وكذلك فولتير الذى وضع قيودا كثيرة عليها.

ولكن جمهور القراء وغير القراء فى كل زمان ومكان قد أحب تلك

القصص وأقبل عليها . واستفاد كثيرا من الأغراض المضمنة فيها ، وسبب ذلك أنها تسلى الكبار والصغار ، وتخرجهم من عالمهم إلى عالم آخر خيالى ، وتحمل إليهم الفضائل على ألسنة مخلوقات أضعف منهم عقلا ؛ فيدفعهم ذلك إلى الإقبال على الفضائل والنفور من الرذائل كى لا يكونوا أقل من الحيوان خلقا أو استماعا للنصح . ولا شك أن طريقتها القصصية أخف كثيرا من طريقة التلقين الجافة . ولهذا كانت أعذب موردا ، وأكثر قبولا . وقد شغل سقراط - ومركزه بين المربين عظيم - نفسه بنظم مانسب إلى «إيسوب» . وكذلك « جوته » شاعر الألمان العظيم نظم حكايات الثعلب رينار ، وذلك بلا شك دليل على تقدير المربين لها .

ومما يتصل بالموضوع ويؤيده ماذكره ابن المقفع فى «باب عرض الكتاب» إذ ذكر الغرض من وضع الحكايات الخرافية على ألسنة الحيوان فيقول صفحة ٥٨ .

« ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ؛ ويبتغون إخراج ماعندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير ، فاجتمع لهم بذلك خلال. أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها . وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا ؛ فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ماصار إليه من أمر يربط فى صدره ، ولا يدرى ماهو » .

فتلك أغراض العلماء وغاياتهم ، وتلك نظرات الحكماء والسفهاء إلى هذه الحكايات .

أما نصيحته للقارىء ، ونصيحتنا كذلك له ، فهى « أن يعرف الوجوه التى وضعت له ، وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه ، عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح ؛ وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا ؛ فإن قارئه متى لم يفعل

ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى ، ولا أى ثمرة يجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ماتضمنه هذا الكتاب ، وإنه وإن كان غايته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة مايقرأ منه لم يعد عليه شىء يرجع إليه نفعه .

ثم يختم « باب عرض الكتاب » بالسطور الآتية :

وينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ماقصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان ، تستمال به قلوبهم . . والثانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ؛ ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد ، للنزهة فى تلك الصور . والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ولينتفع به المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع ، وهو الأقصى ، وذلك مخصوص ؛ بالفيلسوف خاصة » .

وهذا الاقتباس من ابن المقفع لازم ليوضح لنا أصناف القراء والسامعين للخرافات ، وغرض العلماء من تسطيرها ، ومايجب على القارىء والسامع بإزائها .

## ميكى ماوس :

ولم يقصر الغربيون فى استخدام المخترعات الحديثة فى كل شىء حتى فى الأدب ، فقد حاولوا إظهار الخرافات على الستار الفضى ، ونجحت المحاولة نجاحا عظيما ، ولا أظن فيكم من لم يشهد رواية الفأر الشهير « ميكى ماوس » وهو شخصية محبوبة جدا من رواد الخيالة ، رجالا ونساء ، شيبا وولدانا ، ولو كان فى الوقت متسع لتحدثت كثيرا عنها وعن مخترعها « ولت ديزنى » ، وعن مقدار حب الجمهور الأوربى لها . فأكتفى بما خلفته فى نفوسكم من إعجاب وسرور بمشاهدتها وبساطتها وخفة روحها .

وأختم حديثى قائلا : إن مجال القول واسع أمام الأدباء عامة والشعراء خاصة ، ولكن شعراءنا قد انصرفوا عن الجد إلى العبث وعن تسجيل أسمائهم فى سجل الخلود ، إلى المديح الغث المذموم ، الذى لاتدفع إليه عاطفة ، ولا تسيغه لهاة ، ولا يؤيده الواقع . وقد كان أولى بهم أن يسيروا على نهج الشعراء الغربيين الذين أحسوا فى قرارة أنفسهم بالمعانى السامية ؛ ففاضت بها أقلامهم أدبا خالدا ، وسحرا مبينا ؟

عبد الرازق ابراهيم حميدة

# التربية الإسلامية

## - ٢ -

الأستاذ محمد على مصطفى

المفتش بوزارة المعارف

---

وروى المؤرخون أن بعض اليهود الذين عرفوا الكتابة العربية اشتغل بتعليم صبيان المدينة فى الزمن الأول .

ولما نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام زاد الاهتمام بتعليم القراءة والكتابة إذ كان لابد من نشر كتاب الله بين الناس ، وخير وسيلة لذلك معرفة القراءة والكتابة حتى يستطيع الناس قراءته وفهم ما اشتمل عليه من أصول العقائد وصنوف العبادات وسير الغابرين وأخبار الأولين، ولهذا فادى رسول الله أسرى بدر من المشركين فمن استطاع أن يدفع الفدية قبلها منه، ومن لم يكن له فداء أمره أن يعلم عشرة من صبيان المدينة ؛ إذ كان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ففشت الكتابة بالمدينة ، وروى البلاذرى أن سبى قيسارية بلغوا أربعة آلاف رأس، فلما بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب أمر بهم فأنزلوا الجرف، ثم قسمهم على بنامى الأنصار وجعل بعضهم فى الكتاب والأعمال للمسلمين.

تتابعت الجهود وتضافرت الهمم فى نشر القراءة والكتابة بين الناس وذهب أبناء المسلمين أول الأمر إلى المدارس التى كانت لليهود فتعلموا فيها معهم، روى الأعمش قال: قال ابن مسعود: لقد أخذت القرآن من فى رسول الله ﷺ وآله سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لغلام فى الكتاب له ذوابة واستمرت الحال على هذا النحو حتى نشأت المساجد والمكاتب فى بعض الجهات وزادت حركة

التعليم نشاطا ، روى الواقدى أن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضى الله عنهما بعد بدر بيسير فنزل دار القراء .

واشتد شغف الناس بالقراءة والكتابة حتى تلمسوا المعلمين فى كل ناحية وأحضروهم من الجهات النائية ليتولوا تعليم أبنائهم ، روى ابن وهب عن حفص ابن ميسرة عن يونس عن ابن شهاب أن سعد بن مالك قدم برجل من العراق يعلم أبناءهم الكتابة بالمدينة ويعطونه الأجر . وحكى ابن خلكان أن الحجاج بن يوسف الثقفى وأباه كان يعلمان الصبيان بالطائف، وفيه يقول مالك بن الريب :

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويفادى

وكان لقب الحجاج كليبا وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزا ل وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ماترى وآخر كالقمر الأزهر

ومن المعروف أن الحجاج مات حوالى سنة ٩٥ هـ بعد أن ولى العراق عشرين سنة والحجاز من قبل ثلاث سنين وبعد أن كان رئيس الشرطة مدة من الزمن، وكان أبوه قد سبقه إلى هذه الصناعة ، وروى سفيان بن عينية أن الضحاك ابن مزاحم وعبد الله بن الحارث كانا يعلمان ولا يأخذان أجرا على التعليم. وممن اشتغل بالتعليم فى صدر الإسلام أيضا أبو بكر الكلبى، وأبو عبد الرحمن السلمى ومعبد الجهنى، وقيس بن سعد، وعطاء بن أبى رباح ، والكميت بن زيد الشاعر إذ كان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة .

عن الأصمعى عن خلف الأحمر قال : رأيت الكميت فى مسجد الكوفة يعلم الصبيان . ومن المعلمين الذين وردت أسماؤهم علقمة بن أبى علقمة مولى عائشة رضى الله عنها ، روى عن مالك بن أنس : وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والعروض ومات فى خلافة المنصور .

والظاهر أن حركة تعليم القراءة والكتابة كانت موفقة، حتى اطمأن العرب إلى أنفسهم، وشرعوا فى ضبط أعمالهم، وتسجيل أعطياتهم، وإنشاء ديوانهم والاستعانة بالكتاب منهم فى ذلك. وأول من وضع الديوان فى الدولة الإسلامية عمر. عن الشعبى قال: لما همَّ عمر بن الخطاب فى سنة ٢٠ هـ بتدوين الدواوين دعا بمخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم فأمرهما أن يكتبا الناس على منازلهم ففعلا. وأما ديوان الشام وديوان السواد وسائر العراق فقد بقى أولهما بالرومية وثانيهما بالفارسية حتى «جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان» فأمر عبد الملك سليمان ابن سعد أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة، ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله، وأتى به عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عند عبد الملك وهو مكتئب حزين فلقيه قوم من كتاب الروم فقال لهم: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم.

وأما ديوان السواد وسائر العراق فقد كان بالفارسية حتى ولى الحجاج العراق فكتب له زادان فروخ بالفارسية إلى أن قتل زادان أيام عبد الرحمن ابن الأشعث فاستكتب الحجاج صالح بن عبد الرحمن مكانه وكان صالح هذا يكتب العربية والفارسية التى لقنها عن زادان ولكن الحجاج أمره أن ينقل الديوان إلى العربية ففعل حتى قال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد: «لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب».

مما تقدم وأشباهه نعلم أن حركة التعليم فى صدر الإسلام كانت حركة

جدية بعثها الصادق الأمين والراشدون من بعده وخلفاء بنى أمية من بعدهم على الرغم مما كان يشغل بالهم من فتوح البلدان ونشر الدين فى الآفاق . وليس من الحق فى شىء مايذهب إليه بعض المؤرخين من أن الدولة الأموية لم تؤازر الحركة العلمية ولم تشجع على نشر العلم فقد كان معاوية من الكتاب لرسول الله ﷺ ومن رواة حديثه،وكان يزيد ابنه من الشعراء المعدودين فى زمنه ، وكان عبد الملك بن مروان قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة . قال الشعبى : «ماذا كرت أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فإنى ماذا كرته حديثا إلا زادنى فيه،ولا شعرا إلا زادنى فيه »وإن تشجيعهم للعلم والعلماء قد اتسع مداه حتى لقد نقلت فى زمنهم الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية .

## التعليم الاسلامى

بعث رسول الله ﷺ معلما لينشر دين الله بين الناس ويعلمهم مكارم الأخلاق ويهديهم إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم ويرشدهم إلى سعادة العاجلة والآجلة،«هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوعليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة»فصدع ﷺ بالأمر ولقى فى سبيل الدعوة لدين الله مالقى من بلاء ومحنة وكان من أمره مع قريش ما كان . هاجر من مكة إلى المدينة فكان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون إليه فى كل وقت مع ماكانوا عليه من ضنك العيش وقلة القوت،فإذا سئل عليه الصلاة والسلام عن مسألة أوحكم بحكم أو أمر بشىء أو فعل شيئا وعاه من حضر عنده من الصحابة ، على أن نفرا من أصحابه يبلغ عددهم الأربعين كانوا يجتمعون إليه بمكة قبل الجهر بالدعوة فى دار الأرقم فيتولى تعليمهم ، وكان للنساء يوم خاص يتولى تعليمهن فيه ؛ فقد اعتنق الإسلام كثير منهن .

وقد كان رسول الله ﷺ يجلس فى مسجد المدينة ويدرس للناس العلم فى المسائل المختلفة. يدلنا على ذلك ماروى عن أبى واقد الليثى قال: بينما رسول الله

ﷺ جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد . قال فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجاس خلفه وأما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه .

وكانت مجالس رسول الله للتعليم متنازعة بين الرجال والنساء . فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال النساء للنبى : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن . . . .

وروى أن أبا الدرداء كان يجلس للناس فى المسجد فيعلمهم القرآن وما ينبغى أن يراعى فى قراءته .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يلقى المحاضرات على عدد عظيم من طالبى العلم، فكان يوم للتفسير، ويوم للفقه، ويوم للنحو، ويوم لتاريخ العرب، ويوم للشعراء. ولعل هذا أول جدول دراسى فى الإسلام وقد تكون هذه أول محاضرات إسلامية ألقيت فى الهواء الطلق . ثم حل محل هذا النوع دراسة منظمة للعلوم الإسلامية بين جدران المساجد .

واتبع أصحاب رسول الله سنته فكانوا يعلمون الناس العلم ويفقهونهم فى الدين ويفتونهم فى المسائل التى يستفتونهم فيها ، وزاول الفتيا فى زمن النبى ﷺ من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة ابن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء السابق الذكر وأبو موسى الأشعرى وسلمان الفارسى فكانوا الطبقة الأولى من المعلمين بعد رسول الله ﷺ ولقد كان بعض هؤلاء الصحابة يعرف إلى جانب اللغة العربية

لغة أخرى كالعبرية والفارسية ويلم بشيء من ثقافات الأمم المجاورة للعرب ودياناتهم كسلمان الفارسى وزيد بن ثابت وسواهما. واستعان رسول الله ﷺ ببعض أصحابه على نشر العلم فى أنحاء جزيرة العرب فكان كلما فتحت الجيوش الإسلامية بلدا بعث إلى أهله من يفقههم فى الدين ويدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فقد اجمعو على أن رسول الله ﷺ ولى زياد بن لبيد حضرموت، وبعث أبا موسى الأشعرى ومعاذا إلى اليمن[1] وولى نجران عمراً بن حزم الأنصارى. هذا إلى ما كان يقوم به عليه الصلاة والسلام من إرساله أصحابه إلى الجهات المختلفة لدعوة أهلها إلى الإسلام؛ فقد ورد أنه لما كانت سنة ٨ هـ بعث رسول الله ﷺ أبا زيد الأنصارى وعمراً بن العاص إلى ابنى الجلندى بكتاب منه يدعوهما فيه إلى الإسلام وقال: إن أجاب القوم إلى الشهادة فعمرو الأمير، وأبو زيد على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن.

وجرى الخلفاء الراشدون على سنته من بعده فأرسل أبو بكر معاذ بن جبل وأبا الدرداء إلى الشام، وبعث عمر إلى أهل الكوفة: عمار بن ياسر على الثغر، وعثمان بن حنيف على الخراج، وعبدالله بن مسعود على بيت المال وأمره أن يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين[2]، واشتدت رغبة الصحابة فى الدعوة لدين

---

(١) كتب يزيد بن أبى سفيان إلى عمر. قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء، فأقام عبادة بفلسطين حتى مات بالرملة سنة ٣٤ هـ «الاصابة»

(٢) ففى البخارى عن أبى بردة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان. ثم قال: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب فاذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. (الحديث)

الله؛فنزل أبو موسى الأشعرى وأنس بن مالك بالبصرة،وذهب إلى مصر عبدالله ابن عمرو بن العاص وروى أهلها عنه أكثر من مائة حديث . وممن رحل إلى مصر جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصارى وكان له حلقة فى المسجد النبوى يؤخذ عنه فيها العلم، ثم قدم مصر على عبدالله بن أنيس يسأله عن حديث القصاص. ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث ولا بأس هنا أن نورد حديث رحلته إلى مصر لتعرف مبلغ شغف الناس بالعلم وطلبهم له مهما كلفهم من جهد ومشقة : عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : كان عبد الله بن أنيس الجهنى يحدث عن رسول الله ﷺ حديثا فى القصاص قال جابر: فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلا ثم سرت إليه شهرا فلما قدمت عليه مصر سألت عنه حتى وقفت ببابه فقال:ماجاء بك ياأخى؟قلت:حديث تحدث به عن رسول الله ﷺ فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت[1].

وأرسل عمر بن عبدالعزيز نافعا فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلم أهلها السنن وجعثلا الرعينى إلى أهل المغرب ليقرئهم.

ولا يفوتنا هنا أن ننوه برجلين من أبطال الإسلام وأهل الرأى فى المسلمين وهما:عبدالله بن مسعود وكان من ثقاة الرواة وأصحاب العلم بالقرآن وحديث رسول الله حتى كان يسمى البحر لسعة علمه ، وعلى بن أبى طالب وكان متمكنا من علوم الدين وفنون اللغة والأدب والتاريخ، ثبتا فى علوم القرآن حتى أخرج ابن سعد عن على قال: والله مانزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت . وقال: قال على:سلونى عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار أم فى سهل أم فى جبل . ومن المعروف أن

(١) وذكر أبو عمرو الكندى أن أبا سعيد عثمان بن عتيق أول من رحل من أهل مصر إلى العراق فى طلب الحديث ، ثم كثر الترحل إلى الآفاق . وكثيرا ما كان الصحابة والتابعون يرحلون فى طلب الحديث الواحد الأيام الكثيرة.

ابن أبي طالب هو أول من وضع أصول النحو . روى عن أبي الأسود قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه فرأيته مطرقا مفكرا فقلت. فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة. ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إلى صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم: الكلام كله (كله) اسم وفعل وحرف الخ ..

ولقد أخلص الصحابة والتابعون لدينهم القويم وجدوا في نشره ووقفوا أنفسهم لخدمته وتنافسوا في ذلك حتى قامت في كثير من البلاد حركة فكرية عظيمة جعلتها مركز الثقافة الإسلامية ومقر الآداب العربية وموئل طلاب العلم ، ومن بين تلك البلاد مكة المكرمة ومدينة الرسول ﷺ والبصرة والكوفة وحمص ودمشق ومصر وغيرها.

روى أن عمر بن عبد العزيز بعثه أبوه إلى المدينة يتأدب بها فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع عنه العلم وكذلك كان عبد الملك بن مروان يطلب العلم بالمدينة حتى صار أحد فقهائها وأصحاب الرأى فيها .

وعلى هذا النحو انتشر العلم في الأقطار العربية ووجد طريقه إلى القلوب فأنار البصائر ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ؟

محمد على مصطفى

# من الأدب الأندلسى

## خالد الأندلس

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

---

فى الهزيع الثالث من الليل أو فى قرابته كان كل ماعلى وجه مدينة « البشكنس [1] » خادرا سادرا لاتسمع فيه نأمة ، ولاتحس حركة ؛ إذ لعب الكرى بمعاقد الأجفان ، وأخذ الوسن كل إنسان ، ولبست تلك المدينة الحافلة سرابيل السبات ، وطافت بأهليها أطياف من المنى أو الجرى ، وألمت بحلومهم الأحلام والرؤى ، فهذا صب أضناه الوجد ، وبرح به الهوى ، لم يدرك من حبيبته طلبته ، ولم ينل منها رغيبته ، فلجأ إلى الحلم يستعديه ، ولاذ بالخيال يستدنيه وكأنى به ينشد :

إن كان واديك ممنوعا فموعدنا  وادى الكرى فلعلى فيه ألقاك

فهو يتخيل فى رقدة السحر حلو السمر ، وينظر بعين طيفه مالكة لبه ، وآسرة قلبه أسيرة لديه ، قائمة بين يديه ، يستدنيها فتلبى اختيارا ، ويأمرها فتأتمر ائتمارا ، قهرته فى وضح الليل ، فملكها فى غسق الدجى ، واسترقته يقظ الحواس فاستولى عليها لايأبه يقظة الحراس ، وتطول به الأخيلة فيتمنى ليلا وقفت نجومه ، أو صبحا ضلت ذكاؤه ، وكأنى به ينشد :

---

(١) اسم إحدى مدن بلاد الاندلس .

ورداء ليل بات فيه معانقى طيف ألم لظبية الوعساء
فجمعت بين رضابه وشرابه وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة شفقا هناك لوجنة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة خرف يدب على عصا الجوزاء

وهذا ثرى جمع المال كل همه ، ولم الوفر همامة نفسه ، لا يؤرث مرقده إلا استثمار لجينه ونضاره ، ولا يقض مضجعه إلا استزادة ضياعه وعقاره ، فهو طوال نهاره يجمع ويطرح ، وسدفة ليله يقدر ويصور ، حتى يثقل رأسه المفعم بالأفكار ، وتخمد جذوة فكره المشتعلة بالأسعار ، فيسلمه الكد إلى الفراش مستوحيا فى هجعته مالم يتم بحثه فى يقظته ، ولعله يرقب فى نومه وحيا وإلهاما لا أحلاما وأوهاما .

وذلك بائس قذفت به الأقدار فهو نضو أسفار ، براه السرى ، وأقعده النوى ، يلتمس لجنبه الراحة فلا يجد مآبا يئوب إليه ، ولا نزلا ينزل فيه ، فأكرم بالثرى موطنا ، وأعظم بالسماء ملتحفا ، يغفو وتشتد غفوته ، فيشعر أنه نزيل قيصر ، أو مفترش بسط كسرى ويروح فى سبت عميق .

تلك والدة تحتضن رضيعها وتضمه إلى صدرها ، حتى لتحسب أنها تتمنى أن يعود إلى بطنها ؛ لأن الدنيا يضيق أفقها بعطفها عليه ، فهى لأجله فى شغل دائم ؛ تنام إن نام وتهم متى هم ، تناجيه وتناغيه ، وتلاعبه وتداعبه ، حتى تغازل السنة إنسانيهما فينامان هانئين بذلك الحب السعيد والوله الشديد .

وهل فى الدنيا كلها غير هؤلاء وأشباههم ؟ فمن فيها لم يغمض جفنه ، أو لم يرح جنبه ؟

## ٢

فى الدنيا غير أولئك وهؤلاء أكثر تعسا وأشد بؤسا من التعيس البائس ، وأعظم لوعة وأقسى حرقة من ذى الكربة اليائس ، فهذه « سعدى » ولهى

القلب، معمودة الفؤاد ، مصدعة النفس، مكبوتة الآمال ، ضاق بها محيط كنيسة « البشكنس » فصعدت فى سمائها تناجى رب السموات ، وتساهر مصباحها والثريات ، تشكو إليها همها ؛ فى عبارات العبرات أسطارها ، وكلمات الكلوم آثارها ، فمن حديثها الملتاع ونجواها الزافرة :

ويحى ! ويحى ! من هذا الذى يزعمونه خالد الأندلس ، وسيف الإسلام ، وقاهر الشرك ، ومعلى كلمة الحق ، وأخيرا عاهل يعرب وتميم ، ويلى على مطأطىء جباه القياصرة ، ومحطم كتائب الجبابرة ، ومرهب العتاة الطغاة ، والضارب على يد كل معتد أثيم . ويلى عليه لأنه يزعم عنه أنه ثل العروش، وفل الجيوش، بينا أولئك الذين دانوا لسلطانه يأسرون امرأة لا جريرة لها إلا انتسابها إليه ، ولا خطيئة سوى رسوخ إيمانها ، إنه الآن يسعد بالنوم فى قصر «الزاهرة» على فرش الخز والديباج، وسرر الفضة والذهب، بين حور القيان، وغوانى اليونان، يسقى كئوس النعماء دهقا ، ويكرع أكواب السراء غدقا ، يصبح فيصطبح إن شاء بخمر الجنان ، وإلا فبنت الحان ، ويمسى فيغتبق بابنة العنب أو بسلافة الأدب ، بين أخدان خافوه فكتموه حقيقة أمته ، ورهبوه فخدعوه فى شئون رعيته ، حتى مدواله فى الخيال ، فأنشد معتزا دون عزة ، مفتخرا بغير مفخرة :

رميت بنفسى هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وماصاحبى إلا جنان مشيع وأسمر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة وفاخرت حتى لم أجد من يفاخر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادر

أين هو من حفيد العباس « المعتصم » ؟ ذلك الذى قوض أركان دولة ، وأدال تاريخ أمة ؛ لأنه أنهى إليه أن امرأة هاشمية وقعت فى أسر « توفيل » ملك الروم ، فكانت تنادى « وامعتصماه » فخالف مشيريه، وما أبه أقوال منجميه، وسار فى فيلق جرار يخرب وينهب ، ويقتل ويسبى حتى بلغ مكان أسيرته، فضيق

على المدينة الخناق، وأدنى سادتها إلى السياق ، فتحدثت بنجدته الركبان، وسارت بمروءته الأمثال ، ولله أبو تمام إذ قال :

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
يارب حرباء لما اجتث دابرهم طابت ، ولو ضمخت بالمسك لم تطب
ومغضب رجعت بيض السيوف به حمى الرضا عن رداهم ميت الغضب
خليفة الله : جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

بمثل هذه العزة القاهرة تسمو الأمم . وعلى تلك النخوة القاسرة تعلو الدول ، لا بذلك الذى يترك المسلمة الحصان ، الراسخة العقيدة القوية الإيمان ، بين غوادر الذؤبان ، أولئك الألى طغى عليهم الجحود واستولى، وران على عقولهم الكنود واستعلى ، يتركها سليبة الحربة فى كنيسة لاتسمع فيها إلا لغو القسس ودق النواقيس ، تعلن لاعن التوحيد بل عن التثليث ، فتصم منى أذنى ، فإذا دعانى داعى الصلاة أرهفها لتسمع من يعلو باسم الله صوته فلا أكاد أتخيل لما أتمنى صدى .

أى فخر لهذا الذى يلقب نفسه المنصور؟ وهو من النصر — ولو ملك الخافقين، وخفق لواؤه على الأقصين — جد بعيد ؛ لأن أسر النساء أسوأ مظاهر الخذلان، وأنكى دلائل الطغيان

مالك ياقلبى تؤنبنى ، وتنعى على ثورة جنانى ، ومايجيش به وجدانى فيجرى به لسانى ؟ إنك لتحدث أن المنصور لم يصل إليه مجمل شأنى بل مفصله. ولو أنه ألم به لثارت لكرامته ثورته، ولحفزته لخلاصى همته ، ولنشبت الحرب الزبون، ولقطع إلى المهامه الفيح · بكل سمح لاخوار ولا طليح . أليس المنصور قد أشعل تسعا وخمسين موقعة للحرب لم يسقط له فيها علم ، ولافل له فى جنباتها صارم خذم ؟ وماعلى ياقلبى أن يكون ماتحدثنى به صحيحا إذا قلت ما قلت

وهأنذا فى الإسار نائية عن الوطن . آه ! لوأن أسرى فى غير هذه البقعة ، وبين غير أولئك الطغام لهان الخطب ويسر الكرب ، ولدافعت جنانى أن تجول به هذه الخواطر ، وعقدت لسانى أن يدور بتلك القوارص ، ولكن أنى لى الصبر ؟ وأنا أصبح فى وصب ، وأمسى إلى نصب ؛ أستقبل الصباح القسس والرهبان ، يلوون ألسنتهم بالزور والبهتان ، فأصحو على القذى ، وأغفو على جمر الغضى ، حسبى ياقلبى ولاتذرع بالصبر ولاتجمل بالعزاء .

٣

ذا طرف من حديث تلك المرأة الثكلى ، وأى ثكل أشد من ثكل الحرية ؟ وأى أسى أمض من أسى الإسار ؟ وإنها لتناجى بارئها تارة وتتحدث إلى نفسها أخرى ، بما يعتلج فى فؤادها من تلك اللوعة المعذبة والوحدة المضنية ؛ إذ أسرت إليها إحدى الراهبات التقيات اللائى رثين لحزنها ، وثارت فى نفوسهن من أجل بؤسها عاطفة الإنسانية وتناسين العقائد الدينية — أسرت إليها بأن أحد أعوان المنصور وفد متفقدا مستطلعا ، ولابد من زيارته تلك الكنيسة ، فهى أعظم كنائس «البشكنس» لما فيها من تهاويل وتماثيل ، ونصب وتصاوير ، مما يبهر الحاذق الصناع ، ويفتن كل مخترع فنان ، ومن لم يمتع طرفه بزيارة تلك الكنيسة فإنه لم ير من آثار حضارتنا شيئا ، فخفق لهذا الخبر المباغت قلب «سعدى» وعلمت أن الله — سبحانه — قد استجاب دعواتها ، فلبثت تعد الساعات ، وتتوهم الأيام سنوات ، حتى رأت الزينات تقام ، وأقواس النصر تنصب ، والأعلام فوق الدور تخفق ، والطرق تعج بالعاملين ، فعلمت أن نائب مليكها فى طريقه إلى الكنيسة ، فزورت فى نفسها كلاما تقوله ، فلما وصل تريثت حتى شاهد الآثار والتحف ، وتأمل فى العاديات والطرف ، ثم تقدمت إليه فى رباطة جأش ، ففصلت من أمرها المجمل ، فاندفعت فى الحديث متدفقة لايقف فى سبيلها شىء ، فقالت من حديثها :

إن إسارى أنا التى تربطنى بالمنصور بن أبى عامر أكثر من آصرة ، وتصلنى

بأسبابه غير رابطة لأكبر الخزى وأخزى العار ، فأين هذه النجدة التى ينسبونها إليه ، والهمة التى ينعتونه بها ؟ أين هى حتى تقع مسلمة مثلى فى شراك هؤلاء المارقين ؟ أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها ، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها ؟ ألست أساوى عند الله أم المنصور نفسه ؟ فلقد قال أمين هذه الأمة « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فهل لو أن الحبيسة أمه أو أخته أيغفل أمرها ويلهو بملاذه عنها ؟ فتبقى بتلك الكنيسة محبسه ، وبكل ذل وصغار ملبسه .

أيها السفير الأمين : إنى لأناشدك الله ذا العزة ، وأستحلفك بالمروءة والنجدة إلا أظهرت المليك على أمرى «فلعل له عذرا ونحن نلوم» ولايخالجنى ريب فى أنه سيجيب داعى النعرة العربية ، ويلبى نداء العزة اليعربية ، فيسعى لخلاصى قائما وقاعدا ، رابضا وواثبا ، فى سدفة الليل ووميضة الصبح ، فما كان وهو من سلالة الأنجاد من يعرب ، وله خئولة الأمجاد من تميم بالذى يرضى لى الأصفاد ، أو يتريث فى رد حريتى ، وأنا فى هاتيك الأغلال . فعاهدها الرسول على أن يدلى إلى المنصور بشكواها ، وأنها لابد ناجية من القوم الظالمين.

٤

أنهى الرسول الزيارة بعد أن طوف فى ذلك الإقليم الزاخر بالخيرات الملىء بالعاديات — ماحلاله التطويف ، فلما عاد إلى المنصور وصف له المدينة ورياضها ، والأرباض وغياضها ، والملك وجنده ، والحكم ونظمه ، والقلاع والحصون ، والمسارب والسدود ، والحيوان والطير ، وكل سائر وسارب ، والملك يصغى إليه حتى أتم جميع مالديه ، فسأله مولاه قائلا : « هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ماذكرته ؟ » فقال الرسول : ليس لدى يامولاى من الحديث مايبعث فى النفس غبطة أو يرسل إلى القلب مسرة غير ماقدمت ، فقال المنصور : بل أريد الحقائق مجردة ، وسيان عندى بعد ذلك أن

تسوء أو تسر ، فإنى على هذا العرش مسئول عن رفاهة شعبى ، واستطلاع شئونه : فإما جذلت وزادنى جذلى سعيا فى الخير ؛ وإما وثبت لدفع الضير . فقال الرسول وقد بعث المليك فى نفسه الجرأة وأحيا فيه الحمية : وقفت يا مولاى فى نجوالى على امرأة أسيرة فى إحدى كنائس « البشكنس » وقد أفضت إلىّ بآلامها وأودعتنى آمالها ، فقطب المنصور أساريره ، وملأت الحفيظة عطفيه ، وقال : كان عليك البدء بقص أمرها فهو آثر عندى من جميع ما قصصت ، واشتد فى تأنيبه لعرضه عليه تافه الأمر دون جليله ، وقال : ويلى من حساب الله يوم تعرض عليه أمرها ! أأهنأ وتشقى ؟ أأسعد وتؤذى ؟ « ثم أخذ للجهاد من فوره ، وعرض من أجناد فى نجده وغوره » وعبأ كل من يستطيع للسلاح حملا ، ثم لبس لأمته وأعد عدته ، « وأصبح غازيا على سرجه ، مباهيا مروان يوم مرجه » وسار يقتحم الغور والنجد ، ويطوى السهل والوعر ؛ حتى وصل بعد يده وسلبه إلى المدينة « ووافى ابن شانجة فى جمعه ، فأخذت مهابته ببصره وسمعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجلية ؟ ويحلف له بأعظم ألية أنه ما جنى ذنبا ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا » فعنف أرساله وقال لهم : كيف لم ينقض موثقا « وقد عاهدنى ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ، ولو حملته فى حواصلها النسور » وقد وصل إلى نبأ ينبىء أنه خان إذ عاهد ، وخاس حين وعد ؛ إذ أحل لنفسه أن يبقى فى أسره امرأة مسلمة ، وجعل مثواها إحدى كنائسه ؛ إشعارا لها بالذلة . فوالله رب محمد لأكتسحن أرضه وأقوضن ملكه ، فقال أحد الرسل : مولاى ، لقد عقدنا لك لواء السمع والطاعة ، فغفرا لذنب لم نتبينه وعفوا عن جرم لم نتعمده ، فقد دخلنا فى الطاعة مسلّمين ، ورضينا بعدالة حكمك طائعين ، فليس من عدلك الذى ملأ الآفاق أن نؤخذ بجريرة لم نتعمد اقترافها ، وقد أقررنا بالخطيئة ، فإما عفوت وإما اقتصصت ، ونحن فى الحالين أرقاء عدلك ، وموالى حكمك ، وإن الملك فى سبيل مرضاتك أمر بالكنيسة المشئومة أن

تهدم ، ومازال ذلك شأنهم يتضرعون متوسلين ، ويتوسلون متضرعين ، يبدأ أحدهم الوسيلة حتى تطير صوابه نظرات الملك الملتهبة فيسعفه غيره ، وهكذا دواليك يستدنون طوله ، ويستحيون عطفه ، حتى صدرت عنه كلمة العفو ، فردت إلى نفوسهم طمأنينتها ، وعاد إلى سيدهم ذماؤه .

أما المنصور فقد غير من حالها ، وعاد بسواكب نعماه على جدبها وإمحالها ، وحملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شرد من نومها ، واستحق منها أن تنشده :

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا فى العلا وتدور
من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمى بالندى وبحور

عبد العظيم على قناوى

# فنون الأدب

## منابعها وبواعثها

للأستاذ عبد الحميد حسن

---

للعقول جولات فى شؤون الحياة ، وللنفوس تموجات تنم عن دخائلها ، وللفطرة الإنسانية نزوع إلى تصوير ألوان الحياة ، وميل إلى الإفصاح عما يخالج النفس ؛ مما ينشأ عن الدوافع الباطنة ، أو عن المؤثرات التى تنجم عن البيئة الطبيعية أو الاجتماعية ،

فهذا الميدان الفسيح الأرجاء من التجارب الفردية ومظاهر المجتمع ، إذا ما كانت اللغة وسيلة لرسمه وأداة للتعبير عنه — هو ميدان الأدب ، وما ينتجه العقل فى هذا ويصوغه فى أسلوب جيد من النثر أو النظم هو الأدب .

فالأدب: هو الخالص الصافى من تجارب الحياة، والواضح الصادق من ألوان النفوس؛ يصاغ فى صورة رائعة من الأساليب الشعرية أو النثرية، فيكون للنفوس خير غذاء ، وللعقول صاقلا ، وللهمم شاحذا ، وللميول الإنسانية أقوى حافز إلى كريم الشيم .

وهو من الفنون الجميلة التى تزدهر بها الحياة وتنشط النفوس ، وإن أعلام البيان فى الأمم هم مصابيح هديها ، وضوء حياتها ، ومرآة ماضيها وحاضرها ، وهم الذين يوقظون نبيل العواطف، ويحفزون الهمم إلى جلائل الأعمال ويصورون

مايجول بالنفوس من خواطر ، وماتكن القلوب من ميول طامحة أو جامحة، معوجة أو قويمة .

ولكل أمة راقية أدب مأثور ، تدل ألوانه وضروبه على حظها من الثقافة ونصيبها من الحياة العقلية والاجتماعية والخلقية ، وتنم اتجاهاته عن طبعها وروحها العامة . ولاتزال آداب الأمم الراقية من المناهل العذبة التى ترتشف منها العقول رحيقا سائغا .

وحظ البيئات والشعوب والأفراد من الأدب يختلف صعودا وهبوطاً وقوة وضعفا ، ونباهة وخمولا ، فليست جميع البيئات موطنا خصبا للأدب وللأدباء وللإنتاج الأدبى ، وليست جميع الشعوب ذات حظ من القرائح الخصبة . وللأمم فى حياتها مراحل نهوض وانتعاش ، وعصور ركود وفتور عقلى وحيوى ، والأدب يسير فى الغالب تبعا لذلك ؛ فهو وليد البيئة، ونتيجة القرائح ، وارتباطه وثيق بثقافة الأمة وانتعاش حياتها ، وماتتمتع به من حرية ورخاء ، وبما لأفرادها من خلال تميل بهم إلى الطموح أو إلى الاستسلام .

وسنعرض فى كلمتنا إلى أثر العوامل المختلفة فى فنون الأدب لنعرف البواعث التى تتجه بالأديب إلى فن من فنون القول ، ولنتبين الأسباب التى تجعله يجيد فى أحد فنون البيان، ولنتعرف المعين الذى ينبع منه هذا ، أمن داخل النفس أم بإملاء من البيئة وبوحى من العوامل الخارجية ؟ وهل كان ذلك تقليدا أو ابتكارا ، طبعا أو تكلفا ؟

سنمر بهذه العوامل والبواعث لنعرف الصلة بين الإنتاج الأدبى ومنابعه؛ ليكون لنا من هذا عون على النقد والموازنة بين مختلف القول ومتباين المنازع.

✡✡✡

لاجدال فى أن الأدب صورة للنفس وللمجتمع ، وأثر من آثارهما ، أو أنه يجب أن يكون كذلك ، إلا إذا افترضنا أن الأديب سيتجرد عن سجيته

ويتلون بغير شيمته ، ويتغلب تطبعه على طبعه ، ويخرج على قوانين المجتمع فلا يلبي دواعيها ، ولا يستجيب لمؤثراتها.

ولا نقول : إن هذا الافتراض بعيد الحدوث ، بل إن الواقع يحتم علينا التسليم به ، فإن من الكتاب والشعراء فريقا يقولون بألسنتهم مافى نفوس غيرهم، وينسجون المعانى على منوال من سبقهم أو عاصرهم ، وينتحلون من الأخيلة والأساليب ما لافضل لهم فيه إلا النقل والتغيير والتسطير .

على أن هذا لاينافى أن الأدب إنما هو صورة لنفس بشرية ولبيئة إنسانية، وإن كانت هذه النفس هى نفس غير نفس القائل ، وهذه البيئة قد تخيرت من لم يتأثر بها مستودعا لإيحائها . بل إن هذا النقل والأساليب التقليدية إذا فشت فى عصر كانت ظاهرة تدل على نفوس أدبائه وكتابه وشعرائه ، فإن قاعدة ارتباط الأدب بالفرد و بالمجتمع قاعدة لاينقضها مايتفشى الأدب من تصنع فى أساليبه وتقليد فى صوره ومعانيه ، يبعده عن التعبير الصادق عن دخائل النفوس ، ومايلم بها من مؤثرات .

فالبواعث التى تنشأ عنها فنون الأدب ترجع إلى الفرد وإلى البيئة بنوعيها: الطبيعية والاجتماعية .

***

أما الفرد فتتنازعه عوامل من سرور وألم ، وهدوء وغضب ، وجموح وطموح ، أورضا واستسلام ، وقد يكون نابها أو خاملا ، مثقفا أو جاهلا ، ولكل هذا أثره فى إنتاجه العقلى ، وفى تأثره أو تأثيره فيما حوله ، فإنا إذا بحثنا فى أعماق النفس الإنسانية نجد ذلك القبس الروحانى الذى تختلف درجات إشعاعه وقوة إضاءته ، ونلمح هـــذه النزعات المتوجة التى تهدأ حينا أودائما، وتضطرم آونة أو تكون دائبة الصراع ، ونجد العواطف نبيلها ودنيها، ونتبين

دخائل العقل ومدى ثقافته ، ونرى رضىّ الأخلاق وعنيفها ، ونلمس الإرادة الطامحة والقابعة،والنفس الراغبة والراهبة . نجد كل هذه الألوان النفسية التى تندرج تحت المظاهر المعروفة فى علم النفس وهى:الفكر والوجدان والإرادة . ولكل مظهر من هذه أنواع من الأدب تنشأ عنه :

(١) فالفكر تنشأ عنه فنون الأدب ذات الصبغةالفلسفية والحكموالمواعظ والأمثال، وقد تكون النقافة عونافى هذا الصدد . وقد يكون للفطرة السليمة وللنظرات الإنسانية الصادقة خطرها وأثرها ، ولنا فى الآثار الأدبية للعرب فى العصر الجاهلى أعظم شاهد ، وإن للأعراب الذين وفدوا على الخلفاء والحكام من روائع البدائة وصائب الآراء وبالغ الحكم—مايدلعلى أنالفطرةإذاصفت كان لها من الإلهام الذى توحى به مظاهر الكون ، مالا نظفر به فى كتاب مصنوع،أو منهج دراسى مخطوط أو مطبوع .

(٢) والإرادة تنشأ عنها أنواع الأدب ذات الصلة بالرغبة والرهبة والشجاعة والجبن : كالحماسة والاستجداء والاعتذار وكألوان القول الممزوجة بالملق والذلة .

وقد يشاب بعض ماينشأ عن ضعف النفس من هذه الأنواع بعزة كامنة وقوة تبدو من وراء ستار ، وقد نلمح فى الأدب قوة نفس ظاهرة متكلفة،ولكن الضعف والملق يظهران من خلالها ، وهذا إنما يكون فى العصور التى يغمرها التصنع والتكلف فى مظاهر الحياة،فيبعد أدباؤها عن صريح القول،ويلجئون إلى المداجاة فلا يكونأدبهم فطريا سليما .

(٣) والوجدان هو الوتر الحساس والمورد العذب لكثير من فنون الأدب، ومنه تنشعب العواطف النبيلة أو الوضيعة ، وعنه تنشأ المعانى الموسيقية والأغراض المرحة كالغزل والنسيب والتشبيب والمجون والفكاهات والشعر الغنائى ومايتصل بذلك . ويزداد هذا الجانب نشاطا بما فى البيئة من عوامل

السرور، ومظاهر البهجة، وبانتشار الأمن والرخاء. على أن للتكوين الفطرى فى هذا شأنا؛ فمن الناس من يغلب عليهم الاكتئاب والتشاؤم والنظر إلى الحياة بمنظار مظلم، ومنهم من يميل إلى مباهج الحياة ويرى الأشياء من نواحيها السارة المرحة، ومنهم الحاد المزاج السريع الانفعال، ومنهم النابت الجأش الهادىء الجنان.

(٤) ومن البواعث ذات الشأن فى فنون الأدب الخيال؛ فقد يمتزج بالتفكير وبالوجدان فيكون له أثر فى ألوان القول، وشأن فى بعض فنون الأدب: كالأدب التمثيلى الذى تمتزج فيه عناصر الموسيقى والغناء، وكالوصف المقرون بدقيق التشبيه ورائع الاستعارات، وكالقصص والروايات، وكالتمدح بالجمال الطبيعى أو النفسى، وينشأ عن ذلك أيضا الفخر والعجب والرثاء وغير ذلك.

✡✡✡

يتجلى لنا مما تقدم أن للجو النفسى ضروبا من الألوان، وأنواعا من التقلبات، وهو فى هذا أشبه بالجو الطبيعى فى اختلافه — على مرور أيام العام — حرارة وبرودة، وجفافا ورطوبة، فتارة يهب النسيم العليل، وأخرى تعصف الأعاصير، وطورا يمتزج الهواء بشذا الورد والرياحين فينعش القلوب، وطورا آخر ينقلب سموما يلفح الوجوه.

ولكل هذه التقلبات أسبابها التى ترجع إلى اختلاف الفصول، وإلى طبيعة البلاد، وما قد يكون فيها من جبال وهضاب وبحار وأنهار وإلى خصبها أو جدبها، وتلبد السماء أو صفائها، كما أن لاختلاف النفوس فى طبائعها أسبابا ترجع إلى الفطرة أو النشأة أو البيئة أو غير ذلك.

✡✡✡

ومن العوامل المؤثرة فى الأدب وفنونه البيئة بنوعيها:

(ا) فأما البيئة الطبيعية فأثرها بين فيما نراه فى فنون الأدب من رقة أو ضخامة، وشدة أو لين، وسهولة أو تعقيد، فللصحراء وهدوئها، ومناظرها

الشاسعة، وفضائها الممتد إلى السماء — مايبعث المعانى الفطرية، ويوحى بالعواطف الهادئة، وللخصب والنماء والحدائق الغناء والبساتين والأزهار والأنهار مايبعث المرح ويثير الإعجاب بجميل المظاهر ونضارة الطبيعة، وللجبال الشامخة التى تطاول بغواربها أعنان السماء من الأثر ماليس للسهول المنبسطة والوديان المخضرة.

لكل هذه المظاهر الطبيعية آثارها فى النفوس، وفيما تجود به القرائح من نثر ونظم، وإنا لنلمح هذا الأثر فى شعر البدو وفى شعر الحضر، وفى شعراء الصحراء وشعراء الحواضر الزاهية بالمخضر من الأشجار والجارى من الأنهار.

(ب) وأما البيئة الاجتماعية فمرجعها إلى ما للأمة من نظام فى حياتها العامة وفى حياتها المنزلية، وإلى حظها من الحرية، ومانميل إليه من ألوان المسرات والملاهى، وإلى ماهنالك من مجتمعات وأندية لشتى أنواع النشاط، ودور للتمثيل أو الغناء أو الموسيقى، وحفلات أو شعائر فى أعيادها ومواسمها، كل أولئك له فى حياة الأمة واتجاهها العقلى وإنتاجها الأدبى أثر.

***

وبعد فهذه جولة سريعة فى العوامل التى تتحكم فى أنواع الأدب وتوجه فنونه. ولعلى أعود إلى الموضوع فى فرصة أخرى إن شاء الله لتعزيزه بأمثلة من الأدب العربى تفصل مجمله، وتزيده وضوحا؟

عبد الحميد حسن

# المنظـــــــار

مسرحية من ثلاثة فصول ألفها الكاتب الإنجليزى

« سدنى جرندى . Sydney Grundy » وقدمت

إلى مسرح جارك « Garrick theatre »

فى لندن سنة ١٨٩٠

---

## الفصل الثالث

المنظر :

١ — نفس المنظر السابق فى وقت المساء .

٢ — مسز جولدفنش تخيط فى ثوب .

---

مسز جولدفنش: لا أستطيع أن أعرف ماذا أصاب « بن » ؟ لقد تغيرت طباعه فى هذه الأيام تغيرا تاما . إننى أعجب كيف يطلب سجل حساب المنزل ! ولماذا أخذ رسائله الخاصة من درجى ... هذه الرسائل التى كتبها هو إلى قبل زواجنا ؟ إن هذا التصرف يجعلنى أجزم بأنه ما أحبنى كثيراً .

( يدخل جويس ومعه ميزان )

مسز جولدفنش: ميزان ؟ أتحضر ميزانا هنا ؟ لماذا ؟

جويس : لاأعرف ياسيدتى . هكذا كلفنى سيدي أن أشترى ميزانا !

مسز جولدفنش: هل رجع السيد جريجورى ؟

جويس : إنه على موعد مع السيد رتشارد « دك »فى فندق «جريفن» وقد يتأخر هناك بعض الوقت

( تدخل شارلوت ويدها مملوءة بقوائم حساب )

شارلوت : ها هى ذى قوائم الحساب

مسز جولدفنش: ماهذه ياشارلوت ؟

شارلوت : إن سيدى طلب جميع قوائم حساب المطبخ

مسز جولدفنش: أين سيدك ؟

شارلوت : فى حجرة المكتب ياسيدتى . إنه يراجع سجلات حساب المطبخ . لست أعرف ماذا قد طرأ عليه !

مسز جولدفنش: ولا أنا ..!

( يدخل جولد فنش )

جولدفنش : جويس

جويس : هاهو ذا الميزان ياسيدى .

جولدفنش : تذكرْ أن تزن الباعة !

جويس : أزنُ الباعة ! ؟

جولدفنش : أقصد أن تزن بضائعهم . ولكن قفْ سأزنها بنفسى . عندما يأتى شىء نادنى .

جويس : مشيئتك ياسيدى.

( يخرج جويس وشارلوت )

مسز جولدفنش: ولم كل هذه الاستعدادات ؟

جولدفنش : لأنى أريد ذلك .

مسز جولد : بن — لا أحب أن أراك بهذا المنظار .

جولدفنش : إنه منظار جريجورى .

مسز جولد : نعم — وهذا هو السر فى أنى لا أحبه .

جولدفنش : لم أسترح إليه أنا نفسى فى أول الأمر ، ولكنى الآن ألفتُه إنه يوافقنى .

مسز جولد : إنك فى هذا المنظار شخص آخر .

جولدفنش : وأنا فعلا أصبحت شخصا آخر . بالأمس كنت أبله ، واليوم أنا رجل عاقل .

( تدخل شارلوت )

شارلوت : أتسمح ياسيدى فتعطينى مفتاح حجرة الغسيل ؟

جولدفنش : [ مخرجا من جيبه مجموعتين من المفاتيح ] أين مفتاح حجرة الغسيل بين هذه المفاتيح ؟ أعرف أنه مفتاح كبير ، وهاهنا كثير من المفاتيح الكبيرة !!

[ يدخل جويس ]

جويس : أتسمح ياسيدى فتعطينى مفتاح حجرة الأغذية ؟

جولدفنش : انتظر حتى أجد مفتاح حجرة الغسيل . هاهى المفاتيح كلها — ولكن يجب أن ترد إلى حالا . أخبر السيد پرسى أنى أطلبه .

[ يخرج جويس وشارلوت ومعهما المفاتيح ]

مسز جولد : ألا تجد أن مفاتيح كثيرة كهذه شىء متعب ؟

جولدفنش : سأعتاد حملها .

مسز جولد : لماذا تستدعى پرسى .

جولدفنش : إنه يبذر كثيرا . أريد أن أقول له كلمة أو كلمتين كى يقلع عن هذا الإسراف .

مسز جولد : يبذر كثيرا ؟

جولدفنش : نعم — ولقد قطعت الأمل من ( پرسى ) أيضا .

[ يدخل پرسى ]

پرسى : أبى . أأنت تطلبنى ؟

جولدفنش : أرى أسمك فى سجل حساب أمك ٥ يناير ، پرسى جنيهين أرنى هذا المبلغ .

پرسى : لا أقدر مع الأسف . لقد كان ذلك فى يناير ، ونحن الآن فى يوليو.

جولدفنش : مرة أخرى ١٤ أبريل ، پرسى : جنيها ونصف جنيه . لماذا أخذت هذا المبلغ .

پرسى : لأشياء مختلفة . إنه نفقات جيب .

جولدفنش : سأعطيك من اليوم عشرة جنيهات شهريا . وأحذر أن تنفق أكثر منها .

پرسى : عشرة جنيهات شهريا ؟ أننى ما كنت آخذ أكثر من خمسة .

جولد فنش : يجب أن تتعلم قيمه النقود . هذه هى الدفعة الأولى ( يعطى پرسى عشرة جنيهات )

( يدخل جويس )

جويس : لقد حضر القصاب ياسيدى ومعه لحمة الصباح .

جولد فنش : آه ، لقد كنت منتظراً لذلك القصاب ( يلتقط الميزان ويخرج معه جويس )

( يسمع جريجورى متكلما قبل أن يدخل )

پرسى : كم أتمنى أن يعود عمى إلى منزله فى « شيفلد » !

جريجورى : « إلى دك » ياسيدى اسكت . لاتتكلم إلى . اسكت!

( يدفع دك الى داخل الحجرة ويتبعه جريجورى )

مسزجولد : ماذا قد فعل ، حتى تدفعه هذه الدفعة القاسية ؟

جريجورى : فعل ؟ لقد أساء إلى أبيه . إنه مدين ، أو كان مدينا !

دك : كنت مدينا وقد شملنى والدى بعطفه فـ .....

جريجورى : ألا تسكت ؟

دك : ( متكلما إلى برسى ) لقد دفع كل الدين .

جريجورى : ( إلى مسز جولد ) ألا تتفضلين فتتركيتى لحظة مع ابنى ؟ ( إلى برسى ) وأنت ألا تتفضل أيضا فتركنا ؟

(تخرج مسز جولد وبرسى)

جريجورى : أهكذا كنت مقترضا نقودا ؟ أجبنى .

دك : نعم احتجت إلى ثمانين جنيها .

جريجورى : ولماذا احتجت إلى هذا المبلغ ؟

دك : لأحقق رغباتك .

جريجورى : ماذا تقصد ؟

دك : لقد أردتنى أن أكون محاميا . وقبل أن يكون المرء محاميا هناك نفقات للامتحان لابد من دفعها . لم أقدر على القيام بهذه النفقات . ومن أين آتى بها وأنت تعرف كيف خرجت من المنزل ؟ وأخيرا أخبرنى شخص عن « إسحاق » المرابى .

جريجورى : الرجل الذى قابلناه فى فندق « جريفن » ؟

دك : لا ، شخص آخر . لقد قبل أن يقرضنى المبلغ ، وقبلت أن أكتب له إيصالا بمبلغ مائة وعشرين جنيها .

جريجورى : ثم حل موعد استحقاق هذا الايصال !

دك : لم أطق أن أواجه الموقف وليس لدى نقود .

جريجورى : ولماذا لم تكتب إلى ؟

دك : لقد كتبت إليك مرة : « والدى العزيز ، إنى معسر أريد بعض شىء لآكل . وأنت أجبت .....

جريجورى : صه ! أعرف بماذا أجبت .

دك : وحينئذ سمعت عن « اسحاق » آخر ، الشخص الذى قابلنا فى فندق « جريفن » والذى كان مصمما أن يذهب بى إلى السجن — لولم تدفع له .

جريجورى : لن يتعلم البلهاء أبدا . . . !

دك : لقد كنت طول هذه المدة جائعا !

جريجورى : جائعا ! وأين المال الذى أخذته من موكليك ؟ ألم تقل إن عندك اثنين وعشرين موكلا ؟

دك : لقد قلت اثنين وعشرين تقريبا . إنهم أقل ... ليس لدى موكلون ولا قضايا مطلقا ..!!

جريجورى : لاموكلون ولاقضايا مطلقا ! إذا على أى شىء تعيش ؟

دك : أعيش على الخبز إذا وجدته ، وعلى الماء إذا لم أحصل على الخبز .

جريجورى : ( متأثرا كثيرا ) لاعجب ، إنه يبدو هزيلا جدا . . . دك . .

دك : نعم والدى .

جريجورى : ( متكلما فى صوت هادىء حنون ) تعال عانقنى . . . . . آه ، كم تبدو هزيلا يابنى . . . !

( يدخل برسى )

جريجورى : برسى ! أيمكن أن أحصل على عشاء طيب وزجاجة من الشراب فى أى مكان ؟

برسى : لابد من شىء هناك فى المطبخ . أما تناولت أى عشاء ؟

جريجورى : ليس لى . إنه لأخيك « دك »

دك : لاتشتهى نفسى الآن أى شىء .

جريجورى : لابد أنك جائع .

دك : ذلك كان منذ أسابيع . لست جائعا الآن .

جريجورى : جائعا أو غير جائع ، أريد أن أراك تأكل يابنى . تعالى معى .

( يخرجان )

پرسى : يالعزة نفسه ! لقد عاش ثلاث سنوات محروما من الطعام . والآن لا يتقدم إليه ولو أجبر عليه !

( يدخل جولد فنش )

جولدفنش : لا أقدر أن أفهم ! لقد وزنت اللحمة فوجدتها زائدة ! لقد غيرت القصاب ومع ذلك فلم أستطع أن أكشف حيله . هم جميعا متشابهون ، وأنا أعرفهم !

پرسى : لاتنس أن السيد « لوريمر » آت هذا المساء .

جولدفنش : آه ، لقد أوشكت أن أنسى كل شىء عنه !

پرسى : أحقا ستقرضه خمسة عشر ألف جنيه ياوالدى ؟ لقد سمعتك تقول ذلك مرة .

جولدفنش : نعم كان فى نيتى أن أفعل ذلك .

پرسى : لقد فهمت أنك قد وعدته . وأنا قد أحضرت المبلغ كما أمرتنى .

جولدفنش : لقد أحضرته ورقا ، وكنت أظن أنه حوالة . . . .

پرسى : لم يعد لك حساب فى المصرف . إن محاميك قد صفى الحساب أمس . لقد أعطيتنى سلطتك لأخبره أن يفعل هكذا .

جولدفنش : حسنا فعلت يابنى . وإنى لفرح بتصرفك . لقد كان منتظرا أن يفشل « كرو دسن » إنه أحد زملاء الدراسة . وزملاء الدراسة جميعهم متشابهون ، وأنا أعرفهم !

پرسى : إن المبالغ سيكون أكثر مما نحتاج عند بيع الأسهم .

جولدفنش : لقد أحسنت صنعا بإحضارها . إنى أعرف أولئك المحامين وأصحاب المصارف . هم جميعا متشابهون . وأنا أعرفهم !

پرسى : لست أفهمك ياوالدى فى هذه الأيام الأخيرة . لقد تغيرت . تغير كل شىء فيك حتى ملامح وجهك !

جولدفنش : كل ذلك بسبب هذا المنظار .

پرسى : أرجو أن تعد هذه الأوراق المالية [ يخرج ]

جولدفنش : أعدها ؟ كأنه ليس من واجبي أن أعدها ! واحد ، اثنان ، ثلاثة .... كم هى جديدة ونظيفة ... ! سيدفع لى « لوريمر » أوراقا قديمة قذرة .... أربعة ، خمسة ، ستة .... ذلك لو يدفع لى حقا .... سبعة . ثمانية .... ولكنه لن يدفع .... تسعة ، عشرة .... سفينته غير مؤمن عليها .... أحد عشرة .... ولاشك أنها قد غرقت فى جوف البحر .... اثنا عشر ، ثلاثة عشر .... كيف أعرف أن له سفينة مطلقا ؟ هو يزعم هذا ، ولكنى لم أرهذه السفينة . إلى أين وصلت فى العديالله؟ يجب أن أعد الأوراق من جديد .... واحد ، اثنان .... وماذا يعمل له هذا المبلغ ؟ — لأفرض أنى تحدثت إلى جريجورى... لست مجبرا على مساعدة أى رجل .... رجل يحمل زيتا ... لا ، يجب أن يواجه ماقدر له

[ يجلس ثم يكتب ]

صديقى العزيز

لا أستطيع أن أفى لك بوعدك ؛ فأقرضك خمسة عشر ألف جنيه . إن حادثة مفاجئة تجعل هذا الأمر مستحيلا . هذا ويؤسفنى أن أفقد مسرة كبيرة كنت أجدها فى موقف نبيل كهذا .

صديقك الدائم :

بنيامين جولدفنش

[ يقرأ الخطاب بصوت مسموع ] إن كلمات العطف الرقيقة لا تكلف شيئا .

( يدخل جويس )

جولدفنش : خذ هذا الخطاب إلى السيد « لوريمر » فى الحال . لا تنتظر الإجابة .

جويس : ها هو ذا السيد « لوريمر » ياسيدى . خطاب لك ياسيدى « لوريمر » ( يعطى جويس الخطاب للسيد لوريمر ) ،

لوريمر : آه ، أعرف مضمونه . لا أحتاج إليه الآن .

جولدفنش : لا تحتاج إليه الآن ؟

لوريمر : الحمد لله ، لقد نجوت ياصديقى الكريم ، فتمنّ لى السعادة .

جولدفنش : كيف نجوت ؟

لوريمز : إن سفينتى « نجمة الصباح » قد وصلت سالمة .

جولدفنش : عزيزى لوريمر . . . .

لوريمر : لقد مرت بى أيام قاسية ! أيام هزتنى ونفعتنى ؛ فقد علمتنى من هم أصدقائى المخلصون . كما علمتنى أنك أحسن هؤلاء الأصدقاء . هيهات أن أنسى إنسانيتك وشفقتك .

جولدفنش : أرجو أن تتناسى خطابى . لا تذكره .

لوريمر : وبرسى ، ولوسى . . . . كم سيكون ولدانا سعيدين ! إن برسى قد طلب إلى يد « لوسى » .

جولدفنش : وأنت أخبرته أن يفعل كما تفعل فيرجو !

لوريمر : لقد كان موقفى بالأمس حرجا كما تعلم . وماذا كان يمكننى

أن أقول له فى هذا الوقت غير هذا ؟ لقد قلت ذلك لأنى ما كنت أملك أن أعطى ابنتى شيئا . ولكنى اليوم فى مركز يسمح لى أن أطلب منك شرف الارتباط بأسرتك .

جولدفنش : وخطابى . . . .

لوريمر : آه ، حوالتك . يجب أن أردها لك .

( يفتح الخطاب ويقرؤه )

( يدخل جويس من الخلف ويسمع مايقال )

لوريمر : حادثة . . ؟ إذا لقد صح مانشرته الجرائد الليلة عن « كرودسن » صاحب مصرفك ياصديقى ! لقد ترك البلاد ، وفر إلى الخارج .

جولدفنش : كرودسن ؟

لوريمر : ألم تعلم ؟ ولكنك تقول فى خطابك . . . أرجو ألا تكون قد أودعت عنده مالا كثيرا . . .

جولدفنش : عشرة آلاف جنيه .

لوريمر : عشرة آلاف جنيه ! ائذن لى دقيقة واحدة .

جولدفنش : أين أنت ذاهب ؟

لوريمر : سأرجع حالا ( يسرع إلى الخارج )

جويس : ( يتحدث إلى نفسه ) لقد خسر عشرة آلاف جنيه . . . ولهذا قد وزن القصاب !

[ يخرج جويس ]

جولدفنش : أفهم كل شىء ! إن « لوريمر » يظن أنى فقدت ثروتى ، لذلك فهو لايرغب الآن فى الزواج . طبعا إنه لن يرجع ثانيا ! يالله أهكذا تكون الصداقات ؟ إنهم جميعا متشابهون ، وأنا أعرفهم لاشك أن جريجورى محق مرة أخرى . لقد قطعت الأمل منهم جميعا !!

نعم منهم جميعا إلا جريجورى . إنه لشىء عجيب حقا أن يكون أوفى رجل أعرف هو أخى !

[ تدخل مسز جولدفنش ]

مسز جولد : بن . ماهذا الذى يخبرنى به « جويس » ؟ أخسرت عشرين ألف جنيه .

جولدفنش : خسرت كم ؟

مسز جولد : عشرين ألف ، لقد سمعك تخبر السيد لوريمر .

جولدفنش : لاشىء، لست فى حاجة إلى كلمات عزاء منك . ألا تعرفين أنى وجدت هذه الرسائل فى درجك ؟ [ يخرج الرسائل من جيبه ]

مسز جولد : ألا تزال محتفظا بها ؟ شكراً لله على أنك لم تمزقها . إنى فرحة جدا

جولدفنش : إنى لم أفتحها . انظرى ماذا كتبت عليها [ رسائله ] .

مسز جولد : ولمَ لمْ تفتحها ؟ ألا تعلم رسائل من هذه؟ أنظر إنها رسائلك

جولدفنش : رسائلى ؟ أهكذا تكون ؟ أأنت قد احتفظت برسائلى ؟

مسز جولد : نعم . وسأظل محتفظة بها . إنها أغلى ما أملك فى الحياة !

جولدفنش : ماريون . ولكن شخصا حاول أن يقبلك .

مسز جولد : نعم إنه أخوك جريجورى .

جولدفنش : جريجورى ؟ مستحيل ! إنه هو الذى أخبرنى . لاشك أن هذه ثالثة الأثافى ! إنها نهاية المآسى . يجب أن أقطع الأمل من جريجورى أيضا !

[ يدخل پرسى ]

پرسى : أحقا مايخبرنى « جويس » ؟ إن هذا يفسر تلك التصرفات الشاذة !

مسز جولد : وهذا هو السبب فى أنك طلبت المفاتيح !

برسى : وهذا هو السبب فى أنك رفضت مساعدة السيد « لوريمر » ومع ذلك فقد رتبت لى عشرة جنيهات شهريا . لن آخذها .إنى أقدر أن أشتغل وأساعدك ياوالدى .

مسز جولد : وأنا أقدر أن أكون أكثر تفانيا وعناية بك فى المستقبل . تستطيع أن تبيع هداياى . الهدايا الثمينة التى كنت تقدمها لى فى المناسبات .

جولدفنش : آه ، إنها غلطة ، ولكنى سعيد ، إننا نقدر أن نركن إلى ذلك على أى حال ، فإنه من أسرتنا ، وما كان من الأسرة لايجرح الكرامة .

(يدخل جويس)

جولدفنش : ماذا وراءك ياجويس ؟

جويس : أأطمئن على أنك لن تطردنى ياسيدى ؟ لقد مكثت معكم زمنا طويلا . وكنت تعاملنى معاملة حسنة . لن أحتاج ولن أطلب أى نقود منك ياسيدى وبخصوص الطعام فإنى لا آكل كثيرا .

جولدفنش : جويس . . . . . ولكن شخصا كان يشرب من نبيذى . . . . .

جويس : نعم ياسيدى . إنه رتشارد « دك »

جولدفنش : أهو «دك» الذى شرب منه ؟ عزيزى جويس هاك مفاتيحك لتبق معى . وسوف أدفع إليك أجرك أيضا .

جويس : شكرا ياسيدى . ولكنى لن أسألك أجرا

( يخرج جويس )

جولدفنش : كنت أظن أن جويس هو الذى يشرب نبيذى ! برسى . ليكن ذلك درسا لك . لتثق فى الخدم . الخدم الذين عاشوا معنا عشر سنوات . إنهم يكونون حينئذ من الأسرة

( يدخل دك )

دك : عمى . كلمة معك .

جولدفنش : ماذا تريد أن تقول ؟

دك : إن جويس أخبرنى أنك خسرت كل ثروتك . وأنك لم تعد تملك شيئا .

جولدفنش : وماذا قال جريجورى والدك ؟

دك : قال : لقد كنت متوقعا ذلك . ثم استمر فى عشائه . ليس لدى ياعمى مال ، وكل ماعندى دبوس من الماس . إنه يساوى ستين جنيها . فهل تتكرم بأخذه ؟

جولدفنش : آه ، إنه يساوى أكثر من ذلك ..... وجريجورى يقول : إن الناس جميعهم متشابهون وإنه يعرفهم ! ؟ ليقل مايشاء . أما نحن فيمكن أن نثق بأبناء الأخوة !

[ يدخل لوريمر وابنته لوسى ]

جولدفنش : أرجعت ثانيا ؟

لوريمر : عزيزى جولد . ألا تشرفنى بقبول هذه الحوالة دليلا على شكرى ؟ إنها بخمسة عشر ألف جنيه . بالمبلغ الذى كنت تنوى أن تقرضنى إياه .

جولدفنش : ولكنى لم أقرضك شيئا .

لوريمر : إن هذا لا يغير وجه المسألة فى شىء : لازلت أعد نفسى مدينا لك بها ، ومهما قدمت لك فهيهات أن أفى حق مروءتك .

جولدفنش : كنت أزعم أنه لن يعود ثانيا ! يالله كم يخطىء الإنسان ! يجب أن نثق بالأصدقاء .

لوريمر : إن « لوسى » ستصبح حرة التصرف فى مالها . إذا كنت لاتقدر أن تعطى ابنك أى شىء .

لوسى : وأستطيع أن أكون مدبرة جدا .

جولدفنش : مدبرة ؟ لن تكون هناك حاجة لهذا . سيكون لك كل ما تطلبين. وسيتبقى بعد ذلك شيء لعصافيرك ،

لوسى : آه ، إنك لم تنسها !

جولدفنش : نعم يا « لوسى » لأن واحدا طار وخدعنى . صار قلبى قاسيا على الآخرين ! لقد ارتبت فى كل شيء ! ارتبت فى الأصدقاء، وفى ابن الأخ ، وفى الابن، والزوجة — مع أنهم كانوا جميعا مخلصين — ولكنى اليوم أستطيع أن أثق فيهم جميعا إلا الأخ. ياللعجب ! أيكون الرجل المنافق والمفترى الوحيد بين من أعرفهم — هو أخى الشقيق ؟

( يدخل جريجورى وفى يده ورقة — فيخرج نوريمر )

جريجورى : ماهذا الذى أسمع ؟ لقد جعلت من نفسك شخصا أبله !

جولدفنش : ( لنفسه ) ذلك مايقدر أن يواسينى به !

جريجورى : هل خسرت حقا كل ثروتك ؟ إنك تستحق أن تخسرها ! إن من يأتمنك على المال كمن يأتمن أى طفل ! كان ينبغى أن يكون لك وصى ! لماذا لم تبق عينك مفتوحة وجيبك مقفلا ! لماذا لم تفعل ذلك مثلى ؟ أين القلم ؟ وقعْ على هذه

جولدفنش : أوقع على هذه ؟ وثيقة شركة ياجريجورى ؟

جريجورى : إذا كنت لاتعتنى بنفسك ، فمن الواجب أن أعتنى أنا بك ستكون منذ اليوم شريكى فى ثروتى ، فإنى لا أطيق أن أرى أخى فى ثياب البؤس والفاقة ! ولكن حذار أن تعود إلى تصرفات البلهاء !

جولدفنش : هذه شفقة زائدة . . . . جريجورى . . . . يمكنك أن تقبل

زوجتى مادامت تحمل هذا القلب ! نستطيع أن نثق حتى فى الاخوة ! أما الخدم . . . . خدم المائدة ! الذين يقيدون علينا سمكا دون أن نأكله فمحال أن نثق بهم !

جريجورى : خدم المائدة ! آه لقد ذكرتنى ! هل جراد البحر « الجمبرى » سمك ؟

جولدفنش : نعم جراد البحر سمك .

جريجورى : إذا فلاذنب على خادم المائدة . لقد قيد فى قائمة الطعام سمكا ، وكان يقصد « جرادالبحر » هذا الذى قدمه ، وأكلت منه كثيرا . فالذنب على جهلى الاسم . وخادمك ليس بسارق .

جولدفنش : إذا يجب أن نثق فى خدم المائدة أيضا !

(يدخل لوريمر)

لوريمر : أخبار جديدة . لقد خطر لى أن أشترى صحيفة ، وقداطلعت فيها على نبأ سار .

جولدفنش : نبأ سار ؟

لوريمر : نعم (يقرأ)

« يسرنا أن نقول . إن مايشاع عن فرار « كريدوسن » صاحب مصرف كريدوسن غير صحيح . وكل ماهنالك أنه غادر لندن ليعتنى بأعمال المصرف . ومركزه المالى كما هو ثابت جدا ، ويستطيع أن يدفع فى أى وقت كل مالديه للمودعين كاملا »

جولد فنش . إن هذه أخبار سارة لك

جولدفنش : لى ؟ إنها أخبار لاتهمنى ولاتتعلق بى .

لوريمر : ألم تقل إن لك عنده عشرة آلاف جنيه ؟

جولدفنش : كان ذلك أمس . ولكنى سحبتها منه من قبل .

لوريمر : إذا فأنت غنى كما كنت دائما ؟

جولدفنش : نعم أغنى من حيث العلم بمدى صداقتك واحسانك ووفائك ! أصدقائى : إنى أرد إليكم مساعداتكم بمثل الروح التى قدمت إلى بها . لن أنسى هذه المساعدات أبدا . إن الدنيا ليست من الرداءة بمقدار ما كنت أقدر أخيرا .

[ تدخل شارلوت ]

شارلوت : منظارك . إنه قد أتى ياسيدى .

جولدفنش : آه منظارى الذهبى ؟ إنى سعيد بأن يعود إلى مرة ثانية.

[ يلبسه ويبتسم لكل شخص ]

مسز جولد : جميل . إنك تبدو فيه أنت نفسك ثانيا .

جولدفنش : وكذلك أشعر أنى أنا نفسى . جريجورى . تفضل منظارك . أشكرك على أن أعرتنى إياه ، ولكنه لا يوافقنى . وإذا كان فى الدنيا أشخاص لاخلاق لهم ، فإنى أفضل أن أشقى وأضل ، على أن أشك وأخطىء فى الحياة ! !

عبد العزيز عتيق

﴿ نهاية الرواية ﴾

من الأدب الجديد :

# الضيف .....

للأستاذ محمد سعيد العريان

---

ود توفيق لو يهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان ، فإنه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التى يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء ؛ لقد أطافت به نوبة من الضيق والملل حتى لا يلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمة ، ودق حسه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال ، وكان فى إجازة طويلة ، والجو حار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم ، وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانفراد ؛ فلا طاقة له على البقاء فى البيت ساعة من نهار ، ولا يجد فى القهوة ما يسلى نفسه ويشغل فراغه ؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم ، وخلفوه ونفسه يصارع الهم والوهم والوحدة والألم . . . !

وتصورت فى خياله القرية التى مس ترابها جلده منذ ربع قرن ، والتى لا يذكر — لبعد العهد — متى هاجر أهله منها إلى المدينة ، ولمه . . . ؟ لا شك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم ويهدى إلى نفسه الموحشة بعض الأنس والهدوء والدعة .

وتراقصت أمام عينيه صورة جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر ، وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته فى القرية ، فذكر مجالسه مع شبانها على حافة الساقية تحت شجرة التوت

الغليظة تساقط عليه ثمراً شهياً ، ورياضاته فى جلبابه الفضفاض تحت المعطف الأبيض على شاطىء الترعة وبين الحقول ، يتملى بجمال القرويات غاديات رائحات من الترعة وإليها أسراباً أسراباً يجررن الذيول ، ويحملن الجرار على رءوسهن ، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل فى نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وذكر مجالس الأنس والسمر فى الليلة المقمرة على مصطبة الدار ، وحديث القرويين يتنقل فى لذة وسمر بعيداً عن التزويق والادعاء الفاخر . . . . وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التى تحيط به هناك .

***

وفى اليوم التالى كان القطار يغذ السير بتوفيق إلى القرية ، وقد أشعل بين أصبعيه دخينة وسبح فى أحلام لذيذة بهدوء القرية وسحر بناتها . .

وتلقته أخته بالترحيب والعناق ، وجلست إليه قليلا تحدثه ويحدثها ، ثم تركته لتهيىء له الطعام بيدها ، طعام القرية الشهى الدسم اللذيذ . وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحيونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث ، يقطعون بين فتراته بالتحية المكررة والسؤال عن الصحة والأحوال ...!

وخرج معهم فى العصر يطوف بأزقة القرية يتعرف إلى الوجوه والأبنية ، واخترق سبلا وعرة بين الحفر وكومات السماد ، وبيوتا متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق . وانتهى به المطاف إلى دار له بها عهد ؛ لأن صاحبها من ذوى قرابته ، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يبعثون التاريخ ، ويتناولون أنباء القرية وحوادثها ، وأنباء السياسة أيضا ، وإن لهم فى السياسة لأحاديث لا تخلو من حكمة وبعد نظر !

وأعجب توفيق بحديثهم كما تعجب بحديث الطفل ، فأنصت إليه فى لذة وأنس ، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافيات دليله الجاهل عن سر أبى الهول وأطياف وادى الملوك .. !

وأديرت فناجين القهوة ، وانعقدت فى جو الغرفة سحائب الدخان ، واشتد الحر فأسال العرق على الجباه ؛ وشعر توفيق أنه يكاد يختنق ، وأن أعصابه تخونه ، فهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس فجلس .

وأخذوا فى حديث الشياطين والجن ، فراح كل واحد منهم يحدث بما سمع وما رأى وتفننت عبقرية الجهل فى اختراع القصص المروّعة والروايات الغريبة وطفقوا يعددون الشياطين بأسمائها وحوادثها وضحاياها ... وأشار « الشيخ » بيده فأنصتوا ومالوا برءوسهم إليه ، وقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفتاه فى انفعال عصبى ، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذى كان يتسور عليه البيت وهو شاب ليالى متتابعة ، فيقاسمه طعامه وشرابه ، وفراشه أيضا ، فلا ينصرف إلا مع أذان الفجر ، والزنجية الحسناء التى كانت تصحبه ليالى فتحتل موضعه فى الفراش ، وتضطره أن يقضى الليل معقودة يداه خلف ظهره ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار ، ثم لا يفارقه العفريت وصاحبته قبل الصباح إلا بنفحة من دراهم أو عصوين من نار تلهبان ظهره ؛ جزاء رضاه أو سخطه على مايصنعان ...

وكان حديثا غريبا على الضيف ، فحاول أن يتفلسف وينكر ويعلل ، ولكنهم أنكروا منه ذلك ، وطلبوا إليه التسليم أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم ؛ وكانت أعصابه مهيأة للتسليم فسكت . واستمروا يتحدثون .

وأحس رعدة خفيفة تتمشى فى جسده ، فسحب رجليه فى هدوء فدفنهما فى أطراف ثيابه ، وجمع يديه فى حجره ، ومال إلى المحدث يستمع إليه هادئا منصتا فى شبه إيمان . لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه ، وهاجت وساوس نفسه المريضة .

وانتهت السهرة ، ولكن صاحبنا ظل جامدا فى مكانه ، لم يهم بالقيام حتى دعوه ، فنهض كبيلان متراخيا يكاد يسقط من إعياء . وشيعوه إلى دار أخته

وهو سار بينهم يتعثر فى أوهامه ...

ووجد أهل البيت نياما فلم يبق ساهراً فى انتظار عودته إلا مصباح ضئيل مرقد فى الردهة ، يرقص لهبه على عزيف الهواء . وكان يعلم أنهم أعدوا له غرفة فى الطبقة الثانية ، فصعد فى السلم بطيئا متثاقلا يتلفت بين الخطا ، والمصباح فى يمينه . ودفع باب الغرفة بيسراه فسمع صوتا يشبه أنين المستصرخ ، فأدار ظهره فى فزع لدى من هناك ، ولكنه لم يجد شيئا ، وعاد يدفع الباب ، فسمع حشرجة خشنة ، ثم ضحكة بشربة ناعمة . . !

ووقف فى وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها فى رعب وفزع ، وكانت به رغبة فى التدخين ، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية — حيث أودع حقيبته — ليستحضر بعض التبغ . وخلع نعليه وهو جالس على حافة السرير ويداه ترتعشان ، وتتجاوب فى أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه الطمأنينة . ودفن نفسه فى الفراش ، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة ، وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه ، وأشباحاً خفية تطيف به .

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكداس من الحطب والوقود ، ولكنه أحس دبيب أقدام ، وسمع أصواتا غريبة هامسة ليست من صوت البشر ! أتراه أغضب الشياطين فأرسلوا إليه عفريتا ينتقم منه ؟

وضاقت أنفاسه ، واضطرب فكره ، واشتد ضغط الوهم على صدره ، وهم أن يصرخ ويستنصر ، ولكن صوته احتبس ولم يتحرك لسانه . وشبه له أنه يرى شبحا من الضباب فى شكل غير إنسانى — وإن كان يمشى على رجلين — ينسل من النافذة مع ضوء القمر ، ويشير إليه بالصمت فى إنذار وتهديد . . . !

وسحب الغطاء يخفى عينيه فى حركة آلية ، لكنه أحس شيئا بارداً يلمس أطراف قدميه ، فاستوى جالسا وأفلتت منه صرخة مخنوقة ، وتوارت الأشباح فلم يبصر شيئا ، ولكن همهمة غير مفهومة ، ودبيبا وهمسا ، وأصواتا غريبة ،

تصك أذنه من بعيد . واستلقى ثانية على الفراش وهو يحدق فى الحائط الذى أمامه تحديق الخائف المذعور ، فقد أبصر ظلا أسود مطبوعا عليه ، يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث إلى شخص بعيد . وود توفيق أن ينظر إلى ماوراء ليرى المشار إليه ، ولكنه خاف ؛ واستمر الهمس والدبيب يرنان فى أذنيه ، وتتراقص الرؤى والأشباح أمام عينيه ، فلم ينم ليلته ؛ وفى الصباح ، مع أول خيط من ضوء النهار ، كان جالسا فى فراشه يصفق بيديه فى عنف يستدعى الخادم . ودخلت أخته تحييه ، فراعها مارأت فى وجنتيه من صفرة الخوف وإعياء السهر ، وقالت له « توفيق ، ماذا بك ؟ » .

— « لاشىء ، ولكنى مسافر اليوم فأعدى لى ركوبة إلى المحطة » .

— « مسافر ؟ ولكنك عرفتنى أمس أنك قد تمكث لدينا شهرا ، فلماذا غيرت رأيك ؟ » .

— « لاشىء ، لاشىء ، قلت لك لاشىء . إن حقيبتى فى الغرفة الثانية » .

وآلمتها لهجته فحطت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به ، ثم عادت تسأله « حدثنى ياتوفيق ، هل تألمت من شىء هنا ؟ »

— « لا ، ولكنى لم أخبر أمى أمس أنى مسافر ، فأخشى أن يقلقها غيابى أو يؤلمها ، لذلك سأعود . »

— « ليتك لم تحضر ياتوفيق . » وانصرفت لبعض شأنها .

✡✡✡

وحين تناول توفيق حقيبته من حيث وضعها أمس ، أفلتت منها ورقة فظنها سقطت منه ودسها فى جيبه قبل أن يقرأها .

ولما جلس فى القطار ، وضع يده فى جيبه ليخرج شيئا ، فعثر بالورقة ونشرها بين أصابعه يقرؤها . . . . وضحك توفيق وشاع فى وجهه السرور حين عرف ماهناك ، لقد كانت أخته تربى له ماعزة ولوداً ، فكتبت له هذه الورقة أمس تخبره أن فى ضيافة ماعزته فوق السطح جديا فلا يفزعه دبيبهما ، ريثما ترد الجدى إلى صاحبه فى الصباح . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته ، لأنه كان يظن أنه وحده ضيف البيت . . ؟

محمد سعيد العريان

# صوت المعلم

« قصيدة الأستاذ عبدالعزيز عتيق التى أعدها
لحفلة الذكرى التى شرفها معالى وزير المعارف السابق
الدكتور محمد حسين هيكل باشا »

---

رائد النور فى ربا النيل أقدم ... حبذا عهدك السعيد وأنعم
حبذا أنت للمعارف يرعا ... ها فؤاد بالحب والخير مفعم
وثبت للأمام فى عهدك الزا ... هى ، ونالت على يديك التقدم
ومضت تنشر الضياء على الوا ... دى ، وتمحو بفيضه كل مظلم
خرجت للحياة تبنى وتعلى ... كل ما مال ركنه أو تهدم !

✡✡✡

عبقرى الآمال لم يك يوما ... بسوى المجد والعظائم يحلم
وجرىء تراه يقدم فى الحق م ... إذا غيره عن الحق أحجم
شرعه العدل والإخاء مع النبـ ... ـل ، ومن كان شرعه ذاك يعظم
وعجيب آياته يتجلى ... نورها بيننا ولا يتكلم !

✡✡✡

ياوزير الإصلاح ، يارائد النهـ ... ـضة فى مصر ، يانصير المعلم
كل يوم لكم جديد من الفضـ ... ـل ، ودنيا عظيمة لاتقوم
ياوزير الإصلاح ليس كثيراً ... أن نرى رأيك الرجيح المقدم
فقديما هتفت فينا جريئا ... فاستجبنا إلى النداء المنغم
وقديما دعوت للأدب الحر م ... ونسج من الثقافات محكم
وقديما خلقت جيلا من النشـ ... ـء ، طموحا يهوى الجديد ويفهم
كلمات من نعمة الله كانت ... تتمشى بنا شفاء وبلسم
كلمات فيها ابتكار وعمق ... ولها سطوة وسحر مجسم
كل من ذاقها تنبأ بالمجـ ... ـد ، ويوم فيه تسود وتحكم

والذى أنعم النفوس هوى أنك ـ فيما أتيت ـ بالحق ملهم

***

ياوزير البيان ، فى مصر دار قدست فهى كالحطيم وزمزم
هى « دار العلوم » معجزة الشر ق ، وأستاذه الذى ليس يهرم
حملت راية الحنيف وصانت لغة الدين عن عي وأعجم
ومشت بالضياء والجهل فاش وصحت للجهاد والقوم نوم
لايقل مغرض : وأين جناها ؟ إنها بالدم المقدس تخدم
طاب منها الجنا ، وليس عجيباً وجنا الناعبين صاب وعلقم

***

من كهذى الحسناء أخلصت الود م إلى النيل رغم طول التحكم ؟
كل عام لها جديد من النش ء كأنى بهم شموس وأنجم
أنشأتهم مباركين فهيها ت فتى منهم على الشر يقدم
لقنتهم معنى التواضع والإي ثار والصبر والرضا والتبسم
معشر كل همهم أن يكونوا رسلا تشرق الحضارة منهم
والذى نشهد العشية معنى من معان لهم تجل وتعظم
ليس « دار العلوم » ماقلت ، لكن هى أسمى مما ذكرت ، وأقسم !

***

ياوزير البيان ، يارائد الفكـ ر ، ويا أعدل القضاة وأحكم
المربون فى زمانك يرجو ن شفاء من الشقاء الملثم
المربون عدة النيل كاد اليأس يسطو على هداهم ويهجم
نظرة منك فى اقتناع وصدق ياوزير البيان تقضى وتبرم
ورحيم من ينصف الناس شتى والذى ينصف المعلم أرحم

عبد العزيز عتيق

## قصيدة الأستاذ عبد العظيم بدوى

## ذكرى أبى الفتح !

ترامت عطاشاً شاحبات أزاهره ... وذابت أغانيه ، وضجت حناجره
وصرّت على أعشابه ورقاته ... وجفت على ثغر الطيور بشائره
وشقت عذارى الورد حمر جيوبها ... كما تندب الميت الكريم حرائره !
وأعولت الأرواح فى جنباته ... وصاح نذير الأيك أن فض سامره
فلا الغصن مياس ، ولا النرد ضاحك ... ولا تنشد اللحن الطروب عصافره
ولا الزنبق الغيسان ينفح نده ... كما تنفح المسك العطير مجامره !
ولا الكرم يزهى كالغوانى بقده ... عناقيده نشوى ، ونشوى غدائره!
كأن اصطفاق النهر تحت ظلاله ... صراخ يتيم أسود الجد عاثره !
تجهم للروض الغناء فغاله ... فيا بؤسه فى مأتم الروض شاعره ..

✡✡✡

لمحت به غيداء فى ظل دوحة ... تمرغ فى العشب الذى جف ناضره
تألق صفو الرمل فى صفو عينها ... وجالت به آرامه وجآذره
تمزق فرعا كالدجى ، وغلائلا ... نواصع كالورد استبيحت بواكره
ترى ياهزار الأيك من تلك ما اسمها ... وماخطبها يطغى وتطغى مقادره ؟؟؟
فقال : اسمها النصحى ، ومن غيد يعرب ... وصاحبة الروض الذى أنت عابره !!!

✡✡✡

حثثت إليها الخطو أسوان خاشعاً ... يساور قلبى نحوها مايساوره !
حنانيك ، رفقاً يافتاتى ، وأجملى ... عزاء ؛ فكون الله تلك مصائره !
فصعدت الحسناء طرفاً مخضبا ... وصاحت ، وقانى الدمع يسفح قاطره:
« معاذ حنانى أن أكف كف عبرتى ... ويهدأ فى الصدر الممزق ثائره !

فما شئت يا دهرى خطوبا فهاتها فأول خطبى فى « أبى الفتح » آخره »

✡✡✡

وثم عجوز خضب الشيب فودها وأوهنها الخطب الذى شب ساعره
ترامت على ظهر الكثيب وولولت يشاطرها النخل الأسى وتشاطره ! !
يحار بجفنيها من الدمع قانىء فيرفض هاميه ، وتدمى محاجره
تبلج نور الحق من نظراتها كما انفلق الإصباح يسطع باهره
فلو أن هذا الكون سر محجب أميطت بهذا النور عنه ستائره
ترى ياهزار الأيك . . . . . .
فقال اسمها ؟ ياويلنا ، حرت فى اسمها وقد كنت أحجو أننى اليوم ذاكره
هى الحكمة الغراء ، أودى حكيمها وظلت خلودا باقيات مآثره

✡✡✡

وتحت ظلال الدوح شيخ مهدم عليه جلال تستبيك مظاهره
تكاد إذا ألفيته متأملا تصيح : أرى لقمان يبعث غابره
تخال بريق الدمع فى وجناته ندى فى جبين الصبح ينضح عاطره
ترى ياهزار الأيك من ذاك من أرى وماخطبه يطغى ، وتطغى مقادره ؟؟؟
فقال : ترى « سقراط » يندب حظه لذكرى « أبى الفتح » استجنت خواطره

✡✡✡

أبى ، يالواء الدار ، ياذوب قلبها ويادمها المشبوب كالنار زاخره
أبى يا أبى الروح ، ياشعلة سرت ليهدى بها فى حندس الليل سادره
أبى يا كبير القلب والنفس والحجا ، ويا أمل الدار المصوح زاهره
أبى ياعطوفا كالنسيم إذا سرى ترف كأنفاس العذارى بوادره
أبى يا أبى .. قد بح صوتى ألا أرى مجيبا سوى الصمت الذى طم غامره ؟

قضيت إذاً ، وانفض عرس نظمته خبا عزف شاديه ، وهسهس زامره !!

***

حنانيك أدركها ؛ فقد عصف الردى بها ، وعفا الربع الذى أنت هاجره
تنمرت الذؤبان فى عرصاته ومن عجب يبغى الأناة غضائره
لنا معهد من دونه الشمس محتدا تألق ماضيه ، وأزهر حاضره
جميل لدينا أن يهدم فوقنا وليس جميلا أن تخط حفائره
تعاوره الرامون من كل جانب فرام يغاديه ، ورام يباكره
يريدون أن يفنى من الليل نوره ومن دون مايبغى البغاة عباقره
وماذا يفيد السيف فى حومة الوغى إذا اصطك بالصخر الممرد باتره ؟

***

سلوا نائح الطلح المهوم : من ترى إذا هجع النوام هب يسامره ؟
سلوا النرجس الفواح من كان فى الضحى
تشنفه عيدانه ومزاهره ؟
وميلوا على وادى الضحايا وسائلوا به دمها الغالى تئج مقابره
ترى يادم الأبطال من حبب الردى إليك ، ومن ناحت عليك قياثره ؟
أناشيد من « دار العلوم » يصوغها شباب نبيل الروح والقلب طاهره
ففى كل يوم شاعر يسحر النهى إذا ماشدا فالكون طرا منابره

***

« أباالفتح » لايحزنك ماصنعت بنا الـ خطوب ؛ فإن الغاب يحميه زائره
تحوم الذئاب العاديات حياله .. وترتد إما روعتها أظافره ..
وزير له فى الحق أية صيحة تغنى بها فى « منزل الوحى » شاعره
يضج بها « وادى الحجيج » كأنها هتاف الملبى جاوبته مشاعره
طروب لها « يس » فى القبر أنها نشيد الهدى ، فيه تعد مفاخره

كأن صداها فى الربى الفيح رنة لصوت بلال رجعتها منائره

✡✡✡

«أهيكل» قد أديت لله حقه وللأدب العالى تدانت أواصره
وللسمحة الغراء شرعة أحمد وللوطن العانى إذا اشتط آسره
وللنور والعرفان لم تأل رافعا لواءهما الخفاق يبهر ناظره»
ملأت ربوع الشرق علما وحكمة وفلسفة يهدى بها اليوم حائره!
رعيت «ابنة الصحراء» فى خدر بيتها وقد شيد فى ظل «المنيرة» عامره
تصدى لها رهط البغاث فرعته فريع فولى مدبرا منك طائره!

✡✡✡

وحولك أبطال إذا اصطخب الشرى فمن بينهم أشباله وقساوره!
وأبناؤها الأبرار من كل هاتف بمجد اُمه والنجم يرعاه ساهره
جراحاتها تنزو، فتنزو جراحهم إذا ما اكفهر الليل واسود كافره!
توثب يحدوهم «نجيب» إلى التى حداهم «أبو الفتح» المخلد غابره!

✡✡✡

أبا الفتح لايحزنك ماصنعت بنا الـ عوادى؛ فإن الغاب يحميه زائره!

عبد العظيم بدوى

# فهرس

## العـــدد الثانى من السنة السادسة


| صفحة | الموضوع | الكاتب |
|---|---|---|
| | | ا — كلمة الأستاذ نجيب حتاته |
| | | ب — كلمة حضرة صاحب المعالى وزير المعارف السابق |
| ٤ | إحياء ذكرى المرحوم « أبى الفتح الفقى » | مذكرة معالى الدكتور حسين هيكل باشا |
| ٨ | توحيد التعليم فى معاهد تخريج معلمى اللغة العربية | الأستاذ على التجدى ناصف |
| ٢١ | هل جنى الشعر الجاهلى على الأدب العربى؟ | « محمد أحمد برانق |
| ٤١ | الخلال الوزير الإسلامى | « عبد الرازق حميدة |
| ٥٢ | الخرافات | « محمد على مصطفى |
| ٧١ | التربية الإسلامية — ٢ — | « عبد العظيم قناوى |
| ٧٩ | خالد الأندلس | « عبد الحميد حسن |
| ٨٧ | فنون الأدب : منابعها وبواعثها | « عبد العزيز عتيق |
| ٩٣ | المنظار ( قصة مترجمة ) | « سعيد العريان |
| ١٠٩ | الضيف ( قصة مصرية ) | « عبد العزيز عتيق |
| ١١٤ | صوت المعلم « قصيدة » | « عبد العظيم بدوى |
| ١١٦ | ذكرى أبى الفتح « قصيدة » | |

السنة السادسة (ذو الحجة سنة ١٣٥٨هـ — يناير سنة ١٩٤٠م) العدد الثالث

# صحيفة دار العلوم

صدر سنة ١٩٣٤

تصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب جيتانة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

**السباعى بيومى**
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

في القطر المصرى ..... ٢٠ قرشاً
خارج القطر ..... ٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد ..... ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

صفحة

٣
٩
١٣
٤٢
٤٩
٥٨
٦٩
٨٦
٩٨
١٠٢
١٠٣
١١٣
١١٩

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

# فهرس

## العـــدد الثالث من السنة السادسة


| صفحة | الموضوع | الكاتب |
|---|---|---|
| ٣ | فقيد الإسلام والسلام الشيخ طنطاوى جوهرى | الأستاذ محمود الطنيخى |
| ٩ | نهج التفكير العربى فى الأدب | الدكتور أحمد ضيف |
| ١٣ | الزبير بن عبد المطلب بن هاشم | الأستاذ أحمد يوسف نجاتى |
| ٤٢ | الموسيقا فى الأدب العربى | « عبد اللطيف المغربى |
| ٤٩ | نهج القرآن | « محمد خلف الله أحمد |
| ٥٨ | وطنية المتنبى | « على النجدى ناصف |
| ٦٩ | العبـــاسى | « محمد أحمد برانق |
| ٨٦ | الراحـــة | « عبد الرزاق حميدة |
| ٩٨ | رحلة طائر « قصيدة » | للشاعر الأستاذ فايد العمروسى |
| ١٠٢ | شاعر « قصيدة » | « « محمد عبد الغنى حسن |
| ١٠٣ | كنز الراعى « قصة إيرانية » | للاستاذ عبد العزيز عتيق |
| ١١٣ | الأدباء | « عطية الشيخ |
| ١١٩ | أى أم رحيمة فى ثيابه « قصيدة » | « عبد العظيم بدوى |

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

## فقيد الاسلام والسلام

### الشيخ طنطاوى جوهرى

---

نعت الصحف إلى العالم المثقف فى الشرق وفى الغرب **الشيخ طنطاوى جوهرى**، مات الشيخ وقد كان إنساناً يدرج على الأرض كغيره من الناس، ولكنه لم يكن واحدا من المهرجين أو هواة الشهرة، الذين يدقون الطبول، ويسيرون مع الرياح؛ ولذلك مات غير معروف من كثير من المصريين. كان يدرج على الأرض ولكن روحه كانت تعرج إلى السماء فتطل على مفكرى العالم فى الشرق وفى الغرب، فعرفوه وقدروه، بل حج بعض مفكرى الغرب والشرق إلى مصر ليتعرفوا إلى الشيخ طنطاوى وجها لوجه، بعد ماتعرفوا إليه فى أبحاثه وأفكاره فى مؤلفاته الكثيرة وفى فلسفته الوادعة الداعية إلى السلام.

فقد جاء العلامة « كرستيان جوب » من لكسمبرج وحاضر فى جمعية الشبان المسلمين عن الشيخ طنطاوى . وقد نشر المقطم الأغر فى عدد مساء السبت ٨ يناير سنة ١٩٣٨ مانصه :

وختم محاضرته بالإشادة بآراء الفيلسوف الشيخ طنطاوى جوهرى فى هذا الموضوع وقال : إنه حضر إلى مصر هذه المرة خصوصا للتشرف بمعرفته شخصياً بعد ماعرفه عن بعد ، وترجم كتابيه « أحلام فى السياسة » ، « أين الانسان » وبين أن الكتاب الأخير يبحث فى أعقد المشكلات العالمية بحثا عجزت أوربا إلى اليوم عن الإتيان بمثله » قال . . « إنى أعلن أن خير كتاب أخرج للناس فى هذا الشأن هو كتاب « أين الإنسان » الذى يرسم للعالم بأسلوب فلسفى عميق ، طريقه المستقيم إلى السلام الدائم الذى رسمه الله فى قوله تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

وكذلك أرسل إليه حضرة صاحب الجلالة رضا شاه بهلوى رسالة بقلم معالى وزير خارجية إيران ، وقد ذهب معالى الوزير المفوض لإيران إلى الشيخ طنطاوى فى منزله وسلمه الخطاب تكريما له ، واعترافا بفضله . وجلالة الامبراطور لم يشكر الأستاذ عفوا بل لقد رفع له تقرير مؤرخ ١٩١٤/٥/٤ عن قيمة كتاب « أحلام فى السياسة » .

ومن الغريب بل من المضحك بل من المحزن أن علماء أوربا يظنون بنا الخير كل الخير ، فهم حين يؤدون فى زعمهم بعض الواجب عليهم نحو الشيخ طنطاوى من تقاريظ لكتبه تنشر فى أمهات المجلات العلمية . ومن ترجمة

لكتبه إلى أكثر من لغة ، يعتقدون أننا نحن المصريين نقدر الشيخ طنطاوى ونحفل به،والقارىء يعرف مقدار هذا الظن الحسن من الصحة وإليك بعض ماجاء فى مجلة العلوم الشرقية للفيلسوف «سانتيلانه» الإيطالى فى سنة ١٩١١ تقريظا لكتاب(أين الإنسان) فقد ابتدأ التقريظ بعبارة يندى لها جبين المصريين المثقفين إذ يقول :

« ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية ( دار العلوم ) فهو ذلك الكاتب النحرير والمحرر الشهير،ذلك الإنسان ذو العقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، تلك الحركة التى ترمى إلى الاستقلال السياسى والإصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى، مشوب بشىء من الإبهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وماجاء به القرآن الكريم ، إلى أن قال « فما دون فى هذا المعنى كتابان جديران بالذكر وهما « نظام العالم والأمم» و « نهضة الأمم وحياتها » .

وآخر ماصدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب «أين الإنسان » ذلك الكتاب الحديث الذى انتشر منذ عهد قريب،وهو الذى أردنا التعريف عنه أخيرا . . ثم قال « والحق يقال ،إنه لعمل جليل عظيم فى قالب اجتماعى سياسى،ليس موجها إلى المصريين فقط بل للعالم كله ؛ لأن المسألة التى يريد حلها هى مسألة العالم بالإجماع » .

وقال فى صفحة ٧٧٣ بعد أن لخص الكتاب مانصه :

هذا كتاب الشيخ طنطاوى جوهرى الذى أردنا أن نوسع له فى مجلتنا

وماهى بالعادة المتبعة لديها ؛ لأن ذلك الكتاب من الكتب العظيمة الدالة فى الوقت الحاضر على مبلغ أفكار شعور الطبقة الراقية الإسلامية » .

وقد كان للشيخ طنطاوى عدة نواح: ناحية إسلامية وطنية . وناحية عالمية اجتماعية ، فقد جاهد فى رفعة شأن الإسلام ، والانتصار لمبادئه . فمن الكتب التى ألفها وأصدرها فى هذه الناحية تفسيره المسمى الجواهر ، إذ بعد أن أحيل إلى المعاش انكب على تفسير القرآن حسبة لوجه الله، ومزج علوم الأمم حديثها وقديمها بالقرآن، رابطا كل ماجد من مختلف النظريات فى مختلف الفنون بمعانى أدبه ، كاشفا عن بعض أسراره .

ويشهد له التاريخ بأنه كان من أخلص أنصار القضية المصرية، ومن العاملين على استقلال البلاد استقلالا لاتشوبه شائبة، فله أناشيد وطنية كانت تردد أيام مؤسس النهضة المصرية مصطفى كامل وقد نشر تباعا فى جريدة اللواء كتابه « نهضة الأمة وحياتها » توجيها للأذهان وبعثا للعزائم .

وقد قدمت إليك ماقاله العلامة « سانتيلانة » معترفا بأن الشيخ طنطاوى من رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية .

وإليك ماجاء فى كتاب مفكرى الإسلام للبارون ( كرادى فو ) فى المجلد الخامس منه تحت عنوان :

وصف إجمالى للنهضة المصرية الحديثة ثم قال :

« وللشيخ طنطاوى جوهرى القدح المعلى نذكره هنا قبل الكلام على كتابه « أين الإنسان » ثم قال « إننا سنبين ثلاثة المظاهر الرئيسية لتطور

مصر الحديث » ثم كتب أمام المظهر الثانى « العناية التى أظهرها رجلان من رجال الدين وهما الشيخ محمد عبده والشيخ طنطاوى فى تمثيل الدين الإسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث » .

رحمه الله رحمة واسعة وعوض دار العلوم خيرا فى فقده .

محمود الطنيخى
مدرس بالخديوية

# نهج التفكير العربي فى الأدب

للأستاذ الدكتور أحمد ضيف

وكيل دار العلوم

---

كانت حياة العربى حياة بسالة وشجاعة ، وحياة نجعة وارتحال تدعوه إلى الدفاع عن نفسه وأهله ، ولم يكن يعنى بشىء عنايته بحفظ كرامته . يعيش عيشة الأبطال ، وعيشة البدو والرعاة : بين جمله وناقته ، وسيفه ورمحه ، بعيداً عن الحضارة وزينتها ، والعلوم وشكوكها ، فكانت حياته أشبه بحياة خيالية شعرية ، تشبه من بعض الوجوه تلك الحياة التى رسمها هوميروس فى أساطيره وسطرها فى قصته المشهورة « بالإلياذة » .

وكانت تلك الحياة يلائمها التحدث عن النفس ، والتغنى بالفضائل ، من كرم وشجاعة ، وعلو فى الهمم ، وفخر بالأحساب . وكان العربى بفطرته فصيحا بليغا ، فتربى لديه ذلك الأسلوب الخطابى ، واتخذ لسانه عدة للإشادة بنفسه وقومه ، ومزج ذلك بتأملاته فى الحياة ، وإلهاماته الفطرية : من حكم ، وأمثال ، وعبر ، ثم بأثر المنظورات فى نفسه ، فكان ذلك هو شعره الجميل ، وأثره البليغ.

كذلك نشأ الفكر العربى فى دائرة محدودة متصلة تمام الاتصال بحياته الفردية ، واستمد كل آرائه منها ، فكانت منبت فكره ، ومورد أخيلته ، ومهبط وعيه النفسى : فى شعره ، وأحاديثه ، وضروب الكلام ، وفنون التعابير ؛ حتى كانت هذه الحياة الخاصة به هى كل الأدب العربى ، الذى يتحدث فيه الشاعر عن ميوله وأهوائه ، وحبه وبغضه ، ووصفه لما يرتسم فى نفسه من مظاهر

الكون وجماله ؛ فتجمعت قوة التفكير لديه فى كل ماله صلة بحياته الفردية ، فتغنى فى شعره بكرم أصله ، وطيب أخلاقه ، وعلو همته ، وقوة شجاعته ، وإخلاصه فى حبه ، وتمدحه بميوله الغرامية فى شيء من الشجاعة وطهارة النفس ، فكانت كل أغراضه فى كلامه الفنى العميق ترمى إلى التحدث بنفسه وقوله ، كما قال السموءل :

تعيرنا أنا قليـــل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

. . . . . .

وقد تكون هذه المعانى وأمثالها مما هو معروف فى شعر العرب : من وصف الحروب والنضال بين الأفراد والقبائل — ليست وصفا لحياة الشاعر وحده ، بل وصفا لحياة قومه وعشيرته ، ممزوجة بحياته الفكرية ، ومحتوية على كل مايجول بخاطره ، ولكنها صورة لنفسه قبل أن تكون صورة لغيره .

وهذه المعلقات وأمثالها من الشعر الجاهلى والإسلامى صورة من هذا الشعر المملوء بالمعانى والأغراض المختلفة فى القصيدة الواحدة التى ترجع كلها: إلى بث روح الشاعر ، ورسم حياته النفسية .

لهذا يمكن القول بأن التفكير العربى فى جملته يدل على نزعة فردية . الغرض منها التحدث عن النفس لا عن الحياة الإنسانية العامة ؛ ولكنه بوصف طبيعته الإنسانية قد يندفع لغير قصد ولا مأرب إلى ذكر بعض معانى الحياة العامة ، ورسم صورها . ولشدة ذكاء العربى وصفاء قريحته ، وقوة شعوره — لانكاد تجد حكمة من الحكم ، أو مثلا من الأمثال ، أو جولة من جولات الفكر الانسانى — إلا منبثا فى طيات كلامه ، وهذا من مميزات الفكر العربى التى جعلت آداب العرب جزءا من التفكير الانسانى العام .

ألست تجد فى كلام زهير هذه النزعة الفلسفية الممزوجة بالشعور الفردى؟

فبينما تراه يدعو إلى المحافظة على النفس والدفاع عنها إذ يقول :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

تراه ينصرف إلى جهة من جهات التفكير العام حين يقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ومثل هذا كثير فى أساليب التفكير العربى ، وهو روح أدب العرب ، ذلك الروح الذى تمشى فى جميع عصور اللغة ، وتغلب على كل نزعة أخرى . وقد بقيت هذه النزعة الفكرية دعامة الأدب العربى .

فلما امتد سلطان الإسلام ، وجاء عصر بنى أمية ـ انتقلت هذه النزعة من ربوع نجد والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ، إلى دمشق وبلاد الشام ، وانصبغت بصبغة إسلامية ؛ لأن الخلاف الذى كان بين القبائل البدوية من أثر البغضاء والعصبية ، ظهر ثانية على ألسنة الشعراء فى لباس دينى سياسى . وكانت حركة الشعر أدل ماتكون على هذه العصبية أو الأطماع السياسية ، كما كانت الكتابة والخطابة صورة لهذه الأطماع والمذاهب التى تدل فى جملتها على النزعة الفردية أو القومية العربية التى لاتدعو غير العرب إلى الاهتمام بها .

أما فى العصر العباسى فكان من لوازم هذا التغيير الذى حصل من نقل العلوم والفنون ، وانتشار الفلسفة ، وظهور المذاهب العقلية والاجتماعية ، وانتقال العرب من حياة بدوية إلى حياة حضرية ـ أن كان لذلك أثر فى الحياة الفكرية والأدبية .

أما فى الحياة الفكرية فسنعرض لما حصل فيها من انقلاب فى وقت آخر . وأما فى الأدبية فنستطيع أن نقول : إن التفكير العربى لم يتغير فى جملته ، ولم يختلف اختلافا كليا عما كان عليه منذ نشأته : من تسلط النزعة الفردية عليه ، والرجوع إلى منبع الفكر العربى من حيث الأخيلة ، والمعانى الجزئية ،

والموضوعات أو الأغراض التى كانت معروفة إذ ذاك ، بل رجع الأدباء — ولاسيما الشعراء — إلى طريقة التعبير التى كانت معروفة ، وإلى الصناعة اللفظية ، وجعلوا الشعر القديم نموذجا لهم ، ومثلا أعلى ينسجون على منواله ، وتقيدوا بكل شىء عربى قديم ، حتى فى طريقة التفكير والخيال التى تختلف باختلاف كل إنسان . فصار الشعر تحدثا عن النفس ، وصناعة متعملة ، وصار الشاعر إذا أحب أو كره ، أو مدح أو ذم — محتذيا نمط العربى فى شعوره وإحساسه .

ولكن هذه النزعة وهذا التمسك بالأسلوب العربى ، حفظ اللغة العربية من الضياع ، وحفظ مافيها من جمال وطلاوة ، وكان صورة تاريخية للفكر العربى البدوى ، ومورداً للكتاب والشعراء يرجعون إليه ، ويمدهم بالمعانى والأخيلة البديعة .

هذا فى الشعر : أما فى النثر فلم تحى فيه روح البداوة حياة طويلة ، ولم تعش فيه هـذه القريحة العربية الخالصة أكثر من قرن ، بل لقد انصبغ بصبغة فكرية جديدة منذ ظهر القرآن الكريم ، فتمشى وراء الأزمان والأيام ، وما يحدث فيها من تقدم وارتقاء فى الحضارة : من علوم ، وفنون ، وحياة اجتماعية وسياسية ؛ لأنه لسان الدهر ، وترجمان الحوادث ، وتكأة العقل البشرى . يتغير بتغير العقول ومايحدث فيها من انقلاب فكرى .

لذلك لم يثبت على حال واحدة : فى موضوعاته ، أو فى أساليبه الصناعية ، أو فى أخيلته ، أو أساليب التفكير فيه ؟

أحمد ضيف

# الزبير بن عبد المطلب بن هاشم

للأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاتى
الأستاذ بدار العلوم سابقا
وكلية اللغة العربية الآن

---

يروى أن معاوية بن أبى سفيان رحمه الله سأل يوما بعض جلسائه من العارفين بالنسب وبيوت العرب عن المنجبات وعن البيوتات ، وحظر عليهم أن يتجاوزوا فى المنجبات ثلاثا وفى البيوتات ثلاثة ، فعدوا فى المنجبات :

(ا) فاطمة بنت الخرشب[1] الأغارية أم الكمَلة من بنى عبس ؛ وهم الربيع الكامل، وعمارة الوهاب ، وقيس الحفاظ، وأنس الفوارس بنو زياد بن عبد الله من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان .

(ب) وخبيئة بنت رياح الغنوية[2] ، وهى أم ربيعة الأحوص ، وخالد الأصبغ ، ومالك الطيان[3] ، وربيعة الجواد بنى جعفر بن كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة.

(ح) وماوية بنت عبد مناة بن مالك بن زيد بن عبد الله بن دارم بن عمرو ابن تميم ، وهى أم لقيط، وحاجب، وعلقمة، ومعبد بنى زرارة بن عدس بن زيد ابن عبد الله بن دارم بن عمرو بن تميم . وكأنهم راعوا ما بين بنى هاشم وبنى أمية ابن عبد شمس من المنافسة ، فلم يعرجوا على من أنجب لهاشم أو بنيه . ولو كنت أنا

---

(١) الخرشب لقب عمرو بن النضر بن حارثة من بنى بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ، والخرشب فى اللغة الرجل الشديد الجافى ، والطويل السمين.

(٢) نسبة إلى غنى بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان . و ( خبيئة ) يصحف فى أكثر الكتب ( حية ) ، ( حبيبة ) وغير ذلك وكله تحريف خاطىء.

(٣) ( الأحوص ) من الحوص وهو صغر العينين وضيقهما . و ( الاصبغ ) لقب به خالد لشامة بيضاء كانت فى مقدمة رأسه ، و ( الطيان ) لقب به مالك لأنه كان طاوي البطن .

المسئول لطمعت فى حلم معاوية وحسن سياسته ولطف مداراته ، فاخترت المنجبات نساء عبد المطلب الثلاث ، وهن :

(ا) نتيلة [١] بنت جناب بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مناة التى ولدت لعبد المطلب ابنيه العباس وضرارا [٢] .

(ب) هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، أم : حمزة ، والمقوم، [٣] وحجل ، وصفية ، أولاد عبد المطلب .

(ح) فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم (الزبير بن عبد المطلب) وأخويه أبى طالب وعبد الله والد رسول الله ﷺ . فإن قالوا : إنهم لا يدعون لمرأة منجبة حتى تنجب ثلاثة — عددت من نساء عبد المطلب الاثنتين الأخريين، فإن أبيت الجمع بين ضرتين آثرت بالذكر واحدة منهما أراها أشرف نسباً وأكرم حسباً ، وأعرق أصلا، وأنجب ولدا ، ألا وهى السيدة فاطمة المخزومية ، فعندى أنها خير المنجبات اللاتى ولدن ثلاثة ( دع عنك بناتها الخمس أخوات هؤلاء السادة الثلاثة ، وهن البيضاء أم حكيم ، وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، وأروى ، لاهضما لحق الجنس اللطيف ولا غمطا لمنزلة هؤلاء السيدات ، ولكن لأن معاوية إنما يريد من أنجبت بنين ، ولأن آثار إخوتهن الثلاثة جد ظاهرة واضحة، وقد

---

(١) نتيلة علم منقول من مصغر نتلة : واحدة النتل وهو بيض النعام كانوا يملئونه ماء فيدفنونه فى المفاوز البعيدة من الماء وذلك فى الشتاء . فاذا سلكوها فى القيظ استثاروا البيض وشربوا مافيها من الماء ، وقال الأزهرى : أصل النتل التقدم والتهيؤ للقدوم فلما تقدموا فى أمر الماء بأن جعلوه فى البيض ودفنوه سمى البيض نتلا — ويصحف بعضهم هذا الاسم بثاء مثلثة ( نثيلة ) وهو خطأ .

(٢) توفى ضرار حدثا قبيل الاسلام .

(٣) كان حجل بن عبد المطلب يلقب الغيداق لسعة خيره وكثرة ماله ، ومات ولم يعقب ، وكذا أخوه المقوم لم يعقب إلا بنتا اسمها هند . و( صفية ) بنت عبد المطلب لم يسلم من عماته صلى الله عليه وسلم على الأرجح سواها ، واختلف فى أختيها عاتكة وأروى . ( وصفية ) هى أم الزبير بن العوام ، وقتل زوجها العوام بن خويلد فى حرب الفجار قبل البعثة وعاشت صفية كثيرا ، وتوفيت سنة عشرين فى خلافة عمر بن الخطاب .

أنجبوا من سلالتهم وذرياتهم من استمر شرفهم وفضلهم مدى الأزمان حتى اليوم ) .

فلئن كان هؤلاء المنجبات اللائى عدهن جلساء معاوية قد ولدن رجالا حفظ التاريخ لهم كثيرا من أعمال البطولة والشجاعة والكرم ، وخلدت صحائفه ذكرهم بما كان من عظيم آثارهم فى الجاهلية - إن لبنى فاطمة بنت عمرو المخزومية أن يفخروا بمثل ذلك وأعظم منه ، بل لقد أربوا عليهم بكثير من المحاسن والمآثر ، وفاقوهم بشتى الفضائل والمناقب ، وأنجبوا ذرية مباركة طيبة طابوا أصولا وفروعا ، وكرموا أعماما وأخوالا ، وأتوا من جلائل الأعمال وعظيم الفعال ، بما كان أثره أعظم وأحسن ، وعاقبته أجل وأشرف من أعمال بنى المنجبات الآخرين ، بل إن لهم لأبين الأثر وأظهر الصنع فى نهضة الأمة العربية وعلو شأنها ورفعة قدرها ، وإن لهم للبلاء الحسن والسعى الحميد المشكور فى هداية الناس إلى دين الله ونصرته وانتشاره ، وفى رقى لغته وعلومها وآدابها حتى كانت الأمة العربية بحق خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله . ولا غرو فى ذلك فكل مفكر منصف فى الناس يقول :

قريش خيار بنى آدم وخير قريش بنو هاشم
وخير بنى هاشم أحمد رسول الإله إلى العالم

ولسنا الآن بصدد التفصيل لحياة كل واحد من بنى عبد المطلب وبناته ، فإن لذلك مجالا فسيحا لا تتسع له هذه الصحيفة ( وسنعنى بذلك إن شاء الله فى رسالة خاصة جامعة ، ونخص من بينهم أبا طالب برسالة أخرى مستقلة نسهب القول فيها ونشرح حياته وماله من أثر فى الدين واللغة والأدب : نثره ونظمه وعسى أن يكون ذلك قريبا بعونه تعالى ) .

وإنما يعنينا الآن القول فى - **الزبير بن عبد المطلب** - فقد كان هو وشقيقه أبو طالب أشعر بنى عبد المطلب ، بل كانا فى عصرهما أشعر بنى هاشم على

قلة الشعراء فيهم [١] وخاصة قبل الإسلام .

كان الزبير بن عبد المطلب أسن أشقائه الثلاثة — وأصغرهم عبدالله والد رسول الله ﷺ اختضر شابا عن نحو ٢٥ سنة وابنه محمد ﷺ جنين فى بطن أمه، وقيل بل كان طفلا فى المهد حديث الولادة ويستدل قائل ذلك برجز منسوب إلى عبد المطلب يوصى ابنه عبد مناف «أباطالب» بمحمد بن أخيه عبدالله وقد حضرت عبد المطلب الوفاة ، هو :

أوصيك يا عبد مناف بعدى بمُوتَم بعـــد أبيـــه فرد

مات أبوه وهو حلف المهد

فرحمة الله على ذلك الشباب النضْر الذى صوح به البلى ، وتلك الحداثة الغضة التى أزوى بهجتها بطن الثرى .

وثلاثتهم — بل بنو عبدالمطلب جميعا — كانوا يزينهم مع شرف البيت وأصالة محتده : جمال الوجوه وصباحتها ، وكرم الأيدى وسماحتها ، وحسن الأخلاق وسجاحتها ، وكلهم كان فى زمنه عديم النظير منقطع القرين، إذا رفعت راية لمجد تلقاها باليمين ، له من طيب العرق وكرم المنصب مايعطر به بأنف شامخ ، وتتناول يداه به الثريا قاعدا غير قائم .

نمته العرانين من هاشم إلى النسب الأصرح الأوضح [٢]

(١) ومن شعراء بنى هاشم من ذرية عبد المطلب أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، وقال أبو عبد الله ابن سلام الجمحى فى طبقات الشعراء : «وأشعار قريش أشعارفيها لين تشكل بعض الاشكال» ثم قال :«والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا» — وقال أيضا «وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام . وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر والحاصل من شعره قليل » .

(٢) ( العرانين ) جمع عرنين وهو السيد الشريف ، والعرنين فى الأصل الأنف أو ماصلب من عظمه و ( النبع ) شجر من أشجار الجبال صلب العود رزينة ثقيلة فى اليد ، كانوا يتخذون منه أجود القسى ويصنعون من أغصانه أحسن السهام . و ( والأبطح ) والبطحاء فى الأصل كل مسيل فيه حصا دقيقة.وبطاح مكة شعب واسع بين أخشبيها ( الأخشبان جبلان هما أبو قبيس وقعيقعان ، وأبو قبيس هو الجبل المشرف على الصفا — وكانت قريش قسمين:قريش البطاح وهم النازلون بين أخشبى مكة . وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج هذا الشعب ، وأكرمهما وأعلاهما شرفا قريش البطاح .

إلى نبعة فرعها فى السماء ومغرسها فى ذرا الأبطح

✡✡✡

ولد الزبير بن عبد المطلب حوالى سنة ٥٣٥ م (فهو أسن من ابن أخيه محمد ﷺ بنحو ٣٥ سنة) ونشأ كإخوته أبناء عبد المطلب بين بطاح مكة وشعابها ينعمون بجاه أبيهم شيخ البطحاء وسيد الوادى غير مدافع، وينمون إلى ذروة المجد والعز من قريش، وربى فى كنف والده، وعزة قومه وشرف أصليه من أسرتى أبيه وأمه، فكان منذ حداثته فتى رماه الله بالخير ناشئا فأحسن لبسه، وزان به نفسه، وشب كما كان يشب أبناء البيوتات الراقية من فتيان قريش وشبانها أولى الفتوة والثروة، وذوى المروءة والقوة والنخوة، والموصوفين بالحماسة والكرم والميل إلى الصبوة، فنهز فى شبابه معهم بدلوهم، وأسام سرح صباه حيث أسام [1] بنو الكرام منهم، بل كان هو قدوتهم وأسوتهم، وموضع التجلة والإكبار بينهم، إذ كان معروفا فيهم أنه الذى جمع المجد من قطريه، وضم من السودد طرفيه، ومن استوفى شرف الأرومة بكرم الأبوة والأمومة، ومجد الخئولة والعمومة. والذى أتاه الله مع عز المحتد والنصاب مزية البلاغة ورقى الآداب، فكان مع شهامته وشدته وشرف نفسه وعلو همته من أمتع الاخوان مجلسا وأطيبهم عشرة، عذب الشمائل، رقيق الطبع، كريم المجالسة، لمن جالسه حسن الخلق لمن جاوره:

كهل الأناة فتى السراة إذا غدا للرّوْع كان القشعم الغِطْريفا [2]

وتقدم فتيان مكة إلى ما كان فى أيامهم موضع فخارهم، وسبق إلى ما كان ميدان فتوتهم وكرمهم، فتمدح بما كانوا يتمدحون به من معاقرة الراح، ومن وصف الندمان والاغتباق والاصطباح، وافتخر بما لاغميزة فيه من شرف

(١) نهز بالدلو فى البئر إذا ضرب بها فى الماء لتمتلىء، والسرح الابل والأنعام يغدى بها ويراح فى المرعى، و(سامت) رعت، وأسامها أرعاها.

(٢) القشعم فى الأصل المسن من الرجال والنسور، أو الضخم المسن منها ويطلق على الأسد لشدته وضخامته، و(الغطريف) السيد الشريف والسخى السرى والشاب الكريم والفتى الجميل الظريف.

آبائه الصيد الكرام ، ومواقفه المحمودة فى ميادين الحروب والخصام، حريصا مع ذلك على العزة القرشية والمكانة الرفيعة الهاشمية، مقتصدا فى لهوه العف البرىء، يربأ بنفسه وبيته أن يجارى بعض من عاصرهم من ذوى الخلاعة الماجنة ؛ فلم يكن مثل امرىء القيس أو طرفة بن العبد مثلا ، بل ولا مثل تربه أبى الطمحان القينى وإن كان نديما له، ولكنه كان ربما أجاب داعى الشباب والصبا :

فراح ثقيل الحلم شهما مرزأ وباكر مملوءا من الراح مترعا (١)

فمن شعره فى ذلك الطور من حياته قوله يصف زق خمر ويمدح نديما له ويثنى عليه :

وأسحمَ من راح العراق مملأ محيطٌ عليه الخيش جلْدُ مرائره (٢)

---

(١) المرزأ هو الرجل الكريم الذى يصيب الناس خيره وينالون منه كثيرا ، وأترع الاناء ملاه حتى فاض .

(٢) ( الأسحم ) زق الخمر سمى به لسواده ، من السحمة والسحم والسحام أى السواد، و(الخيش) نسيج معروف ذو خيوط غلاظ يتخذ من مشاقة الكتان ومن أردئه — والمشاقة ماسقط من نحو الشعر والكتان والقطن عند مشطه أو مشقه أى تسريحه وتخليصه وهى المشاطة أيضا ، و ( جلد ) شديد قوى متين ( مرائر ) جمع مريرة وهى الحبال المفتولة على أكثر من طاق ومالطف من الحبال وطال واشتد فتله — يريد الزبير أن هذا الزق كان كما جاء من عند بائعة ، فهو بغلافه ومايحيط به ويشد عليه لحفظه، فكان الزبير ونديمه أول من فتح أغلاق خاتمه وافتض عذرته وأراق قانئ دمه — وكانوا يطلون زقاق الخمر وجرارها بالقار أو الطين ، وذلك لحفظه ولئلا يرشح بما فيه :

ا — قال القطامى [ عمير بن شييم التغلبى من شعراء العصر الأموى ] يصف جرار خمر .

استودعتها رواقيد مقيرة دكن الظواهر قد برنسن بالطين

مكالحات لحر الشمس قائمة كأنهن نبيط فى ثبابين

[ رواقيد ] جمع راقود وهو الدن الكبير ، أو إناء من خزف مستطيل يطلى داخله بالقار ، وهو لفظ معرب . [ مقيرة ] مدهونة بالقار أو القير و [ دكن ] جمع أدكن من الدكنة وهو لون يقرب إلى السواد و [ الثبابين ] جمع ثبان وهو سراويل صغير يستر العورة ، [ برنسن ] يريد سترن وغطين من الطين بما يشبه البرنس ، وهو كل ثوب رأسه منه ملتزق به .

ب — وقال لبيد بن ربيعة من معلقته .

أغلى السباء بكل أدكن عاتق أوجونة قدحت وفض ختامها

صبحت به طلقا يراح إلى الندى إذا ما انتشى لم يختصمه معاقره[١]

يعنى زقا قد صلح وجاد فى لونه ورائحته لعتقه . وأغلى الشيء اشتراه غاليا ، وسبأ الخمر اشتراها كاستبأها ، ولايقال ذلك إلا فى الخمر خاصة . وراح عتيق و [ عاتق ] جيدة قديمة لم يفض أحد ختامها أو حبست زمانا فى ظرفها ، و [ العاتق ] أيضا الزق الواسع الجيد . و [ الجونة ] الخابية السوداء . و [ قدحت ] غرفت . وقدح القدر إذا غرف مافيها . وقدح ختام الخابية إذا فضه .

جـ — وقال الأخطل :

أناخوا فجروا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا

[ الشاصيات ] جمع شاصية وهى الزقاق من شمى [ كرمى ] وشصا [ كدعا ] اذا انتفخ .

د — وقال الاخطل أيضا .

كمت ثلاثة أحوال بطينتها حتى اذا صرحت من بعد نهدار

آلت إلى النصف من كلفاء أنزعها علج ولثمها بالجفن والغار

لها رداءان نسج العنكبوت وقد حفت بآخر من ليف ومن قار

[ كمت ] جمع كميت وهو الأسود . وجمع على [ فعل ] لتوهم واحد له على وزن [ أفعل ] وإن لم يلفظ به لأن الالوان يغلب فيها هذا البناء ، والكميت اسم للخمر التى فيها سواد وحمرة ، وهو فى الأصل صفة غلبت عليها الاسمية . والاسم من الكميت الكمية لون بين السواد والحمرة . [ صرحت ] الخمر إذا تكشف زبدها وانجلى عنها فخلصت . قال الأعشى .

كميتا تكشف عن حمرة إذا صرحت بعد إزباد

( الكلفاء ) التى اشتدت حمرتها حتى تضرب إلى السواد ، من الكلف لون بين السواد والحمرة وهو الكلفة أيضا فهو أكلف ؛ والكلفاء أيضا من أسماء الخمر ، وأترعها ملأها حتى فاضت ، ( الجفن ) شجر طيب الريح ، وكذا الغار ، ( ولثمها ) يريد شدها وغطاها كأنه جعل لها لثاما ، ولثم الابريق ولثمه إذا شد الفدام — السداد — على بعض رأسه وترك بعضه للنفس — وصدر البيت الثالث كناية عن قدم العهد بالزق .

(١) ( صبحه ) جاءه صباحا ، وسقاه صبوحا ، وراح إلى الشيء يراح وارتاح إليه إذا نشط واهتز له ومرب — ويروى عجز البيت ( لم يحتصره ) أى لم يجده حصيرا أو حصورا أى بخيلا ضيق الصدر ، والحصور أيضا البرم ، وهو من لايدخل مع القوم فى الميسر ولايخرج معهم فيه شيئا ، والحصور الهيوب المحجم عن الشيء .

هـ — وبهذه المعانى يفسر بيت الأخطل من القصيدة التى منها الأبيات السالفة .

وشارب مربح بالكأس نادمنى لا بالحصور ولا فيها بسوار

ضعيف بجنب الكاس قبض بنانه كليل على جلد النديم أظافره(١)

✡✡✡

هذا وقد تقدم وفاة والده ﷺ عبدالله، شقيق الزبير حوالى سنة ٥٧١(٢) وكان من سعد حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية (٣) أن شرفت بإرضاعه وأن كانت له أما، وكانت وسيطة فى بنى سعد كريمة من كرائم قومها، ولبث ﷺ مقيما عندها حتى بلغت سنه المباركة خمس سنوات فعادت به إلى مكة فكان مع أمه آمنة بنت وهب (٤) وجده عبد المطلب، نحو عام واحد، ثم أخذته أمه

---

( السوار ) الذى تسور الخمر برأسه سريعا والسورة أيضا الوثبة و ( مربح بالكأس ) أى يعطى فيها ربحا، وفى معنى بيتى الزبير والأخطل قول الآخر.

إذا صدمتنى الكأس أبدت محاسنى ولم يخش ندمانى أذاى ولا بخلى
ولست بفحاش عليه وإن يسىء وما شكل من آذى ندماه من شكلى

(١) صدر البيت كناية عن الرقة واللطف والكرم والجود، وعن سرعة الشرب وعدم حبس الكاس فى اليد طويلا، وعجزه كناية كذلك عن حسن الخلق والرقة — وعن حسن ملاطفة النديم ورقة معاملته ولطف مداعبته ومزاحه.

(٢) كانت وفاته بالمدينة عند أخواله ( أخوال أبيه ) بنى النجار وكان قد ذهب ليمتار أهله تمر « وذلك فى زمن كسرى أنوشروان ملك الفرس العادل الذى كان حكمه ( من سنة ٥٣١ — ٥٧٩ )م»

(٣) حليمة بنت أبى ذؤيب عبد الله بن الحرث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناضرة بن قصية « تصغير قصاة وهى النواة » بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن. ورأت حليمة ابنها محمدا بعد ذلك مرتين إحداهما بعد تزوجه خديجة رضى الله عنها جاءته تشكو إليه السنة وأن قومها قد أصابهم الجدب فكلم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات. والمرة الثانية يوم حنين — وزوج حليمة أبو النبى من الرضاعة هو الحرث بن عبد العزى من بنى سعد بن بكر بن هوازن أيضا أدرك الاسلام فأسلم وحسن إسلامه. وكذا ابنته الشيماء بنت الحرث السعدية.

(٤) آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى. توفيت بالأبواء موضع بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب — وأرضعته صلى الله عليه وسلم قبل حليمة « ثويبة » جارية عمة أبى لهب. وكان الرسول يعرف لها ذلك ويصلها من المدينة فلما فتح الله له مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح فأخبر أنهما ماتا. وسأل عن قرابتها فلم يجد أحدا منهم حيا.

لتزيره أخوال جده عبد المطلب بالمدينة بنى عدى بن النجار [١] فماتت وهى عائدة به إلى مكة ( وكذا كان شأن زوجها عبدالله من قبل ، فكأنهما كانا تمازج روحيهما واتحاد قلبيهما على موعد ) ولم تتجاوز سنه حينئذ ﷺ ست سنين ، فكان بعد أن استأثر الله بأبويه مع جده عبد المطلب موضع حبه وبره ، ومكان عطفه وحنانه ، وهو فى كل نشأته وجميع أدوار حياته قد صنعه الله على عينه ، وتولى حياطته ورعايته ، وأدبه فأحسن تأديبه وتربيته ، وأنبته نباتا حسنا ، ونشأه تنشئة صالحة مباركة ، وكان فى صباه يتردد على منازل أعمامه وخاصة منزلى عميه الشقيقين : الزبير وأبى طالب ، فكان يلاقى من كليهما الأب الرءوف الرحيم ، ومن زوجيهما الأم العطوف الرءوم ، ومن أولادهما الأخوة الكرام البررة والأصدقاء المخلصين الأوفياء ، وما من هؤلاء جميعا إلا من يكن لمحمد بن عبد الله الحب الخالص والمودة الرحيمة ولسان حاله ينشده

ما أمك اغتالت المنايا كل فؤاد عليك أم

واتفق فى أثناء ذلك أن دخل يوما على عمه الزبير وهو صبى كامل الخلق بهى الطلعة ، مشرق الوجه ، وضاء المحيا ، فلاقاه عمه ووجهه يفيض بشرا ويتهلل سرورا ، وانشرح صدره لهذا الابن النجيب الذى خلفه أخوه عبد الله أصغر أشقائه ، فضمه وهو يبسم إليه ، ومسح بيد العطف والرحمة عليه ، وأجلسه فى حجره وقال هذا الرجز الذى كان فيه صادق الفراسة ذا نظر بعيد ، وفكر سديد ، وذهن ثاقب ورأى صائب ، بل كان فيه نقابا [٢] يحدث عن الغائب ، قال :

محمد بن عبدم عشت بعيش أنعم ودولة ومغنم

---

(١) أم عبد المطلب هى سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار [ تيم الله ] بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج . وهى أيضا أم أخته رقية بنت هاشم .

(٢) النقاب هو الذكى العالم بالامور الخبير بالأشياء الكثير البحث عنها والتنقيب عليها ، شديد الفطنة نافذ الرأى .

فى فرع عزّ أسنم مكرم معظم دام لجيش الأزلم[١]

ثم دخل عليه أخوه لأبيه العباس بن عبد المطلب وهو غلام فى نحو الثامنة من عمره فأقعده فى حجره وقال :

إن أخى العباس عف ذو كرم فيه عن العوراء إن قيلت صمم
يرتاح للمجد ويوفى بالذمم وينحر الكوماء فى اليوم الشبم[٢]
أكرم بأعراقك من خال وعم

وكان العباس أسن من رسول الله ﷺ بنحو ثلاث سنين ، ثم دخل عليه أخوه ضرار بن عبد المطلب وهو أصغر من العباس وشقيقه فقال :

ظنى بمياس ضرار خير ظن أن يشترى الحمد ويغلى بالثمن
ينحر للأضياف ربات السمن ويضرب الكبش إذا البأس ارجحن[٣]

ثم دخلت عليه ابنته أم الحكم وهى صبية صغيرة فقال :

ياحبذا أم الحكم كأنها ريم أحم
يابعلها ماذا يشم ساهم فيها فسهم[٤]

---

(١) عبدم ، زاد الميم فى عبد للتعظيم كما قد تزاد فى ابن لذلك فيقال ابنم ، « أسنم » رفيع عال — ويقال . لا ألقاه لجيش الليالى أى آخرها أو الدهر كله . والأزلم والأزنم الدهر سمى به . لأن البلايا منوطة به والمنايا تابعة له ، وهو فى الأصل اسم للبعير أو ذكر الشاء يقطع طرف أذنه وتترك له زلة أو زنمة تبقى معلقة . وكانوا إنما يفعلون ذلك بكرام الابل ، ومؤنثه زلماء وزنماء ويقال للوعل (على الأصل). وللدهر الشديد الكثير البلايا ( على المجاز ) . الأزلم الجذع . ووصف الدهر بالجذع لأنه باق على حاله لايتغير مع طوله فهو أبدا جذع لايسن . وقال الأخطل يخاطب بشر بن مروان بن الحكم.

يابشر لو لم أكن منكم بمنزلة ألقى على يديه الأزلم الجزع

ويقال أودى به الأزلم الجذع أى أهلكه الدهر ويقال ذلك لما ولى وفات ويئس منه .

وكان بشر بن مروان عاملا لأخيه عبد الملك على العراق وتوفى سنة ٧٤ رحمه الله .

(٢) « الكوماء » الناقة العظيمة السنام . والشبم البرد وشبم الماء « كفرح » برد .

(٣) مياس لقب ضرار والمياس الأسد المتبختر الذى يختال زهوا لقلة اكتراثه بمن يلقاه وكبش القوم زعيمهم وقائدهم ، وأرجحن : ثقل واشتد .

(٤) الريم الظبى ولد الغزال والأحم الشديد سواد المقلتين ، وساهم : راهن . وسهم : غلب وفاز — ويروى : يابعلها حزت الكرم .

ثم دخلت عليه جارية يقال لها أم مغيث فقالت له : مدحت ولدك وبنى أخيك وإخوتك ولم تمدح ابنى مغيثا فقال : على به ، فجاءت به ، فقال :

وإن ظنى بمغيث إن كبر أن يسرق الحج إذا الحج كثر
وينهب الأزواد من بر وتمر ويوقر الأعيار من قرف الشجر
ويأمر العبد بليل يعتذر ميراث شيخ عاش دهرا غير حر (١)

***

ولينظر القارىء تلك الأراجيز التى ارتجلها الزبير ارتجالا وليعجب بدعابته الجادة وبجده المازح وليستجل منها عواطفه الشريفة الرقيقة ، ويستشف منها أخوته العاطفة الشفيقة ، وأبوته الحانية الرفيقة ، وسيادته المتواضعة الضاحكة غير العابسة ، ذات الفكاهة الحلوة والنكتة المستملحة ، تطيب نفس المولى منها بحسن الحديث ولطف المؤانسة ، ولقد اختص ابن الجارية مغيثا باطول أراجيزه حتى يرضى أمه ، وقد وصف ابنها بما نعته به وما تفرسه فيه مما هو أهل له . ومن هذه الأراجيز التى جاءت عفو الخاطر ووحى البديهة وإملاء القريحة تدرف بديهته الحاضرة المواتية ، وقريحته الوقادة الذكية ، وخاطره السريع الوثاب ، وبلاغته التى لا تكلف فيها ولا إجهاد طبع ، وتبدو خفة روحه العذبة اللعوب ، ونفسه الكريمة المرحة الطروب .

والآن ودع الزبير بن عبد المطلب سنيه الأربعين وقد بلغ أشده واستوى ، وصدف عن اللهو والصبا ، ونهى النفس عن الهوى وإن كان فى شبابه لعف الإزار ، شريف النفس ، ما عرفت العرب عنه ريبة وما علم أحد عليه من سوء .

---

(٤) أوقر الاعيار أى حملها . الاوقار جمع وقر وهو الحمل . وقرف الشجر قشره وكانوا يأكلونه زمن القحط والجدب . و « يعتذر » هنا بمعنى يصنع عذيرة وهى طعام من أطعمة الاعراب ويروى « يمتدر » أى يمدر حوضه بالطين حتى لا يشرب منه أحد . ومنه اسم « مادر » الذى يضرب به المثل فى البخل . وهو رجل من بنى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . وفيه قيل :

لقد جللت خزيا هلال بن عامر بنى عامر طرا بسلحة مادر
فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها بنى عامر أنتم شرار المعاشر

فيجوز أن يكون [ يعتذر ] هنا من عذر الشىء لطخه بالعذرة كما صنع مادر .

لا تألف الفحشاء برديه ولا يسرى إليه مع الظلام المأثم

ولما دخل فى سن الكهولة زمان العقل والحكمة وإبان الفكر والروية والتجربة ـ كان شعره حكيما جادا يلقى به على الناس النصيحة والعبرة، ويصوغ فيه الحكمة والموعظة الحسنة. ثم كان الزبير فى كل أطوار حياته الشجاع الصنديد الذى لا ينثنى عن قرنه، والفارس الجرىء الذى لا يكهم [1] سيفه.

رفيق بداء الحرب، طب بصعبها إذا شت رأى القوم فهو جميع

وهو الحمى الأنف الذى يعز جاره، والأبى النفس الذى لا يهضم حقه ولا يغمز جانبه، يحمى ذماره وينصر مولاه، ويذود عنه بلسانه وسيفه ويحفظه ويرعاه، ويتغطى بظل جناحيه من أوى إليه والتجأ إلى حماه:

عطوف على المولى ثقيل على العدا أصم عن العوراء وهو سميع

وكانت قريش إذا سافرت فصارت على العقبة لم يتجاوزها أحد حتى تجوز قريش، فخرج حرب بن أمية بن عبد شمس ليلة، فلما صار على العقبة لقيه رجل تميمى من بنى حاجب بن زرارة، فتنحنح حرب وقال: أنا حرب بن أمية، فتنحنح التميمى وقال: أنا ابن حاجب بن زرارة، فجاز العقبة، فقال حرب: لاها الله [2]

---

(١) السيف الكهام والكهيم هو الكليل لا يؤثر فى الضريبة. وكهمته الشدائد إذا جبنته عن الاقدام ونكصته، ورجل كهام وكهيم أى عى ثقيل بطىء لاغناء عنده ولا خير فيه.

(٢) قد يقسم «بها» فيقال: لاها الله مافعلت (أبدلت الهاء من الواو) ويجوز حذف ألفها فيقال هالله ما كذبت — و «الثنية» فى الأصل كل عقبة فى الجبل مسلوكة (والعقبة الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه) و «العقبة» هنا بين مكة ومنى بينها وبين مكة نحو ميلين ومنها ترمى جمرة العقبة — وحاجب بن زرارة تقدم ذكره وهو جاهلى قديم وابنه عطارد بن حاجب كان سيدا فى قومه (ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع فى طائفة من وجوه بنى غنيم فأسلموا) ومحمد بن عمير بن عطارد كان كاتبا لعبد الملك بن بشر بن مروان (وكان معاصرا الفرزدق وجريرا وكان يتعصب للفرزدق لأنه تميمى منهم وينصره ويبذل من ماله وجاهه لتفضيله والذود عنه (ومن ولده أبو عمرو أحمد بن عبد الجبار ابن محمد بن عمير بن عطارد كان محدثا ثقة نبيلا نشأ بالكوفة وحدث ببغداد) وكان مولده سنة ١٧٧ وتوفى سنة ٢٧٢

لاتدخل مكة بعدها وأنا حى ، فمكث التميمى حينا لايدخل مكة وكان متجره بها ، فاستشار بمن يستجير من حرب ، فأشير عليه بعبد المطلب أو بابنه الزبير ، فركب ناقته وسار إلى مكة ليلا ، فدخلها وأناخ ناقته بباب الزبير بن عبد المطلب فرغت الناقة ، فخرج إليه الزبير وهو يقول : أمستجير فتجار ، أم طالب قرى فتقرى ؟ فقال التميمى :

لاقيت حربا بالثنية مقبلا ... والليل أبلج نوره للسارى
فعلا بصوت واكتنى ليروعنى ... ودعابد عوة معلن وشعار[1]
فتركته خلفى وجزت أمامه ... وكذاك كنت أكون فى الأسفار
فمضى يهددنى ويمنع مكة ... أن لا أحل بها بدار قرار
فتركته كالكلب ينبح وحده ... وأتيت قرم مكارم ونخار
ليثا هزبرا يستجار بقربه ... رحب المباءة مكرما للجار[2]
وحلفت بالبيت العتيق وحجه ... وبزمزم والحجر والأستار
إن الزبير لمانعى بمهند ... صافى الحديدة صارم بتار

فأجاره الزبير على حرب بن أمية ، فلما رأى حرب التميمى بمكة أراد طرده ، فعز على الزبير أن يعتدى حرب على من أجاره وهو يعرف أن ظلم الجار إذلال المجير ، فأهانه الزبير مع أنه كان صاحب أبيه ونديمه ، وخرج بكره عن سجيته ، وكأنه كان يقول لحرب بن أمية :

قد كنت تعرف منى فى الرضا رجلا ... حلو المذاقة فاعرفنى لدى الغضب

وأرغمه على ترك التميمى والأعراض عنه وعدم التعرض له . وكان مع

(١) أعلن مافى نفسه أظهره ويستعمل كثيرا فى المجاهرة بالعداء والجهر بقول السوء ، والشعار العلامة فى الحرب وغيرها

(٢) القرم السيد المعظم المهيب ، وهو فى الأصل الفحل من الابل لايهان ، والمباءة المنزل و « رحب المباءة » كناية عن الكرم والسعة .

الزبير فى ذلك اليوم أخوه الغيداق ، ولولا أن حرب بن أمية لاذ بأبيهما عبد المطلب وقصده فى داره مستجيرا به ماسلم منهما ولناله منهما أذى .

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة هاجت حرب الفجار المشهورة بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان ( ولم يكن لقريش فى أولها مدخل ثم تحققت بها ) وسميت الفجار بما استحل هذا من الحيان قيس وكنانة فيه من المحارم بينهم فقد أحلوا الشهر الحرام ( ذا القعدة ) وقاتلوا فيه ففجروا ـ وكان الزبير بن عبد المطلب رئيس بنى هاشم وبنى المطلب بن عبد مناف فى هذه الحروب وأبلى فيها بلاء حسناء ، وكانت حرب الفجار فى أربعة أعوام متتاليات من نحو سنة ٥٨٦ ـــ سنة ٥٩٠ م ، ثم تداعوا بعدها للصلح وجنحوا للسلم على أن يتعاهدوا ويتواثقوا ، فاصطلحوا وتراضوا (١) .

والزبير هو أول من تكلم فى حلف الفضول ودعا إليه ، وذلك بعد حرب الفجار بنحو أربعة أشهر ، وسببه أن العرب لشدة تعظيمها الحرم كانوا يؤمنون

---

(١) وشهد صلى الله عليه وسلم أكثر أيام الفجار مع عمه الزبير ، وفى ذلك يقول :

شهدت حرب الفجار وأنا غـــلام فكنت أنبل على عمومتى

( أى يناولهم النبل ويرد عنهم نبل عدوهم اذا رموهم بها ) وكان صلى الله عليه وسلم لايصير مع عمه فى فئة الا انهزم من يحاذيها ويقال إنه لم يشهد الفجار من بنى هاشم سوى الزبير بن عبد المطلب ، وأثبت كثير من المؤرخين حضور أبى طالب مع ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم فى بعض هذه الأيام ، وقال فى الاغانى : وزعم قوم من قريش أن أبا طالب وحمزة والعباس بنى عبد المطلب شهدوا هذه الحروب ولم ير ذلك أهل العلم بأخبار العرب اهـــ وسئل صلى الله عليه وسلم عن مشهده يومئذ فقال ماسرنى أنى لم أشهده أنهم تعدوا على قومى ) وذلك أن بنى عامر بن صعصعة طالبوا أهل الحرم من قريش وكنانة بجزيرة غيرهم وأتوهم الى حرمهم يلزمونهم ذنب سواهم فدافعوا عن أموالهم وذراريهم وعن أنفسهم . والفاجر لايكون المسعى عليه ولذلك أشهد الله نبيه ذلك الموقف وبه نصروا وإن لم يقاتل مع أعمامه بل إنما كان ينبل عليهم وقد كان بلغ سن القتال فلم يقاتل لأنها كانت حرب فجار وكانوا أيضا كلهم كفارا ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العليا ـــ وجرح فى هذه الحروب حرب بن أمية ثم لم يلبث بعدها طويلا حتى مات .

ساكنه واللاجىء إليه محسنا أو مسيئا حتى أدى ذلك إلى عدوان بعض الطغاة من صناديد مكة على كثير ممن كان يفد إليها حاجا أو معتمرا أو تاجرا ، فلما تكررت هذه الحوادث اهتم لها الزبير وقال مالهذا متترك ، وحلف ليعقدن حلفا بينه وبين بطون من قريش يمنعون به القوى من ظلم الضعيف والقاطن من هضم الغريب الوافد ، ومما قاله فى ذلك :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

فاستجاب له العقلاء من قريش بعد أن فكروا فى الأمر وأجالوا الرأى فيما بينهم ورأوا أنه إن لم يوضع حد لحرمة من بالحرم خيف أن تنتهك حرمته ، ويجترىء عليه من ينتهز فرصة الأمن فيه من ذوى الترات الحاقدة والآراء الطائشة الجامحة ، وممن يعتد فى الباطل بجاهه وقوته ، ويعتز فى غير حق بنعرته وعصبيته ، ومن يزين له الغرور والصلف سوء عمله ، ويجر فى البغى والضلال رسنه وقد يكون ذلك سببا فى الاعتداء على سكان البلد الحرام ، وأن ترتكب فيه المظالم والآثام ولا يطمئن فى ربوعه الأمن والسلام ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة وتعاقدوا وتحالفوا على نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم وإنصاف القوى من الضعيف ، وأقسموا بالله جهد أيمانهم ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على من بغى عليه فكان فى الحقيقة حلفا اجتماعيا سياسيا دينيا ، بل كان أكرم حلف سمع به وأشرفه فى العرب وأحسن عقد عقدته قريش فى قديمها وحديثها قبل الإسلام . وفيه يقول الزبير بن عبد المطلب أيضاً :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجار والمعتز فيهم سالم

ولقد شرف النبي ﷺ اجتماعهم هذا بحضوره وهو شاب، وأثنى عليه بعد مبعثه ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء لهم العدد والعارضة، وحجة القوة الغاشمة الداحضة، من مثل العاصي بن وائل السهمي وبعض قومه من بني سهم، ومثل أبي بن خلف الجمحي الذي قتل يوم بدر مشركا.

هذا وكان أبو الطحمان[1] القيني (حنظلة بن الشرقي أحد بني القين بن جسر من قضاعة) تربا للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ونديما له، وكان أبو الطمحان شاعرا بليغا وفارسا ضاريا صعلوكا فكان الزبير يقبله على علاته ويجني ثمرات أدبه وبلاغته، ويشذب من أطراف أخلاقه وعرامته[2]، ويسمع الجيد من شعره ومدائحه، ويسدي إليه كرائم أمواله ونصائحه، وكان الزبير جوادا سمحا قد بوأ بيته في معلم واضح، لا يخفى على الغادي والرائح يؤم ساحته الفسيحة ومباءته الرحبة من أجدب بهم الجناب، ونبا بهم المكان وأحزن بهم المنزل، ويقصده العفاة فيجدون منه رافدا معينا واسع المعروف، وتعفوه الأضياف فيحتفل لقراهم، ويكرم وفادتهم ويحسن مثواهم، فوفد عليه أبو الطمحان مرة. وطال مقامه لديه فاستأذنه في الرجوع إلى أهله وشكا إليه شديد شوقه إليهم فلم يأذن له، وسأله المقام. فأقام عنده مدة أخرى، ثم أتاه يوما فأنشده:

الا حنت المرقال وائتب دبها تذكّر أوطانا وأذكر معشرى[3]
ولو عرفت صرف البيوع لسرّها بمكة أن تبتاع حِمْضا بأذخر[4]

(١) أبو الطمحان هذا شاعر مخضرم مقل مجيد وله شعر مطبوع مختار وأدرك الاسلام وأسلم ولكنه لم يكن متين الدين لانه لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينله شرف صحابته، وعمر طويلا.

(٢) العرامة والعرام الشراسة والشدة والأذى، و [عرم] الرجل كنصر وضرب وكرم وعلم أشتد.

(٣) المرقال اسم لناقة وهو من أرقل إذا أسرع وأب إلى وطنه يؤب وائتب إذا اشتاق ونزع إلى وطنه، وأب وائتب إذا تهيأ للذهاب وعزم عليه وتجهز

(٤) الحمض ماملح وأمر من النبات، والأذخر نوع من الحشيش الأخضر طيب الرائحة كان يكثر بمكة والبيت كناية عن شدة حنين الناقة إلى الارتحال وتغيير المرعى مع طيبها وجودتها.

أسرّك لو أنا بجَنْبي عَنيزة وحمص وضُمران الجناب وصفر[١]
إذا شاء راعيها استقى من وقيعة كعين الغراب صفوها لم يكدر[٢]

فلما سمع الزبير هذ الأبيات عرف شدة حنينه فأذن له أن ينصرف.

وكان مما تنكره قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضا ، فاتفق أن عبد الله بن الزبعرى[٣] السهمى ( وكان فى الجاهلية قبل إسلامه هجاء جريئا مغرى بأثارة الفتنة ) هجا يوما بنى قصى بشعر كتبه فى أستار الكعبة أو على باب الندوة ، يقول فيه :

ألهى قُصَيّا عن المجد الأساطير ومشية مثل ما تمشى السّفاسير[٤]
وأكلها اللحم بَحْتا لا خليط له وقولها رحلت عِير أتتْ عِير

فأنكر الناس ذلك وعرفوا أن قائله هو ابن الزبعرى ، فأرسل بنو هاشم عتبةَ بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف[٥] إلى بنى سهم فقال لهم : إن قومكم

---

(١) هذه كلها أسماء أماكن يود الشاعر أن يراها بعد طول بعده عنها .

(٢) الوقيعة المكان الصلب الذى يمسك الماء ، ونقرة فى جبل أو سهل فى متن حجر يستنقع فيها الماء فيكون أصفى وأعذب قال ذو الرمة :

ونلنا سقاطا من حديث كأنه جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع

(٣) عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى السهمى كان من أشعر قريش ، وكان قبل إسلامه من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه بلسانه ونفسه وكان يناضل عن قريش ويهاجى المسلمين ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاد وصدق فيه [والزبعرى] فى اللغة الشكس السيء الخلق والغليظ الضخم .

(٤) [ السفاسير ] جمع سفسير ، وهو حامل البريد المسرع يحمل الاخبار من بلد إلى بلد ، ويطلق على الخادم والتابع ونحوهما وهو لفظ معرب .

(٥) كان عتبة بن ربيعة فى الجاهلية كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، وكان سديد الرأى عاقلا ، ولكنه لما دعاه الاسلام إلى الله تعالى أفن رأيه وغوى بغواية قومه حتى قتل هو وأخوه شيبة وابنه الوليد كافرين يوم بدر — وكان ابنه أبو حذيفة رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام ومن فضلاء الصحابة

قد كرهوا أن يعجلوا عليكم فأرسلونى إليكم فى هذا السفيه الذى هجاهم فى غير ذنب اجترموا إليه ، فإن كان ماصنع عن رأيكم فبئس الرأى رأيكم ، وإن كان غير رأيكم فادفعوه إليهم ، فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون ذلك عن رأينا ، قال عتبة : فادفعوه إذن إليهم ، فقال بعض بنى سهم إن شئتم فعلنا على أن من هجانا منكم أسلمتموه إلينا ، فقال عتبة : مايمنعنى أن أقول ماتقول إلا أن الزّبير بن عبد المطلب غائب بالطائف ( أو باليمن ) وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول ، ولم أكن لأجعل الزبير خَطَرا[1] لابن الزِّبَعْرَى،فقال قائل منهم : أيّها القوم أدفعوه إليهم ، فلعمرى إن لكم مثل الذى عليكم ، فكثر فى ذلك الكلام واللغط ، فلما رأى العاصى بن وائل[2] أنّ الأمر ربما استفحل ( وكان فى زمنه زعيمَ بنى سهم ) دعا برُمّة فأوثق بها عبد الله بن الزبعرى ودفعه إلى عتبة ، فأقبل به مربوطا حتى وافى قومه ، فاستغاث ابنُ الزبعرى بنى سهم قبيلته فلم يغيثوه إبقاء على مودة بنى هاشم وغضبا على من تعدى حدود قريش قال منها بلسانه ، فجعل يمدح قُصَيّا ويسترضيهم حتى عفوا عنه ، ومما مدحهم به قوله:

كانت قريش بيضةً فتفلقت فالمُحّ خالصة لعبد مناف[3]

---

وقتل شهيدا يوم اليمامة سنة ١٢ عن نحو ٥٤ سنة ، وابنه محمد بن أبى حذيفة كان له شأن بمصر أيام عثمان حتى قتل سنة ٣٦ — وشيبة بن عتبة بن ربيعة أسلم يوم الفتح وكان من زهاد الصحابة وتابعيهم وتوفى زمن معاوية — وهند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة كانت من المهاجرات الأول ومن أفضل أيامى قريش

(١) الخطر المثل فى العلو ورفعة القدر ، ولايكون فى الخسيس والشىء الدون — وكذا [خطير] أى مثل وعدل ونظير .

(٢) العاصى بن وائل بن سعيد بن سهم [ والد سيدنا عمرو بن العاص ] كان من سادات قريش وأعيانها وحكامها ومن ذوى القدر والمكانة فيها ولم يوفق للاسلام كابنه بل كان أحد المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم المكاشفين له بالعداوة والأذى ، توفى بمكة قبل الهجرة ، وكفى الله رسوله شره .

(٣) ويروى [ فتفقأت ] والمح جوهر البيضة الاصفر ، ومح كل شىء خالصه .

الخالطين فقيرهم بغنيهم والظاعنين لرحلة الإيلاف
والرائشين وليس يوجد رائش والقائلين هلم للأضياف(١)
عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف(٢)

فأكرمه بنو عبد المطلب وأطلقه حمزة وكساه ، ثم أغرى ابن الزبعرى أناس من قريش بقومه بنى سهم وقالوا له اهجهم كما أسلموك فقال :

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتى وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فود جناة الشر أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لانشيمها
فيقطع ذو الصهر القريب ويتركوا غماغم منها إذ أجد بريمها(٣)
فان قصيا أهل مجد وثروة وأهل فعال لايرام قديمها
هم منعوا يوم عكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها(٤)

---

(١) راش الكريم الرجل أطعمه وسقاه وكساه ، وراشه أعانه وقواه وساعده على معاشه وأصلح حاله ونفعه ، وأصله من الريش كأن الفقير المملق والضعيف طائر مقصوص جناحاه فلا نهوض له،ويقال فلان لايريش ولايبرى ) أى لاينفع ولا يضر .

(٢) عمرو العلا هو هاشم بن عبد مناف ، وأسنتوا إذا قحطوا وأجدبوا ، وهو من [ السنة ] وهى القحط قلبوا الواو تاء ليفرقوا بينه وبين قولهم أسنى القوم إذا أقاموا سنة فى موضع ، و [ عجاف ] جمع أعجف وعجفاء من العجف وهو الهزال وذهاب السمن لسوء الغذاء من الجهد وشدة الحال — ويروى أن هاشما كان يستعين على إطعام الحاج بقريش فيرفدونه بأموالهم ويعينونه ، ثم جاءت أزمة شديدة فكره أن أن يكلفهم أمر الرفادة فاحتمل إلى الشام بجميع ماله واشترى به كعكا ودقيقا ثم أتى الموسم فهشم ذلك كله وصنع به طعاما للحاج.وتوفى هاشم فى أواخر القرن الخامس الميلادى بمدينة غزة وكان قد خرج إلى الشام تاجرا ولم تتجاوز سنه زهاء ثلاثين سنة .

(٣) شام السيف أغمده ، و [الغماغم] جمع غمغمة وهى أصوات الابطال فى الوغى عند القتال ، و [ البريم ] لفيف القوم وأخلاطهم ، واللفيف أيضا الجيش لأن فيه أخلاطا من الناس ، أو لالوان شعار القبائل فيه أى راياتهم ذوات الألوان المختلفة .

(٤) يوما عكاظ من أيام حرب الفجار ، و [ الشول ] جمع شائل وهى الناقة التى تشول بذنبها للقاح ، أو جمع شائلة وهى من الابل ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر أو ثمانية لخف لبنها وارتفع

وإن كان هيج قدموا فتقدموا وهل يمنع المخزاة إلا حميمها (١)

محاشيد للمغزى سراع إلى الندى مرازبة غلب رزان حلومها (٢)

فلما قدم الزبير بن عبد المطلب من سفره وبلغه ما كان من ابن الزبعرى وقومه قال يفخر بقومه ويعرض ببنى سهم وبعض قبائل أخرى ويتوعد ابن الزبعرى ويتهدده إن لم يقلع عن غيه :

قومى بنو عبد مناف إذا أظلم ماحولى بالجندل

لا أسد ـ لن يسلمونى ولا تيم ولا زهرة للنيطل (٣)

ولا بنو الحرث إن مر بى يوم من الأيام لاينجلى

يأيها الشاتم قومى ولا حق له عندهم أقبل

إنى لهم جار لئن أنت لم تقصر عن الباطل أو تعدل

وقال فى ذلك أيضا :

ولولا الحبش لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا (٤)

---

ضرعها ولم يبق به الاثشول أى بقيه من اللبن ، و ( الهجان ) من الابل البيض الكرام ، الهجان الخيار الخلص من كل شىء ، ( القروم ) جمع قرم وهو الفحل الذى يعفى من الركوب والعمل ويودع للفحلة والقرم من الرجال السيد المعظم .

(١) الهيج والهيجاء الحرب ، والحميم بالحاجة الكلف بها والمهتم لها الذى يعنيه شأنها قال الشاعر :

عليها فتى لم يجعل النوم همه ولا يدرك الحاجات الا حميمها

(٢) محاشيد جمع محشود وهو من عنده حشد أى جمع من الناس ، و ( المقرى ) من القرى وهو إكرام الضيف ، وما يقدم إليه ، والمرازبة جمع مرزبان وهوالرئيس والفارس الشجاع . ( الغلب ) جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة يوصف به الاسد أو جمع غلباء وهى القبيلة العزيزة الممتنعة .

(٥) الجندل موضع . و ( النيطل ) الداهية والموت والهلاك .

(٦) فى المراجع : ولولا ( الحمس ) ولكن قال ابن سلام إن الصحيح ولولا الحبش وهم الاحباش وذلك لانهم أخذوا ثيابهم ومتاعهم حين جاءوا يريدون هدم البيت فرماهم الله — و ( الحمس ) لقب قريش جمع أحمس وهو القوى الشديد الذي صلب وتشدد فى قتاله ودينه .

ثيابهم شمال أو عباء بها دنس كما دنس الحميت[١]
ولكنا خلقنا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الفتيت[٢]
وصبر فى المواطن كل يوم إذا خفت من الفزع البيوت
وكأس لو تبين لها كلاما لقالت إننى لهم سبيت
تبين لنا القذى إن كان فيها رصين الحلم يشربها هبيت[٣]
ويقطع نخوة المختال عنا رقاق الحد ضربته صموت
بكف مجرب لاعيب فيه إذا لقى الكريهة يستميت
وأفسد بطن مكة بعد أنس قراضبة كانهم اللصوت[٤]

ولما حضر عبدَ المطلب الموت جمع بنيه وأوصاهم رسول الله ﷺ وكان قد أتم الثامنة من عمره ، فاقترع عماه الشقيقان الزبير وعبد المطلب وألقيا أقلامهما[٥] أيهما يكفل محمد بن عبد الله ، فأصابت القرعة أبا طالب ونال بذلك الحظ الأوفر ، فضمه إليه مسرورا بحوز النجح وفوز القِدْح ، وكان أبو طالب مشهورا بشدة العطف على أولى رحمه وصلتهم وفيه قيل من قصيدة مدح بها عبد المطلب وبنوه :

---

(١) الشمال جمع شملة مئزر من صوف أو شعر يؤزر به ، ( الحميت ) وعاء السمن والزيت ونحوهما

(٢) الحبرة ضرب من البرود ثمين ذو نقش ووشى كان يأتى من اليمن .

(٣) الهبيت الذاهب العقل والأحمق ويروى البيت :

تريك قذى بها إن كان فيها بعيد النوم تشوتها هبيت

فيكون هبيت بمعنى هابت يعنى أن نشوتها شيء يهبت أى يحمق ويحيرشاربها فيسكن وينام (والهبت) أيضا اللين والاسترخاء . الضربة الصموت التى تمر فى العظام ولاتنبو عن عظم .

(٤) القراضبة الصعاليك والفقراء جمع قرضوب . ويطلق على اللصوص أيضا . و ( اللصوت ) جمع لصت وهو اللص فى لغة طيء وهم الذين يقولون فى نحره للطس ( طست ) .

(٥) القلم هنا بمعنى الزكم واحد الأزلام التى كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية ، وهي سهام لاريش عليها :

وعبد مناف ماجـــد ذو حفيظة وصول لذى القربى رحيم لذى الصِّهْر

ومع هذا كان ﷺ يزور بيت عمه الزبير كثيرا فيجد من البر والمودة ومن العطف والحنو والشفقة ماجعله يدعو زوج عمه الزبير أمه، ويدعو ابنها عبد الله (ابن أمىّ).

ومن شِعْر الزبير (وفى كل بيت منه حكمة ناصحة ونصيحة حكيمة).

اذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولاتوصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولاتعصه

ولاتنطق الدهر فى مجلس حديثا إذا أنت لم تُحْصه(١)

ونص الحديث إلى أهـــله فإنّ الوثيقة فى نَصّه(٢)

وذا الحق لاتنتقص حقه فإنّ القطيعة فى نقصه

وإن ناصح عنك يوما نأى فلا تَنْأ عنه ولا تُقصْه

وكم من فتى عازب عقـــله وقد تعجب العين من شخصه

وآخر تحسبه جاهـــلا ويأتيك بالأمر من فصّه(٣)

وقد ينسب بعض الرواة شيئا من هذه الأبيات إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، ولكن الثقات ينسبون الأبيات كلها إلى الزبير ابن عبد المطلب، ولكنها توجد مفرّقة فى كثير من كتب الأدب غير مجتمعة وممن نص على أنها للزبير أبو هلال حسن بن عبد الله العسكرى المعرف توفى سنة ٣٩٥، فى كتابه (جمهرة الأمثال) عند كلامه على المثل (أرسل حكيما ولاتوصه) فقال: المثل للزبير بن عبد المطلب فى أبيات له معروفة، وأتى

(١) أحصاه بمعنى عقله وتدبر معناه وفكر فيه.

(٢) نص الحديث رفعه وأسنده إلى قائله، والوثيقة فى الامر احكامه والاخذ فيه بالثقة؛ قال الكميت يمدح مخلد بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة:

وخلائق منه إلى جميلة فى حســـبى ونعم وثيقة المستوثق

(٣) فص الامر مفصله أى مخبره وحقيقته وأصله، أى أنه يفصله لك ويوضحه ويقفك على حقيقته ويأتى به من موضعه الذى خرج منه.

منها بخمسة أبيات ، ثم قال : فهذا قول الزبير ، وقال غيره : إذا أرسلته ولم توصه ولم تعرفه فى نفسك وما تحتاج إليه فى حوائجك وكلفته أن يبلغ مرادك فيها فقد سمته إلى علم الغيب ، والصحيح أن يقال أرسل حكيما وأوصه ، كما قال الشاعر :

إذا أرسلت فى أمر رسولا فأفهمه وأرسله حكيما

وقال الحكماء : ( الرسول دليل عقل مرسله ) اه .

وأقول ليس غرض الزبير ترك الوصية وإفهام الرسول الحاجة وتبليغه المراد ، بل يريد أنه لحكمته وعقله وحسن اختياره ليس فى حاجة أن يوصى ببذل الجهد فى الظفر ولطف الاحتيال وحسن التصرف لإنجاز الحاجة والنجاح فيها — ثم أظن أن قافية البيت الذى أتى به مغيرة وهو من أبيات لأبى الأسود الدؤلى وهى :

إذا أرسلت فى أمر رسولا فأفهمه وأرسله أديبا
ولا تترك وصيته بشىء وإن هو كان ذا عقل أريبا
فإن ضيعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن علم الغيوبا

وقال آخر :

تخير إذا ما كنت فى الأمر مرسلا فمبلغ آراء الرجال رسولها
وردّد وفكر فى الكتاب فإنما بأطراف أقلام الرجال عقولها

وقال آخر وأصاب ( إلا إذا أراد الحث على الرشوة فإن ذلك جناية وليست على تبعتها ) :

إذا كنت فى حاجة مرسلا وأنت بأنجازها مغرم
فأرسل حكيما ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

وقد قالوا : رسولك أنت إلا أنه إنسان آخر — وقال على بن أبى طالب رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ماينطق عنك .

ويروى أن قريشا لما أرادت بناء الكعبة حوالى سنة ٦٠٥ م قبل البعثة النبوية بنحو خمس سنين كانوا يهابون ذلك ويزعمون أنه كان بها حية فظيعة تخرج من بئر الكعبة التى كانت يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرق[١] على جدار الكعبة ، فلا يدنو أحد من بئرها إلا احزألت[٢] وكشت بصوتها وفتحت فاها ، فكان ذلك مما يهابونه أيضا فيقال إنها بيناهى ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائرا ( العقاب ) فاختطفها وذهب بها ، فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، وصحت نيتهم على هدمها وإعادة بنائها وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك بعد أن تم البناء :

عجبت لما تصوبت العقاب ... إلى الثعبان وهى لها اضطراب[٣]
وقد كانت يكون لها كشيش ... وأحيانا يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت ... تهيبنا البناء وقد نهاب
فلما أن خشينا الزجر جاءت ... عقاب تتلئب لها انصباب[٤]
فضمتها إليها ثم خلت ... لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه ... وليس على مسوينا ثياب[٥]

(١) تشرق قعد فى موضع تشرق عليه الشمس .

(٢) احزألت : رفعت ذنبها ، وكشيش الأفعى صوت جلدها إذا حكت بعضها ببعض .

(٣) التصوب الانحدار والانقضاض من علو إلى سفال .

(٤) تتلئب أى تقصد ، وائتلأب على طريقته إذا لم يعرج يمنة ولا يسرة ، وكأنه منحوت من أصلين [ تلا ] إذا تبع ، [ ألب ] إذا أقام ، أو [ أب ] فهو قريب من هذا المعنى ، يقال أب أبابة إذا استقام وتهيأ فكأنه مستقيم مستمر على ما يتلوه ويتبعه مما هو بسبيله ، والاسم من ائتلأب [ التلا ئبة ] على وزن الطمأنينة والقشعريرة .

(٥) يريد مسوى البنيان ، ويروى [ على مساوينا ] وهو فى معنى ما يروى أنهم كانوا ينقلون الحجارة إلى الكعبة وهم عراة ويرون ذلك ويتأولونه من باب التشمير والجد فى الطاعة ، والمراد من [ مساوينا ] السوءات ، فهو جمع مساءة [ مفعلة ] من السوءة ، والأصل مساوئ فسهلت الهمزة .

أعزبه المليـــك بنى لؤىّ فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدى ومرة قد تقدمهـــا كلاب
فبوّأنا المليـــك بذاك عزّا وعند الله يلتمس الثواب

كأنى بك ترى فى هذه الأبيات صورة الحية بشعة منكرة رَقشاء الإهاب ذَعْف اللعاب تتشرق على جدران الكعبة وقد استراحت إلى شعاع الشمس وحرارتها تسمع كشيش جلدها إذا تحركت واضطربت ، وفحيح فيها إذا صاحت وصوتت ، قد رفعت ذنبها ولعبت به واشرأبت تتطلع بعنق دقيق صلب ورأس عريض مفلطح ، وقد زاغ منها البصر : ورمت من عينيها بالشر والشرر وتحفزت للوثبة الفاتكة واللدغة القاتلة ، وأنذرت من يدنو من حماها بالسم الذعاف الناقع والموت الزؤام العاجل(١) وقد تجهم وجهها واكفهر وعبس ، وأدارت طرفا متوقدا كشهاب القبس ، فاذا راعك هذا المنظر المفزع راقك رؤية العقاب الكاسر لقوة (٢) خدادية خافقة الجناح شديدة اليأس قد ساقها الله إلى هذه الحية الخبثية الظالمة وسلطها عليه فجاءت منقضة من عنان الجو ، فأسفت(٣) إلى تلك الأفعى التى أرادت أن تؤذى فى الحرم ، فبسطت عليها جناحى نقمة لا رحمة ، وأنشبت بها منسريها ، وعلقتها بين مدى حادة من أظافرها ، وطاحت بها إلى حيث ينتقم الله من الظلم والعدوان ، وتم لبيت الله الحرام البناء والعمران .

وسأل الزبير يوما عن رجل ظالم كان بمكة فقيل له قد مات ، فقال : بأى عقوبة كان موته ؟ قالوا : مات حتف أنفه ، فقال : لئن كان ماتقولون حقاً

(١) السم الذعاف القاتل السريع الاثر ، والموت الذعاف والذؤاف السريع الذى يعجل القتل . وكذا الموت الزؤام أى السريع العاجل والكريه المجهز .

(٢) الملقوة العقاب واسعة الشدقين والخفيفة السريعة الاختطاف . والخدراية الشديدة السواد . وهو من أسماء العقاب من الخدرة وهى الظلمة .

(٣) أسف الطائر دنا من الارض فى طيرانه .

إن للناس لمعادا ينصف الله فيه المظلومين ويأخذ فيه للمظلوم من الظالم ) وفى هذا دليل على إقراره بالبعث رحمه الله .

هذا ولما بلغت سن الزبير نيفا وسبعين سنة وذلك قبيل البعثة النبوية حوالى سنة ٦١٠ م كان الزبير زرعا قد نضج وآن حصاده وإن لم يرد إلى أرذل العمر ( فقد مات أبوه عن أكثر من تسعين عاما ) وأحس بدنو حمامه قال - وصدق - ينعى نفسه ويصفها ببعض ماتحلت به ، ويهدى ابنته إلى طريق رثائه :

ياليت شعرى إذا ماحمتى وقعت ماذا تقول ابنتى فى النوح تنعانى (١)

تنعى أبا كان معروف الدفاع عن ال مولى المضاف وفكاكا عن العانى (٢)

ونعم صاحب عاف كان رافده إذا تضجع عنه العاجز الوانى (٣)

أى والله كان الزبير كما يقول وخيراً مما يقول ، كان شهما شجاعا أبيا ، وسمحا جواداً سخيا ، وجميلا وسيما بهيا ، وكان خطيبا شاعرا وسيدا حكيما عاقلا ، وهو فوق هذا وذاك المدافع عن حقوق قومه بقوة جنانه وبلاغة لسانه ، والذاب عن حوزة عشيرته والحانى على أهله ورحمه وإخوته ، وهو الناصر لقريش فى حرب الفجار ، والذى كان عونا لهم ورداً فى إدراك الطوائل والأخذ بالثأر ، بل هو الابن البار الذى يخفض لوالديه جناح الرحمة ، والأب الرءوف الذى يعطف على بنيه عطف محبة وحكمة ، والأخ الشفيق الذى يعطف على بنى أبيه ، والعم الرحيم اللطيف الذى لا جفاء ولا فظاظة فيه ، وهو المدلل لرسول الله ﷺ فى طفولته الرشيدة ، والمتفائل له بمستقبل باهر وحياة سعيدة ،

---

(١) الحمة من حم الأمر إذا قدر ومنه الحمام وهو قضاء الموت وقدره . وحمة الفراق ماقدر وقضى منه

(٢) المضاف من أحبط به فى الحرب من أضافه إلى الامر إذا ألجأه . والمضاف أيضا هو الواقع بين الخيل والابطال وليس به قوة . والمحرج الملجأ المثقل بالشر والعانى الاسير .

(٣) العافى الرائد الطالب للمعروف . والضيف وكل طالب فضل أو رزق . وعفاه يعفوه إذا قصده طالبا معروفه ورفده أعانه وأعطاه . وتضجع فى الامر إذا تقاعد عنه ولم يقم به . وضجع فى الأمر وأضجع قصر عنه ووهن . وتضاجع عنه تغافل .

يزين كل ذلك منه نفس شريفة أبية ، وهمة رفيعة علية ، وبعد مسافة فكر وروية ، وذوق سليم وطبع مستقيم ، وظن كاليقين يكاد يخترق به حجاب الغيوب ، ورأى ينير به ما أظلم من داجى الخطوب ، ورجوع إلى الله تعالى فيما يطرأ وينوب ، وإقرار خالص بربوبيته ، وإذعان خاضع لقدرته وعزته ، واعتراف صريح بالبعث والنشور ، وعلم أنه إلى الله تصير الأمور ، ولما قضى نحبه وترحل عن الدنيا قالت أخته صفية [١] ترثيه :

بكى زبير الخير اذ فات ان ... كنت على ذى كرم باكيه
لو لقطته الأرض مالمتها ... أو أصبحت خاشعة عاريه
قد كان فى نفسى أن أترك الـ ... موتى ولا أتبعهم قافيه
فلم أطق صبرا على رزئه ... وجدته أقرب إخوانيه
لو لم أقل من فى قولا له ... لقضت اللوعة أضلاعيه
فهر الشآمى واليمانى إذا ... ماحضروا ذو الشفرة الداميه

وقال ضرار بن الخطاب الفهرى [٢] رضى الله عنه يبكيه :

---

(١) صفية رضى الله عنها هى أم الزبير بن العوام تزوجها فى الجاهلية الحرث بن حرب بن أمية بن عبد شمس أخو أبى سفيان فمات عنها فتزوجها العوام بن خويلد بن أسد ومات عنها فى حرب الفجار ثم توفيت سنة ٢٠ فى خلافة عمر . وسمت ابنها الزبير باسم أخيها الذى كانت تؤثره وتحبه حبا جما وإن لم يكن شقيقها كذلك كنت ابنها الزبير بأبى الطاهر كنية أخيها الزبير أيضا فقد كان له ابن يقال له الطاهر كان من أظرف فتيان مكة وتوفى غلاما فى حياة أبيه . وبه سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه الطاهر — [ وعبد الله ] بن الزبير بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابى جليل ، وكان فارسا بطلا وحضر حنينا مع الرسول وكان عمره يوم وفاته صلى الله عليه وسلم نحو ثلاثين سنة وشهد قتال الروم فى خلافة أبى بكر وأبلى فى الجهاد أحسن بلاء . وقتل شهيدا يوم اجنادين سنة ١٣ رحمه الله — ويروى أنه دخل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكساه حلة وافعده إلى جانبه وقال [ إنه ابن أبى وكان أبوه يرحنى ] وكان يقول فيه أنه حبى وابن عمى [ وامه هى عاتكة بنت ابى وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم فهى ابنة خال زوجها الزبير ].

(٢) ضرار بن الخطاب بن مرداس من محارب بن فهر بن مالك القرشى كان أبوه الخطاب رئيس بنى فهر وكان ضرار من فرسان قريش وشجعانهم وشعرائهم المطبوعين المجودين بل لم يكن فى قريش

بكى ضباع على أبيـ ـك بـكاء محزون أليم
قد كنت أشهده فـلا رث السلاح ولا كهيم[١]
كالكوكب الدرى يع لو ضوءه ضوء النجوم
ذخرت به أعراقه ونماه والده الكريم[٢]
بين الأغر وهاشم وعين قد فرعا القروم[٣]

يريد ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب وهى صحابية جليلة تزوجها المقداد بن عمر (المعروف بالمقداد بن الأسود فولدت له عبدالله وكريمة، وقتل عبدالله يوم الجمل مع عائشة رضى الله عنهما وزوجها المقداد قديم الإسلام وشهد بدرا وله فيها مقام محمود مشهور وشهد أحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد بعده فتح مصر وتوفى بالمدينة فى خلافة عثمان سنة ٣٣ هـ

وأختها أم الحكم بنت الزبير صحابية أيضا وتزوجت ابن عمها ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب فولدت له بنيه محمدا وعبد الملك وعبد المطلب — وزوجها ربيعة بن الحرث ابن عم رسول الله ﷺ صحابى جليل توفى بالمدينة سنة ٢٣ فى خلافة عمر، وبنوه الثلاثة أدركوا رسول الله ﷺ، وكان آخرهم وفاة

---

فى زمنه أشعر منه ومن عبد الله بن الزبعرى. وكان قبل إسلامه ينصر المشركين بلسانه وسيفه ثم أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه وله شعر كثير فى الغزوات قبل الفتح وبعده. وشهد مع أبى عبيدة فتوح الشام وتوفى فى أوائل خلافة عمر.

(١) أشهده أى أحضر معه فى الحروب والغزوات والسيف الكهيم والكهام هو الكليل لا يؤثر فى الضريبة ويروى [ سليم ] بدل كهيم فلعله من السلم بمعنى السلام وهو الاستسلام والانقياد والخضوع والاستخذاء.

(٢) يقال فلان عرقه زاخروا فرأى أنه كريم ينمى إلى كرام. ويقال إن عرق الكريم ليزخر بالكرم ويروى ( زحرت ) بالحاء المهملة — يقال زحرت به أمه وتزحرت عنه إذا ولدته وانجبت به.

(٣) الأغر الرجل الكريم الأفعال الواضحها والشريف المشهور النقى العرض. وأراد بالأغر جد الزبير لأمه وهو عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم — وفرع كل شىء أعلاه. وفرع القوم شريفهم وسيدهم. وفرع القوم فرعا وفروعا علاهم بالشرف أو بالجمال. وفاقهم فى الفضل والكمال.

عبد المطلب بن ربيعة وكان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام فى خلافة عمر ونزل دمشق وبها توفى سنة ٦٢ وروى عنه ابنه عبد الله بن عبد المطلب ابن ربيعة ، وروى عن عبد الله ابنه محمد الذى روى عنه ابن شهاب الزهرى وغيره رحمهم الله جميعا .

انتهى ماأردنا إيجازه من حياة الزبير بن عبدالمطلب ، وموعدنا بالإطناب فى سيرته وأدبه وفى سيرة شقيقه أبى طالب قريب فى كتاب خاص إن شاء الله

**احمد يوسف نجاتى**

الاستاذ بكلية اللغة العربية حالا

والاستاذ بدار العلوم سابقا

# الموسيقا فى الأدب العربي

## عرض و نقـــد و تحليل

## — ٢ —

للأستاذ عبد اللطيف المغربى

وطالعتنى شهور نكدة عسراء ، غمرتنى بضروب من الأسى ، ورمتنى بغربة أذهلتنى وحشتها ، فنضب من نفسى معين السرور ، وتقلص عنى ظل الطمأنينة والدعة ، وأصبحت ضاحيا أقاسى فى عزلتى آلاما نفذت إلى صميم القلب ، فنَدَّ عنى جميل الصبر ، وأعوزنى حسن التأسى ، فجعلت أروض النفس على ما يحمل ، وآخذها بوصايا الحكماء ، وأدب العلماء ، فلا تزيدنى إلا نفارا وإمعانا فى القلق ، حتى أعيانى أمرها وأشفقت عليها أن تكون بسبيل يدنى من التلف ، ويشرف بها على غاية الحياة .

وأراد الله اللطيف الخبير أن يأذن لليل هذه الغربة الساجى بالزوال ، وأن أعود إلى المغانى التى بينها درجت آمالى وأحلامى ، ونضوت فيها برد الشباب حميدا ، ونسجت من دواعيها ذكريات الخوالد ، فطابت النفس وقرت العين — وافتقدت صديقى القديم العصفور ، وطفقت أتلمسه فى الرياض وعلى شواطىء الأنهار وفوق غصون الأشجار ، وحول كل واد خصيب ونبات نضير ، حتى أعيانى طلبه ، فتقبضت فى إهابى حزينا يائسا ، واعتقدت أن ذلك الصديق حطمته بعد فراقنا حوادث الأيام وأنى غير ملاقيه . وهنا انبسطت أمامى

صفحة مودته النقية ، وتمثلت لى أخلاقه فى أبهى مظاهر الكمال ، فبكيت ماشاء الله أن أبكى ، وكان أروع ما أبكانى عليه خلال سمحة ظفرت بها فى عالم الطير وحرمتها فى عالم الإنسان ، خلال لم تشبها عوامل المدنية فتفتك بأسمى مافيها من معان روحية سامية ، وتجعل منها ما يشبه الهيكل المزخرف الخالى من الروح . فهذه خلال يصطنعها السواد الأعظم من الناس من وفاء وإخلاص وصداقة ومحبة ورحمة وتعاون وإيثار ، ثم هى تكاد تكون خلوا من معانيها ، وقد أفاض عليها النفاق وزخرف المدنية ماتتسع به وتضيق ، وتعجب وتخدع ، حتى تشابهت الأمور وأضدادها ، فشق المجتمع الإنسانى بها لأنها لاتعدو أن تكون ألفاظا سيارة على ألسنة الناس لاتتصل بقلوبهم . ولقد دعا الرسل الكرام إلى الأخلاق الفاضلة وضربوا للناس أروع المثل فى التحلى بها وأرسل الحكماء والأدباء صيحاتهم الأخلاقية إلى الناس ، ولكن النفوس البشرية لاتزال أسيرة نوازعها فى الكثير من الناس ، وهى تتصور الأخلاق كما توحى إليها رغائبها ، فأصبح المجتمع الإنسانى يئن مما يلاقى من عدوان القوى على الضعيف ، والإعراض عن المحتاج ، وغلبة سلطان المادة على النزوات الروحية ، والتطاحن على الاستئثار بالمنافع ، حتى قلت الثقة بالصديق وأقفر القلب من الاعتماد عليه والاطمئنان إليه — فلا غرو أن يبكينى فقد صديق الطائر ذى الفطرة النقية والمودة التى لم يفسدها تصنع .

وفى ليلة ألحت على فيها ذكريات هذا الصديق ، رأيته فى منامى مقصوص الريش متهدل الجناحين ، فوقع فى روعى أنه لا يزال حيا يرزق . وأننى سوف ألقاه فطامن ذلك من نفسى ، ودعوت الله أن يحقق هذا الأمل .

وفى يوم مشرق باسم طيب الأنفاس نازعتنى نفسى الميل إلى الإلمام بحديقة أصيب فيها حظا من الهدوء والإجمام ، وما كدت أدخل إليها حتى رأيت فى طرف منها طائرا سقيما قد ألصق أحد جانبيه بالنبات النضير كأنما يبترد به من هول

مايلاقى من وعك الحمى ، وقد بسط جناحيه حوله تبرما بهما وضعفا عن حملهما ، وحوله عدد غير قليل من الطير قد ألف بينه الحزن على ذلك الطائر المريض الوقور المهيب . فراعنى هذا المنظر الغريب الذى يمثل أورع آيات الوفاء عند الطير . فرغبت أن أجلس حيث انتهيت لأرى عن كثب ما أنا معجب به . وما كدت أهدأ فى مجلسى حتى رأيت الطائر المريض يسلك طريقه إلى فى تثاقل وإعياء ، فلما قرب منى وكاد يلمس بالراح شمت منه مخايل صديقى العصفور وقلت عسى أن يكونه ، وهممت أن أبدأه بالتحية ولكنى تماسكت ورضت نفسى على الصبر والثبات — وماهى إلا لمحة كخطفة البرق حتى اهتز فبدا فى صورة إنسان نحيل قد أضرّ به الهزال ، وإذا هو كما قدرت صديقى العصفور ، فحيا وسلم وتجلت سمات وجهه واضحة ، فأسرعت إليه وعانقته طويلا وبكيت وبكى حتى عجب الحاضرون لشأننا ، وكان أطول منى بكاء وأرق شعورا وأصدق وفاء وهذا قدر مابين الطير والإنسان . وجلسنا فى صمت وخمود حركة ذاهلين من هول الموقف . حتى استعاد صاحبى بعض قواه . فخضنا فى وصف الفرقة وماأعقبت من آلام واتّعَدْنا أن نلتقى فى هذا المكان بعد إبلاله مما هو فيه . والتقينا فى موعدنا فألفيته على خير ما أرجو له من صحة ونشاط فبدأنا الحوار :—

العصفور :— علمت أقوال بعض المجددين المتطرفين فى الشعر المرسل وما ينعون على الشعر المقفى من عيوب . فهل عندك من هذا الموضوع بقية لأحد منهم فيها جديد ؟

أنا — قد عرض لهذا البحث أحد المجددين فى كثير من الحكمة والاتزان ولعل هذا الرأى الذى سأعرضه عليك .أعدل الآراء إلى اليوم قال :—

« لاجدال فى أن الموسيقا من أعظم محاسن الشعر واعتقادى الشخصى

أنها من ضرورات الشعر . وموسيقا الشعر العربى تكون فى : —

١ — الوزن .

٢ — القافية .

٣ — التصريع والترصيع ( وهو الإسجاع ) وما إلى ذلك من الصناعة اللفظية .

٤ — انسجام مخارج الألفاظ والحروف التى ينتخبها الشاعر .

٥ — أوجه أخرى لاأعرفها .

والذى يعنيناهنا القافية ، فالتزام قافية واحدة له ميزتان : الأولى الموسيقا. والثانية إظهار المقدرة الصناعية . وإهمال القافية له ميزتان: حرية التعبير عموما أو على الأقل فى بعض مجالات القول . وثانيا السمو بالشعر عن صناعة لفظية فانية قريبة الغور . أو على الأقل تخفيف العبء عن غير المتضلعين من اللغة تضلعا لايستلزمه النظم فى أى لغة أخرى . فأما موسيقا القافية فتكون فى الإيقاع أى أنها تشبه القرع الرتيب بعد فترات متساوية : فقراءة البيت هى النقرة . والطرب من الإيقاع مشاهد عند الفطريين كدقات طبول الزنج فى مراقصهم وعند الحيوان . ومنشأ هذا الطرب أنه يسبب نوعا من الاستهواء أو التخدير العصبى تنغمر فيه النفس وتصبح غير واعية وعيا تاما ما أكسبتها إياه المدنية أى أنها تتراجع كثيرا أو قليلا إلى أصلها وهو نفس الإنسان الفطرى الذى كان يعيش فى الغاب » .

ثم يعود فيقول « وتمتاز القافية أيضا بإظهار المقدرة الصناعية ولا أعنى بهذه المقدرة التمكن من معرفة الكلمات التى تصلح لقافية بعينها لأن هذا درجة دانية فى استيعاب اللغة وإن كان فيها عنت على الكثيرين ، ولكنى أعنى اقتدار الشاعر على ذكر مايغمره من المعنى بالضبط مع التزام القافية . وهذا الاقتدار ليس عظيم الحظ فى الفن ، ولكنى لاأرى بأسا فى اعتباره عملا فنيا

منزلته منزلة الزخارف التكميلية أو الكمالية فى التماثيل، أومنزلة الإتقان الشديد لأصغر تفاصيل الرسم ، وقد امتازت بهذا الإتقان الصور الكلاسيكية ، وكما يحدث للشعر يحدث للرسم فإن المدرسة الحديثة فى الرسم ترمى أيضا إلى التخلص من القيود كما فى الرسوم التكعيبية والرسوم التى لا يهتم فيها الفنان بإجادة التفاصيل البعيدة عن مغزى الصورة ومنطوقها .

والآن فماذا يريد أصحاب الشعر المرسل ؟ يريدون حذف القافية للتخلص من القيود أو للتخفيف عن أنفسهم .

والرأى عندى أنه لا بأس من حذف القافية إذا كان الشاعر من المقدرة بحيث يعيضنا عن النغم المفقود بموسيقا فى أثناء البيت بله موسيقا الوزن . ويكون الحذف لسبب فنى أى فى مجالات من القول بعينها ؛ لأن مما لا ريب فيه أن فى القافية تقييدا للشاعر — لا ينكره إلا غير خبير — فى بعض الشعر القصصى أو الشعر الشديد العمق الذى إذا التزمت فيه القافية خرج شديد الغموض وفيه كثير من اللبس الذى لا يمكن مجانبته وبه نفقد كثيرا من دقة المعنى » .

ثم يقول « وأخيرا هل تألف الآذان الشرقية الشعر المرسل بعد تقديم عشرين أو ثلاثين ديوانا منه ؟ إن هذه الألفة تستلزم أولا تغيير طبيعة اللغة العربية فى أساليبها وامتلائها بالاستعارات وهذا عمل شاق ولكنه جائز الوقوع وثانيا تغيير طبيعة النفس الشرقية لأنها ألفت الاستنامة إلى النغم المستطيل الرتيب ، ولأنها فى قرارتها تؤثر القصيد المجاد نغما على المجاد معنى أو تؤثر الموسيقا على التفكير والتأمل » ومن هذا يظهر لصديقى العصفور تقدير الكاتب الأديب للشعرين وحيرته بينهما ، فهو لا يقول بإلغاء الشعر القديم دفعة ، ولا بالأخذ بالشعر المرسل دفعة وإنما يجيزه فى أحوال خاصة من القول كالشعر القصصى أو الشديد العمق ليتسع المجال أمام الشاعر ، وقد جعل لكل من من القديم والمرسل مزاياه .

العصفور : لازلت ياصديق أرى فى هذه الدعوى غلواً لامبرر له . وإذا كانت روح العصر قد عدلت بالناس فى فن الرسم عن الزخرف والأمور الكمالية ، فليس من الحكمة أن يقاس الشعر على الرسم ليعدل عن زخرفه ، فلكل مزاياه . والشاعر القديم فى العربية لايصعب عليه أداء الأمانة للشعر القديم ورفع مكانته والانتفاع به فى كل مايريدمن دواعى العصرمع الاحتفاظ بزخرفه . والشعر عندى هبة نادرة قليلةالذيوع ، وحياتهالحافلةبالقوةوالخصب فى هذه الندرة . وليس من الرأى الموفق تيسير سبيله برفع قيوده وزخارفه حتى يصبح وردا مباحا لكل قدم عاجز ، ومتفيهق سخيف ، ودعى ضعيف . ألا ترى أنه مع الاحتفاظ بقيوده الثقيلة وزخرفه الكثير ، لاتزال تتهافت عليه فئات من أشباه الشعراء والمفتونين الذى ملئوا أطباق الأرض صياحا أشبه بنقيق الضفادع ، وخرجوا إليها بهراء من القول كعبث الأطفال ونفثات الممرورين ، فأصبحنا فى فوضى أدبية آذت الأذواق وأفسدت الألسنة ، وبتنا فى ليل داج من الخلط الأدبى فى الموضوعات والمعانى التى يزعم هؤلاء أنهم يحاكون فيها الأدب العربى فأخفقوا كل الإخفاق ، وباءوا بالإساءة إلى لغتهم أفبعد هذا يريدون التخفيف من قيود الشعر بإطلاق قافيته ليزيدوا فى عدد الأدعياء الثقلاء . إنا لنريد أن تزداد قيوده ويحاط بما يدفع عنه أمثال هؤلاء ليحيا فناً له قيمته وطلاوته .

أنا : لقد قلت حقا وكشفت عن حقيقة واقعة فى أدبنا الحديث من كثرة المنتسبين إليه والمدعين له . وإذا كان المجددون يرون أن الكتابة قد نهضت وتحررت من كثير من قيودها الزخرفية فالشعر لايقاس عليها لأنها أداة المجتمع ولسانه الناطق ، ولهذا تأثرت بما يدعو إليه الاقتصاد فى الزمن وسرعة المبادلة فى الرأى لتيسير الأعمال وقضاء المطالب المشتبكة المتفرعة ، فهذبها الذوق الحديث الداعى إلى السذاجة فى مطالب الحياة وزخارفها والأخذ بما

تيسر ولطف، فانطلقت من عقال السجع والخيال الحافل، والتأنق فى اللفظ وجرت فى سبيل الوضوح والمعنى الصحيح السامى، وفوق هذا هى عامة وهو خاص، وهى حاجة وهو ترف، وليس يطلب من كل مثقف أن يكون شاعرا على حين يحسن أن يكون كاتبا، لأن الكتابة جمال له فى صنعته وليس الشعر مثلها، والفنون عادة لايفرض على المجموع الإلمام بها لأنها حظ الموهوبين. ومايرفع قدرها إلا هذا الخصوص الذى جعلها وقصرها على أهلها ونفى عنها كل ضعيف محروم.

عبد اللطيف المغربى

# نهج القرآن

الأستاذ محمد خلف الله أحمد

المدرس بكلية الآداب

---

قبل أن أحدثك عن نهج القرآن ، أحب أن أسلك معك المسلك التجريبى فى البحث ، فأقرأ وإياك سورة من سور الكتاب ، ولتكن سورة الرعد ، فإن لها نهجاً خاصاً فى التدليل على شرف القرآن ، ودحض عناد المشركين ، وبيان الفساد فى منطقهم وتفكيرهم ، وإن لها لطابعا بلاغياً جميلا من نوع ما انفرد به القرآن الكريم . وأنا الضمين لك — إذا قرأت معى السورة إلى آخرها — أن تتذوق ناحية من نواحى الحجاج المقنع المسكت ، والبيان الرائع الجليل .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « بسم الله الرحمن الرحيم . المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . . . . . قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

الآن وقد قرأت السورة كما يقرأ الأديب النص الأدبى ، فتناول قلما ، ودون على القرطاس صورة من سلسلة المعانى التى تركتها قراءة السورة فى ذهنك — وسترى مما كتبت أن هذه السورة تدخل بك على موضوعها مباشرة معلنة أن تلك الآيات آيات الكتاب ، وأن الذى أنزل إلى محمد من ربه الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون — وقد قامت من حولهم الدلائل الملموسة

الظاهرة التى من شأنها أن تدعو الناس إلى الإيمان بالله . فالله الذى رفع السموات بغير عمد، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، وهو الذى يدبر الأمر يفصل الآيات ، وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا، ونوع فيها من ضروب الثمرات والجنات والأعناب والزرع والنخيل . أليس عجيبا أن يشك هؤلاء الناس فى إعادتهم خلقاً جديدا بعدأن كانوا ترابا، وأن يستعجلوا العقوبة وقد خلت من قبلهم المثلات . لقد كانوا إذاً على علم بهذه المثلات التى قد خلت من قبلهم ، ولولا ذلك العلم ما استحقوا التوبيخ على عدم الاعتبار . وهم كانو على علم بما أنزل على بعض الرسل من قبل،ولولا ذلك ما اقترحوا على محمد آية مثل آية موسى أو سليمان .

وهنا تعود السورة إلى تمجيد الله وعلمه بما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وتقديره كل شيء بمقدار ، وعلمه الغيب والشهادة والسر والجهر والخفاء والظهور ، وتخويفه الخلق . وإطماعهم بالبرق ، وإنشائه السحاب الثقال ، وإرساله الصواعق يصيب بها من يشاء . ثم تندد السورة بمن يدعو غير الله ، وتشبهه بباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وتحاج من يتخذون من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ، ولا يستطيعون أن يخلقوا كخلقه ، وتتبع هذا بتمثيل للقرآن — أو الحق — مشتقة عناصره مما حول هؤلاء الناس من بيئة طبيعية ، من السيل والأودية والزبد الرابى ، ومما يوقدون عليه فى النار من المعادن والفلزات ابتغاء حلية أو متاع . وتفرق السورة بين أصحاء البصيرة ومراضها : فتصف الأولين بأنهم أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . أما مراض البصيرة فهم

المتصفون بنقيض هذه الصفات ، وأولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وتعود السورة مرة أخرى إلى اقتراح هؤلاء الناس أن تنزل على الرسول آية أخرى : فتندد بجهلهم حكمة الله فى اختيار القرآن معجزة لنبيه العربى ، وقد اختار لبعض سابقيه من الرسل آيات طبعية كفلق الحجر وتفجير الأرض عيونا وتسخير الرياح وإحياء الموتى ، وتقول فى الرد عليهم : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » تاركة للذوق العربى أن يقدر فى العبارة جوابها المحذوف .

ثم تستمر الصورة على هذا النحو ، وفى حدود المعانى التى ذكرناها ، مقررة موازنة مقرعة حتى تصل إلى خاتمتها « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

* * *

وإنما سألتك أن تكون العناية بتصوير المعنى أولى خطواتك فى تذوق هذا النص الكريم لأنى سمعت العارفين يقولون . إن فهم المعنى فهماً صحيحاً هو أول مرحلة ضرورية من مراحل النقد ، وقد أجرى أحد أساتذة الأدب الإنجليزى فى جامعة « كمبردج » تجربة من هذا النوع تبين له منها أن معظم الخطأ فى النقد إنما يجىء من الخطأ فى حل المعنى .

وبعد فما الذى لاحظت على نظم هذه السورة وأسلوبها التعبيرى ؟ أتحب أن تدون ملاحظاتك على هذه الناحية أيضا ؟ إذا فافعل . إن لهذه السورة كما ترى نهجا فى نسجها متميزا : فهى تنتظم ثلاثا وأربعين آية ، ختام كل آية فيها كلمة ممدودة بالألف بعدها حرف ( إلا ستا منها ممدودة بالواو ) وثلث خواتيم هذه السورة كما ترى على روىّ الباء ( عقاب ـ الألباب ، الحساب . . . ) الخ ) ، وأكثر من نصف هذا العدد على روىّ الراء ( بمقدار ـ بالنهار ـ القهار الخ ) ، ونصف العدد الأول على روىّ اللام ( المتعال ـ وال ـ الثقال . . . الخ )

ثم عدد صغير على روىّ الدال ( هاد — المهاد — الميعاد .. الخ ) ، وعدد على روى القاف ( الميثاق — واق . . . ) وواحدة على روى العين ( متاع ) ومن المدودات بالواو خمس على روى النون . تبتدىء بها السورة ( يؤمنون - توقنون . . . الخ ) ، وواحدة على روى الباء ( القلوب ) .

ولعلك لاحظت بجانب هذا شيئاً من التكرار المتتابع فى خواتيم بعض الآيات ( لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ) وكذلك ( فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب . ألم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ) .

لهذه السورة إذا وحدة ظاهرة فى موضوعها وهو إظهار شرف الكتاب المنزل ، وتسفيه آراء المعاندين فى طلبهم قرآنا غير هذا ، أو آية مادية مثل آيات بعض الرسل السابقين . وأول آية فيها تقرب أن تكون تقريرا للموضوع كله ، ثم تتوالى بعد ذلك الآيات مفصلة الموضوع من جميع نواحيه فى دلالة القرآن على قدرة الله وصدق الرسول ، وفى منزلته من الآيات السماوية الأخرى ، وفيما كان من شأن المعاندين معه ، وفى بيان انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم .

ولهذه السورة أيضا طابع خاص فى خواتيم آياتها ، حصرنا حروفه الختامية فى خمسة أو ستة متقاربة المخارج ( ب . ر . ل . ن . ) ، وبعض هذه الخواتيم مكرر تكراراً رقيقا لا يكاد يشعر به القارىء إلا إذا نبه إليه . وقد تشتمل الآية على لفظة مكررة أربع أو خمس مرات دون أن يشعر القارىء بأثر ممل لهذا التكرار ( قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ) .

وشيئا آخر تلاحظه فى كثير من آيات هذه السورة ، ذلك أن القصص يبدأ فيها بصورة الفعل الماضى ويستمر شيئا حتى إذا قاربنا آخر الآية وجدنا جملة اسمية أو مضارعية ينتهى عندها الكلام ويحسن السكوت والاستقرار (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش . يدبر الأمر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى . . . يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ).

✡ ✡ ✡

أما ناحية الجمال الفنى فى السورة فإنك تلمسها فى كل آية من آياتها ، وأظهر ماتظهر فى مناسبة الألفاظ لموضوعاتها : فإذا كان المقام مقام تدليل على قدرة الله جاءت العبارة كلها حافلة بهذا المعنى من رفع السموات بغير عمد والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر . ومد الأرض وإغشاء الليل النهار . وإذا كان المقام مقام تخويف سمعت الآية تعج بما فيها من رعد وبرق وصواعق . وفى مقام الكلام عن المخالفين تسمع نقض العهد وقطع ما حقه أن يوصل ، والإفساد فى الأرض واللعنة وسوء الدار .

وثم ناحية أخرى هى تناسب الألفاظ والأصوات وجريانهامعا فى عذوبة وسهولة حتى إنك لتلمس لكل آية طابعا خاصا فى أصواتها ( ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ) ( إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) ( الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذى آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ) ( ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أوقطعت به الأرض أوكلم به الموتى ) ( أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ) .

ولعلك لاحظت أن قاموس السورة مشتق أغلبه من البيئة العربية الطبعية فهناك السماء والشمس والقمر والأرض والرواسى والأنهار والثمرات والجنات

والأعناب والزرع والنخيل والبرق والسحاب الثقال والرعد والصواعق والأودية والسيل والزبد والنار والحلية والمتاع والرزق.

وفيها من المتقابلات أزواج: الليل والنهار، والسيئة والحسنة، المغفرة والعقاب، والغيض والازدياد، والغيب والشهادة، والسر والجهر، والمستخفى والسارب، والخوف والطمع، والطوع والكره، والغدو والآصال، والنفع والضر، والأعمى والبصير، والظلمات والنور، والحق والباطل، والجفاء والنافع، والوفاء والنقض، والضلال والهدى، والمحو والإثبات، والدنيا والآخرة.

* * *

لعلك ترى معى أن الحكم على نهج القرآن يتطلب قراءات كثيرة من هذا النوع، ويتطلب معرفة تامة بخصائص الأساليب ومميزاتها. وبعد فمن أى فنون الأدب نعد القرآن؟ كان من بعض مارمى الكفار به صاحب الدعوة أن الذى أتاهم به هو من قبيل الشعر.

وقد أنكر القرآن عليهم ذلك فقال «وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»، وقال «وماهو بقول شاعر». فأما أن القرآن مغاير لما تواضع العرب على تسميته شعرا فذلك مالاشك فيه. ولكن من المحتمل أنهم رأوا لهذا القرآن تأثيرا سحريا من نوع ما كان يبعثه فيهم سماع أشعارهم، وأنهم رأوا له جرسا موسيقيا هو فى الذوق من خصائص الشعر. ومن المحتمل أنهم رموه بكونه من قبيل الشعر ليقللوا من شأنه وليقولوا إنه من مقدور البشر. ولو أنهم اعتقدوه حقيقة شعرا، ولم يروه خارجا عن أساليبهم فى الشعر لبادروا إلى معارضته لأن الشعر - كما يقول الباقلانى فى إعجاز القرآن — مسخر لهم، مسهل عليهم، لهم فيه تصرف عجيب، واقتدار لطيف.

ولعل قائلا يقول: إذا كنا قد نفينا عن القرآن خصائص الشعر عند العرب

فهل تنطبق عليه بعض خصائص الشعر عند الفرنجة ؟ إن فى القرآن شيئا كثيرا مما يمكن أن يسمى فى اصطلاح النقاد أدبا قصصيا ، وشيئا مما يمكن أن يسمى أدبا تهذيبيا ، وأدبا نقديا ، وبعض آياته التى تشتمل على تمجيد الله وتقديس صفاته والتى تخاطب العاطفة والوجدان أكثر مما تخاطب الذهن والفهم ، تكاد تشبه فى موضوعها مايسميه الأوربيون الشعر الغنائى الذى كان الأصل فيه عند اليونان أن ينظم لتمجيد الآلهة وتكريم الأبطال .

كل هذا حسن ، ولكن الشعر الإفرنجى أيضا له ضوابطه وموازينه وألحانه وليس شىء من هذا بمنطبق على القرآن .

إن الأدب ينقسم عادة إلى فنى الشعر والنثر . وإذا أردنا أن نعرف نوع فن القرآن بالنسبة لهما فلنقف عندهما وقفة قصيرة ولنحاول التفرقة بينهما من حيث كونها نظامين متميزين من أنظمة التعبير .

إن الشعر يختلف عن النثر لا فى مادته فحسب ، ولا فى طريقته فحسب ، ولكن فى الاثنتين معا . فالشعر وليد الحياة الوجدانية وترجمانها ، وإذا خاطب فإنما يخاطب الانفعال والعاطفة والذوق والإحساس . وهو من حيث طريقته يهب الشطر الكبير من عنايته للألفاظ وجرسها وموسيقاها وتناسبها وصورها الفنية .

فهو - كما عرفه أحد الشعراء الأجانب - أحسن الكلمات فى أحسن نظام. وأنت فى قراءتك الشعر الجيد لا تستطيع أن تتجاهل جاذبية الألفاظ فإنهن يفرضن أنفسهن عليك فرضا .

أما النثر فهو ترجمان الحياة الفكرية المعقدة ، وهو أداة التعبير إذا تشعبت الحياة وتنوعت مطالب الفكر ، وأصبح للشعب فلسفة ونقد وسياسة واجتماع راق . وعناصر النثر الأفكار لا الكلمات ، فما الكلمات فيه إلا رموز عن المعانى ومطايا لها . فإذا جذبت الكلمات الانتباه إلى أنفسهن وحلن بين القارىء أو

السامع وبين تمام الانصراف إلى المعنى كان ذلك إلى الشعر أقرب . ولهذا السبب كانت ترجمة النثر إلى لغة أخرى أيسر من ترجمة الشعر ، فالفكرة لكونها مستقلة عن الألفاظ التى تعبر عنها . يمكن أن تنقل دون كبير مشقة . ولكن للعبارات الشعرية يتعذر نقلها فهى مجموعة كلمات ، وجودتها إنما هى فى نسج كلماتها ، وفى الأصوات والروابط التى تكون لهذه الكلمات ، وقد لاتكون لمقابلاتها فى اللغات الأخرى .

فأين منزلة القرآن إذا بالنسبة لهذين الفنين ؟

إن فى القرآن لسحرا يصل بينه وبين الشعر ، وفى ألفاظه رونق تتطلع اليه أعناق الأساليب الشعرية ، وإنك لو أخذت لفظة من ألفاظ القرآن فوضعتها فى مكان مناسب من كتابتك أو خطابتك ، كسب أسلوبك منها حلية وجمالا يحس بها كل ذى ذوق فى الأدب ، وهناك صلة وشبه بين بعض موضوعات القرآن وموضوعات الشعر كما أسلفنا . وبعض السور المكية التى نزلت فى مهد الإسلام ترى لها فواصل قصارا ، والتزاما أحيانا لحرف واحد فى أغلب السورة يقرب من التزام الروى فى القصيدة ، وتسمع لهذه السور عند قراءتها رنينا ونغما يحلو تجويده والترنم به .

والقرآن مع ذلك ليس ببعيد من النثر ، ولم يعن أن ينفى عن نفسه صفة النثرية كما عنى فى أكثر من موطن بنفى صفة الشعرية . ومثانيه منها الطويل ومنها القصير ، ومنها مايقرب أن يكون مسجوعا ، وما يصح أن يسمى مرسلا وفى بعض أساليبه شبه بأسلوب الخطابة . وموضوعاته التى يعالجها من حجاج وخصام ، وإجمال وتفريع ، وتذكير وتقريع ، وتدليل وتشريع ؛ كل أولئك موضوعات تقتضى طبيعتها أن تعالج فى أساليب نثرية .

ورغم كل هذا وذاك فالقرآن ليس بالشعر ولا هو بالنثر ، ولا يمكن أن

تنطبق عليه خواص أحد الفنين كاملة ، وبينه وبين ماصحت نسبته إلى الرسول من أحاديث ورسائل وخطب بون كبير ، وانما هو إذا بيان عربى فريد ، له طابعه البلاغى الخاص ، وله طريقته البلاغية الخاصة ، ولم نجد شيئا من مأثور الأدب الجاهلى يشابهه أو يدانيه ، ولم يجىء بعده فى الأدب الإسلامى كتاب أفلح فى أن ينحو نحوه ، أو يقلد فنه ، أو يتحدى إعجازه ؟

محمد خلف الله

# وطنيـــة المتنبي

للأستاذ على النجدى ناصف

مفتش المعارف بالاسكندرية

كان مولد المتنبي بالكوفة ، فى حى من أحيائها يسمى كندة . وقد نسبه الناس إلى المدينة والحى معا ، فقالوا : المتنبي الكوفى الكندى . وبقى المتنبي بالكوفة حتى نما واشتد ، ثم دعته دواعى العيش إلى الضرب فى الأرض فرحل عنها ، يطوف فى الآفاق ، ويتنقل من بلد إلى بلد ، يعرض شعره على السراة وأصحاب الجاه والسلطان ، طلبا للرزق ، أو مصانعة فى سبيل الأبهة والملك . أما أهله فقد بقوا بالكوفة ، لم يتبعه منهم سوى ابنه محسد ، رحل معه إلى فارس وقتلا معا فى العودة منها .

فالمتنبى كان موصول السبب بالكوفة على الرغم من هجرته منها : كانت لأهله مستقرا ومقاما كما كانت له منشأ ومربى . فهل تراه وعلاقته بها على مارأيت . قد أدى حقها عليه ، براً بها ووفاء لها ؟ هل تراه أشاد بمزاياها ، أوفتن بجمالها ، أو حن إلى عهده فيها ؟ أم هل تراه حملنا على الاهتمام بها والتفكير فيها ، والعطف عليها ، كما فعل بشعب بوان[1] ودشت الأرزن[2] ؟

إننا إذا رجعنا إلى الديوان ، نتقصى قوله فى الكوفة ، ونتنور عاطفة

---

(١) موضع بفارس ، كثير الأشجار والمياه . وكان يعد من جنان الدنيا الأربع ، وصفه المتنبي فى فى القصيدة التى مطلعها : مغانى الشعب طيبا فى المغانى بمنزلة الربيـــع من الزمان

(٢) موضع حسن على نحو ٣٠ ميلا من شيراز ، تحف به الجبال ، وفيه غابات ومياه ومروج وصفه المتنبي فى الأرجوزة التى مطلعها : ماأجدر الأيام والليالى بأن تقول ماله ومالى

الوطنية عنده ، ونسبر غورها من نفسه . تخلص لنا ظاهرتان : —

الأولى : أنه لم يتحدث عن وطنه إلا عرضا ، وأنه إذ يفعل كان يقتضب الحديث اقتضابا فيقصره على القدر الذى يقتضيه المقام ولا زيادة . وهذه هى أقواله فى الوطنية :

قال من قصيدة نظمها فى صباه :

در در الصبا ، أأيام تجرى رذيولى بدار أثلة[١] ، عودى

وقال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر إيقاعه ببعض قبائل العرب .

تذكرت مابين العذيب وبارق[٢] مجرعو الينا ، ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلات ماقد كسروا فى المفارق
وليلا توسدنا الثوية[٣] تحته كأن ثراها عنبر فى المرافق
بلاد إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبنه للمخانق
سقتنى بها القطر بلى مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق

وقال من قصيدة فى مدح على بن إبراهيم التنوخى:

أمنسى الكناس ، وحضرموتا ووالدتى ، وكندة والسبيعا[٤]

والظاهرة الأخرى أنه يبدو بعض الأحيان فاتر الوطنية ، بل خامدها تراه لايبقى عليها ، ولا يستمسك بفكرتها . ويتمثل ذلك إما فى الفخر بكثرة التنقل من بلد إلى بلد كقوله :

بأى بلاد لم أجر ذوائبى وأى مكان لم تطأه ركائبى

وإما فى إعلان الزهادة فى الوطن . والرغبة عن المقام فيه إذا جفاه صديق من أهله ، أو نبت رحابه به ، أولم يطب له القرار فيه كقوله :

---

(١) موضع بظاهر الكوفة (٢) موضعان بظاهر الكوفة (٣) الكناس وحضرموت محلتان بالكوفة وكندة محلة غربيها ، والسبيع سوق بها ومحلة

إذا صديق نكرت جانبه لم تعينى فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل

وقوله :

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنون غير الأصادق

وقوله :

وكل امرىء يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

وإما فى الجهر بالاستغناء عن الوطن ، وعدم التعلق به ، أو التفكير فى العودة إليه ، كقوله :

وإنى لنجم تهتدى بى صحبتى إذا حال من دون النجوم سحاب
غنى عن الأوطان لايستفزنى إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيس إن ساحت به وإلا ففى أكوارهن عقاب

لهذا وذاك اتهم المتنبى بعقوق الوطن ، واضطراب فكرة الوطنية (١) وهو فى رأيى برىء ، من التهمتين جميعا ، فلم يكن فيما رويت من شعره فى بعض أحياء الكوفة والمواضع القريبة منها — وطنيا يصدر عن عاطفة واجدة، وإحساس متأثر . ولم يكن فيما رويت من شعره فى التحلل من فكرة الوطنية وعدم التقيد بدواعيها — أفاقا يصدر عن عقيدة راسخة وإيمان بما يقول . ولكنه كان فى هذه وتلك وفى مواقف أخرى كثيرة — صاحب فن ليس غير ، يخلص لفنه الإخلاص كله ، ويبذل قصاراه لمرضاته والوفاء له ، ثم لا يعنيه بعد ذلك أين يقع قوله من الوطنية ، ولا كيف يكون من آرائه ونظرياته فيها

لقد كان المتنبى مشغول البال ، جم المتاعب ، كثير الهموم . كان صاحب مطامع جليلة ، هام بها ، ووهب جميع مواهبه لها ، ولم يأل جهدا فى إدراكها ، حتى ما كان يعمل إلا لها ، ولا يتحدث إلا متأثراً بها من قريب أو من بعيد

(١) المتنبى للأستاذ شفيق جبرى ص : ٦٧ ، ٩٠

لقد سعى إلى الملك أهون مايكون شأناوأضعف مايكون ناصراً ، وأقل مايكون عدداً ، فأخفق فى مسعاه إخفاقاسريعاً ذريعاً ،وألقى فى غيابة السجن، فلبث فيه حتى كاد يتلف ثم خرج منه عائلامجهوداً وخاملامغموراً: لايحسه أحد،ولا يباليه أحد، فما زال يدأب ويلح فى الدأب حتى نفقت بضاعته ، وطار صيته ، وقدره الناس حق قدره ، فعاودته فكرة الملك رويداً ، وبلغت غايتها،من القوة والوضوح فى أثناءمقامه فى مصر،فحاول ماوسعته الحيلة ، وصانع ماأمكنته المصانعة،لعله يقضى منها وطراً ، فأخفق كذلك ، وأصبح امرأ محذوراً : لايؤمن جانبه ولا يصح إغفال أمره والسكوت عنه ، فضربت عليه الرقابة والتجسس ، وحدت حريته، وهدد فى أمنه وعافيته ، فلم يجد ملتحداً يعوذ به إلا الفرار ، فركبه على خطر ومغامرة ، ولم يبلغ طيته إلا بشق الأنفس . ثم إنه كان رجلا محسوداً ، طالما دبرت له المكايد ، ونصبت الشراك ، ودست الدسائس ، لم يسلم منها أينما توجه، وحيثما أقام . وكان مغرما بالمال يحبه حباً جماً ، ولا يألوه كدحاً وطلبا ، كأنما أراد أن يقيم به دولة من الأبهة والجاه ، بعد أن أعيته دولة الصولة والسلطان. وهيهات ثم هيهات مع هذه المشاغل الثقال أن يفيق الإنسان لوطنه ، يحن إليه ويتغنى بمحاسنه كما يتغنى الخلى الفارغ الفؤاد .

هو إذاً صاحب فن كما أسلفنا ، ينظر إلى القصيدة نظره إلى الموضوع المستقل أو الوحدة الفنية ، لاصلة لها بغيرها ، ولا تشابه بين أصولها وأصول غيرها إلا بمقدار ما يكون بين موضوعيهما من أسباب الاتصال والمشابهة . فمن حق القصيدة عليه أن تستوفى نصيبها من أسباب القوة والتأثير ، وإن أصيب هو فى هذه السبيل بتخالف الآراء ، والاضطراب بين المذاهب والنظريات ، صنيع الممثل اللبق ، يولع بفنه ، ويبذل له كل مايقتضيه من أسباب الإحسان فهو لذلك يأخذ نفسه فى جد وصرامة بالاندماج فى مواقفه ، ويلبس لكل موقف لبوسه الذى يلائمه ، ويوارى من شخصيته ووجداناته كل مايجافيه

أو يشذ عنه ، فبينا تراه فى موقفه طاغية متجبراً ، يدعو إلى الخسف ويمكن للاستبداد ، تراه فى آخر عدلا متواضعاً ، يدعو إلى السلم ، وينادى بالمساواة والشورى، ولقد تراه يضحك ويعربد وإن يكاد قلبه لينفطرهما وكمداً ، أوتراه يبكى ويتوجع وإن يكاد قلبه ليطير بهجة وسروراً .

والآن لعلك تريد مثلا من التناقض الذى ساقه الفن إليه ، وأوقعه فيه ، فلم ينكره ، ولم يحاول التخلص منه . دونك إذا موقفه من العرب مثلا أول . فالمتنبى كما لايخفى . عربى صميم ، أبوه من جعفى بن سعد العشيرة ، وجدته من همدان . وهو إذ يتجرد من تمثيله الشعرى ، ويخلو إلى نفسه يتحدث إليها وتتحدث إليه . يقف من العرب الموقف الطبيعى ، فينتسب إليها ، ويفخر بها . قال :

لى منصب العرب البيض المصاليت ومنطق صيغ من در وياقوت
وهمة صار دون العرش أسفلها وصار ماتحته فى لجة الحوت (١)

أما حين يمدح بشعره ، ويزجيه للتجارة والكسب ، فلا يعنيه أن يكون رأيه فى العرب مايكون ، إنما يدع ذلك لمطالب الموقف ، ودواعى الفن كما يراه صاحب الفن المحترف ، فهو دائما من ورائها ، يذهب مذاهبها وينزل على أحكامها فى غير تحرج ولا مبالاة .

استمع له يرثى للعرب ، ويتوجع لشقوتها ، أن ذهب عزها ودال سلطانها واستبدت بها الأعاجم ، يسومونها الخسف والمهانة ، على جفوتهم ، وسوء منبتهم ، وأنهم لا أدب عندهم ، ولا أحساب لهم ولا عهود :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيئاً عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك ، وما يفلح عرب ملوكها عجم
لاأدب عندهم ولا حسب ولاعهود لهم ولا ذمم

(١) زيادات ديوان المتنبى ، ص ١٤٠

فى كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنهم غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبرى بظفره القلم

إنه هنا كما سمعت . شاعر العرب ، يحس إحساسها ، ويترجم عن آلامها ، ويثير فيها الحمية والنخوة ، لايخاف بخسا ، ولايتوجس حرمانا ، فطبيعة الموقف تقتضى ذلك وتدفع إليه ، لأن الممدوح فى القصيدة عربى ، فلا عليه أن يكون هو أيضاً عربياً وإن لم يكنه .

ثم استمع إليه يلمز العرب ، ويزرى بعيشة البداوة ، ويؤثر العجم على العرب ، ويمتدح عيشة الحضر :

أرأيت همة ناقتى فى ناقة نقلت يدا سرحا وخفا مجمراً
تركت دخان الرمث فى أوطانها طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه وليس مسكا أزفرا

إلى أن قال :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافنى من ينحر البدر النضار لمن قرى

أتدرى سر هذا التحول من النقيض إلى نقيضه ؟ إنه الممدوح فهو هنا ابن العميد ، وهو من سلالة الأعاجم ، فهل عليه أن يكون هو كذلك أعجميا وإن لم يكنه ؟

ثم دونك مثلا آخر من مناقضاته الفنية ، إذا صح هذا التعبير . قال يتحدث عن بنى كليب ، وقد أوقع بهم سيف الدولة :

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شموسهم ضباب
ولاقى دون ثأيهم طعانا يلاقى عنده الذئب الغراب
وخيلا تغتذى ريح الموامى ويكفيها من الماء السراب

فهو كما ترى — يذكرهم بالخير ، ويصفهم بالشجاعة والمنعة ووفرة العناد .

أتدرى لماذا ؟ لأن الممدوح عربى ، وبينه وبين بنى كلاب صلة من نسب ، فمدحهم بما مدحهم به — يعد كذلك مدحا له .

واسمع ما يقول عن بنى كلاب أنفسهم فى مقام غير المقام :

أرادت كلاب أن تقوم بدولة لمن تركت رعى الشويهات والإبل
أبى ربها أن يترك الوحش وحدها وأن يؤمن الضب الخبيث من الأكل
وقاد لها دليل كل طمرة تنيف بخديها سحوق من النخل
وكل جواد تلطم الأرض كفه بأغنى عن النعل الحديد من النعل
فولت تريغ الغيث والغيث خلفت وتطلب ماقد كان فى اليد بالرجل
تحاذر هزل المال وهى ذليلة وأشهد أن الذل شر من الهزل

أتدرى لم هذا التحول أيضا ؟ لأن الممدوح هنا دليل بن لشكروز ، وهو ديلمى لا عربى ، خرج لقتال الخارجى الذى نجم بالكوفة من بنى كلاب . فالداعية الفنية فى مدح موقف هذا الديلمى من بنى كلاب غير الداعية الفنية فى مدح موقف سيف الدولة منهم ، وبين الموقفين من الاختلاف قدر ما بين الرجلين من الاختلاف كذلك .

والآن ، هلم إلى الديوان فى ضوء الحقائق التى أسلفنا ، نرجع البصر فى أبياته الوطنية ، ونتعرف الظروف التى تكنفتها ، والدواعى التى دعت إليها . قال :

در در الصبا أأيام تجريـ ـر ذيولى بدار أثلة عودى

وهذا البيت من مقطعة فى الغزل ، اختار الشاعر موضوعا لها حكاية العاشق الأشيب ، يتشوق ماضيه ويحن اليه ، ويتوجع من حاضره ويضيق به . وأبو الطيب كما لا يخفى . لم يكن شاعرا غزلا ، ولكن متغزلا مقلدا . ولعله فى غزله هنا أبين مايكون صنعة وتكلفا ، فالقصيدة فيما يقول العكبرى ، وفيما يبدو عليها من شعره فى عهد الصبا . وها هو ذا برغم حداثته يلبس لبوس الشيخوخة المتهدمة ، ويتكلف عواطف الشيخ العاشق ووجداناته . ألا تراه كيف يدعى

أن قد أصبح مقسم النفس بين السخط والرضا ، والنفور والحنين : يسخط على حاضره العابس المتجهم وينفر منه بما فيه من ضعف الشيخوخة وإعراض الغواني ، ويرضى عن ماضيه المشرق البسام ويحن اليه بما كان فيه من لهو ومتاع. ولكن كيف يستقيم له التمثيل ، وتتساوق معه مشاهد الموقف في حبكة واتساق إذا هو لم يعين موضع لهوه ومرحه ؟ إذا لابد من موضع يذكره . وما يمنع أن يكون ذلك الموضع هو دار أثلة ؟ أليست مكانا بظاهر الكوفة ، مسقط رأسه ومرتع صباه ؟ ليكن ذلك .وقال :

أمنسى الكناس ، وحضر موتا ووالدتى ، وكندة ، والسبيعا

والمقام فى هذه القصيدة مقام مدح واستمناح ، فالمعول فيه على التوريط وشدة التأثير ، لعل الممدوح يثيبه بجائزة سنية ؛ إذ كان الشاعر يومئذ مايزال عائلا مجهودا . وليس أحق بمحبة الإنسان فيما يعرف الناس من وطنه بين البلاد ، ومن أمه بين الأهل والأقارب . إذا ، فمن الخير له ، ومن أسباب التأثير فى ممدوحه أن يزعم له أن قد أنساه أمه ووطنه ، بحسن ملاطفته ،وجميل إيناسه ووفرة عطاياه.وقال :

تذكرت مابين العذيب وبارق مجر عوالينا ، ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلات ماقد كسروا فى المفارق
وليلا توسدنا الثوية تحته كأن ثراها عنبر فى المرافق
بلاد إذا زار الحسان بغيرها ترى تربها ثقبنة للمخانق

والشأن فى هذه الأبيات للمفاخ[illegible] الدولة

[illegible]اد

ممدوحيه ، ويدعى مشاركتهم فى بعض أحوالهم (١) ، وأن يعمل على أن يظل أثيرا عندهم ، ومقربا إليهم بالمخادعة والدهان ، وإعلان الانقطاع إليهم ، وبيع كل عزيز بهم (٢) فإذا كان سيف الدولة فى حربه مع قبائل العرب يستحق الحمد على بسالته ورباطة جأشه وشدة احتماله للمكاره — فماذا يمنع المتنبى أن يتطاول إلى مفاخرته ، وينسب إلى نفسه مثل الذى يصف من مناقبه ؟ أليس هو المتنبى الشاعر الطموح الذى يقول لكافور :

وفؤادى من الملوك ، وان كا ن لسانى يرى من الشعراء

فليتقمص إذا شخصية البطل المظفر ، تشغله مفاخره الحاضرة عن مفاخره الماضية حتى يكاد لا يذكر منها شيئاً إلا فى المناسبات . وهاهو ذا إيقاع سيف الدولة بقبائل العرب قد ذكره ، والشىء بالشىء يذكر ـ عهدا له بالعذيب وبارق ،

---

(١) قال يخاطب كافورا ، وقد بنى دارا ، ورغب إليه أن يذكرها فى شعره :

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدنى من البعداء
وأنا منك لا يهنىء عضو بالمسرات سائر الاعضاء

وقال يعزى سيف الدولة عن عبد له يسمى يماك :

لا يحزن الله الأمير فانتى لاخذ من حالاته بنصيب

وقال يعاتبه :

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف فى أهل النهى ذمم

وقال يتحدث عن أبى العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللف ظ ، كلانا رب المعانى الدقاق

(٢) قال فى مدح كافور الاخشيدى :

أ[illegible] لقاهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب
أعذب

قضاه فى صحبة قوم أنجاد أولى حمية وبأس ، وأولى ذخيرة وعتاد ، غاراتهم متعاقبة ، ومطاردتهم الأعداء غير منقطعة ، يعملون السيوف فى رءوسهم بلا رفق ولا مرحمة ، فيتحطم منها مايتحطم ، ويبقى من أصولها مايبقى ، فيتخذون من بقاياها مدى يذبحون بها القنائص والصيد . وربما افترشوا أرض الثوية إذا جن الليل : ينامون عليها هانئين ، طيبة نفوسهم ، قريرة أعينهم ، بما يفوح من شذا تربها العبق المعطار ، فإذا ماوصل أبو الطيب من هذه المفاخرة إلى الغاية التى أراد ، وأدخل فى نفسه الرضا من هذا الباب انقلب على عقبه كالعهد به خداعا مداهنا ، يريد أن يستأثر بسيف الدولة ويبلغ من نفسه غاية التأثير ، وأقبل يدعو إلى الهجرة من الوطن إذانبا ، وإلى مفارقة الأقارب إذا تغيروا وفسدت بينهم علائق الألفة والتناصر ليوهم سيف الدولة أنه أحب إليه من قومه ، وأن جواره أكرم عليه من وطنه ، مع مافيه من متعة وجمال ، ومايصله به من مفاخر وذكريات غوال ، قال :

ومابلد الإنسان غير الموافق ولاأهله الأدنون غير الأصادق

* * *

فلم تكن هناك إذا آراء فى الوطنية ارتآها الشاعر ، وعرضها فى شعره ، فإذا هى متضاربة ينقض بعضها بعضا ، وإنما كانت هناك موضوعات مختلفة ، اقتضى المقام فى كل منها ذكر الوطن بأسلوب خاص ، فلبى الشاعر داعى الفن ، غير متأثر إلا به ولا ناظر إلا إليه .

على أن المتنبي كان يدون سوانح أفكاره وخواطره العابرة ، كما تتمثل لوقتها فى ذهنه ووجدانه ، لا كما تشاكل أراءه ونظرياته السابقة ، مشاكلة النظير لنظيره ، أو الفرع لأصله ، فكان كالمرقب الذى يصور كل ما يمر به ، أو يتصدى له من أجرام السماء على الأوضاع التى بصادفها عليه حين التصوير ،

لا كما يتطلب التشابه بين أوضاعها السابقة واللاحقة وهذا يوافق طريقته فى صياغة الأساليب ، إذ كان فيما يقال [١] . يرسلها إرسالا على الصور التى تتهيأ له ؛ غير عابىء بما قد يصيبها من التعقيد أو ضعف التأليف .

**على النجدى ناصف**

مفتش المعارف بالإسكندرية

(١) التبيان : ١ : ٣٣٧ ، والصبح المنبى ١٠ ١٨٤

# العباسى

للأستاذ محمد أحمد برانق
المدرس بالإبراهيمية

خف على قلب الرشيد، فكان يتملح معه وينا ديه ، ياعباسى ، وكان من حقه عند مايريد أن يتظرف له أن يناديه يا أبا العباس ؛ لأن له ابنا يسمى العباس ، ولكنه بالغ فى استملاحه فهو العباسى ، مقبلا ومدبرا ، وهو العباسى غائبا وحاضرا . أما اذا جد الجد ، فهو الفضل بن الربيع الذى ينحدر نسبه من أحد موالى عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والربيع أبوه ابن أمة علقها أبوه ، فأنتجته ، فاستعبد واشتراه زياد بن عبد الله الحارثى ، وقدمه هدية إلى خاله أبى العباس السفاح فخدمه ، وحظى عنده ، ثم خدم أبا جعفر المنصور من بعده فخص به ، وظل أثيرا عنده حتى قلده العرض عليه ، واستوزه وقلد الفضل ابنه الحجابة .

✡✡✡

وكان الربيع يحاول أن يجعل لابنه منزلة عند الخليفة المنصور ، ويجعله خفيفا على قلبه ، حبيبا إلى نفسه ، قريبا فى مجلسه ، مستشارا فى أمور دولته ، ولعل ذلك كان أعظم مايتمناه ، إذ لاشىء عند الإنسان يعدل أن يرى ابنه قريبا من صاحب السلطان ، متمتعا بثقته ، آمرا بما يؤمر به ، ناهيا عما ينهى عنه يتصرف فى شئون دولة ، ويرعى عهد أمة ، وكل من حوله سميع مطيع ؛ ولذلك

تراه لما استوزره المنصور ترك أن يسأله حاجه تخفيفا ، وكان ذلك على غير عادة منه ، فقال له المنصور يوما : قد انقبضت عن مسألتى حوائجك حتى أوحشتنى ، فقال : ماتركت ذاك ، أنىّ وجدت لها موضعا غير أمير المؤمنين ولكنى ملت إلى التخفيف ، فأمره المنصور أن يعرض عليه مايجب من حوائجه قال الربيع : حاجتى يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابنى . قال المنصور : ويحك ! إن المحبة لاتقع ابتداء ، وإنما تقع بأسباب ، فقال : قد أوجدك الله السبيل إليها . قال : وماذاك ؟ قال : تنعم عليه ، فإذا أنعمت عليه أحبك ، فإذا أحبك أحببته ، قال المنصور : — فقد والله حببته إلى قبل أن يقع من من هذا شىء . ولكن كيف اخترت له المحبة من بين سائر الأشياء ؟ فأجابه الربيع : لأنك إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه ، وصغر عندك كبير إساءته وكانت حاجته عندك مقضية ، وذنوبه عندك مغفورة .

هذا هو الربيع يقرب ابنه من أمير المؤمنين ، ويلقى فى قلبه محبته ، ويطلب ذلك من الخليفة بعد أن أوحشه بالإعراض عن السؤال ، والانقباض عن مساءلته شيئا ، حتى يقع مايطلبه من نفس أمير المؤمنين فى المحل الذى يريده .

ويظهر أن الذين يتصلون بصاحب السلطان تحيط بهم أزهار وأشواك ، ويكثر حولهم الساعون بهم ؛ لأن المنافسة فى مثل هذه المواطن يغلب أن تكون السعاية وليدتها ، ولذلك لايصلح كل إنسان لها ، وإنما يصلح لها كل جبار داهية ، عركته الأيام ، فإن شرب من حلوها كأسا تجرع من مرها كئوسا ، لايطغيه السلطان ولا تبطره النعمة ، ولاتمر أمامه الحوادث كما تمر أمام كل الناس . يجب أن تكون كل جوارحه عيونا ، وكل جوارحه آذانا ؛ يعرف معنى الهمسة واللغتة والغمزة ، ويقدر لكل ماحوله نتائج يبتغيها أو يتقيها ، ويكون أحذق من حوله ، غير جاهل فى صناعته ولامتهم فى دينه وليس ذا هوى فى رأيه ، حتى تكتب له السلامة .

وقد أراد الربيع أن ينشىء ابنه تنشئة سياسية تنفعه فى قصور الملوك ، فأراد أن يحفر بئرا لأبى عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار ، وزير المهدى ، فسعى عليه وحمل المهدى على مكارهه ، مع أنه كان مختصا به من أيام المنصور. وكان ابنه الفضل يصاحبه فى الزورة التى كانت سببا فى غضبه من أبى عبيدالله ولامه على أن مر به ، وطرق بابه قبل أن يطرق باب الخليفة فحجبه ثم أذن له ولم يقم إليه ، فأقبل الربيع على الفضل وقال له : أنت أحمق يابنى. قال : وماحمقى ؟ قال : تقول لى ؛ كان ينبغى ألا تجىء ، وإذا جئت وحجبك ألا تقيم منتظرا ، ولما دخلت فلم يقم إليك ، أن ترجع فلا تكلمه ! ! لم يكن الصواب غير مافعلته كله ، ولكن والله الذى لا إله إلا هو لأخلقن جاهى ولأنفقن مالى ، حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله . ثم كان من الربيع مابلغ به ما أراد مع أبى عبيد الله ، فأحفظ عليه المهدى حتى أقصاه عن وزارته ، وكل ذلك كان على مرأى ومسمع من الفضل الذى تعلم السياسية على أبيه وتخرج فيها على يديه

اتصل الفضل بن الربيع بالرشيد ، وكان صاحبه ، وكاتم سره ، وموضع ثقته ؛ يستشيره فيشير عليه بما يوافق هواه ، ويرضى عنه . ويأتمنه على مالم يأتمن عليه غيره ، ولقد كانت له يد فى نكبة البرامكة ؛ لأنه سعى عليهم عند الرشيد ، وحمله على مكارههم . كما سعى أبوه من قبل على أبى عبيد الله عند المهدى ، وحمله على مكارهه . ولقد قالوا : إذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم — جعل لذلك أسبابا . فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع .

***

وسبب سعاية الفضل على البرامكة يذكره الجهشيارى فى كتابه « الوزراء والكتاب » . فى ص ٢٠٠ :

« ومما حكى من سبب سعى الفضل بن الربيع على البرامكة — ماحكاه محمد

ابن داود بن الجراح فى كتابه المسمى « كتاب الوزراء » عن محمد بن إبراهيم مولى خديجة بنت الرشيد عن أبيه ، وذكر أنه حضر ذلك . قال : نادم الفضل ابن الربيع الرشيد ، وخص به ، فقال لجعفر : قلد الفضل بريد ناحية يأخذ رزقها، ويستعين به على خدمتى ؛ فقال له جعفر بسلاسة خلقه : اختر . فقال: الموصل وديار ربيعة ؛ فأمر أن تكتب كتبه عليها ، وراح بها إلى أبيه ، فلما عرضها عليه ، وعرفه حال الفضل وخصوصيته — غضب يحيى وقال : هذه ناحية إلى أخيك ، وقد صرفناه عن أرمينية ، وتصرفه عن هذه ؟ وكان ولى خراج أرمينية وحربها ، وصرف عنها !! فقال : ما كنت لأفعل . فقال : فالموصل . فقال: لا والله ، فكره جعفر إغضاب أبيه ودافع الفضل ، وقرب عليه المواعيد ، وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شىء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته ومايحتاج إليه هو وعياله . فعزم على الفصد ، فقال لجعفر : يا أخى — أنا على الفصد وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إلى لما أهبه لهن ؟ قال : ما شاء أمير المؤمنين ، قال : عشرة آلاف درهم ، قال : وأين المال ؟ ولكن خمسة آلاف درهم . قال : فهاتها ، فبعث بها إليه ، ثم قال لجلسائه، وقد افتصد: أى شىء تهدون إلى ؟ ، فقال كل واحد منهم : قد أعددت كذا وكذا ، واحتال الفضل بن الربيع فى التخلص إلى منزله ، فرهن حقه من قطيعة الربيع ، وهو العشر على مائة ألف درهم عند عون الجوهرى الحرى ، فقال : إنى أريد أن أهديها إلى الخليفة ، فصيرها جددا ضربا ، فى عشرين بدرة ديباج ، مختمة بفضة ، وكان عون يحفظ للربيع يدا . فقال للفضل : أطابت نفسك عن جميع نعمتك فى هدية اليوم ؟ فأعلمه أن له عند الرشيد مواعيد ، فقال له عون : فإن عندى خادمين مسلولين [1] روميين أحدهما ناقد ، والآخر وزان . جميلى الصورة مراهقين ، وقد وهبتهما لك . وأحضره تابوت آبنوس محلى بالفضة .

(١) مخصيين .

فصير البدور فيه مع الموازين والصنجات ، وأقفل بقفل فضة ، وغشاه بديباج وكسا الغلامين الديباج ، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية ، ووجه بهما وبالتابوت مع من يحمله إلى دار الندماء ، فلما ثنى الرشيد الدم ، قال : اعرضوا على هداياكم ، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل بن يحيى من فاكهة ومشام ، وماأشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم.فقال: للفضل بن الربيع : أين هديتك ياعباسى؟وبذلك كان يدعوه ، قال : أحضرها يا أمير المؤمنين ، فقال:تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهما ، فقال للفراش : احملوها ، فحملوا شيئا راع الرشيد لما رآه،وكشفوا عن التابوت فاستحسنه . ثم حضر الغلامان ، ففتح أحدهما القفل ، فأخرج الموازين والأوزان ، وأخرج الآخر البدور ، ففتح بدرة بدرة ، واستوفى وزنها وختمها ؛ ولم يدر الرشيد ما يستحسن من جلالة الهدية ، واستطير فرحا ، وأمر بحمل المال ، وإدخال الغلامين إلى دار النساء ليفرقا المال على ما يأمرهما به ، وقال للفضل : ويلك ياعباسى !! ، من أين لك هذا ؟ ، قال : سيعرفه أمير المؤمنين ، قال : لتقولن . قال : بعت حقى من قطيعة الرسول لأسرك لما رأيتك قدفصدت وأنت مغموم. قال : والله لأسرنك ، وقام فدخل .

وانصرف جعفر يجر رجليه إلى أبيه ، فحدثه الحديث ، فكتب كتب الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة وديار مضر ، وختمها وبعث بها إليه ، فردها وقال : لاحاجة بى إليها . ولم يزل يحمل الرشيد عليهم حتى أوقع بهم — فكان يكره ذكرهم بالخير ، ويكره أن يمدحهم أحد فى مجلسه . حتى إن أبا العتاهية حينما أنشده :

ولى الشباب فما له من حيلة وكسا ذؤابتى المشيب خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا

تغير لونه ، وظهرت الكراهية فى وجهه . وما رأى منه بعد ذلك خيرا .

وكذلك كانت نفوس البرامكة من الفضل : حقد وغل وحسد وموجدة، وكانوا يكرهون أن يلوذ به أحد من ذوى الرأى والفضل والأدب حتى المغنين ، وكان يسخطهم على الناس أن يروهم فى بيته أو داخلين فيه أو خارجين منه . فلقد لقى الفضل بن يحيى البرمكى إبراهيم الموصلى المغنى خارجا من بيت الفضل بن الربيع ، فكان كأنه يترصده ، فلما وقعت عينه عليه ، ناداه : من أين يا أبا إسحاق ؟ أمن عند الفضل بن الربيع ؟ فقال إبراهيم : نعم ، غير متعذر من ذلك ، فقال : خروج من عند الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى ! هذان والله أمران لا يجتمعان لك ! ، فأجابه إبراهيم : والله لئن لم يكن فىَّ ما يتسع لكما حتى يكون الوفاء لكما جميعا واحدا ، ما فى خير . والله لا أترك واحدا منكما لصاحبه ، فمن قبلنى على هذا قبلنى ، ومن لم يقبلنى فهو أعلم . فقال له الفضل ابن يحيى : أنت عندى غير متهم ، والأمر كما قلت ، وقد قبلتك على ذلك .

ورد ابراهيم الموصلى على الفضل بن يحيى ، فيه جرأة وفيه قسوة ، وليس فيه رعاية لما للبرامكة من حرمة وموضع عند الخلافة فى ذلك الوقت ، إلا أنه ليس بمعقول أن يغالظ إبراهيم الموصلى الفضل البرمكى ويخاشنه ، إلا إذا كان يعلم حق العلم أن لابن الربيع منزلة وكرامة فى نفس الخليفة تساوى — أو على الأقل تدانى — منزلة البرامكة ؛ فهو يستطيع أن يحميه منهم ، ويدفع عنه أذاهم إن نقموا منه صلته به ووجدوا فى أنفسهم منه ؛ وإن فى ملاينة البرمكى له آخر الأمر وتركه على حاله فى الاتصال بابن الربيع دليلا على مكانهما جميعا فى نفوس البرامكة ، ولو أن ابن الربيع كان عندهم مقتحما مبذوءا ، لا يرجى ولا يخشى — لحالوا بينه وبين إبراهيم مهما كلفهم ذلك .

✡✡✡

فالبرامكة لم يحسنوا أن يصطنعوا الفضل بن الربيع ؛ فإنهم كانوا على عظمتهم يخشونه ويتقونه ، ولكن إلى حد لا يجعلهم ينتقضون على أنفسهم ، أو يحدون

من سلطانهم . فهو مثلا يصير إلى يحيى بن خالد ، ويسأله حاجة فيتقاعد عليه فيها ، فينصرف من عنده مغضبا ويقول:

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائك ويحدث من بعد الأمور أمور

فلما سمعه يحيى امتقع وتأثر وقال : نعم يحدث الله من بعد الأمور أمورا، ثم يقسم على أبى العباس ليرجعن ؛ ويتحمل هذه المسألة فى ماله ، ثم لا يبيت أبو العباس حتى يرضى .

هكذا كان يحيى بن خالد فى مسألته إياه ، وما كان كذلك فى توليته بريد الموصل وديار ربيعة كما أمر سيدهم جميعا وخليفتهم هرون الرشيد . يحيى بن خالد يخشى أن يماطل الفضل بن الربيع فى وجهه ، ولكنه يجرؤ أن يخالف الخليفة ، ويدافع الفضل ، ويقرب عليهم المواعيد ، وليس لذلك سبب أكثر من أن يريد الموصل وديار ربيعة فى يد ابنه جعفر ، فكره أن يخرج ذلك من يد ابنه إلى يد الفضل بن الربيع وإن كان فى ذلك مخالفة أمير المؤمنين .

ويظهر أن الفضل كان يحقد عليهم فى نفسه ، ولكنه كان ينتظر الفرصة المواتية التى يستطيع أن يتمكن بها من قلب الرشيد ، حتى إذا أمكنته الظروف من استيلائه على قلبه ، ثم من سوء تصرف البرامكة وطغيانهم ، وتناسيهم جلال الخلافة وجلال السلطان ـ استطاع أن يفعل مثل مافعل أبوه الربيع من قبل مع أبى عبيد الله زمن المهدى ؛ فمكن الله له بفضل سعايته ، كما مكن لابيه بفضل سعايته وشديد تأثيره وقدرته على اللف والدوران فى الكلام ، ومعرفة الأمور التى يجب أن تتبع فى مخاطبة الملوك .

ولقد بلغ من الدهاء ماجعله ينظر إلى هوى الخليفة أين يكون ، فيضع نفسه حيث يكون ذلك الهوى ، وحيث يقع من نفس صاحبه موقعا جميلا يجعله مقدما على غيره ، أثيرا عنده ؛ ولو كان ذلك الهوى فيمن يرجع بلحن ،

أو يطرب بنغم . حكى صاحب الأغانى فى الجزء السادس أنه لما مات المهدى وملك موسى الهادى ، أعطى الفضل بن الربيع بريده دنانير ، وقال : الحق بمكة ، فأتنى بابن جامع ، واحمله فى قبة ، ولا تعلمن بذلك أحداً ففعل البريد ذلك ، ثم ذكره موسى الهادى ذات ليلة ، فقال لجلسائه : أما فيكم أحد يرسل إلى ابن جامع ، وقد علمتم موقعه منى ؟ فقال له الفضل بن الربيع : هو والله عندى يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت الذى أردت ، وبعث إليه فاتى به فى الليل ، فأعجب الهادى بالفضل ، وولاه حجابته بعد أن أعطاه جائزة سنية .

وجرى يوما حديث بينه وبين الرشيد ، فقال له الرشيد : كذبت ! ، فلم يغضب ولم يتغير ، ولكنه أظهر لباقته وحسن تصرفه فى فنون الحديث ، وقال للرشيد : وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك ، فنفى عن نفسه صفة الكذب فى لباقة بعبارة ضمنها مدح الخليفة بخير ما يمدح به الخلفاء .

* * *

ظل كل من البرمكيين والفضل بن الربيع يجد فى نفسه على الآخر موجدة عظيمة انتهت بغدر الرشيد بالبرامكة ، وظل من بقى منهم حيا فى ذل السجن حتى عفى عنه بعد الرشيد .

وليس يدفع عن الرشيد مذمة السعاية ، أنه بعد نكبتهم حزن عليهم ، وندم على ما فرط منه فى حقهم ، وأطراهم وقرظهم ووصفهم وقال : كنا نعتب عليهم ، وقد صرنا نتمناهم ونبكى عليهم ، وكان يتمثل بقول حنظلة بن عرادة :

عتبت على سلم فلما فقدته وجربت أقواما بكيت على سلم

وبعد أن نكب الرشيد البرامكة لازمه الفضل بن الربيع ، وتولى الوزارة وغطى ميل الرشيد إلى الفضل على قلبه حتى أصبح لا يسمع عتب عاتب ؛ ولا لوم لائم ، وبلغ به ذلك أنه سأل يوما أحد خاصته : بأى شىء يتحدث الناس ؟ فقال : يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة !

فغضب وصاح به ، وما أنت وذاك ؟ ، ويلك !! ، فأمسك صاحبـه ولم يزد شيئا .

وكان الفضل يحضر مجالس أنس الرشيد وطربه ، ويصف له الجوارى بالحسن والإحسان والظرف والأدب ، فيسأله أن تسخو نفسه بهن ، وأن تكون له سلوة عنهن ، فيسخو بهن ، ويتمنى لو سخا بنفسه التى يفدى بها أمير المؤمنين فيغلب الجوارى أمير المؤمنين على قلبه . ومثل تلك الأمور لا تمر من غير أن تترك فى النفس أثرا حميدا تحمله الخلافة لصاحبها ، وتقربه إليها ، وتزيد مرتبته عندها ؛ وبخاصة إذا كانت تأتى من ناحية حبيبة إلى من فرغ باله واترف عيشه

ولقد كانوا يستشفعون به عند الرشيد لعلو مرتبته وعظيم محله عنده وممن استشفع لهم أبو العتاهية ، فإنه حينما وجد عليه الرشيد كتب إلى الفضل يستبطىء شفاعته .

أجفوتنى فيمن جفانى وجعلت شأنك غير شانى؟
ولطالما أمنتنى مما أرى كل الأمانى
حتى إذا انقلب الزما ن على صرت مع الزمان

فكلم الفضل فيه الرشيد ، فرضى عنه .

وكان هو المدبر لأمره ، والمختص به ، وقاضى حاجات منه ، ورفيقه فى الحج ، وعضده فى الغزو ، وظل فى المحل الأول عنده ، والمقدم على من سواه حتى إنه عند ما أراد أن يبنى بيتا له فى بغداد وهب له خمسة وثلاثين ألف درهم معونة له على بنائه ، حتى إذا خرج إلى طوس اعتل بها ، ثم ألحت عليه العلة حتى تحدث الناس بشأنها ، فلما علم بذلك الأمين « وهو يعلم مكان الفضل من الخلافة » أرسل إليه كتبا يطلب اليه القفول إلى بغداد ، والاحتياط على مافى العسكر إن حدثت بالرشيد حادثة ، فلما علم الرشيد بأمر هذه الكتب ، طلب إلى الفضل بن الربيع أن يأمر حاملها وهو بكر بن المعتمر بإحضارها إليه ،

(١) الأغانى حـ ٤

فأنكرها بكر ، فطلب الرشيد من الفضل أن يحتال عليه لأخذها منه ، وتسليمها إليه ، ولكن بكرا ينكر ويستمر فى إنكاره ، والفضل يتوعد ويتهدد ، ويعلم بكرا أنه إن لم يقدم الكتب بلغ منه غاية المكروه ، فأقام بكر على الجحود والإنكار مع أنهم قنبوه من قرنه إلى قدمه ، فأيقن بالموت ويئس من نفسه ، وتوقع خروجها ، وكاد يعمل على الإقرار ، ولكنه لا ييأس من الفرج وبينا هو فى أسوإ حال إذ به يسمع ناعيه ، وإذا بالفضل بن الربيع يقبل عليه ينعى إليه أمير المؤمنين ، فيعلم أن الله أنجاه ، وأنه قد بدأ حياة جديدة فاطمأن على نفسه ، وأخرج الكتب من حيث هى ، وسلم كتب الفضل إليه .

إذن خرج الرشيد من الدنيا . وآل أمر الخلافة إلى ابنه الأمين ، وتوشك أن تشب نار الخلافة بين الأمين والمأمون ؛ فإلى أيهما ينحاز الفضل بن الربيع؟ إنه ينحاز إلى محمد الأمين ، لأنه ولى العهد ، ولأن له فيه ثقة ، ولأنه يستطيع أن يؤثر فيه ، ولأنه ليس معه من هو مثل الفضل بن سهل ، فينازعه السلطان والتسلط على الخليفة . إذن انضم الفضل بن الربيع إلى الأمين ، وخرج الأمين به وكتب إلى أخيه المأمون كتابا جاء فيه : واضمم إلى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين ـ رحمه الله ـ وحرمه وأهله ، وأمره بالمسير معهم فيمن معه من رابطته وجنده . ويقول فيه أيضا مخاطبا المأمون : وإياك أيضا أن تنفذ رأيا ، أو تبرم أمرا ، إلا برأى شيخك ، وثقة آبائك : الفضل ابن الربيع ، وأقر الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، ولا تخرجن أحدا منهم عن ضمن ما يلى إلى أن تقدم على به ، وإن أمرت لأهل عسكرك بعطاء أو رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولى لإعطائهم على دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين ، فإن الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الأمور .

فالفضل بن الربيع هو الميمون بن الميمون ، وهو الأمين على حرم الرشيد

وولده وأهله ، وهو ثقة الرشيد والمهدى — فلا عجب أن يكون ثقة الأمين أيضا ، وإذا كان ثقة الأمين ، فإن المأمون لا يتصرف إلا بإذن منه ، وبعد إجازته . ولذلك لم يكن غريبا أن يجد الفضل بن الربيع فى المسير إلى بغداد من غير أن يعرج على المأمون ، أو يلتفت إليه ، ولم يقبل من رسوله الذى أرسله فى أثره ، ولم يلتفت إليه أيضا . لذلك كان طبيعيا أن يحقد عليه المأمون ، وأن يحقد هو على المأمون بعد ذلك . لأنه أصبح لا يأمنه على نفسه ، فهو لهذا يغرى الأمين بخلع المأمون ، وبالإيصاء لابنه ، إذ قد تحدث للأمين حادثة تذهب بحياته . فيقع هو فى نار المأمون يصطليها حرى مبيدة . فهو بعد أن ورد عليه من بغداد ، وتولى العرض عليه أغراه بالمأمون ، وحمله على أن يكتب إليه يسأله التجافى له عن بعض الأعمال بخراسان ، ويخبره أنه سيرسل إليه رجلا يتقلد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره ؛ ثم زاد أن حرمه مالا كان أبوه الرشيد اوصى له به ، ومانع من كان ببغداد من حرمه وولده . وبسبب هذه التصرفات التى عامل بها الأمين أخاه المأمون أو التى عامل بها الفضل بن الربيع ولى عهد الخلافة — استوحش المأمون ، واستحكمت وحشته ، وعلم مذهب أخيه فيه ، وأخذ فى أهبة التحرز منه .

✡✡✡

استوثق الأمر لمحمد الأمين ، فأخذ الفضل بن الربيع يزين له خلع المأمون ، فلما أجمع على ذلك بتأثير الفضل له ، لم يسمع النصيحة من مناصحيه ، واعتقد أن الرشيد أخطأ فى جعل ولاية العهد للمأمون ثم القاسم من بعده ؛ وكل من حاول صرفه عن هذا الأمر أو تأجيله ، وتذكيره بوعد أبيه — نهره . واستعظم المخلصون للخلافة أن يقع من الأمين ذلك ، مع ما وكده من البيعة ، وتوثق فى عهده عند خاصته وعامته .

وكان الأمين يرى أن ذلك كان فلتة من فلتات الرشيد ، وخطأ من رأيه شبه عليه فيه جعفر بن يحيى بسحره ، فغرس لهم غرس مكروه لا بد من قطعه

والذى يرى غير ذلك الرأى ، هو فى اعتقاده رجل مهذار ليس بذى رأى مصيب ؛ ولكن الرأى إلى الشيخ الموفق ، والوزير الناصح : الفضل بن الربيع.

إذن لابد من خلع المأمون وأخيه ، ولابد من البيعة للناطق بالحق ابن الأمين ولذلك كتب الفضل بن الربيع بذلك إلى العمال ، وينهى عن الدعاء لهما على المنابر ، ويرسل من يسرق الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ويمزقهما ، فيستوحش الناس من الأمين ومستشاره الفضل ، ويغضب المأمون ، ثم تقوم بينهما حرب يقتل فيها قواد الأمين ، وتضطرب الأمور فى يد الفضل بن الربيع ، فيحاول أن يلقى التبعة ، على الأمين نفسه ، ويحدث نفسه يوما فى صحن داره ، ويقول عن الأمين : ينام نوم الظربان ، وينتبه انتباه الذئب ، همه بطنه ، لا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى فى إمضاء رأى ؛ قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والأيام توضع فى هلاكه . ثم يأتى ببعض خلصائه ، ويستنجد بهم ، ويقول لهم : إنما نحن شعب من أصل إن قوى قوينا وإن ضعف ضعفنا ، وإن هذا الرجل ( يعنى الأمين ) قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويخلد إلى الرؤيا ، وهو يتوقع الظفر ، ويتمنى عقب الأيام ، والحتف أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، وقد خشيت والله أن نهلك لهلاكه ، ونعطب لعطبه . ثم يغرى أسد بن يزيد بن مزيد بالمأمون ، ويرجوه أن يقود له الجيوش بعد قتل على بن عيسى ، ويفزع إليه فى لقاء طاهر ابن الحسين ؛ لأنه صادق الطاعة ، فاضل النصيحة ، ميمون النقيبة ، شديد البأس ؛ ولكن أسدا يشتط عليه ، فيما يلتمسه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح ، فيغضب الفضل ويصير به إلى محمد الأمين ، ثم يحبسه .

إذن يتنكر الفضل للأمين ، ويتحدث بما فيه من عيوب شخصية وخلقية ، ويسرف فى ذلك ، وهو يعلم أن ذلك ليس من الحنكة السياسية ، ولكن صدر المرء إذا ضاق بصاحبه جرى ذكر عوراته على لسانه من غير أن يقصد إلى

ذلك ، إلا أن الفضل يعرف أن فشل سياسة الأمين فشل سياسته ، وأن نصرة المأمون خذلان له ، وعاقبتها وبال عليه ؛ ولذلك تراه يحاول أن يصد جيوش المأمون عن بغداد ، ويحاول أن يجمع الناس حول الأمين ؛ وإذا شئت تعبيراً أدق وأصرح ، قلنا يحاول أن يجمع الناس حوله ؛ لأن الأمور كلها أصبحت مزمومة فى يديه ، وكان يجرؤ أن ينكر على خليفته ما يراه فيه من خروج عن الحد الذى تقف عنده هيبة الخلافة ، وتبتذل إذا تخطته — حكوا أنه عزم يوما على الاصطباح وأحضر ندماءه والمغنين ، وصفت الموائد ، فلما ابتدأ ليأكل دخل عليه إسماعيل بن صبيح فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذى وعدتنى فيه أن تنظر فى أعمال الخراج والضياع . وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمال منذ سنة لم تنظر فى شىء منها ، ولم تأمر فيهـــا ، وفى هذا دخول خلل فى الأعمال . فقال له : إن اصطباحى لا يحول بينى وبين النظر ، وفى مجلسى من لا أنقبض عنه من عمى وبنى عمى وإخوتى ، وهم أهل هذه النعمة التى يجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه فاعرضه على وأنا آكل ؛ لأتقدم إليك فيه بما تحتاج إليه إلى أن يرفع الطعام ثم أتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعا أو أبرم الباقى وأفرغ منه . وإذ ذاك يحضر كتاب الدواوين بأكثر ما فى دواوينهم ويقبل إسماعيل يقرأ عليهم والأمين يأمر وينهى بأحسن نهى وأشده ، وكان يشاور من حوله فى الشىء بعد الشىء ، حتى إذا انتهى من طعامه دعا بنبيذ فشرب ثم شرب ، وكان الفضل بن الربيع حاضرا فلحق الأمين وشق ثوبه بين يديه ، ورفع صوته يقول : الله ، الله أعدل من أن يرضى أن يكون مدبر أمور أمة نبيه محمد ﷺ من هذه أفعاله . فضحك الأمين ولم ينكر على الفضل ما قال « الوزراء والكتاب ص ٤٥ »

هذه القصة وأشباهها مما يدل على مجون واستخفاف ، يرويها المؤرخون ، ولا ينكرونها أو يثبتونها بتحقيق أو تدقيق ، ونحن وإن كنا نقرؤها فيما نقرأ

من كتب التاريخ والأدب ، فإنه يعز علينا أن ننسب مثلها إلى خلفاء المسلمين فى تلك العصور المتقدمة والإسلام مازال فى عنفوانه .

مثل تلك الأقاصيص التى نعتقد أنها موضوعة أو مبالغ فيها حبكها الكسرويون ، أو الذين ينتسبون إلى أحزاب هواها فى غير الأمين : من المأمونين أو الطالبيين أو غيرهم ، إلا أنها مع ذلك تدل على ما كان للفضل من جرأة على الأمين فى مخاطبته . ولعل الكثيرين يعرفون قصة ملاعبة الأمين والفضل بالنرد التى قمر فيها الأمين الفضل وأخذ منه خاتمه ، فإن قصة الخاتم انتهت بغضب الفضل الذى لم يتمالك نفسه وقال : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . هذا خاتم وزيرك ، يختم به على جميع الآفاق . إلى أن قال: والله ما بغيت من هتك نفسك عند أوليائك ، والمنافقين لك والمطرحين ببغضك شيئا ، إلا وقد أنبته ، وما يضر ذلك الفضل ولا الربيع ، والله المستعان . فالفضل يغضب ويحتد على خليفته ويكلمه كلاما شديداً . والأمين لا يزيد على أن ينظر إليه ، ويضحك له ! !

* * *

وكان الفضل على عادة غيره من وزراء الأعاجم ، مبسوط اليد كثير النوال مقرباً للشعراء ، يملأ جيوبهم بالبدر ، فتنطلق ألسنتهم بالمدح ؛ وممن مدحوه أبو نواس وأبو العتاهية وغيرهما . ومن قول أبى نواس فيه :

أنت يا ابن الربيع علمتنى الخير وعودتنيه والخير عاده

وقوله :

ما من يد فى الناس واحدة كيد أبو العباس مولاها
نام الكرام على مضاجعهم وسرى إلى نفسى فأحياها

وممن مدحه إسحق بن ابراهيم ، قال :

مد لك الله الحياة مداً حتى يكون ابنك هذا جداً

مؤزّرا بمجده مردّى ثم يفدى مثلما تفـــدى
أشبه منك سنة وخدا وشيما مرضية ومجداً (١)
كأنه أنت إذا تبـدى شمائلا محمـــودة وقدا

وغنى له إسحق بن إبراهيم الموصلى ، وعلوية ومخارق .

وحدث حبيب بن الجهن النجدى أنه حضر الفضـل بن الربيع متنجزاً جائزته. فرأى عونا حاجب الفضل يخبر أن أبا العتاهية بالباب، فلم يأذن له خشية أن يمنعه من الركوب وكان قد تهيأ له ، فلما علم أبو العتاهية أن الوزير على الركب أخرج من كمه نعلا عليها شراك وأهداها إلى الفضل فقرأ حبيب الكتاب المكتوب على الشراك فإذا هو :

نعـل بعثت بها ليلبسها قدم بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها خدى جعلت شراكها خدى

فأعجب الشعر الفضل وحمله معه إلى الأمين وقرأه عليه ، فوهب لأبى العتاهية عشرة آلاف درهم .

✡✡✡

ساءت حال بغداد وانفل الناس عن الأمين ، وساءت مقالتهم فيه ، وفى وزيره الفضل بن الربيع ، وتمزقت الأموال التى كانت فى يده ، وتقدمت جيوش المأمون فلم يطق الفضل صبرا على البقاء فى بغداد واختفى سنة ١٩٦ هـ وكان يظهر فى بعض الفتن التى تقوم ضد المأمون ، فإذا أخمدت الفتنة أو كادت عاود اختفاءه . وأراد بعض أصدقائه أن يحفظوا عليه داره ، ويرعوا حرمة أهله وولده فسا كنوهم فى بيته ، وأعانوهم بالمال ، ودفعوا عنهم بقوة السلطان حتى إذا ظهر الفضل ، وأمنه المأمون ، رد عليه داره ، واعتزل هو ومن بقى من البرامكة ميادين السياسة ، واكتفوا بأن يعيشوا كما يعيش الناس . ومع

(١) البسة : الوجه لصقالته وملاسته ، أو هى الجبهة والجبينان .

ذلك فإن الأحداث التى نزلت بهم لم تطهر قلوبهم من غل الحقد ، ولم تطلقها من أسار الكراهية ، فظل كل منهم فى مكانه بالنسبة لا خيه ، وإن كانت دائرة الكيد والدس قدضاقت ؛ لأنهم أصبحوا لا يتنافسون على حكم ولا يتزلفون لسلطان . وإن المحاورة التى جرت بين علوية وإسحق بن إبراهيم الموصلى فى مجلس الفضل بن الربيع ، لتعرفك مابقى لهم من المنزلة فى نفوس الناس بالرغم من بعدهم عن السلطان ، ونعيم الحكم أو جحيمه .

حدث صاحب الأغانى فى الجزء الخامس ص ٣٠٦ على لسان أحمد بن يحيى المكى ، قال : « دعانى الفضل بن الربيع ، ودعا علوية ومخارقا ، وذلك فى أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه ، إلا أن حاله كانت ناقصة متضعضعة ، فلما اجتمعنا عنده كتب إلى إسحق الموصلى يسأله أن يصير إليه ، ويعلمه الحال فى اجتماعنا عنده » فأبطأ إسحق عليهم ، ثم وافاهم ومعه غلامه بحمل قطربل نبيذ ليشرب منه فلما نقد لعلوية غناءه عتب عليه علوية تأخره عن مباكرة الفضل ، وإحضار شرابه معه ترفعا عن شراب الفضل ، ثم قال له : « أما والله لو الفضل بن يحيى أو أخوه جعفر دعاك إلى مثل مادعاك إليه الأمير — بل بعض أتباعهم — لبادرت وباكرت وما تأخرت ولا اعتذرت » اهـ ص ٣٠٧ من المصدر نفسه . فأنت ترى أن علوية يعتب على إسحق ويعنفه ، ويوازن بين طاعته للفضل وطاعته للبرمكيين ؛ وهذا بدل على أن كلا منهما كان مازال ينظر إلى الآخر نظر المغيظ المحنق مع أن دولتهم جميعا قد دالت .

✡✡✡

فلما انحطت منزلة الفضل فى دار المأمون وفى نفوس الناس ، كانت تعود إليه ذكرى أيامه الأولى ، فكان يتمثل كثيرا بقول أبى العتاهية :

ما الناس إلا للكثير المال أو لمسلط مادام فى سلطانه
فإذا الزمان رماهما ببلية كان الثقات هناك من أعوانه

ولو أنه أخلص النصح للأمين ، ولم يزين له خلع أخويه من الخلافة ، ولم يعكر مابينه وبينهما ، وترك الأمور تجرى فى الحدود التى رسمها الرشيد ، ورعى حرمة ولاية العهد ، وجرى على رغبة الرعية — لو أنه فعل ذلك كله لتغير وجه التاريخ الإسلامى فى تلك الحقبة من الزمان،ولما كانت نهاية الأمين تلك النهاية السيئة التى تعد وصمة فى جبين التاريخ الإسلامى .

ولكننا نرجع ونقول : العبد يريد ، والله يريد . ولايكون إلا مايريد الله ؟ .

محمد أحمد برانق
بالمدرسة الإبراهيمية

# الراحـــــــة

بقـــلم

## ألدوس هكسلى ALDOUS HUXLEY

«لكل قارىء ذوقه الأدبى الخاص الذى يسيغ به مايقرأ من شعر أو نثر ، وله حكمه العقلى الذى يحكم به على الأدباء وإنتاجهم ، متأثرا بتربيته وبيئته ومقدار اطلاعه على أدب لغته والآداب الأخرى ، ومن أجل هذا أرانى أفضل أن أترك الحكم على الكاتب أو الشاعر الذى أترجم له ليكون القارىء فى حل من إصدار حكمه على آراء الكاتب أو أسلوبه أو تجديده فى الفكرة ، أو مدى انتفاعه وتأثره بغيره من الأدباء . ومن أجل هذا اقتصرت فى ترجمة « ألدوس هكسلى » على القدر الضرورى الذى يعرف القارىء به ، ثم ترجمت له هذا المقال عن الراحة ليجد فرصة يطلع فيها على تفكير كاتب من مشاهير كتاب الانجليز فى القرن العشرين»

عبد الرزاق حميده

---

أرى من الخير قبل أن أعرض هذا المقال على القراء أن أعرفهم بكاتبه العريق النسب فى الأدب الإنجليزى .

فهو ألدوس هكسلى بن ليونارد هكسلى من كتاب التراجم المشهورين . وجده توماس هكسلى العالم الأديب ذائع الصيت فى العصر الفكتورى . وأمه قريبة ماثيو آرنلد . وخالته مسز همفرى وود الكاتبة القصصية ، فليس من الغريب بعد هذا أن يهب هذا الكاتب حياته للأدب فى مختلف نواحيه .

ولد فى سنة ١٨٩٤ وتلقى دروسه الأولى فى كلية إيتون الخاصة بأبناء الأعيان الإنجليز ، وكان يريد أن يدرس الطب لولا أن أصابه عمى مؤقت منعه من الاستمرار فى الدراسة. فانتقل الى أكسفورد، ودرس الأدب الإنجليزى ونال الدرجة فيه .

وفى سنة ١٩١٦ انضم الى جملة المحررين والكتاب فى مجلة « شعر أكسفورد Oxford Poetry » ويقول عن نفسه : « قضيت السنتين الأوليين من الحرب فى أكسفورد ، وقضيت مابقى منها فى قطع الأشجار ، والعمل فى وظيفة حكومية بقدر ماسمح لى نظرى ، وفى التعليم فى مدرسة » واشتغل بعد ذلك محررا فى جريدة وناقدا مسرحيا لجريدة وستمنستر « Westminster Gazette » وكتب فى أثناء ذلك مقالات وقصصا صغيرة . وقد لمع نجمه حوالى ١٩٢١ ونشر أول مجموعة من مقالاته سنة ١٩٢٣ تحت عنوان « على الهامش » . وأهم كتبه هو « الدنيا الجديدة الجريئة » . وقد شغل نفسه فى الأيام الأخيرة بطبع خطابات د . ه . لورنس .

أما هو فطويل نحيل ، قوى الإحساس ، دائم الحركة ، أديب كثير الإنتاج ، وهبه الله قدرة عظيمة على التهكم عظيمة ، ويعيش فى إيطاليا الآن ، ولايزور باريس أو لندن إلا لماما .

أما المقال الذى كتبه عن الراحة ، وهو حديث اليوم فهو :

« الراحة أو الظاهرة الجديدة » ويسميها أصحاب الفنادق من الفرنسيين « الراحة الحديثة » وهم على حق فى هذه التسمية ، لأن الراحة حديثة النشأة ، أصغر سنا من البخار وكانت طفلة عند ماولد البرق ، ولا تكبر المذياع إلا بجيل . وإن اختراع وسائل الراحة وتتبعها ، واعتبارها غاية يسعى إليها ، ظواهر حديثة لانظير لها فى التاريخ منذ عهد الرومان

وقد كانت شدة الصلة بيننا وبين هذه الظواهر سبباً فى أن نتقبلها بقبول

حسن ، وألا نعبأ بما فيها من غرابة ، ولاجدة . ولا نهتم بما لها من قيمة . فالكرسى اللين ، والفراش الناعم والأرائك . والتدفئة بأنابيب الماء الساخن ، والحمامات الساخنة ، وغيرها من وسائل الراحة يعرفها ويتمتع بها كثير من الطبقة الوسطى ، ولم يكن يعرفها الملوك والأباطرة من ثلثمائة عام .

وأول مايلفت النظر فى الشقاء الذى عاش فيه أجدادنا أنه كان إلى حد كبير اختياريا .

وإذا كان بعض وسائل الراحة الحديثة جديد الاختراع كإطارات العجلات من المطاط التى لم تعرف قبل اكتشاف أمريكا الجنوبية ونبات المطاط ، فإن كثيراً من المواد الأولية التى استخدمها الحديثون لجلب الراحة ليست جديدة . وقد كان فى قدرة الناس أن يصنعوا الأرائك ، وكراسى حجرات التدخين ، وكان فى استطاعتهم أن يوسعوا الحمامات وأن يدفئوا بيوتهم بالماء الساخن يجرى فى الأنابيب إلى حجرات المنازل عاليها وسافلها ، وأن ينشئوا أقساما للنظافة العامة ويصلوا بيوتهم بها فى أى زمن من الثلاثين أو الأربعين قرنا الماضية ، وقد كانت هناك محاولات كهذه ، واستطاع بعض الناس أن يستمتعوا بهذه الوسائل أحيانا . ومن هؤلاء الرومان الذين اهتدوا إلى التدفئة بوساطة الهواء ، واشتملت حماماتهم الخاصة على أدوات للاستحمام لا تصل إلى التفكير فيها أحلام القرن العشرين . فكانت هناك حجرات تسيل العرق ، وحجرات للتدليك ، وحجرات للتجفيف ، وأرائك للراحة بعد الحمام . وأما الحمامات العامة فكانت فخمة جداً حتى قال « سنكا » : « لقد وصلنا فى الكماليات إلى درجة عظيمة ، وأصبح الواحد منا لايرضى إلا أن يمشى فى حمامه على لآلىء » وأما مساحة الحمام الواحد فكانت كبيرة جداً تتناسب مع عظمتها وزينتها ، حتى إن حجرة واحدة فى حمام من حمامات الإمبراطور ديوكلتيان (٢٨٤ — ٣٠٥ م) كانت كافية لبناء كنيسة كبيرة مكانها .

ومن السهل أن نضرب غير هذه الأمثال للدلالة على أنه كان من المستطاع أن يجعل آباؤنا حياتهم مريحة بما كان عندهم من وسائل محدودة للراحة ، وإذا كان أهـل العصور الوسطى والذين عاشوا فى أوائل العصور الحديثـة قد اختاروا حياة تاعسة لا راحة فيهـا ، فذلك لأنهم قد فضلوا حياة التعب على غيرها ، ولأن القذارة والتعب قد ناسبا مبادئهم وتعصبهم السياسى والخلقى والدينى

**الراحة والحياة الروحية .**

ولـكن هل هناك علاقة بين الراحة والنظافة ، وبين السياسة والأخلاق والدين ؟

قد نقول — إذا لم ننعم النظر — إنه لايحتمل أن تـكون هناك علاقة بين الـكراسى الوثيرة والديموقراطية . ولا بين الأرائك وانحلال نظام الأسرة . ولا بين الحمامات الساخنة وانحطاط الطهارة المسيحى . ولـكن النظر الدقيق يهدينا إلى قوة الصلة بين نمو وسائل الراحة فى العصر الحديث ، وبين تطور الأفكار ، وأرجو أن أوفق فى هذا المقال إلى بيان هذه الصلة ، وأن أوضح السبب الذى جعـل من المستحيل على الأمراء الإيطاليين فى القرن الخامس عشر ، وعلى عصر إليزابث ، ولويس الرابع عشر ، أن يعيشوا فى مثل النظافة والحياء اللذين كان يتمتع بهما الرومان ، وأن يستمتعوا بما نراه اليوم ضروريا لنا .

ولنبدأ بالـكراسى المريحة والتدفئة بأنابيب الماء الساخن فنقول : إنها أصبحت ممكنة بعد القضاء على نفوذ الملوك ورؤساء الإقطاع ، وانحطاط السلطان المقدس الذى كان لرب الأسرة على أفرادها ، وللـكبير فيها على الصغير ، ومن الممكن الآن أن يستلقى الشخص على كراسى حجرة التدخين ، وعلى الأرائك . وليس

الاستلقاء الآن من وسائل العظمة ، ولا دلائل الاحترام . وإذا أردنا إهانة شخص أقل منا فلا يكون ذلك بالاضطجاع فى كرسينا حتى تحاذى رءوسنا أرجلنا . بل يكون ذلك بالاعتدال فى المجلس وتكلف العظمة . وإذا أردنا أن نظهر الأدب لسيدة أو الاحترام لعجوز أو شخص مهم اعتدلنا فى مجلسنا أو وقفنا .

وفى القديم كانت الجماعة الإنسانية محكومة بقوانين مقدسة، وكان على كل شخص فيها أن يبدو أمام من هم أقل منه عظيم الشخصية ، ومؤدبا أمام من هم أعلى منه منزلة . وكان من المستحيل فى مثل هذه الجماعة أن يتمتع المرء بحريته فى الجلوس كما نستمتع اليوم .

ولم يكن من الممكن للويس الرابع عشر مثلا أن يستمتع بحرية تامة فى مجلسه أمام رجال البلاط كما كان من المستحيل عليهم ذلك فى حضرته . ولم يكن يسمح لنفسه بهذه الحرية على ملأ من الناس إلا إذا حضر مجلس البرلمان ، فكان يستلقى على ظهره فى « كرسى العدل » بينما يجلس الأمراء ، ويقف كبار الضباط ، ويركع الصغار منهم ، وكانت الراحة ميزة خاصة بالملك ، وله وحده الحق فى أن يمد رجليه إذا شاء . ومن المؤكد أنه كان يمدهما بطريقة ملكية خاصة . ولم يكن التحلل من القيود إلا بقدر . وإذا جلس الملك فجلوسه على شكل خاص وفى مكان مرتفع . وكان على رجال البلاط أن يبدوا فى شكل آخر . وإذا جاز لبعض ذوى الدم الأزرق منهم أن يجلسوا فليجلسوا على دَكة .

وما كان يجرى فى قصور الملوك كان يجرى نظيره فى قصور الأعيان ، وكان للوالدين فى محيط الأسرة حكم الأمراء أو البابوات . فهم ملوك يحكمون بالحق الإلهى . والأبناء هم الرعية . وقد أخذوا الوصية الخامسة فى أيديهم بجد . حتى إن غلاما قتل علنا لاعتدائه على والديه فى أيام سيادة قوانين كلفن فى جنيف .

ومع أن استلقاء الطفل فى كرسيه لم يكن من الكبائر إلا أنه كان عملا لايدل على الاحترام ، وكان عقابه الجلد والجوع والسجن . حتى إن « جونزاجا » أحد حكام مانتوا فى إيطاليا ، ركل ابنه فقضى عليه لأنه نسى أن يلمس قبعته، وهو يحيي أباه . ولا ندرى ماعقابه لو أنه لم يجلس معتدلا فى كرسيه . وإذ كان محرما على الأطفال أن يجلسوا مستلقين على كراسيهم ، فقد كان ذلك محرما على الآباء كذلك خشية أن تنحط قيمتهم فى أعين أولادهم ، ومن هذا نرى أنه كان من المستحيل فى الجماعات الأوروبية منذ قرنين أو ثلاثة أن يستلقى إنسان فى كرسيه بحضرة أى إنسان آخر . وكان فراش البيت متمشياً مع هذه النظم والقوانين التى تحكم بها الجماعة فى تلك الأزمان، وكان فى مقدور صناع الأثاث أن يجعلوا الكراسى مريحة والأرائك مماثلة لأرائك اليوم، ولكن نظام الجماعة باعد بينهم وبين التفكير فى هذا .

ولم يصبح الكرسى عام الاستعمال إلا فى القرن السادس عشر وكان من قبله رمزا للسلطان.

ورجال البرلمان الآن وأعضاء اللجان يستريحون فى مجالسهم ويستلقون فى كراسيهم ، ولكن السلطة مازالت للجالس فى الكرسى أو الرئيس ( Chairman ) ، وكانت فى القرون الوسطى للعظماء فقط . فإذا سافر عظيم منهم أخذ معه كرسيه لئلا يظهر لحظة واحدة بعيدا عن مظهر سلطته وعزته . ومازال للعرش مالتاج من قوة الرمز إلى السلطان.

ولما جاءت النهضة وظهر العصاميون الأغنياء ظهرت معهم الكراسى، وابتدأت تكون حقا لغير العظاميين . ولكن الجلوس فيها كان مقيدا بقيود تجعلها غير مريحة . وكان شكل الكراسى فى القرن السادس عشر أشبه بالعروش ، حتى أغرت الجالسين فيها فتكلفوا العظمة . ولما جاء القرن الثامن عشر انحلت قيود النظام الاجتماعى المقدس . وعند ذلك أخذ الأثاث

المنزلى يكاد يكون مريحا . وحتى فى ذلك الوقت لم يكن الاستلقاء على الكراسى مسموحا به . ولم تعرف الكراسى المريحة والأرائك التى يستطيع أن يستلقى الإنسان فيها أو يجلس مضطجعا ويهز رجليه إلا بعد أن رسخت أقدام الديمقراطية ، وغنيت الطبقة الوسطى ، وتحررت المرأة ، وانحلت قيود الأسرة القديمة .

## التدفئة بأنابيب المياه الساخنة ونظام الاقطاع :

هناك عامل آخر فى الراحة الحديثة هو تدفئة المنازل ، وقد كان مستحيلا على حكام الأراضى على الأقل بسبب النظام السياسى للجماعات فى القديم . وكان الدهماء أكثر حظا فى هذا من العظماء ، إذ كان من السهل تدفئة البيوت الصغيرة ، أما العظماء والأمراء والأساقف الأعظم والملك نفسه فقد كانوا يعيشون فى قصور عظيمة تتناسب مع مركزهم الاجتماعى ، وليبرهنوا على أنهم أعظم من غيرهم كانوا يستقبلون ضيوفهم فى أبهاء فسيحة جدا ويمشون فى مواكب مهيبة فى هذه الأبهاء التى تشبه أنفاق جبال الألب طولا وهواء ، أو يصعدون وينزلون سلالم تشبه جنادل النيل لو كانت من الرخام . وكان العظيم فى ذلك الوقت ينفق معظم وقته فى إقامة حفلات فخمة ، ويحيى ليلات عظيمة تحتاج إلى حجرات كثيرة من أجل الممثلين والمدعوين ، وذلك يدلنا على ما كانت عليه الحجرات من سعة فى هذه القصور الفخمة ، فقد كان يصل بعضها إلى مائة قدم طولا وثلاثين ارتفاعا . ما أعظمها وأفخمها ! ولكن ما أبردها ! ولا نتصور أن يفكر فى بناء مثلها أى عصامى من رجال المال فى العصر الحديث ، الذين يضحون بالعظمة فى سبيل الراحة .

وكان أصحاب تلك القصور يضطرون فى ليالى الاحتفالات أن يجلسوا ساعات طوالا يرقبون التمثيل فى حجرات باردة ، تصفر رياحها ، وتعصف فى جوانبها تيارات قوية من الهواء .

ولقد عشت فى إيطاليا فى قصر من هذه القصور ، وأذكر أن حجرات النوم فيها تصلح صالات للرقص ، وحجرات الجلوس أشبه بمحاط سكك الحديد ، وأما السلالم فتسمح لعدد من السيارات الكبيرة أن يمشى بعضه بحذاء بعض . ولكن الريح العقيم التى تهب من جبال « أبنين » تجعلها لا تطاق .

## الحمامات والأخلاق

إنا لمدينون بالعاملين السالفين من عوامل الراحة إلى ضعف الملكية والارستقراطية ونظام الجماعات . والعامل الثالث من هذه العوامل هو الحمامات ، وترجع العناية به الى ضعف الأخلاق المسيحية . مازالت مدارس الأديرة منتشرة فى أوربا وفيها يتعلم البنات أن الأجسام الإنسانية أشياء دنسة . وأن النظر اليها خطيئة للأجانب ولأصحابها على السواء . وعلى هذا فلابد لهن أن يسترن أجسامهن وقت الاستحمام بقمصان تصل إلى ماتحت الركبة . وقد تعلمن طريقة خاصة فى لبسهن . لاتسمح أن يظهر منها إلا قليل . وهذه المدارس غريبة الآن لحسن الحظ . ولكنها كانت ذات نفوذ عظيم فى الماضى القريب والبعيد . وكانت تخضع لتعاليم الكنيسة التى تقول بتضحية الجسم كلية ، وظلت هذه التعاليم سائدة من عهد القديس أنتونى والقسيسين الذين كانوا لايستحمون ويجوعون ويكفون عن شهوات بطونهم وفروجهم إلى العهد الحاضر ، ويرجع تمتع النسوة الآن بالاستحمام الكثير إلى ضعف هذه التقاليد .

لم يكن المسيحيون الأولون يهتمون بالاستحمام ، ومن العدل أن نقرر أن تحمس المسيحية للروح ضد الجسم لم يكن معاديا خلال الأزمان كلها للنظافة ، وقد كان من الطبيعى أن يعارض آباء الكنيسة الأولون الطريقة الرومانية المزعجة فى الاستحمام لاختلاط الجنسين فيها . ولكن المعتدلين منهم قد سمحوا بالاستحمام أحيانا مادام الحياء ملحوظا . ولقد كان القضاء على الحمامات

الرومانية العظيمة ناشئا من معارضة الرهبانية المسيحية ، كما كان بسبب إتلاف البرابرة لها . ونشط الاستحمام فى « عصور الإيمان » وعاد الصليبيون من الشرق بنظام حمامات البخار التى أصبحت محبوبة فى كل أنحاء أوربا بعد ذلك، ولكنها فقدت مركزها لسبب لا يعرف . وأصبح الرجال والنساء فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر أشبه فى القذارة بآبائهم البرابرة . ولعل النظرية الطبية عندهم ، وتقاليد البلاط كانت مسئولة عن هذا التذبذب .

ومن الملاحظ أن التحريم الدينى يكون قويا دائما فى كل مايتعلق بالنساء، ويخبرنا جنكور Goncourts من مؤرخى القرن التاسع عشر أن قلة الحياء وضعف الأخلاق فى النساء يرجعان إلى كثرة الاستحمام بينهن فى أيام الإمبراطورية الثانية وكانت نتيجة ذلك أن « على البنات أن يقللن من الاستحمام » وإن سيدات اليوم اللاتى يتمتعن بحظهن من النظافة لمدينات : لفولتير لتهكمه وسخريته من التحكمات التى لا أصل لها من العقل . وللماديين من علماء القرن التاسع عشر . ولولم يوجد هؤلاء الرجال للقضاء على مدارس الأديرة لبقيت عند بناتنا من الحياء والقذارة ما كان عند جداتهن .

**الرامة والطب :**

يرجع الفضل الآن للأطباء فى انتشار الحمامات وشيوع الاستحمام ؛ فإن اكتشاف الجراثيم جعل للنظافة مركزا ممتازا ، وقيمة مختلفة عن قيمتها القديمة . فنحن نستحم الآن متحمسين للنظافة . وقد أصبح للحمامات الآن قوة سحرية تحفظنا من قوى الشر التى تلبس ثياب الجراثيم ، ونحن نتنبأ بأن هذا الدين الطبى الجديد سيقضى على التقاليد المسيحية الخاصة بالجسم وإهماله. ومنذ وصلنا إلى فائدة ضوء الشمس للأجسام أصبح الإكثار من الملابس جريمة طبية . وأصبحت قلة الحياء فضيلة . وقد يصبح العرى فى القريب أمرا شائعا ، وتكون هذه آخر مرحلة فى جعل الملابس مريحة . وقد وصل

إليها الآن كثير من الرجال والنساء .

لقد كتب فلتشر Fletcher يصف زيارة جلادستون لأكسفورد ، قبل موته بقليل فقال: إنه لم يرض عن ملابس الطلبة هناك لرخصها ، ولتبذلهم فيها . وقال: إن ملابس الشبان فى أيامه كانت غالية ، يصل الواحد منها إلى مائة جنيه بما عليه من جواهر . وكان لكل شاب سروال مكوى يحافظ عليه . وكانت زيارة جلادستون أيام أن كان الطلبة لا يزالون يلبسون « ياقات عالية منشاة، وقبعات مقواة » ولا يمكن أن نتخيل ما كان يقوله لو رآهم الآن بقمصانهم المفتوحة ، وسراويلهم الواسعة . والآن قد وصل التحلل من القيود إلى درجة لم يصل إليها أحد من قبل . فالرجل الآن لا يتقيد بالرسميات فى اللباس إلا فى القليل النادر .

أما العقبات فى سبيل راحة النساء فقد كانت سياسية وخلقية . وكان عليهن أن يرعين التقاليد الاجتماعية والدينية معا . وبقين يرزحن تحت قيود التقاليد زمنا طويلا باسم الحياء بعد تحلل الرجال منها، ولما جاءت الحرب وقمن بنصيبهن فيها وجدن طبيعة العمل والراحة تقضى بالخلاص من قيود الحياء القديم . فضحين بالحياء وبانت لهن فضائل هذه التضحية فبقين بعيدات عن هذه القيود، لتستفيد جسومهن وتزيد راحتهن، وطراز الملابس فى الحديث من أكثر الطرز راحة لهن ، حتى من ملابس الإغريق .

### الراحة غاية فى ذاتها :

أصبح طلب الراحة لذاتها الآن سببا من أسباب انتشارها ، وقد أصبحت ممكنة بسبب التغيرات التى طرأت على فلسفة الحياة وهى الآن « مودة » جديدة ، وعادة طبيعية ومثال أعلى يقصد إليه الناس لذاته ، وكلما زادت الراحة فى هذه الحياة زادت قيمتها . وألم التعب الآن كبير جدا للذين عرفوا طعم الراحة . ومع ذلك « فالمودة » التى تقلل من أهمية الراحة الآن « مودة » شائعة قوية . والرغبات المادية الكثيرة الآن مرتبطة بوسائل

الراحة . وصناعة الأثاث ، وآلات التدفئة . والأعمال الصحية فى المنازل لا تساعد على موت حب الناس للراحة . فهناك على العكس من ذلك — فى وسائل الإعلان الحديثة عن هذه الوسائل ما يساعد على نمو هذا الحب وازدهاره .

وقد ذكرت الآن الأسباب الروحية التى أدت إلى الراحة فى العصور الحديثة باختصار . ولأقل كلمات قليلة عن آثارها :

لا يمكن للإنسان أن ياخذ من غير أن يعطى ، وإن الوصول إلى الراحة يقابله خسارة أشياء أخرى قيمة ، فالذى يبنى بيتا الآن يهتم كل الاهتمام بوسائل الراحة فى مسكنه المستقبل ، وينفق عليه مالا كثيرا فى آلات التدفئة ، والحمامات ، والفراش الناعم الوثير وما أشبه ذلك ، وبذلك يصبح البيت فى نظره تاما .

والذى ينفقه صاحب البيت الآن على بيته فى الأدوات الصحية والتدفئة بأنابيب الماء الساخن ، كان ينفق فى الأيام الخالية على سلالم الرخام ، ووجه المنزل ، والصور الطبيعية على جدر الحجرات ، وتذهيب هذه الجدر ، وعلى الصور والتماثيل ، وكان البابوات فى القرن السادس عشر يعيشون فى شقاء وتعب منزلى ، لا يسمح لنفسه به الآن مدير مصرف صغير .

ولكن هؤلاء البابوات كانوا يتمتعون بالصور الطبيعية على الجدر يرسمها رفاييل ، وصوامع يبينها سيستينى ( Sistine ) . ولكن أترثى لهم لخلو الفاتيكان من الحمامات والأنابيب الساخنة الماء ، وكراسى حجرات التدخين ؟ أننى أميل إلى القول بأننا الآن نبالغ فى حب الراحة ، ولقد عشت فى بيوت كالتى عاش فيها آبائى من السكسونيين . وكنت سعيدا مع خلوها من كل وسائل الراحة التى يراها قومى الآن ضرورية ، والشرقيون وسكان جنوب أوربا يعيشون سعداء فى بيوت لا تعرف وسائل الراحة التى نتمتع بها ، ولا

يمنع سعادتهم خلو بيوتهم من هذه الوسائل .

إنى رجل قديم وأعتقد فى القيم وعديم القيمة من الأشياء ، ولا أستطيع أن أرى للتقدم المادى فضلا إلا إذا خدم الفكر . وأحب الاختراع الذى يقلل العمل ؛ لأنه يقتصد الوقت والقوة فتستخدمهما فى العمـــل العقلى ، (ولكن هناك من الناس من يكره العمل العقلى ، ويفكر فى اختراع الوسائل للاقتصاد فى العمـل العقلى ، كما يفكر فى اختراع « ماكينات الخياطة » وفى الآلات الأتوماتيكية لغسل الأوانى ) وأحب وسائل الانتقال السريعة لأنها توسع الأفق الذى يحد العقل .

وهناك مبررات للراحة عندى ، فهى تسهل الحياة العقلية . والتعب يعوقها . ومن الصعب أن أفكر وأنا أحس ببرد أو صداع . والراحة عندى وسيلة لغاية ، ولكن العصر الحديث يعتبرها غاية فى ذاتها وخيرا مطلقا !

عبد الرزاق حمبده

الى النفوس الحائرة

# رحـــــــلة طائر

— ١ —

للشاعر الأستاذ فايد العمروسى

«ملحمة شعرية فى عشرين نشيدا ، ترمز إلى رحلة خيالية ، قام بها طائر حين أشرقت شمسه ، سابحا فى فضاء الوجود يتحسس فى دياجير رحلته جوانب شتى من جوانب الحياة، متطلعا إلى الطبيعة الحية فى كثير من ألوانها وضروبها ، والطائر فى رحلته ، من شمسه إلى فجره ، شاعر فى حياته النفسية ، وأحاسيسه الوجدانية ، فى عهد من عهوده ، مبدؤه هذه الشمس ، ونهايته ذلك الظلام»

---

## فى الصباح

راحَ يسعى بجِدِّه المُتوالى  دائمَ الكدّ ، مستمرَّ النّضال
يبتغى العيشَ فى جهاد عنيف  بين رَوض الرُّبا وقفر الرمال
كلُّ حىٍّ يدبّ فوق ثراها  ويُلاقى صِعَابها لايبالى
تسأمُ الأرضُ من خُطاهُ وتَسلو  وهو فيها متيّمٌ ، غيرُ سال
شأنَ كُلّ ، يرى الحياةَ جهادًا  فيُضحّى لحبّها كلَّ غال

✡✡✡

طالَعَ الشمسَ فى بكور وأَمْضى  شُعلةَ الضوء طائفا كالخيال
يهبط السهلَ بين حين ، وآنًا  يعتلى الجوَ ضاربًا فى التِّلال

يلقط الحبَّ من ثراهُ ويجرى وهو قاسٍ على الثّرى فى النزال
ويرودُ الأزهار ، يَحسُو لماها فَيروّى صداه عَذبُ الزّلال

✡✡✡

ويجوب البحارَ فوقَ مياهٍ لامعاتٍ كلؤلؤٍ سَلْسال
وهو فى ذلك الفضاء طليقٌ يرسل الصدح بين ريح الشمال
بين سرب الطيور وهْىَ شوادٍ فى فسيح الأرجاء مرحى سوالى
يَعْتلينَ الغُصونَ آناً ، وآناً يفترشْنَ الكروم تحت الظلال
تجتنى كلَّ ماتحبّ وتَهوَى لاتَنى عن محرّم أو حلال
ليس تدرى من الزّمان اعتسافاً أو تُبالى بحادثات الليالى
كلّ شىء ترومه مُسْتَباحٌ كان بالأرض، أو بِمَتنِ الجبال
ذاك سرٌ وحكمةٌ تتجلّى تخلق الطيرَ بين وادى الجمال

✡✡✡

## فى الغـــروب

وَمَضتْ جذوةُ النهار سِراعاً وبَدَا الأفقُ فى ثياب الحياء
بينما الشمس قد توارت يئوسا كمحبّ منى بحـــرّ الجفاء
فَلَّ منها الشعاع يخبو رويداً كسقيمٍ أضناه مرُّ الدواء
وَتَمشّى الشعاع فوق الرَّوابى وتَرَامى على ضفاف الماء
وسَرَى فوق متْنه يتهادى فى دلال وروعةٍ وبهاء
وهَفَا بالرياض شدوٌ وديعٌ ناعمُ اللحنِ فى رقيقِ الغناء

نغماتٌ كخطرة الشعر تسمو في خلود بمرتقى العلياء
بين هذا الرواء، والشمس كالقـ ـم لب الجريح، المريق حُرَّ الدماء
راح كلُّ الأنام يسعَوْن جهدا حيث يرجون راحة من عناء
وعناءُ النهار جدٌّ أليمٌ يزحم النفس من ضروب الشقاء
فجموع الطيور في الجو تسرى لترودَ الوكورَ قبل المساء
وعيون الحياة أسبلت الجفـ ـنَ، وأبدت طلائعَ الإصغاء
كل خلق سرى لمأوى حواهُ في هدوء وغبطة وهناء
ومضى كل سائرٍ، ثم آوى كل حيّ يحُثّ في الانزواء
فترى كل كائن قد توارى في حماه، وجدَّ في الاختفاء

## في الليل

طبّق الأفقَ هجمةٌ من ظلام جعلتهُ مغبّر الأرجاء
وتراءى الظلامُ يبدو كقبر أشعث الوجه قاتم الأنحاء
في سكون يخفقه رهباتٌ تُنذر الكون بالبلى والفناء

* * *

رفرف الطائرُ الغريب جناحـ ـيه وجدَّ المسيرَ في إبطاء
هاله البعدُ عن أليفٍ حنون وصغارٍ لهنّ حسنُ الرواء
فانبرى يقطع الطريق بلهفٍ يبتغي العشّ تحت ظلّ الرجاء
في فضاء بجوفه خفقاتٌ تُشعل البرق في أديم السماء
وخلاءٍ مُفرَّقٍ مترامٍ تُصفر الريحُ فيه بالأنواء

وظلامٍ يَجَنّ فيه ظـــلامًا حيّر الطـيرَ فى جحيم البـلاء

✡ ✡ ✡

وسرى فى ظلامه ينهبُ الجوّ ويمضى كالسّهم فى الظلمـــات
ليس يدرى لعُشّه كان يسرى أمْ لحتف مُسَدَّد الطعنـــات
كلّمـا حطَّ فوق نجـد رفيع يتردَّى بباطن الحفـــرات
أو رأى التلَّ يَعْتَليه صعودا صدمته شدائدُ العـــثرات
تتراءى له قبـــابُ الروابى كأعالى الأشجار فى الجنات
فيجدّ السُّرى إليهـــا فيَلْقَا م هَا صُخُورا من الحَصى بالليات

## فى الروض

وإذا حَطَّ بين أشجار روض يبتغى فيـه مكمنـا للبيَات
أقلق الطير فى حماها فهبّت فى ضجيج مروّع الصرخات
ظنّت الروض قد دهته العوادى وأحاطت به جيوشُ الطّغاة
فتعالى الصراخُ فى كل عُشٍّ كصُراخ الأطفال فى الفزعات
ثم هبّت تردّ ذاك المعـــادى فى نواح كأتم النائحـــات
حَزّ وجه الغصون لطمُ جناحٍ بجَناحٍ يزيدُ فى الضّربات
بين قرع وضَجّة ونحيبٍ واضطراب بأغْصُن الشجرات
فتخلَّى الغريب عن أرض قوم لم يُصادف بها سوى الصدمات
وتخلَّى ، وقلبُه فى خُفوق وتولَّى يئنُّ فى حسرات

**فايد العمروسى**
المدرس بالناصرية

لها بقية ستنشر تباعا فى الاعداد القادمة

# شـــــاعر

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قام فى الكون مُشرفا وأطلاّ  أتراه أتبغى السماء محلا ؟
ماله والنضال فى شُعب الأر  ض فقد ضاق بالنضال وملاّ ؟
ماله والصراع فى حلق الأر  ض وقتل البرىء ظلما وجهلا ؟
ماله والدماء تُهرقُ كالما  ء وتشقى بها البلادُ وتبلى ؟
ماله والخصام يأكل قلب النـاس بالحقد والضغينة أكلا ؟
ماله والقوىُّ يهزأ بالحق  ويرمى الضعيف عسفا ونكلا ؟
ماله والحديد والنار أضحت  حاكما فيصلا وقولا فصلا ؟
ماله والوعود صارت ضياعا  والمواثيق كلها صرن مطلا ؟
ماله والوعيد يرعد فى الأفْـق فتهمى السماء سجلا ووَبْلا ؟
ماله والحياة صارت هجيرا  لا يرى القلبُ فى حواشيه ظلا ؟
ماله والحياة صارت خداعا  لا يرى القلب فى دواعيه نبلا ؟
ماله والحياة صارت يبابا  لا ترى العينُ فى مراميه أهلا ؟
ماله والنفوس تفعم كيـدا  ماله والقلوب تطفح غلا ؟
إنه شاعر يثـور على الضـيم ويابى الحياة خسفا وذلا
إنه شاعر يعز على القـ ـيد ولو كان بالنضار محلى

محمد عبد الغنى حسن

قصة ايرانية :

# كـــــنز الراعى....

مترجمة عن الانجليزية من كتاب « قصص من كل مكان »
Stories From Everywhere للكاتبة الانجليزية
« رودابور » Rhoda power

---

كان رجلا فقيراً ، وكان يعيش فى عهود ملوك إيران الأولين على رعى الأغنام...لم يكن منزله كهذه المنازل المألوفة المطروقة ، وإنما هو كهف موحش فى أحد تلال إيران ، يأوى إليه كلما خيم الظلام....!

لم يكن كهؤلاء المقبلين على الدنيا ، الظامئين إلى مُتَعها ومباهجها ، وإنما كان عازفا عنها على عِلم بها ، يقتصر منها على مايمسك الرمق ، ويحبس صوت الجوع ، ولم يكن له من حُطام هذه الدنيا التى عاش فيها بعيداً عنها ، أكثر من حارس وصديق !

وما ظنك بحارسه...؟أهو كهؤلاء الحراس الذين يجودون بأرواحهم البريئة دفاعا عن متعجرف ظالم كى يسترسل فى جبروته ؟ كلا ، لم يكن واحداً من هؤلاء وإنما هو عصاه ..! عصا الراعى المعمر ، تلك التى يتوكأ عليها ، ويهش بها على غنمه كلما قفل راجعا من المرعى !

وما ظنك بصديقه أيضا . . . . ؟ أهو من طراز أولئك الأصدقاء الذين يشقى المرء بمعرفتهم ، ويتعرَّى بصحبتهم . . . . ؟ لا ، لم يكن من هذا الطراز المألوف وإنما هو — ولا تدهش — « جلد شاة » ! ولم لا يتخذ مثل هذا الرجل من « جلد شاة » صديقا يحرص على عودته وألْفته؟ أوَلا يستدفىء به ويتدثر عند النوم؟ أوَلا يستر بالنهار قميصَه الخلَق المهلهل عن أعين الفضوليين

والعابرين من أبناء السبيل . . . . ؟ وكان كما نشأ أو شاء أميا . فما تعلم قط كيف يكتب أو يقرأ ولكنه كان بتجاربه أكثر من معلم ! فقد عرف أساليب كل حيوان كاسر يهيم فوق التلال !

تعلم عادات كل حشرة تدب بين بين الأوراق والأعشاب . وأصغى إلى الطيور فألهمته أغانيها المرحة العذبة فرح الحياة ! وراقب السحب والأفلاك ، وتتبع اتجاهات الرياح والأنواء ، حتى أصبح يعرف متى تجود السماء بالمطر اللطيف المرتجى ! لقد كانت الطبيعة أستاذه الملهم ، أستاذه الذى يتردد عليه ويأخذ عنه لباب المعرفة ، ولهذا كان أعرف بأساليب الطبيعة ، وفهم لغتها من أى إيرانى آخر يعيش فى عصره !

كذلك ازداد بصراً بدنيا الرعاة الآخرين وخواطرهم ، فقد اعتاد كلما خرج بقطيعه كل يوم إلى المرعى أن يلتقى فى طريقه بأولئك الرعاة ، فيتحادث معهم ، ويتخذ له منهم تتمة لقطيعه ، يُوليهم مايوليه من رعاية واهتمام . . . . !

* * *

تناقل الناس أخبار ذلك الراعى الشيخ ، وترامت إلى سكان المدن المجاورة قصص شتى عن عقله وفطنته ، وسداد رأيه وتجربته ، فطاب لهم أن يروه ، واضطربت فى أعماقهم بواعث الارتحال إليه . . . . . وانثالت الوفود عليه ملتمسين الرأى فيما يغشاهم ويستبد بهم من جواذب العين ، وتنازع البقاء !

قال فريق منهم عندما رأى الشيخ فى سمته الوادع الساذج :

— أيها الشيخ المبارك ! أنت يافيلسوف إيران القانع وأعقل مَن فيها ، لقد فزعنا إليك نلتمس المعونة ، فساعدنا برأيك مما ألم بنا من الشدائد . إننا أشقياء بما يقوم بيننا وبين جيراننا من غارات وحروب ! !

وصاح فريق آخر :

— ماذا نفعل . . . . . ؟ لقد كنا بالأمس أغنياء ونحن الآن فقراء !!

كيف نستعيد حالتنا الأولى ، وأيامنا السالفة . . . . ؟ هل نستطيع . . . . . ؟

وقاطع هذا الفريق فريق ثالث :

— ونحن . . . . ؟ كيف نحارب الطمع فى نفوسنا . . . . ؟ لقد كنا بالأمس فقراء ونحن الآن أغنياء ، والحرص على المال يُشقينا . . . . !

أصغى الراعى إلى ماتضطرب به نفوس كل فريق من ألوان الشكايات وشذوذ الشكايات ، ثم عقب على أسئلتهم بما فض مشاكلهم . وألهمهم اليقين ولا عجب ، فمحبته للأغنام ، رعيته الأليفة ، وتفكيرُه المسترسل فى الناس وأحوالهم . ضمن له صفاء الرأى ، واستقامة الفهم ، وصدق الجواب

ورجع القوم من لدنه راضين مغتبطين . وتفرقوا فى المدائن والقرى يذيعون ماشاهدوا ، ويثنون على هذا الذى ألهمهم الرأى ، وأمدهم بالعون فيما أشكل عليهم ، ويذكرون لأصدقائهم عنه قصصا يتلقفها الرواة وينشرونها . . . وهكذا قُدِّر لهذا الراعى أن يشتهر . وأن تستفيض هذه الشهرة وتعم ، حتى تصل إلى مسامع الشاه . . . .

* * *

كان الشاه ملكا عادلا محبوبا . وكان لايألو وسعا فى كل مايعود باليسر والرخاء على شعبه . كان شديد الحذر ، يروى طويلا فى اختيار من يشرفون على أجزاء مملكته من الحكام والولاة ، توخيا للعدل والنزاهة وكان لايسمع عن ذى مواهب حتى يجربه ويستوثق منه ، ثم يُقَرِّبه منه وينتفع بمواهبه . ولما أن رأى القوم يفيضون كثيراً فى أمر ذلك الراعى متحدثين عن مقدرته وكفاءته صمم فيما بينه وبين نفسه على أن يزوره متنكراً ليختبره ، ويتحقق مما سمع عنه ، فربما وجد فيه مواهب تُستغَل لمصلحة البلاد ومنفعة العباد . . . .

وذات ليلة استدعى الشاه خادمه الأمين « مصطفى » وقال له :

— لقد عزمتُ على القيام برحلة متنكرا . لن يصحبنى فى هذه الرحلة

أحد . سأخلع ثيابى الحريرية وجواهرى ، وارتدى بعض ملابسك القديمة وعباءتك الرمادية .

صدع الخادم بأمر مولاه . فأسرع يُعد كل شىء ، لقد كان هذا الخادم أثيرا لدى الشاه ، أناله الوفاءُ الجم ، والاخلاص الشديد مكانة يحسده عليها خدم القصر الكثيرون ، وكان له من الحظوة مايجرؤه على الاستفهام لوشاء..!

لكنه فى هذا الشأن لم يسأل ، فطالما رأى سيده يخرج متنكرا فى الليل ، فيغشى مجتمعات المدينة ، ويندس بين طوائف رعيته ، كى يقف على حقيقة ما هم فيه من يسر ورخاء ، أوبؤس وشقاء ..!

واستدعى الشاه خادمه مرة أخرى .

— لا تنس أن تُعد كذلك شيئا من الخبز والتمر .

خبزا وتمرا يامولاى . . ؟

نعم فالرحلة ستكون خارج المدينة . وقد تستغرق بضعة أيام .

✡✡✡

أعد الخادم كل شىء . . وخرج الشاه متنكرا يبحث عن الراعى . كان الطريق الذى سلكه يكاد يكون منقطعا ، وحيثما أجال بصره والتفت حوله لا يرى إلا كثبانا من الرمال . وإلا بعض الشجيرات والأعشاب المتناثرة هنا وهناك . لقد كان يُهوِّن على نفسه وعثاء الطريق . ومشاق السفر بالتحدث إلى بغله حينا ، ومضغ تمرة أحيانا . وإنه لفى يأس من وجود الراعى إذ تراءى له عن بعد ما يشبه أن يكون سحابة من الغبار مقبلة نحوه ، فسرى الأمل فى نفسه من جديد وقال :

— آه ...ماذا أرى ؟ لاشك أنها قافلة من التجار وجهتها المدينة! سأسألهم فربما رأوا فى طريقهم هذا الراعى الذى اشتهر أمرُه بين الناس !

استحث الشاه دابته ، واتجه نحو السحابة . وعندما صار منها قاب قوسين أو أدنى لم يجدها — كما قدر — قافلة من التجار . وإنما رأى أمامه قطيعا من

الأغنام يرعى على سفوح التلال . لم تألف الأغنام منظرا كهذا المنظر الجديد عليها فأجفلت تهرب من هذا الذى يمشى بدابته بينها ، أما هو فقد سرَّته هذه المفاجأة فقال :

آها ! قطيع من الأغنام الوادعة ؟ لابد أن راعيَها طيب ! ترى أين هو؟ أين راعيك أيتها الأغنام . . ؟

ها أنا ذاك ! ثم وقف رجل كان جالسا أمام كهف ومشى نحو الشاه حتى إذا صار أمامه ، قال له :

— السلام عليك ياسيدى . أتسمح فأقدم لك قطعة من الجبن تستعين بها على خبزك . . ؟ ليس لدى نبيذ ، ولكن الماء الذى أحمله فى قربتى عذب

حل الشيخ قربة الماء المدلاة إلى جانبه ، ثم خلع ثوبه الخلق — جلد الشاة — وفرشه على الأرض بعناية تامة ، كأنما يفرش ثوبا من الحرير الموَشَّى . . ! ثم رفع رأسه وقال :

استرح ياسيدى إنى أرى من التراب المتراكم على ملابسك وفوق دابتك أنك قادم من جهة نائية ، وسفر طويل !

✡ ✡ ✡

جلس الشاه على الثوب . . ثم بدأ يتكلم مع الراعى ، ويصغى إلى إجاباته باهتمام شديد ! وقد أدهشه ما كان يبدو على كلام الراعى من التعقل والفطنة والتجربة . . كما أعجبه إيجاز كلمات الرجل وصراحتها . . ! لقد شعر الشاه بميل إلى الاسترسال فى الحديث مع هذا الشيخ ، ولكن شوقه الملح إلى البحث عن الراعى الشهير ، والوصول إليه جعله ينهض من مكانه ، ويقول لهذا الشيخ مبتسما .

— شكرا لك على كرمك ولطفك . هل تأذن لى فى استئناف السير ؟ ! إننى مسافر بائس والطريق لا تزال أمامى طويلة !

انحنى الراعى قليلا ، ثم قال .

— سيدى ! لست مسافرا بائسا ! إنك تلبس ثيابك الممزقة كملك عظيم ، وكلامك كلام من اعتاد أن يكون مطاعا! وعيناك تشفان عن التفكير والصراحة كعينى من اعتاد أن يأمر . . ! أعتقد أنك ملك ! ألست خادمك الراعى يتحدث إلى عاهله الشاه . . ؟

أدرك الشاه عندئذ أنه هو الراعى فأمسك بيده وقال له :

إن الشاه يتكلم إلى أعقل رعيته وأحكمهم . إنه يتكلم إلى من سيكون واليا على كل قرية مرّ بها هذا القطيع . .

***

أصبح الراعى واليا من قِبَل الشاه على جميع القرى المحيطة به واحتفل السكان بولايته عليهم احتفالا شاملا ، ولم يكن غريبا أن يستقبلوه بمظاهر الحفاوة الكبرى .

فقد كانوا متشوقين إلى وال يسوى بينهم بالعدل ويُديل للضعيف من القوى ، ويوطد دعائم الأمن الذى طالما تمنَّوْه وحنوا إليه . . ومن أقدر على الاضطلاع بهذا العبء من هذا الذى كانوا يلوذون برأيه فى أيام المحن والضيق . . ؟

ترك الوالى الجديد كهفه القديم ، كما ترك رعى الأغنام ، واتخذ له بيتا أبيض يملؤه الخدم وتحف به حديقة غناء ! واستبدل بملابسه الأولى ثيابا أخرى من الديباج تليق بمنصبه الجديد . واقتنى من الجمال والخيل والبغال ما ينقل متاعه من مكان إلى مكان كلما أراد الارتحال .

أحب السكان هذا الوالى حباجما ، ووثقوا به ثقة تامة ، واتخذوا منه أبا كبيرا يسهر على مصالحهم ، ويتحرى أوجه الخير والمنفعة لهم ، إلا أنه اعتاد منذ ولايته أن يحمل على ظهر جمل صندوقا شُدَّ عليه بالحديد والأقفال . . لقد كان يحمله معه فى كل مكان . !

لم يكن هذا الصندوق شيئا فى نظر الناس ، ولكنه صار شيئا هائلا عند ما وجدوا الوالى يهتم به ويحرص عليه ! لقد بدءوا يتساءلون ثم يتهامسون، ثم يخترعون الأقصاصيص حول الصندوق ، ثم يسيئون الظنون بالوالى ...! ثم يخرجون من التساؤل والتهامس والاختراع والظن إلى تجريح الوالى ووصمه بأشنع التهم والأباطيل ..!

فمن قائل:

ـــ لماذا يهتم بهذا الصندوق هكذا ؟ أيكون فى داخله كنز ...؟

ومن متهكم :

ـــ ربما يحفظ فيه الضرائب التى يجبيها منا ...!

ومن غاضب ثائر :

ـــ ماذا يظن هذا الرجل ...؟ أيظن أننا ندفع الضرائب له لا للشاه ؟ أيريد أن يُثرىَ على حسابنا ...؟ إن هذا الرجل غير أمين ..!

أخذ الشك يلح على الناس شيئا فشيئا ، وبدأت مراجل الغيظ فى الصدور تفور ممن أفسد المال قلبه ، ودفعه إلى الجشع والخيانة ..! لم يكن هذا الشعور شعور فرد أو جماعة فيهون ، وإنما كان شعورا إجماعيا يشترك فيه الرجال والنساء . والكبار والصغار ، فإذا زمجرت النساء !

ـــ إنه ينهب الفقراء ..!

ـــ صاح الرجال

ـــ بل يسرق خزينة الشاه .. !

وتدخل الأطفال :

ـــ إنه يخشى أن يفتح الصندوقَ إنسان ...! وإلا فلماذا يحمله معه فى كل مكان ..... ؟

* * *

يقول المثل الايرانى : « كالضوء تنتشر الأباطيل ، وكالصدق يتقبلها الناس » .. وهكذا انتشرت قصة الوالى الخائن حتى وصلت إلى القصر ..! ثم أوغلت فى الانتشار حتى انتهت الى الشاه .. لم يشأ أن يصدق أذنيه بادىء بدء ...! لم يشأ أن يؤمن بأن الرجل الذى اختبره بنفسه ، والذى كان مضرب الأمثال فى القناعة والزهد يخلق منه بريقُ الذهب ورنينه رجلا شرها يستأثر بأموال الأمة ..! ولكنّ تواتر الشائعات وتشابهها جعله يسىء ظنا به ، ويعتقد أن كل ما امتدت اليه يد الوالى الخائن ، لابد أن يكون فى هذا الصندوق الغريب!

روّى الشاه طويلا فى الأمر ، وطافت بذهنه صور شتى للانتقام والتمثيل بهذا الوالى الخادع ..! أيعزله ويحرمه جاه المنصب ؟ أيزج به فى أعماق السجن وغياهبه جزاء على سوء فعلته ؟ أم يقتله ويمثّل به كى يكون عظة وعبرة لمن شاء من الولاة أن ينهج منهجه ، ويختط سبيله ..؟

ولكن ألا يحتمل أنه برىء ؟ ألا يجوز أنه مظلوم ، وأن خصومه وحاسديه هم الذين يكيدون له ، انتقاما لحقدهم وحسدهم ، وشفاء لغيظ صدورهم؟

مهما يكن من أمر ، فليس من السياسة أو العدل أن أعاقبه قبل مواجهته

هكذا قال الشاه ثم استدعى خادمه « مصطفى » وقال له

— مصطفى . سأقوم برحلة أزور فيها إحدى ولايات مملكتى ، فأحضر أفخر ثيابى ، وأرسل فى طلب جيادى وحاشيتى وعبيدى .

صدع الخادم بالأمر .. وخرج الشاه فى هذا الموكب متجها إلى البيت الأبيض مسكن الوالى الخائن ، ومقر حكمه . ولم يكد يبتعد بموكبه عن المدينة وأسوارها مسيرة ساعات ، حتى أبصر عن بُعد سحابة من الغبار ، سحابة لم تَلُح له حتى بدا التأثر على وجهه ، وظهر الحزن فى عينيه .. ! لقد تذكر الرحلة الأولى ، تذكر سحابة الغبار التى تكشفت له عن قطيع من الأغنام ، وعن راع طيب يجلس فى مدخل كهف بعيداً عن ضجة الحياة وأضوائها

كانت السحابة فى هذه الرحلة كبيرة جدا ، وعند ما انتهى الشاه إليها لم يجدها غير الوالى وخدمه ، خرجوا راكبين لمقابلة عاهلهم العظيم ! لقد كان الوالى راكبا على حصان أبيض ، وكان بجانبه جمل يحمل صندوقا كبيرا شُدَّ عليه بالحديد والاقفال .. ! والغريب أن الجمل كان يخفره رجال أشداء مسلحون ! ، ويسوقه رجل يحمل فى يده اليمنى رمحا طويلا ، وفى يده اليسرى خطام قرمزى يقوده منه ..! وترجل الوالى أمام الشاه ، وانحنى الى الارض محييا ، ولكن الشاه رمقه بعين تتقد كالحجر ، ثم سأله فى احتقار وازدراء :

— ماهذه القصص التى سمعتها عنك .. ؟ وأين هى الأموال التى سرقتها وأخذتها ؟ أجب ياسارق الفقراء .. !!

— مولاى ! معاذ الله أن يسرق مثلى أو يُخفى أى شىء !

— لِتفتحْ إذن صندوق كنزك هذا ! ولتُرِنى كل شىء بداخله .. !

***

أناخ الوالى الجمل على الأرض ، ثم انحنى وفتح الصندوق بمفتاح كان معلقا فى حبل حريرى حول وسطه ، فحدق الأمراء والقضاة فيه .. حتى العبيد تركوا أمكنتهم واندفعوا نحو الصندوق ينظرون ..! أما الشاه فبقى فى مكانه جامدا ،فقد أدهشه أنه لم يجد فى الصندوق ما كان يتوقع .. ! لم يُخرج الوالى منه ذهبا وجواهر وانما أخرج « جلد شاة » أراه للملك ومن حوله .. ثم أخذ ببطء ينزع ملابسه الجميلة ويقول للشاه :

— أتذكر هذا الجلد ؟ إنه هو نفسه الجلد الذى جلست عليه يوم شرفتنى بزيارتك الأولى . ! هذا هو كنزى يامولاى ! هو أحسن صديق عرفت فى الحياة . لقد حرصت عليه ، واصطحبته معى فى كل مكان ، ليذكرنى بايامى الأولى .. بالأيام التى كنت أهيم فيها على وجهى بين التلال كراع فقير ..

لقد خشيت يامولاى من الحظ الباسم .. خشيت أن تطغى السعادة الطارئة

علىّ فأنسى ما كنت عليه أولا ، وأنى ما كنت أملك شيئا أكثر من « جلد شاة » كما خشيت على نفسى شر الطمع والغرور ، وأردت أن أتذكر أنه يجب أن أظل متواضعا ..

وحرصت عليه فوق ذلك يامولاى مخافة مثل هذا اليوم ! مخافة ان يأتى يوم يغضب علىّ فيه مولاى فيطردنى ويردنى إلى حالتى الأولى .. إلى دنيا الشظف والهيمان فى بطون الوادى .. ! فيكون هذا الصديق القديم عونا لى كما كان ..

لم يستطع الشاه أن يغالب انفعاله عندما سمع هذه الكلمات الهادئة المؤثرة لقد أحس الندم فى أعماقه عما بدر منه لهذا الشيخ المجرب ، وشكر الله على أنه لم يتسرع بعقابه متأثرا بالأكاذيب التى لاكها الناس حتى أوشكت أن تؤثر عليه .. ! وقد شاء أن يُشَرفّ هذا الوالى الممتاز ، ويعلن إعجابه . فأمسك بيده وقبّله وقال له :

— أيها الرجل العاقل ! أنت ياأعقل رجل بين أفراد رعيتى ! ستكون بعد اليوم أكبر رجل فى مملكتى . . . . !

✡✡✡

وهكذا شهدت إيران راعيا يرفعه عقله وتسمو به عفة نفسه إلى أكبر مناصب الدولة . . . . . ومع ماأحاط به من مظاهر العظمة ظل متواضعا ، محافظا حتى الموت على « جلد الشاة » ... على هذا الذى كان أوفى أصدقائه وسرّ سعادته فى الحياة . . . . . !

عبد العزيز عتيق

مدرسة محمد على الملكية للبنات

# ١ - الادباء

للأستاذ عطية الشيخ

تختلف عقول الناس كاختلاف وجوههم ، فكما لا يتشابه وجهان تشابها تاما كذلك لا يتشابه عقلان ، غير أن صفات عامة تشترك فيها عقول طائفة من الناس لا يحدون بجنس ولا زمان ، فيكونون جنسا عقليا واحدا ، ويسميهم الناس باسم عام يشملهم : كالأدباء ، والفلاسفة ، والعلماء ، والرجعيين ، والمجددين . . . وسنتكلم عن الطبيعة العقلية العامة لكل طائفة من هؤلاء فى مقالات متتابعة إن شاء الله ، ومقال اليوم خاص بالكلام عن عقلية الأدباء أو التكوين النفسى للأديب أو الشاعر .

* * *

ونريد بالأديب هنا منشىء الكلام الجميل أو حائك الكلام الرائع ، فنحن نضيق معناها ونقصره على الناحية الإيجابية للأديب ، وهذا اللفظ يشمل الشاعر والناثر الفنى ، إذ لا فرق فى الحقيقة بين إنتاجهما إلا فى الوزن والقافية ، ومرادنا بروعة الكلام وجماله شعرا كان أم نثرا قدرة الأديب على التعبير ، وهى المقدرة الفنية على نقل القارىء إلى جو القائل ، وبقدر هذه المشاركة العقلية بين القائل والقارىء يختلف التعبير قوة وضعفا :

١ - تمتاز عقلية الأديب بقوة المظاهر النفسية الثلاثة : الوجدان ، والفكر ، والإرادة ، وقد يبدو هذا الرأى غريبا ، إذ المعروف أن الشعراء يمتازون بقوة الوجدان فقط ، والذى حدا الناس إلى هذا الظن أن الشعراء يعتمدون

فى التأثير والتأثر على الناحية الوجدانية ، ولكن العواطف العالية التى يمثلها الشعراء لا يمكن أن تتكون إلا بعد فكر عميق ونظر دقيق ، والعاطفة عندغير الشعراء نجدها عمياء ، خرساء وأما عندهم فهى مميزة معللة بنور العقل والفكر. فروعة المقابر ، ووحشة الليل،وحب الوطن ، والشهامة ، والحب كلها أشياء مدركة عند الشعراء وغيرهم ولكنها أوضح منهجا وأدق تميزا عند الشعراء — قدمنا أن الشاعر والناثر الفنى بمعنى — ولذلك تراهم يستطيعون توضيحها لنا بعد إبهامها ،وهذا هو سر حبنا للأدب ، فالشاعر يحس إحساس الناس ثم هو بقوة فكره وتذكره وخياله يصل الى العلل والأسباب ، ويفرق بين القشور واللباب ، فيبين للناس الأسرار التى خفيت عنهم ، ويعبر لهم عما لم يستطيعوا معرفة كنهه ، فهو كالطبيب الذى يشخص الداء ويقدر وظائف الأعضاء ويفرق بين العلة والمعلول،أو كالمهندس الذى يجيد التقسيم والتفصيل ويقدر العرض والطول ، ويتصور الصغير كبيرا حتى يقسمه ، والكبير صغيرا حتى يدركه ، ولا تنس أن الاستعارة والتشبيه محتاجان إلى القياس وهو من أدق عمليات الفكر ، ولابد للأديب من قوة الحفظ والذكر،لأنه يلتقط كل مايحس به ويحفظه بدقة ، ومن المعلوم أن توضيح الفكرة للسامع يستلزم وضوحها وفهمها فى نفس القائل.والأديب يعبر لنا عما يحس به صدرنا ، ولا ينطلق لساننا فهو من هذه الناحية أشد منا فهما وأقوى فكرا ، وإذا بحثنا فى الواقع وجدنا أن الأدباء أزكى الطبقات فى جميع العصور والأزمان . وأما قوة إرادة الأديب فتظهر فى سلطته على نفسه وحواسه ، وقوته على الإيحاء إلى غيره والتسلط على نفسه فهو من هذه الناحية كالمنوم المغناطيسى ولكنه بشكل مصغر ، فإذا كان قائد الجيش قوى الإرادة على جنوده فالأديب قويها على فكره وأفكار الناس .

ولعل فى هذا كفاية للرد على من يزعمون ضعف تفكير الأدباء وإرادتهم.

* * *

٢ — تتجه عقلية الأديب إلى الأشياء العامة التى تهم الناس جميعا ووقع فيها الناس جميعا أو يدركها الناس جميعا حتى ولو إدراكا كليا غامضا وهذا هو السر فى أن الأدب فن من فنون الجمال ، لأن جميع الفنون الجميلة عامة الشكل والموضوع فأحبها الناس ، وبقدر سهولة إدراكها يكون الاعتراف بها فنا جميلا ، ومن هنا كان أول فنون الجمال شيوعا الموسيقا وآخرها الأدب لكثرة الفاهمين للأول وقلتهم للأخير ، وعلى عكس ذلك قدرة الفن على التأثير فمع قلة المقدرين الجمال الادب تجده أشد تأثيرا فيهم من الموسيقى فى الجماهير، إذ الشعور بجمال الأدب نوع من الأدب ولا يقدر الجمال الأدبى إلا مزاج أديب ، وهو مؤثر فى الفكر قبل الحواس فهو من حيث الكيف أعلى فنون الجمال ، ولذلك يقول العلماء إن الفكر كلما تقدم كان سروره بالمعنويات أشد . فالعبقرى يسر بتخيل الوردة أكثر مما يسر برؤيتها ، ومن هنا كان تأثير الأدب فى فاهمه أكثر من تأثير الحقيقة التى يحكيها الأدب ، فأنت تسر بوصف البستان من أديب ماهر أكثر مما تسر من البستان نفسه .

٣ — عقلية الأديب دائما تتصور نفسها قطعة من جسم كلى هو الكون وما فيه فهى مترنمة مع كل شىء فى الوجود ، أو هى الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه ، تناجى كل شىء ويناجيها كل شىء إذا ملت الناس انجذبت نحو الطبيعة وإذا سئمت الطبيعة الأرضية سرت إلى الملأ الأعلى وما فيه ، وإن أبكاها شىء راحت تستبكى جميع النفوس ، وإن طربت لمعنى طارت تغنى به ليشاركها فى اللذة كل الوجود .

ومن هنا كثرت شكايات الأدباء من الناس والزمان والمكان ، لأنهم

مهتمون مخلصون لكل شيء فهم يودون أن يهتم بهم ويخلص لهم كل شيء ، ولكن ليس كل شيء أديبا !

٤ — مواهب الأديب طبيعة فطرية فلا يمكن خلق أديب بالكسب دون الفطرة ، وليست هذه الفطرة مولودة دائمة ، فقد يحدث للمفطور على الأدب ما يذهب بهذه الملكة وقد يجد على النفس غير الشاعرة شيء يجعلها شاعرة ، ومن هنا كان الأديب مدفوعا للأدب ، لا يحمل نفسه عليه بل تحمله نفسه إليه حملا ، سأل تلميذ أستاذه فى الأدب أأصلح أديبا ؟ فقال له إذا رأيت نفسك حين تريد الكتابة لا تستطيع أى قوة أن تمنعك عنها فاعلم أنك أديب . ولذلك تعرض كثير من الأدباء للايذاء بسبب منهجهم ولم يكفوا إذ المساكين ليسوا مخيرين ، والواقع أن التنفيس عن هذا الدافع هو كل أجر الأديب ، فلن يستفيد من تخليد اسمه شيئا ، ولن يقبض من إعجاب الناس ثمنا ، ولن يزداد من مجهوده معرفة لأنه لا يقول إلا ما يعلم ، فهو مدفوع بقوة الفن للتنفيس عن رغبة جامحة .

٥ — لابد للأديب من أن يكون متعمقا فى اللغة التى يعبر بها ، واللغة ألفاظ تعبر عن محسات الأمة ومعانيها ، فهى مجمع التقاليد ووعاء المعارف وخزانة الأدب والأمل ، فمعنى القوة فى لغة قوم الانسجام معهم والتجانس بجنسيتهم ، والامتزاج الروحى بهم ، ولذلك تجد الأمم النامضة تعنى بنشر لغاتها ، ولقد فطن المستعمرون لهذه الناحية ، فأهم ما يتجه إليه همهم فى قطر مفتوح نشر لغتهم ليجنسوا القوم بجنسيتهم وينسوهم تقاليدهم ، ألم تر أن تعرب البلاد المفتوحة للمسلمين كان على قدر معرفتها بلغة العرب ؟ ولذلك كان الأدباء مظهرا لحضارة أممهم وممثلا صادقا لأحوال قومهم المعيشية والاجتماعية ، ومصورا دقيقا لأحاسيسهم وماضيهم وحاضرهم وآمالهم ، لأن الأديب نموذج مصغر لأمته وبيئته ، ألا ترى أنهم يدرسون بيئة الأديب ليفهموا أقواله وميوله .

ولقد نشأ عن تأثر الأدب بالبيئة أن الآداب قديما كانت خاصة بأممها ، لايهتم بها غيرها لأنه لايدرك سر جمالها ، بخلاف حقائق العلوم ، فإنها كانت مشاعة بين جميع الأمم ، فالعرب الذين ترجموا علوم الأمم لم يهتموا بنقل آداب اللغات الأخرى ، ولم يرقهم شعر هومير الذى يقدسه اليونان والغرب ، وأما الآن فقد تبدلت الأحوال وأصبحت الدنيا كلها ممترجة ، والكرة الأرضية الآن أكثر اتصالا بعضها ببعض من أجزاء مملكة واحدة فى الزمن القديم ، والقطر الواحد يحوى جميع الأجناس ويعامل جميع الناس ، فامتزج الأفراد واختلطوا وعمت الأرض ثقافة واحدة فأصبحنا نفكر تفكيرا واحدا ، وتشابهت نظم المعيشة ، واتحدت المثل العليا فى جميع بقاع الأرض فأصبح الأدب الآن عالميا ، ولا فرق فى منهج الأدب العام بين شاعر الصين وأديب أمريكا فاستساغ الناس فى هذا العصر ترجمة الآداب والتمتع بثمرات الأقلام ، كائنا من كان الكاتب الأصلى ، والرائد العام لآداب الأمم هو الأدب الغربى ، ومثل هذا ولكن بشكل مصغر حدث إبان اتساع النفوذ العربى . فان آداب العرب وأشعارهم اكتسحت آداب الأمم المغلوبة وما جاورها فقلدوا شعر العرب فى فنونه وأغراضه وأوزانه وقوافيه ( راجع شكوى الفارو فى إسبانيا ونشوء الشعر القومى فى فرنسا )

٦ — عقل الاديب كالحياة لايهتم بالمنطق ولا ينصاع لقانون فكرى عام فكل همه عند التعبير حمل القارىء على أن يشاركه فى وجدانه وينتقل إلى عالمه ولذلك تجدنا عند تقدير الأدب والأديب لانتظر إلى صدق المعانى أو صحة الافكار أو شرف الأغراض بل نقدره على قدرته على التعبير ( سبق فى أول المقال تفسيره ) فهناك بعض الكتب العلمية موضوعا . قامت البراهين على خطأ كثير مما فيها ولكنها مع ذلك لاتزال حافظة لمركزها الأدبى العالى ككتاب أصل الأنواع لداروين فى الأدب الإنكليزى ، ومقدمة ابن خلدون فى الأدب العربى وكثير من كتب الجغرافيا والتاريخ القديمة ، ولهذا لايبلى الأدب مهما تطاول عليه الزمن ، ولأن قوة التعبير هى أهم خصائص الأسلوب الأدبى

ترانا نعتبر كثيرا من كتب العلوم كتبا أدبية . إذا ظهرت براعة المؤلف فى قوة تعبيره فكتاب تاريخ التربية لمصطفى أمين ورحلة ابن بطوطة وكتب أحمد أمين وما ماثلها نعتبرها كتب أدب مع أنها ألفت لأغراض علمية بحتة . ومقالات العقاد ودياب وهيكل فى السياسة اعتبرناها أدبا لقوة تعبيرها كذلك .

٧ — حواس الأديب مرهفة ، وعقله حريص على الاستقصاء والحفظ فأصبح كالمخزن المزدحم بالسلع وتكاثرت فى ذهنه الألفاظ وتجاورت فاختلطت ونشأ بينها أنساب وقرابات وتلوث كل منها بما جاوره فأصبح للألفاظ عنده معانى فرعية بها يمتاز لفظ عن لفظ وأصبحت تراكيبه كأنها مصبوبة صبا لا مؤلفة من كلمات مفردة فأسلوبه كالنهر المتصل لا كالقطرات المتباعدة ، وأنت تستطيع أن تميز الأسلوب الأدبى بسهولة إذا نظرت للالفاظ فوجدتها فيه مكتسية جلالا وأوسع معنى وأكثر اهتزازا وأروع جوارا . وكذلك أصبح للمعنى عنده ألفاظ أكثر مما وضعت له يسميها العلماء تارة مجازا وطورا كناية وأخرى تشبيها ، ولقوة ربط المعانى وتداعيها عند الأديب واختلاط الألفاظ تجده يعبر عن المسموع بحاسة الذوق فيقول صوت عذب وعن المرئى بالمسموع فيقول لها لفتات موسيقية وهكذا تجد عقلية الادباء من أسباب تطور الكلمات فى اللغات وانتقالها إلى معان جديدة .

٨ — الحاجز بين الشعور واللاشعور فى عقلية الأديب غير يقظ ، ولعل من أسباب ذلك إجهاده لعقله وحواسه ، واستعداده الفطرى ، فأصبحت أفكاره تثب اليه من وراء الشعور كأنها وحى ، فيسميها تارة إلهاما وأخرى أحلاما ، وهذا ماحدا العرب إلى الظن بأن كل شاعر شيطانا كما أنه يفسر مانراه من المزاج العصبى عند كثير من الأدباء.

عطيه الشيخ
معلمات القبة

# أىُّ أمٍّ رحيمةٍ فى ثيابه ؟

نشرت إحدى الصحف نبأ وفاة زميل كريم ، لم أعرفه فى الحياة ، وعرفته من خلاله بعد الوفاة ، فلقد قالت عنه : إنه كان دمث الأخلاق جم الصنائع ، مات والداه متعاقبين ، وخلفا له ذرية ضعافا أربعة أطفال زغب الحواصل ، فرعاهم رعاية الأم الرءوم ، وحاطهم حياطة الأب الرحيم ، ولكن القدر وافاه وهو يأخذ زينته من يوم الجمعة ، فأثار الخبر شجونى ، وأسال شئونى ، فأرسلت ذلك الأنين ، ومتى أجدى بكاء الباكين ؟ ولكنها زفرات تخفف ، وقد كان الفقيد مدرسا بمدرسة دمياط الصناعية .

حمل العبء مضنياً فى شبابه ... وبدا الصبر ماثلا فى إهابه
لم يخف عيلة ، ولم يخش ضنكا ... بل سعى دائباً بعزمة نابه
لايهاب الويلات تترى عليه ... كل صعب يهون فى تدآبه
يكدح الليل والنهار حثيثا ... عزمة الليث فى ابتغاء رغابه
مات عنه أبوه ، ثم تولت ... أمه . بعد برهة من مصابه
خلفاه ، والرزء رُزءان : هذا ... دون ثان قد عبَّ من أوصابه
خلفاه ، وصبية كلهم زغ ... ب ، فما منهم قرين كتابه
هَمَّ كل دُمى بها يتسلى ... زاهياً معجباً على أترابه
فإذا ماطوى النهار ظلام ... عاد للدار مكثرا من طلابه
فيسليهمُ إلى أن يناموا ... أى أم رحيمة فى ثيابه ؟
وإذا الشمس أسفرت قصد المع ... هد يحيى الآداب فى طلابه
حارب البؤس والشقاء فلم يخـ ... ضع لبؤس يحد من آرابه

عالما أن بؤسه فيه حزن ... لليتامى ، وذاك أقسى عذابه
وإذا رازه السقام فقد أسـ ... ـقم كلا من روحه وإهابه
فهمُ روحه تشع ضياء ... فى شعاب الحياة بعد شعابه
عاش فى كدحه قرابة عشر ... ين وخمس لم يشك يوما مابه
وأتى الموت فاستحى أن يرد ... يه ببيت أطفاله دون بابه
فطواه الردى بعيداً عن الصبـ ... ـية ، حتى لا يفجعوا بمصابه

✡✡✡

رب كفكف دموعهم بسَرِيّ ... فيواسيهمُ بفيض ثوابه
رب بصرهم سبيل رشاد ... أن يضلوا فى دهرنا من ذئابه
رب واجعلهم لمصر سناء ... كل فرد يعزها بانتسابه
رب وارحم أخاهم أوسع الرحـ ... ـمة ، فلقد فاض فى ربيع شبابه

عبد العظيم على قناوى

السنة السادسة (ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ — ابريل سنة ١٩٤٠ م) العدد الرابع

# صحيفة دار العلوم

صدر سنة ١٩٣٤

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

المدير: محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير: محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

**السباعى بيومى**

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

في القطر المصرى ..... ٢٠ قرشاً

خارج القطر ..... ٦ شلنات انجليزية

ثمن العدد ..... ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

## أميرتنا الجديدة

أسبغ الله نعمته على البيت العلوى الكريم ، وعلى الشعب المصرى عامة حين أشرقت فى سماء القصر ، وتألقت فى أفق القطر صاحبة السمو الملكى الأميرة « فوزية » كلأها الله وأقر بها الأعين .

لقد كان حادثا سعيدا قابله الشعب المخلص الوفى للعرش بقلوب مفعمة بالفرح والابتهاج ، فكان عيدا قوميا مباركا يتجدد الاحتفال به كلما حان ميعاده .

وإن الصحيفة ليشرفها أن تنوب عن أساتيذ اللغة العربية من أبناء دار العلوم فى جميع المعاهد — فى أن ترفع إلى السدة العلية أخلص التهنئة من قلوب ملؤها الولاء لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول حفظه الله !! وأن تضرع إلى المنعم المتفضل أن يجعل قدوم الأميرة المحبوبة طالع يمن وبشير سعادة شاملة للبلاد وأهلها ، إنه سميع الدعاء !!

## موجة نور من ضفاف الأنبياء

وهذه أنشودة بارعة، تغنى بها الشاعر المبدع الأستاذ **محمود حسن اسماعيل** خريج دار العلوم فى الحفلة الساهرة التى أقامتها محطة الإذاعة فى دار الأوبرا الملكية احتفالا بميلاد صاحبة السمو الملكى الأميرة فوزية قال :

مالقيثارك ياشا عرنعسان الأغانى ؟
خمر «آذار» حواليك تغنى فى الدِّنان
والضحى قلب على الشطآن خفّاق الحنان
والربى أنفاسُ عشاقٍ وأحلامُ غوانى
والهوى والشعرُ من فرطِ الهوى معتنقان
لاترى زهرةَ أيكٍ لم يزرها عاشقان
ويبثان لها النجوَى وتسبيحَ الأمانى ..
لاترى شطّ غديرٍ لم يعدْه طائران
وكما موجتُه تحكى رُؤاها يسمُران ..
لاترى سنبلةً فى الحقل خرساءَ اللسان
فخفيفُ البرُ موسيقا تُغنّى للزمان
ولمن يَسمعُ بالروح ، ويُصغى للمعانى ..
كل شىء حولَ أيامك هتّاف المغانى
فَلِمَ القيثارُ نعسان ؟ وماذنبُ الأغانى ؟
هى فى الأوتار تدعوك ، فقُم هزَّ المثانى !
إن يكن حانُك قد جنَّ فَلِمْ تهجرُ حانى؟
وأنا النيل أبو الدنيا ، ويُحيى المِهْرَجان !!

✡✡✡

هكذا قال لى النيلُ ! فأشجانى المـلامُ
وتلفتُّ وللناى بكفىَّ حنينٌ وغرام
وإذا عرسٌ على ضفاته الخضرِ مُقامَ
رصعته الأنجمُ البيضُ ووشَّاه الغمام
هاجت الأيامُ فى الغربِ وأضرَاها الخصامُ
ولياليه أغاريدٌ وعطرٌ وسـلامُ
ورحيقٌ من هوَى الدُّنياوسحرٌ وابتسامُ
ومزاميرُ بكفِ الطيرِ تصْجُرُ وتنامُ
قَصبُ الخُلدلها يُصغى،فيُشْجيه البُغامُ
ورَنينُ القُبَّر المسحورُ منها والحَمام ..
أىُّ عرسٍ ذاك لم يَشْهد مجاليه الأنامُ ؟
وفد الشعبُ له نشوانَ يُعييه الزحامُ
مثل موج البحرِ ، دنياه سجودٌ وقيامُ
نحو «عبدين» رَمى الشوقُ سراه والهيامُ ..

✡✡✡

هكذا قلت لموج النيل فى ظل المساءِ
وله فى الشّط ماللزهر من همسِ الغناءِ !
فسجا حيناً . ودوَّى صوتُه بين الفضاءِ
قال : عرسُ القصرِ لو تعلمُ عرسٌ فى السماءِ
أترع الحورُ له فى الفجر أقداحَ الضياءِ
وتهادَينَ لشطَّى ، وتراقصْنَ إزائى
وحثثن الخطوَ للقصرِ ، ببشرٍ وهناءِ

ثم أقبلن على المهدِ بهالاتِ الدعاءِ
وإذا موجةُ نورٍ من ضفافِ الأنبياءِ
الهدى والطهرُ حوليها وأنغامُ الصفاءِ
بنتُ «فاروقٍ» وبنتُ الشمسِ دُنيا من ضياءِ!

✡✡✡

إيه يا «فاروق» أيامُك للأيام عيدُ
وغناءُ في فم الشرقِ سماويٌّ جديد
وعلى تاجك للأوطان نصرٌ وسعودُ
عصرُك الميمون فجرٌ في روابيها سعيدُ
رَقْرَقَ النورُ فذابت حول ساقيها القيودُ
وغزاها البعثُ والإصلاحُ فانهار الجمود
كلّ يوم لك فيها مذهبٌ عالٍ سديدُ
من رأى وجهَك في المحراب أغراه السجودُ
قسماتٌ للهدى فيها، وللمجد شهودُ
وجبينٌ فيه للوادي أمانٌ وعهودُ
وبه للغيب آياتٌ سيتلوها الوجودُ!

✡✡✡

قائدَ الجيش سلاماً جيشُك الحتفُ المبيدُ
خلقته جمرةُ الأهوال والبأسُ الشديدُ
ورعاه سيفُ «إبراهيم» والعزمُ الحديدُ
فليَعُدْ في جَبْهةِ الدّنيا يحامي ويسودُ
وليعدْ «خالدُ» للشرقِ، ويرعاه «الرشيدُ»!

✡✡✡

قائدَ الجيشِ سلاماً جيشك الحتفُ المبيدُ
طرْ إلى الجوزاءِ إنا خلفك اليومَ جنودُ
كلنا فى الهولِ هولٌ وبروقٌ ورعودُ
نصرع الاقدارَ عن «مصرٍ» ونفدى ونذودُ
نحن شعبٌ من قديمِ الدهرِ جبارٌ عنيدُ !
ملكُنا فوق السهَا رَفرُفه عالٍ بعيدُ
عاشَ راعِيه ، وحيته من النيلِ الورُودُ
ومن الشعب قلوبٌ والهاتٌ وكبودُ !!

مراقبة الثقافة العامة
وزارة المعارف العمومية

محمود حسن اسماعيل

## كلمة عاجلة

كان للمعلم ورسالة المعلم ومقام المعلم « وكادر » المعلم شيء من العناية فى مجلس النواب حين عرض لدراسة ميزانية المعارف ، وإنه ليسرنا أن يدرك حضرات أعضاء المجلس الموقر منزلة المعلم فى أمته ، ويقدروا رسالته قدرها ، ويلقوا على عاتقه إعداد الجيل الناشيء

وقد نال معلم اللغة العربية خاصة كثيرا من اهتمام حضرات الأعضاء ، فنادى بعضهم بوجوب النظر فى ظلامته التى ضج بالشكوى منها فى السنين المتتابعة ، ونرجو أن يكون لما صرح به حضرات الأعضاء أثر عملى فى الوزارة المهيمنة على شئون التعليم .

✡✡✡

أما هذه الظلامة فتتلخص فى أن وزارة المعارف لم تسوفى المعاملة بين طائفتين تزاولان عملا واحدا فكالت لأبناء المعلمين العليا بكيل ، وكالت لأبناء دار العلوم بكيل آخر ، وجرى العمل على ذلك حقبة من الزمن ، حتى تضخم سبب الشكوى ، وتجسمت الفروق ، وعظم شأنها ، فبرمت نفوس أبناء دار العلوم بحالتهم ، وهبوا يطلبون حقهم المهضوم ، ويرجون مساواتهم بغيرهم ، ولقيت شكاتهم فى بعض الأحيان آذانا مصغية ، غير أن أسباب الشكوى مازالت قائمة ، والنفوس مازالت برمة ، ولعل وزارة المعارف تحترم تلك الرغبات التى أبديت فى مجلس النواب الموقر ، فتعمل على إنصاف هؤلاء المعلمين ، وترد إليهم حقهم كاملا .

إن أبناء دار العلوم — وعددهم يبلغ الألف فى وزارة المعارف — قد طالبوا بحقهم فى هوادة ولين ، وهم إن سكتوا الآن على الظلم ، فإنما يدفعهم إلى السكوت شعور وطنى عميق استقر فى نفوسهم منذ أن نشأت ، وهم يقدرون تلك المحنة العالمية التى يجتازها العالم ، وهم على أتم الاستعداد لأن يضحوا بكل شيء فى سبيل بلادهم ومليكهم ؟

# الأسلوب القصصى وأثره فى النثر العربى

للدكتور أحمد ضيف

---

يعتبر الأسلوب القصصى من أعظم أنواع النثر فى الكتابة الأدبية عند جميع الأمم ، ولكن أدباء العرب لم يعنوا بتدوين هذا الأسلوب إلا فى العصر العباسى ، إذ لم يكن للقصص أثر يذكر فى عصور اللغة العربية قبل ذلك ، ولا تحسب قصص الزباء وسطيح ، وحروب العرب وأخبار الجن، وماهو مدون من سيرهم وأحوالهم وأخبارهم، وما كان يجرى فى المجالس والمحافل هناك — من هذا النوع ، لأن هذه قصص تاريخية لا أدبية فنية، وليست مكتوبة بأسلوب أدبى رصين ، ولا بقلم كاتب واحد ، بل رواها الرواة وغيروا وبدلوا فيها ، كما يروى المؤرخ حادثة ثم يرويها مؤرخ آخر بطريقة أخرى، فلا يعد هذا من الأساليب الأدبية ، على أن الأسلوب القصصى ظهر فى الأدب العربى وبلاغته ، منذ ظهر أول كتاب فى لغة العرب، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم ، فقد جاء القرآن بكثير من القصص التى تحسب من نماذج الكتابة البليغة ، وأساليبها الفنية البديعة، المحتوية على كثير من الأحوال التاريخية والاجتماعية: كقصص فرعون وموسى وإبراهيم ويوسف وعيسى ومريم وأهل الكهف وسليمان والنمل وغيرها ، ولكن لم ينسج على منوالها أحد من الكتاب ، لأن الأدباء ونقاد الأدب لم يرشدوا الكتاب إلى هذا النوع من الكتابة الفنية .

**القصص والأحاديث :**

وقد احتوت كتب الأدب العربى على كثير من القصص ، كأيام العرب وحروبهم وذكر ملوكهم وشعرائهم وعشاقهم ، ولكن كل هذا من باب الأحاديث أو المسامرات، لامن باب الكتابة الأدبية الفنية التى تتميز بأسلوب الكاتب ، وتعرف بصبغته الشخصية ، وشعوره الخاص به فى الكتابة ؛ لأن حوادث التاريخ لاتتغير ، وطبيعة الإنسان واحدة ، فالحب والبغض والطمع والقناعة والإحساس والأساءة والتقوى والضلال ، كلها حالات ثابتة فى النفوس وفى طبيعة الإنسان، لاتختلف فى أصلها؛ ولكن الذى يتغير ويختلف هو إدراك الشخص لها، وفهمها فهما صحيحا أو خطأ ، وتصوير ذلك على حسب مايرى ويفهم فهذه الشخصية هى التى تظهر فى الكتابة القصصية وتميزها عن غيرها ، وهى التى تقلب التاريخ إلى أسطورة أو إلى بحث نفسى أو اجتماعى ، وقوة الكاتب وبراعته هى التى تلبس الحوادث والحكايات لباسا قد يجعلها خالصة باقية ببقاء الأيام .

هذه الصفات التى ذكرناها شرط من شروط كتابة القصة الفنية الأدبية، وهذا النوع من القصص المبنية على التفكير العميق ، والنظام العقلى الخاص والأسلوب الفنى الكتابى المحتوى على ذكر أشخاص متصفين بأخلاق خاصة وصفات خاصة . يتحدثون ويتناقشون، فتظهر فى أثناء أحاديثهم ومناقشاتهم خفايا النفوس البشرية، وماتنطوى عليه العقول من ميول وأهواء وعقائد — هذه الصفات لم تظهر ظهورا جليا فى النثر العربى إذ ليست هى ذلك النوع من الأحاديث التى نشرت فى كتاب الأغانى وغيره من أخبار الخاصة والعامة، ولا تلك الأخبار التاريخية أو الجغرافية وغيرها .

**القصص العربية :**

وقد ظهر فى القرنين الثالث والرابع ومابعدهما — أحاديث أو حكايات

تدخل فى باب القصص ، من حيث أنها أخبار منمقة مكتوبة كتابة أدبية ولكن كثيرا منها ليس مبنيا على خيال الكاتب نفسه، بل هى سرد أو وصف لشىء رآه ،مثل مايحكى عن أهل بغداد ومجالس الرشيد والبرامكة . وجزء عظيم من هذه القصص منقول عن اللغات الفارسية وغيرها،أو محاكاة لها ، أومؤلف تأليفاً هو أقرب إلى التاريخ منه إلى القصص،وبعضها كتب بلغة ملحونةفاسدة لاتحسب من نماذج الأدب الصحيح،مثل القصص العربية المعروفة التى كتب أكثرها بلهجة عامية مصرية، كقصة عنتر وسيف بن ذى يزن وغيرهما.

أما مثل رسالة الغفران لأبى العلاء والتوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى وحى بن يقظان — فهى من الكتابة العلمية أو الفنية الخاصة بالنقد الأدبى أو الفلسفى .

وهناك نوع من القصص،هى من القصصى التى أخذ الكتاب فى معالجتها وأخذوا موضوعاتها من التاريخ العام،أو من بعض البلدان التى عاشوا فيها،أو من قصص القرآن،أو من ألف ليلة وليلة ، أو من تاريخ العرب خاصة ، مثل حكاية أبى القاسم أحمد البغدادى، وحكاية الحداد وماجرى له مع هارون الرشيد، وقصة أنيس الجليس وماجرى لها مع على نور الدين وهى مأخوذة من ألف ليلة وليلة،وحديث علاء الدين والقنديل المسحور،والحكايات المنسوبة إلى أبى الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى ، المتوفى فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، كغزوة الأحزاب وماجرى للأمام على الفارس الوثاب . وغزوة الإمام على بن أبى طالب مع اللعين الهضام بن الجحاف ، وفتوح اليمن المعروفة بقصة القول ، وغير ذلك من القصص الكثيرة التى كتبت فى أزمان مختلفة .

**قصة عنترة :**

ومن أشهر القصص التى كتبت عن أبطال العرب قصة عنترة، وينسبون

روايتها إلى الأصمعى فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وهو أقرب إلى وصف الحياة البدوية منها إلى غيرها، وهى مكتوبة بأسلوب ملحون. ولكنها احتوت على كثير من أخبار العرب وأشعارهم وأوصاف حروبهم وعاداتهم وأخلاقهم من كرم وشهامة وشجاعة وميل إلى الأنتقام، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وجملة أحوالهم الاجتماعية والتاريخية قبل الإسلام.

وهذا يدل على أن الذوق فى القصص العربية كانت بذرة قد بدأت تنمو فى نفوس الكتاب، ولو أن هذه القصص وأمثالها كتبت باللغة الفصحى، لكانت من أعظم فنون الأدب فى النثر العربى، ولكنها بأسلوبها هذا لاتحسب من اللغة الصحيحة ، بالرغم مما بها من الأشعار والأخبار والأمثال ، ويقولون إن هذه القصة كتبت فى مصر، ويروون فى ذلك « أنه نشأ فى مصر من أفاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل ، وكان يتصل بباب العزيز بالقاهرة فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز ، ولهج الناس بها فى المنازل والأسواق فساء العزيز ذلك ، وأشار على الشيخ يوسف بن إسماعيل المتقدم أن يطرق ماعساه أن يشغلهم عن هذا الحديث ، وكان واسع الرواية فى أخبار العرب، كثير النوادر والأحاديث ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس فأعجبوا بها واشتغلوا بها عما سواها، ومن تلطفه فى الحيلة أنه قسمها إلى اثنين وسبعين كتابا، والتزم فى آخر كل كتاب منها، أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذى يشتاق القارىء والسامع إلى الوقوف على تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه، فإذا وقفت عليه انتهى به إلى مثل ما انتهى فى الأول وهكذا . . . إلى نهاية القصة ، وقد أثبت فى هذه الكتب بعض ماورد فى أشعار العرب المذكورين فيها . . . وأضاف إلى تلك الأشعار أشعارا أخرى يبعد أن تكون صادرة عنهم، كما أضاف إليها قصصاً وأحاديث وحكايات مخترعة، قصد بها التسلية والتمثيل . فعلى هذه الرواية التى وجدت فى مقدمة ديوان عنترة تكون

هذه القصة كتبت فى مصر ، كما قالوا عن غيرها من القصص الأخرى التى تظهر فيها المسحة المصرية والصبغة العقلية لأهل مصر من فكاهات وغيرها .

ولكن كان لظهور بعض القصص التى نقلت عن الهندية والفارسية كما قلنا — أثر عظيم، فقد نشرت فى الأدب العربى بأساليب مختلفة، وفى موضوعات مختلفة ، بعضها أعجمى وبعضها عربى ، وسبب انتشار هذه القصص — ولاسيما الأعجمية منها — أن أندس بين العرب أيام الدولة العباسية كثير من الأجانب الدخلاء ، وكان أكثر هؤلاء من العامة الذين يميلون إلى الأخبار الخرافية والأخيلة الغريبة، وكان التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب يحملون شيئا من هذه القصص والأخبار ، وينشدونها فى المجالس بين العامة والخاصة ، وهذا أصل الميل إلى نقل تلك الحكايات الفارسية أو الهندية إلى العربية، ثم زاد الناس على هذه القصص وأضافوا إليها شيئا من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وهكذا أخذ هذا الأسلوب القصصى ينتشر بين العامة حتى امتلأ باللهجة العامية ، واشتغل به بعض الأدباء، وجرى على ألسنتهم، فأدخلوا فيه شيئاً من الأشعار والعبارات الصحيحة والأساليب البليغة ، وظهرت فيه حكايات هى خليط من الهندية والفارسية والحياة الإسلامية ، ولهجات العامة والخاصة، والحوادث المختلفة للخلفاء والأمراء والعلماء والجهلاء والرجال والنساء والكبار والصغار .

والمتأمل فيما كتب من القصص فى لغة العرب ، يرى أنها مأخوذة من أصول مختلفة، وأنها تختلف من حيث التكوين الفكرى والأسلوب الفنى الكتابى على حسب ماترمى إليه . فمنها :

١ — القصص التى هى أحاديث عن العرب ، وسرد لسيرتهم وأخبارهم وما كان يحدث فى مجالسهم ومجتمعاتهم، مما امتلأت به كتب الأدب العربى، من صور العصر الجاهلى والعصور الإسلامية ، وما كان يجرى فى مجالس الخلفاء

والأمراء والمغنين ، فهذا النوع من الكلام لايدخل فى باب القصص الفنية التى وصفناها وإنما يدخل فى باب الرواية والأحاديث .

٢ — الأسلوب القصصى الفنى الذى جاء إلى لغة العرب مما نقل إليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها، ككليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وغيرهما مما ذكره ابن النديم فى باب الأسمار والسير .

٣ — القصص التى كتبت على نمط القصص المترجمة، وحاكى فيها مؤلفوها أساليب التفكير الفارسية أو الهندية على ألسنة الحيوان والبهائم وغيرها مما أخذه الكتاب من تاريخ الفرس أو الهنود . قال ابن النديم فى كلامه على الكتب التى صنفت فى الأسمار والخرافات « . . . ابتدأ أبو عبد الله محمد بن ابن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . . . وأحضر السامرين فأخذ عنهم أحسن مايعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات مايطيب له ( وكان فاضلا ) فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة وكل ليلة سمر تام . . . وكان قبل محمد يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم — جماعة، منهم عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون ، وعلى بن ابن داود . فهؤلاء جماعة من الكتاب كانوا يؤلفون فى القصص ويحاكون الفرس وغيرهم فى الأساليب القصصية » .

٤ — ظهر بعد هؤلاء جماعة من الكتاب ألفوا فى تاريخ العرب وكبار رجالهم وفرسانهم وحروبهم — قصصا، ولكنها كانت دون تلك، من حيث صحة العبارة وحسن التأليف؛ لأنها خليط من اللغة الفصحى والعبارات العامية ونقل ما فى كتب الأدب المعروفة : من شعر ونثر ، ويظهر أن مؤلفيها رأوا مجارات العامة فى لهجاتهم، كما ترى ذلك فى قصة عنترة وبكر وتغلب وسيف بن ذى يزن

ومايشبهها، ويظهر أيضا أن هذه القصص كتبت كلها أو جلها فى مصر كما أشرنا إلى ذلك .

٥ ــ القصص التى كتبها بعض علماء اللغة والأدب ، وهى قصص لغوية أدبية، وليست من السير أو الكتابة التى تمثل الأحوال الاجتماعية، مثل رسالة الغفران لأبى العلاء ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى.

٦ ــ القصص التى ذاعت فى العصور الأخيرة، وأخذت موضوعاتها من بعض الحوادث الغرامية ، وبعضها من قصص الأنبياء ، وبعضها من الأساطير والخرافات، وقد ذاعت هذه القصص فيما بعد القرن الرابع .

٧ ــ القصص الفنية اللغوية الصناعية المسماة بالمقامات .

أما مقامات الهمذانى والحريرى فهى على غير أسلوب تلك القصص العامية المملوءة بالأخطاء واللحن ، وليست شبيها بها من حيث موضوعاتها ؛ لأن تلك الموضوعات إما فارسية أو هندية، أو عربية مقتبسة من تاريخ الفرسان والأبطال فقد عبث بها الخيال ولعبت بها أهواء العامة .

والمقامات ليست على هذا الطراز، لأنها كتبت بعبارة عربية صحيحة، وأخذت حوادثها من مشاهدات الكتاب وأحوال الاجتماع والعصور التى كانوا يعيشون فيها، ولاشك فى أنه كان للحالة العقلية التى ذاع أمرها إبان القرن الثالث والرابع فى بلاد العراق وفارس وخراسان ــ أثر عظيم فى انتشار هذا الأسلوب، فقد كانت هناك نهضة علمية أدبية، أثارتها المنافسات بين الدول التى كانت تحكم إذ ذاك: كالدولة السامانية فى خراسان وتركستان، والبويهية فى فارس والعراق، والغزنوية فى أفغانستان وغيرها، فكان هذا سببا فى انتعاش الحياة الفارسية الأدبية التى قام بها هؤلاء لنشر لغتهم وآدابهم ، ففى زمن الهمذانى والصاحب بن عباد والخوارزمى ــ علا نجم اللغة الفارسية ، وكان ملوك الدولة السامانية وغيرهم من ملوك الفرس يساعدون على ذلك ، فظهر جماعة من كبار شعراء الفرس .

وفى هـذا الزمن نظمت الشاهنامة ، ونقلت بعض الكتب العربية إلى الفارسية ، ككتاب تاريخ الطبرى الذى ترجم إلى لغة الفرس لمنصور السامانى وكان الشعراء ينظمون بالعربية ، والفارسية ويجيدون اللغتين ، وينقلون الشعر من الفارسية إلى العربية،أو من العربية إلى الفارسية، كما فعل بديع الزمان الهمذانى فى حضرة ابن العميد ، فقد كانت تمتحن مقدرتهم فى الشعر بذلك . وقد نقل أبو الفضل أحمد السكرى المرزوى كثيرا من الأمثال الفارسية إلى العربية ، كما ذكر الثعالبي ذلك فى كتابه ( يتيمة الدهر ) كل هذا أوجد فى اللغة العربية حالة لم تكن معروفة قبل ذلك،وقد عاش بديع الزمان الهمذانى فى هذه البيئة،وكتب مقاماته فى نيسابور،فظهر فيها أثر التفكير الفارسى، وفى هذا العصر انتشر ذلك المذهب الكتابى المملوء بالصناعة والسجع والتعمل والتكلف،وكان هناك جماعة يمثلون هذا المذهب الجديد،وعلى رأسهم ابن العميد والصاحب بن عباد وأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى،فنشأ بديع الزمان فى هذه البيئة وكان يجيد الفارسية،وتربى هذه التربية الممزوجة بالثقافة العربية والفارسية،ومن هنا تمكنت من نفسه ملكة الكتابة القصصية فكتب مقاماته الشهيرة التى كانت نموذجا لهذا النوع من الكتابة القصصية،ورغم أن بن دريد سبقه بأحاديث نشرها،فهو أجدر بنسبة هذا الأسلوب إليه منه . أما موضوعات مقاماته فقد أخذها كما قلنا من أحوال الناس الذين كانوا يعيشون فى عصره،ثم من بعض أحواله الخاصة فقد رسم فيها صور بعض هؤلاء الناس ، ولا سيما الأدباء الفقراء الذين كانوا يسألون ويتكسبون من آدابهم،وقد عالج موضوعات أخرى بعضها عقلية وبعضها لغوية ، ثم جاء الحريرى واقتفى أثره ، بل حاكاه محاكاة تامة فى الأسلوب والموضوعات،ووفاقه فى كثير منها،وأمعن فى الصناعة اللفظية إمعانا،وافتن فى ذلك افتنانا . وجملة القول أن هذه المقامات اشتملت على بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس، ولكن لم يكن الغرض الأول منها الكتابة القصصية

الفنية، بل إظهار البراعة فى أساليب الكتابة المسجعة وأنواع الشعر الصناعى، وتنميق الأسلوب، وهذا يدل على أن الفن القصصى كان فى بدء نشأته، فكان يحتاج إلى زمن طويل، وإلى أساليب متعددة تكتب فى مثل هذه الموضوعات، وإلى تطور وانتقال، حتى يصل إلى درجة النضوج، على أن هذا الأسلوب القصصى شاع فى أواخر الدولة العباسية، وقت تمكن السجع وأنواع البديع من نفوس الكتاب فقيدهم باتباع هذه الأساليب، ولو أنهم كانوا فى عصر آخر، أولو أن كتاب اللغة العربية من الأدباء استمروا فى الكتابة على هذا النمط — لوجد فى هذه القصص أسلوب سهل آخر، يكون نموذجا للكتابة النثرية القصصية الفنية على أن أسلوب المقامات بقى متمشيا فى جميع عصور اللغة، ولكنه بقى أيضاً أسلوباً صناعياً، ومهما يكن من أمر مقامات الهمذانى والحريرى من حيث احتواؤها على بعض المسائل النفسية والاجتماعية، فهى تحسب قصصاً أدبية لغوية، لاشتمالها على كثير من غريب الصناعة اللفظية، أكثر من اعتبارها قصصا اجتماعية.

## ألف ليلة وليلة

هذا الكتاب هو أشهر الكتب القصصية فى لغة العرب، بل ربما كان المثال الذى احتذاه كتاب القصص العربية منذ القرن الرابع الهجرى، وساروا على نهجه حتى فى القصص التى أخذوا موضوعاتها من تاريخ العرب، وجعلوا أبطالها من فرسان العرب ورؤسائهم. وقد كان لظهور هذا الكتاب باللغة العربية إبان القرن الثالث الهجرى - كما يقول المؤرخون — شأن عظيم فى عالم الأدب، لأنه لم يكن يعهد قبل ظهوره هذه الأحاديث العجيبة، ولا هذه الصور التاريخية الغريبة فى أدب من آداب الأمم، كما أن هذا الخيال الواسع فى خلق الأساطير وقصها لم يعرف فى اللغة العربية قبل ظهور هذا الكتاب، وقد انتشرت هذه القصص فى مصر زمن الفاطميين، فنشرت الأسلوب القصصى فى الكتابة، وتولد من

قراءته فى نفوس المصريين الميل إلى الكتابة القصصية، التى ظهر فيها أثر العقل المصرى المملوء بالفكاهات والملح وأخبار الجن والعفاريت

أصل الكتاب وآراء الباحثين فيه : عند ماذاع أمره فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر ، أقبل على دراسته علماء الأدب ، وترجم إلى لغات متعددة وكان المستشرقون أول من عنى بدراسته، وأول بحث ظهر فى ذلك كان للمستشرق الفرنسى الشهير ( سلفستر دى ساسى ) فى سنة ١٨١٧ م واستمر فى بحثه إلى سنة ١٨٣٣ م فكتب عدة مقالات فى أصل هذا الكتاب ، وقفا أثره من غيره من المستشرقين .

وقد اختلفت آراء هؤلاء الباحثين فى أصل هذا الكتاب، معتمدين فى ذلك على رأى المسعودى فى كتابه ( مروج الذهب ) فى أثناء كلامه على ( أرم ذات العماد ) إذ قال ( وسبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا ، والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية، وسبيل تأليفها ماذكرنا مثل كتاب ( هزار إفسانة ) وتفسير ذلك من (الفارسية إلى العربية) ألف خرافة . والخرافة بالفارسية يقال لها إفسانة، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما وهما شهرزاد ودنيازاد ، ومثل كتاب (مرزه وشماس) وما فيها من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب (السندباد) وغيرها من الكتب فى هذا المعنى [١] .

واعتمد الباحثون أيضا على عبارة ابن النديم التى قال فيها: ( أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان ـ الفرس الأول، ثم أغرق فى ذلك ملوك الأشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسع فى أيام ملوك السلسانية، ونقلته العرب إلى اللغة العربية، وتناولته العلماء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا فى معناه مايشبهه

(١) مروج الذهب حـ ٩ ص ٩٠ طبع باريس

وأول كتاب عمل فى هذا المعنى كتاب ( هزار إفسانة ) [١]

قالوا وكان السبب فى وضعه ، أن أحد ملوك الفرس كان يتزوج كل يوم بفتاة،فإذا طلع عليها فجر اليوم التالى، قتلها وتزوج من غيرها،وفعل بالثانية مثل مافعل بالتى قبلها،ثم تزوج أخرى وهكذا ... إلى أن ضجر سكان المدينة منه وضجوا من عمله،فوهبت له نفسها بنت أكبر وزرائه،وكانت ذات عقل وحكمة تسمى ( شهر زاد ) فلما كانت معه،أخذت تحدثه أحاديث خرافية ملكت عقله ففى أول ليلة لم تتم حديثها،بل أبقت له بقية اشتاق الملك إليها، فأبقى على محدثته إلى الليلة التالية حتى تتم حديثها،فلما جاءت الليلة الثالثة أبقت له بقيـــة أيضا فتركها الملك لتتم حديثها ،وما زالت كذلك فى كل ليلة والملك يصغى إلى حديثها ويتشوق إلى بقيته حتى نسى عادته الممقوتة،وبذلك أنقذت بنت الوزير فتيات بلدها من يد هذا الطاغية، وكانت أتمت حديثها فى ألف ليلة وليلة .

ولكن هذه الآراء لاتدعو إلى الجزم بصحتها ، لأنها روايات لايعتمد قائلوها على برهان قاطع،ولهذا اختلف الباحثون فى ذلك،فقال بعضهم إن أصله فارسى،وقال آخرون بل أصله هندى ، وآخرون قالوا : إنه خليط من حكايات فارسية وهندية،بل رأى بعض الباحثين أنه كتب زمن العباسيين،على أثر انتشار أخبار الفرس وحكاياتهم على ألسنة العامة ، ثم زيدت عليه قصص أخرى فى أماكن وأزمان مختلفة ، وقد بلغ الاضطراب فى روايات هؤلاء الباحثين أن نفى بعضهم كل أثر فارسى أو هندى فى هذه القصص ، وخطأ السعودى فى روايته وأيد رأى المسعودى عالم ألمانى مستشرق،وقال العالم الأنجليزى ( لين ) إن الكتاب كتب بقلم واحد بين سنة ١٤٧٥ - وسنة ١٥٢٥ م ، وقسم أحد علماء الألمان ( مولر ) الكتاب أقساما : قسما منه كتب فى بغداد ، والقسم الاكبر كتب فى مصر ، وبعضهم قسم الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول يشتمل

(١) فهرس ابن النديم من ص ١٠٤

على القصص التى نقلت من الأصل الفارسى ( هزار إفسانة ) والقسم الثانى قصص كتبت فى بغداد ، والقسم الثالث قصص كتبت فى مصر، وأضيفت إلى الكتاب وضمت إليه حكايات مثل حكاية الملك عمر بن النعمان وأبيه

وجاء بعد هؤلاء المستشرق البلجيكى ( شوقان ) وقال إن القصص التى كتبت فى مصر، كتب قسما منها كتاب من اليهود . وأرجح هذه الأقوال على مايظهر — هو أن الأصل الأصيل لهذا الكتاب هو القصصى الفارسى الذى ترجم إلى اللغة العربية فى القرن الثالث الهجرى المستمد أكثره من أصل هندى، فإنه بمقارنة ألف ليلة وليلة العربية بالكتاب الأصلى، يرى أن هذه القصص العربية هى بعينها تلك القصص الأصلية، مع تغيير ضئيل اقتضته الترجمة أو أن ماحصل من التغيير هو فى بعض الصور والأسماء القديمة ، التى استبدل بها غيرها من الصور والأسماء العربية ، فى النسخة العربية أسماء فارسية مثل ( شهر زاد ) و( شاه زمان ) وحكايات تشبه مافى القصص الهندية فى أسلوبها وموضوعاتها مثل حكاية التاجر العارف بلغة الحيوان ، ومثل تسلسل الحكايات ودخول بعضها فى بعض آخر، وطريقة ذكر القصة لإلهاء السامع والوصول إلى غرض معين ، هى طريقة الحكايات الهندية . وهناك بعض قصص هندية محضة ، مثل قصة الوزراء السبع ، ومثل قصة التاجر والجنى، والصائد والجنى ، وفى الكتاب عبارات هندية مثل العبارات الآتية ( يلزمك ألا تفعل هذا حتى لايحصل لك مثل ماحصل لفلان ) وكالعبارة المكررة كثيرا ، وهى سؤال رجل لآخر ( وكيف ذلك ) فهذه العبارات نفسها فى الترجمة العربية وهى تشبه مافى القصص الهندية المنتشرة فى أيدى العامة . كما أن هناك قصصا مأخوذة من الفارسية والأمثلة على تلك معروفة . فهذا دليل على أن الكتاب مأخوذ من أصل فارسى وهندى، زيدت عليه حكايات أخرى وصور أخرى من الحياة العربية الإسلامية

**أقسام قصص ألف ليلة وليلة ومميزاتها :**

إنه برغم التشابه الذى قد يكون بين هذا الكتاب وأصله الفارسى، لابد أن يكون قد أدركه كثير من التغيير والتبديل . وتفصيل الكلام فى ذلك قد يخرج بالباحث عن الحقائق إلى الظن والتخمين ، ولكن يمكن أن يقال على وجه الإجمال على حسب آراء الباحثين . إن القصص التى ترسم حياة الأسر النبيلة أو الأسر المثرية أو الطبقة المتوسطة ، أو القصص التى بها الحوادث الغرامية، والتى يذكر فيها أسماء الخلفاء ، كهارون الرشيد — هى من القصص التى كتبت فى بغداد .

والقصص التى تكثر فيها الفكاهات والنكت البلدية ويذكر فيها الجن والعفاريت وبعض الآراء المألوفة لنا فى مصر، وصور الحياة المصرية ، وذكر المدن المصرية — هى قصص مصرية . على أنه قد يجد القارىء ذكر الجن فى القصص التى ترجمت عن الهندية، ولكنه لا يجد فيها مافى القصص المصرية من اتصال هذه العفاريت بالسحر وما يشبهه وقد يكون فى القصص المصرية شىء من المجون، ويقول بعض الباحثين: إن هذا النوع من القصص المصرية التى يكثر فيها ذكر العفاريت والمجون ، كتبت بأقلام الإسرائليين الذين أسلموا واستدل على ذلك بما فيها من الأسماء العبرية كما سيأتى فى الكلام على القصص الإسرائيلية .

لقد تبين من ذلك أن الباحثين جعلوا قصص ألف ليلة وليلة ثلاثة أنواع قصصاً فارسية هندية، وقصصاً كتبت فى بغداد وقصصاً كتبت فى مصر، وقد عرفنا القصص الفارسية الهندية وبجمل أوصافها، وأن القصص التى كتبت فى بغداد وهى مايذكر فيها صفة أهل بغداد، ووصف الحياة هناك فى القرن الثانى الهجرى وذكر هارون الرشيد، وغير ذلك مما يمثل الحياة الإسلامية إذ ذاك .

أما القصص التى كتبت فى مصر فهى قسمان : ما كتبه مسلمون وما كتبه إسرائيليون؛ ولكل مميزات نجملها إجمالا فيما يأتى :

**القصص المصرية ومميزاتها :**

لقد يجد القارىء المصرى لبعض قصص ألف ليلة وليلة – تشابها بينها وبين ماهو مألوف من أسلوب أحاديث العامة أو الخاصة، وماهو معهود من أخلاق وعادات مصرية ، سواء أكان ذلك فى الأحوال الاجتماعية أو النفسية . ولقد تكون هذه القصص مكتوبة بأسلوب عربى مصرى، أو لهجة مصرية ، وهذا مايحمل على التصديق بأن هذا الكتاب قد احتوى على قصص مصرية كتبت فى مصر ، وبأقلام كتاب مصريين ، وتمتاز هذه القصص بصفات : منها أن موضوعاتها ليست خيالية بحتة بل مأخوذة من الحياة العامة المصرية، وأن ليس الغرض منها جذب القراء إليها بما فيها من الغرائب والعجائب التى لايصدقها إنسان عاقل، كما فى القصص الفارسية أو الهندية المملوءة بالأساطير والخرافات. ومنها أن الكاتب يعتمد فيها على مافى نفسه من أثر الحوادث التى شاهدها فى حياته، ورسم الأشخاص الذين عرفهم ورآهم وأنه إذا وجد شىء من الأساطير فإنه يكون بقدر الحاجة . ومن صفات هذه القصص أن الأشخاص الذين فيها هم جميعا، ممن يعيشون بكدهم، ولاتكاد نجد بينهم من ساعدهم الحظ فأصبحوا من الأغنياء ، أو نكبتهم الأيام فصاروا من الأشقياء ، لأنهم يعتمدون على المصادفات ؛ لهذا نجد الكاتب المصرى كثيرا مايتكلم عن الصناعات، ويذكر رجالا من التجار يتكلم عن تجارتهم وسلعهم كما فى قصة الأحدب ، وكما فى الكلام على «أبو قير ومصبغته» «وأبو صير وحمامه» وغير ذلك . ومن هذه القصص قصة معروف الإسكافى المشهورة. وبمناسبة ذلك قال بعض الباحثين إن غير القصص المصرية مملوءة بالخيال والمبالغة والأثرة أو حب النفس ، وإنها عبارة عن حلم شعب خامل يود أن يعثر فى إثناء فسحة على المعادن والجواهر ليصبح من الأغنياء . ومن صفات القصص المصرية أن شخصية الكاتب فيها ظاهرة تمثل نفسه، وكأنه يدرس موضوعا شاهده فهو يتوسع فى شرحه ؛ ومنها

أن أكثر هذه القصص قصيرة، وأن الصبغة المصرية ظاهرة فيها، من الفكاهة والنقد الحلو وخفة الروح. ومن أعظم مميزاتها أن كاتبها عارف بالافتنان والأساليب القصصية، عالم بكيفية سرد الحوادث وقصها، مما لا يوجد فى غيرها من القصص، كما لاحظ ذلك الباحثة الألمانى (كرامر) وكما يرى فى قصة معروف الاسكافى، وعلى الجوهرى، وقصة التاجر على المصرى، والتاجر حسن الجوهرى، وقد لاحظ الباحثون أن القصص المصرية كثيرا ماتتشابه فى الحوادث والموضوعات، ووجدوا أن فى بعضها إطراء للمرأة المصرية، كما فى الكلام على قمر الزمان. وهناك مميزات أخرى تظهر للقارىء فى أثناء قراءته، فيشعر بأنها كتبت بأقلام مصريين وعقول مصرية.

### القصص الإسرائيلية المصرية ومميزاتها

تمتاز القصص الإسرائيلية المصرية التى كتبها إسرائيليون مصريون - قد يكون بعضهم اعتنق الإسلام - بأشياء منها: ذكر الأسماء والأماكن العبرية كسليمان وداود وآدم وبيت المقدس، وذكر المسائل التاريخية العبرية كوصف الأرض وارتكازها مما أخذ عن كلام وهب بن منبه، وكمحاربة العفاريت بعضها بعضا وتحول إنسان إلى رماد، وكحكاية الشرير الذى اختطف رجلا وطار فى الهواء فأصابته ضربة من حربة ملتهبة أرسلت إليه من الملائكة، وكالقصة التى ذكر فيها أن أعرابيا زار هاروت وماروت، اللذين كانا مسجونين فى بئر فى بابل، فلما رأى طولها العظيم العجيب فزع من هذا المنظر، فذكر الله تعالى، فانطوى جسمهما وصار على شكل مربع وكان يرافق العربى فى هذه الزيارة يهودى. وقد رأى بعض الباحثين أن الغرض من أمثال هذه الحكايات التهكم بالمسلمين.

ومن أشهر الحكايات الإسرائيلية حكاية (بلوقيا) المذكورة ضمن قصة حاسب كريم الدين بن دنيال الحكيم، إذ يظهر أن كاتبها وقف على قسط

وافر من الأساطير الإسرائيلية ، كذكر الحياة وأثرها ، والسعى فى الحصول على خاتم سليمان، وذكر الغرائب والعجائب ، فمن أمثال ذلك: أن الله خلق جبلا قدره مسيرة خمسمائة عام ، وهو من الثلج والبرد ، وهو الذى رد حر جهنم عن الدنيا، ولولا ذلك الجبل لاحترقت الدنيا من حر جهنم، وأن الأرض سبع طبقات يحملها ملك، وتحت الملك صخرة ، وتحت الصخرة ثور ، وتحت الثور حوت والحوت فى بحر تحته هواء ، وتحت الهواء نار ، وتحت النار حية عظيمة، ولولا خوف الحية من الله تعالى لابتلعت جميع ما فوقها ، وأن الجنة فتحت فاها فأدخلت جهنم فى بطنها، وقيل لها احفظى جهنم إلى يوم القيامة ، فإذا جاء يوم القيامة أمر الله الملائكة أن يأتوا معهم بسلاسل يقودون بها جهنم إلى المحشر ( راجع القصه فى الجزء الثالث من ألف ليلة وليلة صفحة ٢٠٠ من طبعة بيروت ) .

ومن أساطير هذه القصص الإسرائيلية ، أنه لما توفى سليمان عليه السلام وضعوه فى تابوت وعدوا به سبعين بحرا، وكان الخاتم فى أصبعه، ولا يقدر أحد من الإنس ولا من الجن أن يأخذ هذا الخاتم ... وأنه وجد فى بعض الكتب أن بين الأعشاب عشبا كل من أخذ منه شيئا وعصره وأخذ ماءه ودهن به قدميه فإنه يمشى على أى بحر خلقه الله تعالى ولا تبتل قدماه، ولا يقدر أن يحصل إنسان على هذا العشب إلا إذا كانت منه ملكة الحيات ... وكثير من مثل هذه الأساطير الإسرائيلية، ومن الأدلة على أنها إسرائيلية ، وأن كاتبها إسرائيلى مصرى — أنه جاء فى هذه القصه أن (بلوقيا) عند مادخل بيت المقدس كان يقرأ فى التوراة، وقد سئل عن اسمه فقال بلوقيا ، وأنه من مدينة مصر . هذا فى جملة وصف القصص الإسرائيلية المصرية، المملوءة بالأساطير الاسرائيلية الممزوجة ببعض الصفات المصرية، مما يدل على أن كتابها أسرائيليون مصريون، أسلموا أولم يسلموا ؟

احمد ضيف

# المملكة الفاضلة لسير توماس مور

( ١٤٧٨ – ١٥٣٥ )

Sir Thomas More

للأستاذ عبد الرزاق حميدة

---

فى السنة التى مات فيها كاكستن « Caxton » أول من أدخل الطباعة فى انجلترا – عرف الناس فى بيت رئيس أساقفة كنتربرى غلاما ذهبي الشعر أزرق العينين ، مرحا طروبا ، ذكيا حسن الأخلاق ، تنبأ له كل من عرفه فى صباه أنه سيكون رجلا له شأن ، ولم يكن ذلك الغلام إلا توماس مور .

ولد فى لندن سنة ١٤٧٨ وتعلم بها ، واتصل برئيس الأساقفة اتصال تلمذة ، وكان من عادة هذا القسيس الأعظم أن يحتفل فى داره بعيد الميلاد احتفالا عظيما ، وكان من بين الاحتفال روايات تمثل فى العيد ، وكان توماس مور كثيرا مايقوم بين المحتفلين فيمثل دورا من عمله ، فاستلفت أنظار الأسقف الأعظم . وبعد زمن أرسله إلى أكسفورد ليتعلم بها تعلما راقيا .

وكان من عادة كل متعلم أن يكتب اللاتينية ويقرأها ، وكان اطلاعهم على آثار الكتاب اللاتين حتما ، غير أن معرفتهم بالإغريقية كانت معرفة تامة ، وكان لأدباء الإغريق منزلة لاتدنو منها غيرها ، حتى منزلة الكتاب اللاتين .

وفى أكسفورد رأى سير توماس كثيرا من العلماء يدرسون الإغريقية

وأثارها ، وكانت هذه اللغة معروفة فى كل دوقيات أوربا ، بعد فرار علماء القسطنطينية من وجه الفاتحين الأتراك ، ووصلت هذه اللغة إلى انجلترا وتعلمها الناس، وقرءوا العهد القديم بالإغريقية ، وتعلموا بجانب ذلك فنون الإغريق ، ودرسوا المبانى والتماثيل التى أقامها هؤلاء ، وحاولوا أن يشيدوا مثلها .

وقد شرب توماس مور من الكأس الجديدة حتى روى ، ودل فى الجامعة على أنه من خير الطلاب وأحسنهم ، ولما أتم دراسته أصبح محاميا ، وكاتبا ، وشاعرا ، وفى الخامسة والأربعين من عمره انتخب مقررا لمجلس النواب الإنجليزى . أما فى المحاماة فلم يكن له نظير فى بلاده .

لم يكن عبؤه فى البرلمان خفيفا ، ولكنه كان إذا فرغ من عمله عاد إلى بيته وأتم مابقى من واجباته ، ثم انصرف إلى أولاده يلعب معهم ويمزح .

ولم يكن هناك من هو أكثر منه عطفا على الحيوان ، وكان عنده فى منزله شبه حديقة حيوان ، فيها الثعالب والقردة والكلاب وغيرها . أما حبه لبيته ، وتعلق أهله وذويه به فكان مضرب الأمثال.

كان صديقا لأرزمس ، وكان إنسانيا « Humanist » امتلأ قلبه بالرحمة وحب الخير للناس ، وكان كريم الأخلاق جدا ، حتى قال فيه صديقه العظيم إرزمس « لم تجد الطبيعة بأخلاق ونبل مثل أخلاقه ونبله » .

وارتقى فى المناصب حتى صار قاضى القضاه ، فكان جد عادل ، وكان ينجز أعماله بسرعة غريبة ، حتى قيل إنه كثيرا ما كان ينتهى من أعماله حوالى الساعة العاشرة صباحا .

ولكنه بعد أعوام قليلة،فقد مكانته لدى الملك هنرى الثامن ، فأقاله هذا الملك من منصبه ، وسجنه فى برج لندن ، وهنا مرض مرضا شديدا ، غير أنه ظل على هدوئه وانشراحه ، واشتغل بجد طول يومه فى البرج — وأخيرا ساءت حالته المالية،حتى اضطرت زوجه أن تبيع ملابسها من أجل طعامه .

وأخذت منه كتبه، فأغلق عليه أبواب قاعته فى السجن ، وقضى معظم وقته فى الظلام .

وفى صباح يوم من أيام سنة ١٥٣٥ ، سيق هذا الرجل العظيم النبيل من السجن إلى جبل البرج ، فى طريقه إلى الموت ، فسار هادئا كما لو كان ذاهبا ليتناول غداءه . وعندما وصل إلى ساحة الموت، ضرع إلى حاكم البرج أن يأخذ بيده إلى المشنقة ، وأن يتركه بعد أن ينفذ فيه القضاء يتدحرج وحده . وداعب الجلاد ورجاه أن يؤدى واجبه على أحسن وجه ، ثم وضع رأسه على الوضم ففصلتها فأس الجلاد عن جسده .

## « يوتوبيا » أو المملكة السعيدة

أما كتابه المرسوم « يوتوبيا Utopia » فقد أنشأه فى اللاتينية وهو فى الثلاثين من عمره ، وقد ظهر فيه أنه قوى الملاحظة حكيم العقل ، حوارى أفلاطون وتلميذه . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الانجليزية فى سنة ١٥٥١ بعد موته بستة وثلاثين عاما .

كانت انجلترا فى أيام إنشاء هذا الكتاب بلدا بائسا ، ينفق الملك والنبلاء كل ثروته فى حروب داخلية من أجل السلطة ، وعلى شهواتهم ولذاتهم . ونتج عن ذلك أن أهملت الأرض الزراعية ، وأصبح كثير من الناس لايجدون طعاما ، وانتشرت الشحاذة والسرقة ، واختل الأمن ، وكثر القتل فى السارقين وعمت الأوبئة وكثرت الطواعين .

لما رأى مور تلك الحالة السيئة التى انحدرت إليها بلاده ، أراد أن يوجه الملك والأغنياء وجهة نافعة للفقراء ، فألف هذا الكتاب ، وتحدث فيه عن المدينة الفاضلة التى يتمنى أن تكون ، والتى يتمتع كل فرد فيها بالسعادة والثروة والخير الكثير ، وقرأ الناس هذا الكتاب بشوق ولهفة ، وتعلموا منه كيف تكون الحياة الطيبة ، والعيش الرغيد .

يقص علينا فى مطلعه أنه ذهب إلى « أنفرس » وقابل بها صديقا قدمه إلى شخص غريب لفحته الشمس ، ويبدو من شكله أنه بحار ؛ وفى بيت هذا الصديق تحدث الغريب إلى مور حديثا طويلا ، وأخبره أنه رحالة كبير عاش فى جميع بلاد الدنيا ، وأن خير البلاد عنده هى جزيرة « يوتوبيا »

أما الجزيرة فتشبه هلالا ، ويشقها بحر تجارى تجرى فيه الفلك بنعمة الله من مكان إلى مكان ، وعلى شطآنه كثير من المرافىء . وفى الجزيرة كثير من المدن الكبيرة التى لا تبعد واحدة منها عن الأخرى بأكثر من رحلة يوم على الأقدام ؛ أما الحاضرة ففى الوسط ، ويفد إليها كل عام ثلاثة من حكماء الجزيرة ليضعوا القوانين ، أو يعدلوها ، وكانت مزارع الجزيرة جيدة ، وفى كل مزرعة أربعون رجلا ، يشرف عليهم أبوان صالحان ولكل ثلاثين مزرعة رئيس ، وكان على كل فرد أن يقيم عامين فى المزرعة ثم يغادرها إلى المدينة ، ليحل مكانه شخص من المدينة ، وبهذا تعلم كل شخص فى الجزيرة فلاحة الأرض .

وكان الفلاحون يحرثون ويحصدون ، ويربون الأنعام ، ويقطعون الأخشاب ، ويحملون كل ذلك إلى المدن القريبة برا أو بحرا . وكانو يربون الدجاج ويجعلونه يفرخ بوضع البيض فى أماكن دافئة صالحة لفقسه ، ولما كانت الجزيرة تغل أكثر مما يحتاج اليه سكانها فقد خزنوا الزائد من غلاتها إلى الأيام العجاف ، أو باعوه إلى الأقاليم الأخرى .

وكان نساء المدن ورجالها يخرجون لمساعدة الفلاحين أيام الحصاد .

أما المدن فكانت كلها متشابهة ، أقيمت على سفوح التلال ، وكان يجرى تحت كل مدينة نهر واسع ضاف ، عليه جسور من الحجارة البيضاء ، تمخر السفن فى مائه إلى البحر ؛ وكانت حياة هذه الأنهار تساق فى قنوات ، وكان يحيط بالمدن أسوار عالية حولها خنادق تحصنها من اليأس ، وكانت البيوت واسعة جميلة ، ذات نوافذ زجاجية ؛ ولكل بيت بابان أحدهما فى الشارع ،

والآخر فى الحديقة ، وهذه الأبواب مفتحة دائما ، وكان كل شىء فى المدينة ملكا مشاعا بين السكان .

وكان على كل فرد أن يتعلم بجانب الزراعة صناعة أخرى ، كالنسيج أو البناء ، ولكل فرد ما يناسب قوته من عمل ، وقد وكلت كل أسرة بصنع ملابسها وعمل رب الأسرة أن يشرف عليها ، فلا يسمح لأحد فيها بالكسل ولا الإجهاد .

وكانوا يشتغلون ست ساعات من الأربع والعشرين ، ثلاثا قبل الغداء وثلاثا بعده بساعتين . وفى الساعة يذهب كل شخص لينام ، أما أوقات الفراغ فكانوا فيها أحرارا يعملون ما يشاءون ، ولكن غالبا ما شغلوا هذه الأوقات بالدراسة والاستماع إلى محاضرات ، وكانوا يلعبون ساعة بعد العشاء فى حدائقهم ، ويستمعون إلى الموسيقى ، وكانوا مغرمين بلعب شطرنج ، أحجاره من الأحياء .

وكانت كل أسرة فى المدينة محكومة بالأكبر سنا ، وإذا صغر عددها ضمت إليها أناسا آخرين ، وإذا زاد عددها ساعدها غيرها من الأسر الصغيرة الكثيرة ، فاحتملوا عنها عبء تعرضها وأسكنوهم فى منازلهم ، ولم تكن مدينة تسمح أن يزيد عدد سكانها على ستة آلاف ، وما يزيد يرسل إلى مدن أخرى لم تبلغ العدد ، أو تبنى لهم مدن جديدة على طراز المدن القائمة .

كانت المدن مربعة البناء ، وكل مدينة مقسمة إلى أربعة أقسام ، وفى كل منها مخازن تحفظ فيها البضائع على اختلاف أنواعها ، ليأخذ أرباب الأسر ما هم فى حاجة إليه بلا ثمن ، إذ لم يكن « يوتوبيا » تعرف النقود ، وكان فى كل جزء من المدينة مستشفى يعنى فيه بالمرضى حتى يبرءوا .

أما الأكل فكانت له قاعات خاصة فى المدن يأكل فيها كل السكان . وإذا حان وقت الأكل دق ناقوس خاص يدعوهم إلى الطعام ، فيفدون إليها من

كل حدب ، ويأخذون أمكنتهم ، ويقوم الغلمان والفتيات بالخدمة .

ولم يكن للذهب والفضة قيمة فى هذه المدن ، أما الحديد فكانت فيه منافع للناس ، وكان عالى القدر عندهم ، ومن أجرم منهم علقت فى أذنه أقراط من الذهب والفضة دليلا ، وبهذا تعلم الناس أن يحتقروا هذه المعادن النفيسة .

وكان فى « يوتوبيا » مدرسون أكفاء ، والأطفال جميعا يذهبون إلى المدارس . ويشبون على حب التعليم والكتب ، وأما الصيد فكان رياضة وحشية ، وكانت الحرب بغيضة مكروهة ، ولم يكن من القانون إلا مواد قليلة ، لقلة الحمق والمجرمين فى « بوتوبيا » .

تلك هى المملكة الفاضلة التى صورها سير توماس مور ، وهى خيال لم يتحقق ، ولكن فضلها كان عظيما فى إيقاظ الأفكار ، وتوجيه الناس إلى الأخطاء التى فى بلادهم ، عساهم أن يصلحوا من شأنهم ، وأن يقيموا العدل بينهم ويتعلموا الإيثار ، والرحمة والتعاطف ، ليسود بينهم السلام ، ويعيشوا فى نعمة وعيش رغيد ، وهناءة موفورة

عبد الرزاق حميده

# الموسيقا فى الأدب العربي

## عرض ونقد وتحليل

## - ٣ -

للأستاذ عبد اللطيف المغربى

---

العصفور : — لقد كان لحديثك الغابر عن موسيقا اللفظ وموسيقا الأسلوب — ماسرنى وبسط أمامى صورا من جمال القول وأسراره ؛ وأحب أن تقفنى على شىء من آراء علمائكم القدامى فى اللفظ والمعنى ؛ لأعرف إلى أى حد عالجوا هذا الموضوع ، وأقدر مبلغ نظرهم إليه ، وعنايتهم به .

أنا — علماء الأدب فى النظر إلى اللفظ والمعنى فريقان : فريق معتدل ، جعل فضيلة الكلام الجيد قسمة عادلة بين اللفظ والمعنى ، كقدامة بن جعفر ، وأبى هلال العسكرى ، وابن رشيق ، وغيرهم ؛ وفريق متطرف ، وهو رجلان ، شيخ الكتاب الجاحظ الذى جعل الحسن كله وقفا على اللفظ ، وغض النظر عن المعنى فقال « والمعانى مطروحة فى وسط الطريق يعرفها العربى والعجمى ، والحضرى والبدوى » ومن عرف ثروة الجاحظ اللغوية ، وسلطانه على الألفاظ وحفله بها ، وبراعته فى الترادف ، وأذنه الموسيقية فى تعرف الألفاظ وتخيرها لها — أدرك سر انحيازه إلى جانب اللفظ ودفاعه عنه ؛ والإمام العالم عبد القاهر الجرجانى الذى مال إلى جانب المعنى ، ونصب نفسه زعيم معارضة للجاحظ ، وكأنه حين رآه يدع كل حسن للفظ — مال هو إلى المعنى ، ونسب إليه كل حسن ، ليقرع رأيا برأى ، ويصدع حجة بحجة ؛ وبهذا وقع فى التطرف كما وقع الجاحظ .

ونسمعك بعض آرائه فى اللفظ واستخفافه به ، وفى المعنى وعطفه عليه ؛ وسترى من ذلك عجبا ؛ قال « فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا — أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظ لمعنى الجملة التى تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك ، أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر . . . إلى أن قال : ومن أعجب ذلك لفظة الشىء ، فإنك تراها مقبولة حسنة فى موضع ، وضعيفة مستكرهة فى موضع آخر ، وإن أردت أن تعرف ذلك ، فانظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة المخزومى .

ومن مالىء عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ؛ ثم انظر إليها فى بيت المتنبى .

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم » وعندى أن لفظة شىء فى بيت المتنبى أجمل وأروع منها فى بيت عمر بن أبى ربيعة ، فإن تنكيرها فى بيت المتنبى زادها لطفا وخفة ؛ وإضافتها إلى كلمة غير فى بيت ابن أبى ربيعة جعلتها سمجة فاترة — على أنى أقول . . إن الكلمة لا تقبح فى موضع وتحسن فى آخر لذاتها ؛ وإنما ذلك يتبع النسج والتأليف واختلاف الموجات الموسيقية ؛ فلا دليل للإمام فى ذلك . وقد حمل الإمام على أنصار اللفظ ونال منهم تلويحا وتصريحا ؛ وكرر رأيه فى اللفظ فى صور مختلفة ، فى ثنايا كتابه دلائل الإعجاز ، وأغرق فى سوق الأدلة ماشاء ، فمن ذلك قوله « واعلم أن ما ترى أنه لابد منه عن ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم

الخاص — ليس هو الذى طلبته بالفكر ، ولكنه شىء يقع بسبب الأول ( يريد المعنى ) ضرورة ؛ من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعانى ، فإنها لامحالة تتبع المعانى فى مواقعها ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فى النفس ، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا فى النطق » وقوله « وإنك إذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس — علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق » .

وقوله « ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة فى شىء ( يريد اللفظ ) — هو إذا انفرد ( لم يجب به فضل ألبتة ، ولم يدخل فى اعتداد بحال ، وذلك أنه لايخفى على عاقل ، أنه لايكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان ـ اعتداد ، حتى يكون قد ألف منها كلام ، ثم كان ذلك الكلام صحيحا فى نظمه والغرض الذى أريد به » وقوله « وما رأينا عاقلا جعل القرآن فصيحا أو بليغا ، بألا يكون فى حروفه مايثقل على اللسان ، لأنه لو كان يصح ذلك ، لكان يجب أن يكون السوقى الساقط من الكلام ، والسفساف الردىء من الشعر ـ فصيحا ، إذا خفت حروفه »

هذه نظرة الإمام الجرجانى إلى اللفظ المفرد ، من أنه لااعتداد به من غير أن يسلك فى نظم ، وليس حسن الكلام بخفة ألفاظه على اللسان ، وائتلاف حروفها وانسجامها ، بل فضله وحسنه فى نظمه نظما يوافق أصول النحو ، ويجرى على نظامه المألوف كما سنعرض له بعد .

ومن غريب أمر الإمام ، أنه بعد أن أثار حربا شعواء على اللفظ فى مواضع كثيرة من كتابه ، يعود فى وقفات يسيرة ، فيسلم بفضله فى إحساس

مكبوت تارة ، وقول صريح تارة أخرى ، فيقع فى التناقض والاضطراب ، فاستمع إليه إذ يقول :

« وهل يقع فى وهم - وإن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية ؟ أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد ؟ »

ويقول فى صراحة ووضوح « واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ، وإنما الذى ننكره ونفيل رأى من يذهب إليه - أن يجعله معجزا به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة ، فيخرج إلى ماذكرنا من الشناعات »

العصفور : حقا إن هذا لغريب . كيف يجمل من الإمام الجرجانى - طيب الله ثراه - أن يسلك سبيلا ملتويا فى الانتصار للمعنى بلا تحفظ ، كما سلك الجاحظ قبله مثل هذا السبيل فى الانتصار للفظ ، ولست بموافقه على رأيه المجحف باللفظ ، فعندى أن الألفاظ - وهى مفردة - لها منزلتها وشرفها الكامن فيها أو سخفها ، وذلك بما يحتويه من ائتلاف فى الحروف، وانسجام موسيقى أو خلافهما ، والكلام إذا كان حسنا كانت ألفاظه المفردة حسنة ، فلا يعقل أن يكون الكل حسنا وأجزاؤه غير حسنة ، فيكون الحسن وصفا طارئا للكل منفيا عن أجزائه ، ونظم الكلام إذا كان حسنا ، زاد الألفاظ الجميلة روعة وبهاء ، وإذا كان غير محكم ، غض من حسنها وشوه من جمالها ، وشبيه ذلك العقد من الدرر إذا نظمت حياته على صورة حسنة بارعة ، فقد استوى مثلا عاليا فى البلاغة ، وإذا نظمته على صورة غير متقنة ، فقد قل جماله العام ، وبقى لحباته روعتها الجزئية من الإشراق والصفاء ، وشىء آخر ، وهو أن المعنى فى ذهن الكاتب أو الشاعر ، يحمله إلى معرض الألفاظ ، ليبحث له عن ثوب

قد على مثاله ، وقد يجد للمعنى أو شبهه ثوبين أوأ كثر ؛ ولكن أحدهما من خز ناعم ، والآخر من صوف خشن ، فهل يستويان قيمة وانسجاما ؟

والعتق والكرم يقعان فى الألفاظ كغيرها من الأشياء ، وبهذا تفترق ، ويكون للمعنى أكثر من لفظ ، فيحيا واحد ويموت غيره ؛ والمعاجم مملوءة بالألفاظ المهملة التى تخلفت وانفرد غيرها بالبقاء دونها ، واختيار الألفاظ الحية قد قضى به العرف المألوف ، ومهد له الذوق المسيطر ؛ ولهذا وثب مثل هذه الألفاظ إلى عالم الظهور والشهرة واستأثر بالذيوع ، كالقطعة والجفاء ، والواسع والسهر ، والقصير والسحاب ، والذئب والعجب والذكاء ، والبخيل والوثب والظلمة ، وخملت نظائرها وهى على التوالى : العتوارة والعجهرة ، والعذمهر والتعاد ، والفبتر والناهور والنهر ، والهكر والحرمزة والضرز ، والقهمزة والطرمساء .

وسر ذلك يتجلى فيما منحته الألفاظ الأولى من خفة حروف وانسجام موسيقى ، وما حرمته الثانية من صفات الأولى ؛ ومن هنا تدمش لأقوال الإمام التى تلوناها عليك ، ومنها قوله « فقد انضح إذا اتضاحا لايدع للشك مجالا ـ أن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة » وقوله فى بعض وصفه للفظ « لم يجب به فضل ألبتة ، ولم يدخل فى اعتداد بحال »

وأعرف من هذا فى الغرابة قوله « وإذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها » .

وليت الأمر كذلك . إذا لهان الأمر على الكتاب والشعراء ، واستراحوا مما يلاقون من عنت ونصب فى صناعتهم من وراء ربط الألفاظ بالمعانى ، وطلب الملاءمة والمشاكلة بينها . ويكفى أن تترتب المعانى فى نفسك فتتمثل

عليك الألفاظ انثيالا بلا جهد ولا عناء ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة ، كما يقوم الإمام الجرجانى ، وتلك أمنية كما نرجو أن تتحقق فكم يعانى أرباب البيان إذا عرضوا للمعانى التى تجول بأفئدتهم من حيرة وعناء فى اختيار الألفاظ لها ، حتى تراتيبهم كما أرادوا أو قريبة منه .

وقد يكون لقول الإمام لمعة من الصواب فى الأمور العلاجية ؛ كالأكل والشرب والمشى والقعود ، والأمور المحسة كالبيت والحديقة والبحر والجبل وذلك الضرب غثاء لاقيمة له فى عالم البيان ، أما المعانى النفسية الكريمة العميقة وما يجول فيها من إحساس مبهم ، ووجدان غامض — فذلك هو سر البيان وروح الأدب الخالدة ، وأثمن ماسعدت به الإنسانية من تراث ؛ وهذا هو المجال الذى تتسابق فيه القوى العقلية ، وتتباين الألسنة فى تصويره وتقريبه من الأذهان ؛ وهذا النوع هو الذى يجهد العقول ويشقيها فى تلمس الألفاظ التى تلائمه ، وإن الكاتب أو الشاعر ليلاقى صورا من هذا الصنف فيطاردها بميله ، وينصب لها شرك قوله ، ولا يزال يتنقل فى مناح من القول ، بعضها يعلو وبعضها يهبط ، حتى يرزق عفوا أو يدرك قصدا — عبارة يقنع بها راضيا أو كارها ، ولقد تغادر المعنى إلى غيره وفى النفس منه بقية لايزال يمسها وتخفق بها جانحته لأنه لم يرزق الألفاظ التى تصيب الهدف .

فكيف يرى الإمام الجرجانى أن الألفاظ تترتب بلا فكر ولاتعب ، إذا ترتب المعنى فى النفس ؟ الحق ، أن هذا القول لم يرزق حظه من التوفيق .

وقد يدور بخلد قارىء أن يقول ماباللك قد أثرت خصومة وصلت فى غير مجال ، والإمام الجرجانى لم يبخل على اللفظ ببعض مايستحقه فى نظرك ؟ فقد اعترف له ببعض محاسنه فيما رويت من قوله ومالم تروه ، وكان فى هذا — لو أنصفت — مايحملك عن العدول عن موقف المعارضة للإمام ، أو تعديل رأيك فيما يراه للمعنى من حقوق ولا يرى مثله للفظ ؛ ولقد كان

واجبا على النزول على إرادة ذلك القائل ؛ ومثلى — على ضعفه — حرى أن يرضى بالسلامة والعافية من معارضة الإمام الجليل ، يعسوب البلاغة وإمامها وفيصلها ، وناسج بردها ومهذب ذوقها ، ومقيم صرحها ورافع لوائها ؛ وللإمام فى عنق فضل التهذيب والتأديب ، فقد كان كتابه « دلائل الأعجاز » أول كتاب أدبى نهلت منه الفصاحة صافية ، ونفضت به عن عينى غشاوة الجهالة وحللت به عقدة من لسانى ، وهذبت به كثيرا من ذوقى بعد الفضل الأسمى لكتاب الله الكريم .

لولا أن مدح الإمام للفظ لمعة قليلة جدا لاتكاد تبين فى ثنايا ماأورده فى مدح المعنى ، وقد أطال ووكد وصال وجال فى ميدان المعنى . وندد باللفظ وأنصاره ، ونال منهم فى غير هوادة ، مما لايدع لحسن رأيه فى اللفظ سبيلا إلى القلوب ؛ ويرى الإمام فوق هذا أن كل مدح للفظ قد خصه به أنصاره — هو على الحقيقة مدح مقنع يراد به مدح المعنى ، فاستمع إليه حيث يقول « ولما أقروا هذا فى نفوسهم حملوا كلام العلماء فى كل مانسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره ؛ وأبوا أن ينظروا فى الأوصاف التى أتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ مثل قولهم : لفظ متمكن غير قلق ولاناب به موضعه إلى سائر ماذكرناه قبل ، فيعلموا أنهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبوه من الفضيلة ، وهم يعنون نطق اللسان وأجراس الحروف ، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ ، وهم يريدون الصورة التى تحدث فى المعنى والخاصة التى حدثت فيه » .

ويقول « كقولهم « لفظ متمكن » يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى مايليه كالشىء الحاصل فى مكان صالح يطمئن فيه « ولفظ قلق ناب » يريدون أنه من أجل معناه غير موافق لما يليه كالحاصل فى مكان لايصلح له ، فهو لايستطيع الطمأنينة فيه إلى سائر مايجىء صفة فى صفة اللفظ ، مما يعلم أنه مستعار له من معناه ، وأنهم نحلوه إياه بسبب مضمونه ومؤداه » .

العصفور — بارك الله فى صديقى الكريم ، فقد جلا على صورا جميلة من الحقائق ، وأرضانى بحسن أدبه ومعرفته أقدار الرجال ، فجزاه الله عن العلم وأدب النفس خيرا ، وإنى لأرجو أن تتم رأى الإمام فى نظم الكلام بعد أن وقفتنى على رأيه فى اللفظ المفرد ، ولك منى جزيل الشكر والثناء على حسن ماقدمت لى فى يومنا هذا من خير وفير .

أنا — للإمام الجرجانى فى نظم الكلام رأى غريب أيضا يشبه رأيه فى اللفظ المفرد ، فهو يرى أن الكلام الحسن ماجرى نظمه على أصول النحو وقوانينه فحسب ، وإليك رأيه . قال :

« واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت ، فلا تزيغ عنها وقال « هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم — ألا وهو معنى من معانى النحو ، قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه . واستعمل فى غير ماينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه — إلا وأنت تجد رجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك النقل — إلى معانى النحو وأحكامه » .

وهذا الرأى من زعيم البلاغة مثير للدهشة ، فإن أسرار البيان لاتقوم على دعائم النحو ، ولاتتحقق بالجرى على أصوله وقوانينه ، من إقامة الفاعل وبيان المفعول ، وذكر المتعلق وترتيب الثمرة بالفاء ، وبيان الحال وذكر الصفة ونحو ذلك ، مما هو بسبيل النحو ، ولو كان الأمر كذلك لكان أئمة النحو العالمين بأسراره كالخليل وسيبويه ، والفراء والكسائى والأخفش — هم الذين أخذوا بزمام الكتابة والشعر ، وخلفوا وراءهم عبد الحميد وابن المقفع ، وعمر

ابن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، والجاحظ والصابى ، والصاحب بن عباد وابن العميد ، إن السر فى بلاغة الكلام وروعته لا يرجع إلى النحو الذى يعد وسيلة أدبية لتقويم اللسان وصحة الكلام ، بل يرجع إلى ماهو أسمى من النحو منزلة ، يرجع إلى الذوق المصفى المهذب ، والفطرة السليمة النقية الخصبة ، والذخيرة العربية المنوعة التى يتمرس بها الكاتب أو الشاعر طوال حياته ، ويتصقل لسانه على غرارها ، وتهب له مثل مافيها من جمال وعذوبة ، وهذا أمر لاينازع فيه أديب قاسى هذه الصناعة وعرف أسرارها ، ولعل رجال النحو العارفين بأصوله أقل الناس بيانا ، وبيانهم له صيغته الخاصة من التكلف ، وأثر صناعتهم ومصطلحاتها مما لاتطرب له الأذن ولا تشهد له النفس — ولو كان الأمر كما قال الإمام لكان قول القائل الذى يطلب الدعاء لأمه المريضة وهو « صين وأعين من دعا لامرأة مقسئنة عليلة ، قد منيت بأكل هذا الطرموق الخبيث ، أن يمن الله عليها بالاطرغشاس والابرغشاس » — من النظم الحسن ، لأنه جرى على أصول النحو وقوانينه ، وماأظن الأستاذ الإمام يرضى ذلك وهو إمام البلاغة والذوق .

ويؤيدنا فى رأينا العالم النفسى اللبق ابن خلدون ، ويرفض أن تكون قوانين النحو هى المرجع لحسن النظم ، ونورد قوله هنا لإقناع من خامره شك فى صحة ماذهب إليه الإمام الجرجانى — قال فى أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية « والسبب فى ذلك أن صناعة العربية إنما هى معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هى بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا . . . . . وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة فى نفسها ، فإن العلم بقوانين الإعراب ، إنما هو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة ، والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين ، إذا سئل فى كتابة

سطرين إلى أخيه أو ذى مودته ، أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده — أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى ؛ وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن تمييز الفاعل من المفعول ، ولا المفعول من المجرور ، ولا شيئا من قوانين الصناعة العربية ؛ فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هى غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة » ويقول أيضا « وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية فى ذلك التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها » .

وهذه شهادة ابن خلدون ، فى بيان رجال العلوم ، قال « ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين فى البلاغة ، وماذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلىء به من القوانين العلمية ، والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة ، والنازلة عن الطبقة ، لأن العبارات عن القوانين والعلوم ، لاحظ لها فى البلاغة ، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر ، وكثر وتلونت به النفس ، جاءت الملكة الناشئة عنه فى غاية القصور ، وانحرفت عبارته عن أساليب العرب فى كلامهم ، وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقى من بحر كلام العرب » . وأرانى قد بلغت الغاية من إيفاء الموضوع حقه ، ولم يبق بعد ذلك ريبة فى أن قول الإمام الجرجانى فى النظم قد خالف الحقيقة وجافى الصواب إلى حد بعيد ، وأعجب مافى الأمر أن يصدر هذا القول عنه وهو هو فى الفضل والعلم ، وإذا كان ابن خلدون العالم الناقد قد خالفه فى النظم وهو الكل المؤلف من أجزاء هى الالفاظ ، فما أحراه أن يخالفه فى رأيه فى اللفظ المفرد أيضا ، ويذهب مذهب الجاحظ فى اللفظ ، ويجعل المعانى تابعة

للألفاظ ، بعكس ماقال الإمام ، وقد أطال فى الاستدلال وإقامة الحجة، حتى بلغ الغاية فى مهارة وحذق ، ويسرنى أن أسوق إليك قوله فى ذلك ، فهو أبرع وأوفى من رأى الجاحظ ، قال :

« اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى، وإنما المعانى تبع لها وهى أصل ، فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ، ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر، ويتخلص من العجمة التى ربى عليها فى جيله ، ويفرض نفسه مثل وليد نشأ فى جيل العرب ، ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم . وذلك أننا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات فى النطق ، يحاول تحصينها بتكرارها على اللسان حتى تحصل ، والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر ، وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها مايشاء ويرضى ، فلا يحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه ، وهو بمثابة القوالب للمعانى ، فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر ، منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد فى نفسه ، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء — كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه ، باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعانى واحدة فى نفسها ، وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان ، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذى يريد النهوض ولا يستطيعه ، لفقدان القدرة عليه ، والله يعلمكم مالم تكونوا تعلمون »

ومن هنا ترى ياصديقى العصفور ، أن العالم ابن خلدون ، قد خالف الإمام الجرجانى وقلب رأيه رأسا على عقب ، وابن خلدون أيضا رجل كلف باللفظ

يعنى بموسيقيته كثيرا ، وإن لم يبلغ منزلة الجاحظ فى صدق أذنه الموسيقية ، وحسن مرانها على اختيار الألفاظ وترتيبها ، وأنا بلاريب يسرنى أن أكون معتدلا ، فأرى الفضيلة مشتركة بين اللفظ والمعنى ، فإذا شرف اللفظ وصفا وانسجمت موسيقاه ، وواتاه المعنى البارع ، وحسن سبك العبارة ، فاطردت موسيقيتها على أكمل وجوهها ، فقد استويا كلاما بالغا حد الروعة والبهاء ، وباختلاف الشعراء والكتاب فى ذلك قوة وضعفا — تختلف أقدارهم ومنازلهم

العصفور :— حسب الصديق الكريم ماقد سرنى به اليوم من حديث ممتع ، وما أتحفنى به من نقد وتحقيق لنواح كنت أمر بها فى أدبكم الإنسانى ، فيشتبه على الرأى فيها ، فأخرج منها كما جئتها بلا فصل ولا تمحيص للحق منها ، فجزاك الله عنى خير الجزاء ، وأدامك للبحث الخصب نصيرا ، وللخلق السرى ظهيرا ، وإنى لشاكر لله جل شأنه — جمع الشمل وطى صفحة الفراق .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

ثم انتفض انتفاضته المعروفة ، ومضى فى الجو صعدا ، وهو يغرد تغريدا أعاد إلى نفسى الذكريات القديمة ، التى طالما جمعتنا على أتم صفاء ، وغمرنى بسرور طربت له كل الطرب ؟

عبد اللطيف المغربى

# التربية الاسلامية

## معاهـــد التعليم

### ٣

للأستاذ محمد على مصطفى

المفتش بالمعارف

---

أجملنا القول فيما بذله السابقون الأولون من الجهود المشكورة فى نشر العلم بين الناس ، و تعليم الأحداث وسواهم القراءة والكتابة ، فعلينا أن نتتبع هذه الحركة مع بعض التفصيل ، لنعرف أماكنها ومداها ، وشيئا عن نظامها فى الأقطار المختلفة .

## ١ ـ الكتّاب

كان اليهود من العرب قد اتخذوا لأبنائهم مدارس يعلمونهم فيها كتابة اللغة العبرية وقراءتها والتوراة ، فلما جاء الإسلام بكتاب منزل ، كان أول ماعنى به المسلمون تعليم أبنائهم القراءة والكتابة ، حتى يعرفوا دينهم ، ويقرءوا كتاب الله ، وأغلب الظن أن بعض المسلمين بعثوا بأولادهم إلى مدارس اليهود ليتعلموا فيها ، فقد ورد أن أبى بن كعب قال فى زيد بن ثابت لقد قرأت القرآن ، وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود فى

المكتب . وقال الواقدى، كان الكتاب بالعربية فى الأوس والخزرج ، وكان تعلم الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول . وإن كلمة المكتب أو الكتاب لتردد كثيرا على الألسنة، مما يدل على أن الكتاب أو المكتب كان له وجود حتى قبل مجىء الإسلام ، وقد أشرنا من قبل إلى أن رسول الله ﷺ أمر الأسرى من فقراء المشركين أن تكون فديتهم تعليم عشرة من صبيان المدينة ، وليس هناك مايدعو إلى الشك فى أن هؤلاء قد افتدوا أنفسهم بصناعتهم ، وعلموا أبناء المسلمين، فإن آخر الحديث يدل على ذلك إذ يقول: ففشت الكتابة بالمدينة ولعل هذه أول الكتاتيب فى الإسلام . وهناك أمر آخر يدلنا على أن الكتاب نشأ مبكرا، فقد أسلفنا أن سبى قيسارية بلغ نحوا من أربعة آلاف ، استعمل بعضهم فى الكتاب ، كما ضبطها مؤرخو الفرنجة [1] ، وورد أيضا فى الإصابة لابن حجر أن جبير بن حيان وكان معاصرا لعمر بن الخطاب كان معلم كتاب بالطائف، وكذلك كان يوسف الثقفى والد الحجاج وغيره ممن قصصنا عليك أسماءهم من قبل .

كل هذا يدل على أن معاهد تعليم الأطفال نشأت مبكرة، ثم زاد عددها وانتشرت فى الأقاليم الإسلامية بسرعة ، وآزرها الخلفاء والأمراء وأعيان المسلمين بجاههم ومالهم وتقربوا إلى الله برعاية أبناء المسلمين فيها ، حكى غياث ابن أبى شبيب قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا فى الكتاب، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه. وروى أن هاشم بن مسرور التيمى القيروانى من علماء القرن الثالث كان يقف بالمكتب ثم يقول للمؤدب : أخرج إلى من عندك من الأيتام ، فيشترى لهم الفاكهة ويطعمهم ويدهن رءوسهم ويقبل بين أعينهم ويقول: ماعسى أن أصنع لكم ، اللهم هذا الجهد منى ، وحكى أن أمراء بنى الأغلب كانوا يزورون دور

(١) راجع دائرة المعارف الأسلامية ج ٤٢

العباد والعلماء والكتاتيب فى المواسم ويرزعون الصدقات .

ومن الخلفاء من اتخذها وسيلة لنشر مذاهب دينية معينة، فقد كان المعتصم يقول بخلق القرآن وامتحن الناس فيه ، فكتب إلى البلاد وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك ، وما زالت الكتاتيب ينمو ويتكاثر عددها ، حتى لم يخل منها درب من الدروب أو حى من الأحياء ،وربما تعددت الكتاتيب فى الحارة الواحدة مثلما تعددت المساجد فى الحارات » ، فقد ذكر ابن حوقل أن عدد الكتاتيب فى بليرمو بلغ فى القرن الرابع ثلثمائة،وكان معلموها موضع الاحترام.

والظاهر أن حركة التعليم فى الكتاتيب شملت البنين والبنات ، فقد حكى صاحب البيان والتبيين « أن الوليد بن عبد الملك مر بمعلم صبيان فرأى جارية فقال « ويلك ماهذه الجارية » قال أعلمها القرآن » وأكبر الظن أن ذهاب البنت إلى الكتاب فى ذلك العهد كان غير مألوف ، ألست تحس ذلك فى قول الوليد للمعلم « ويلك ماهذه الجارية » إذ لو كان مألوفا لما كان لهذا الاستفهام بصيغته معنى.

كانت الكتاتيب إما عامة مستقلة عن المساجد أو تابعة لها ،أو للسبل أو خاصة فى دور الأعيان والأمراء وقصور الخلفاء ،ولا يسمح لنا الوقت بتتبع كل نوع من هذه المعاهد مع شىء من التفصيل،فأولى لنا أن نتكلم فى مناهجها وطرق التعليم فيها

## مناهج الكتاتيب أو المدارس الأوليه

نشأت التربية متصلة بالمبادىء الدينية،فكان من الطبيعى أن يكون أساس منهجها القرآن الكريم ومعرفة العبادات وطرق إقامة الشعائر الدينية، ولكنها تعدت ذلك إلى تعليم الكتابة والحساب وبعض فنون الأدب ، وشمل المنهج كذلك الرياضة البدنية وبخاصة السباحة وركوب الخيل والوثب على ظهورها روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال:« علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم

فليثبوا على الخيل وثبا ورووهم مايحمل من الشعر » وكان عبدالملك بن مروان يقول لمؤدب ولده « علمهم العوم وهذبهم بقلة النوم » وروى الأبشيهى فى كتاب المستطرف قال: حكى الفضل بن يزيد الكوفى — وكان من كبار المحدثين وثقاتهم زمن بنى أمية، وكان ينزل بجزيرة الفرات — قال: نزل علينا بنو تغلب وكنت مشغوفا بأخبار العرب، فبينما أنا أدور فى بعض أحيانهم إذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خيانها، وهى آخذة بين غلام وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب فاستحسنت مارأيت، واستحليت ماسمعت، فدنوت منها وسلمت فقالت: ياحضرى ماحاجتك؟ قلت الاستكثار مما سمعت، فأخذت تقص على من أخبار الغلام حتى قالت: أرضعه حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من فرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أسد، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده؛ فلما بلغ مبلغ الرجال حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحى الخبلاء، وأخذ فى قرى الضيف وإطعام الطعام » .

وأوصى الرشيد خلفا الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال له .

يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته؛ إلى آخر الوصية (٢) .

وأوصى عمر بن عتبة معلم ولده فقال له :

---

(١) باختصار عن نزهة القارى. للأسكندرى .

(٢) وخذه بتنظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولاتمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فائده تفيده أياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويالفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة

ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ماصنعت، والقبيح عندهم ماتركت : علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم، وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة النساء، ولا تتوكل على عذرمنى لك، فقد اتكلت على كفاية منك .

وجاء فى كتاب آثار الأول فى ترتيب الدول لمؤلفه الحسن بن عبد الله مايأتى قال « يتعين على الملك أن يكون له ولد صالح يخلفه فى ملكه ويبقى ذكره من بعده .... ولا ينبغى أن تكون رغبة الملك فى تكثيرهم بل فى تجويدهم، فأول ماينبغى له أن ينتخب الأمهات ذوات الأصالة والصباحة والملاحة، والسلامة فى الأعضاء والحواس وجودة الأخلاق وكرائم الطباع ، وليختر لذلك زمن الربيع وفى الأسحار، وعند السرور والنشاط والانبساط، فإذا جاءه الولد أحسن تسميته واختار له المواضع لتعتدل طباعه وتتكامل هيئته، ثم اذا ترعرع يعلمه الخط والقراءة ويهذب لسانه على الفصاحة ، ويوكل بتربيته من يثق بأمانته وشفقته ، ثم يعلمه الركوب والفروسية والرمى والطعان وجميع مايحتاج إليه أهل العرب » .

وقد تعرض محمد بن سحنون التنوخى القيروانى (٢٠٢ — ٢٥٦ هـ) فى كتابه آداب المعلمين لبيان منهج التعليم الأولى مع كثير من التفصيل المفيد قال:

« وينبغى أن يعلمهم الحساب وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط ذلك عليه، وكذلك الشعر والغريب والعربية والخط وجميع النحو وهو فى ذلك متطوع.

وينبغى له أن يعلمهم إعراب القرآن ، وذلك لازم له ، والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل يلزمه ذلك ، ولا بأس أن

يعلمهم الشعر مما لايكون فيه فحش من كلام العرب وأخبارها وليس ذلك بواجب عليه » .

مما سقناه إليك من النصوص تعلم علما يقينيا المواد التى اشتمل عليها منهج التعليم فى المرحلة الأولى من مراحله ، على أن الحال لم تكن واحدة فى جميع الأقطار الإسلامية،فقد تفاوتت المناهج واختلفت تبعا لاختلاف الأقاليم وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لتعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه فقال:

« اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه مايحصل بعد من الملكات ،وسبب ذلك أن التعليم فى الصغر أشد رسوخا، وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ماينبغى عليه .

واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ماينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه لايخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس العلم لامن حديث ولا من فقه ولا من شعر ولامن كلام العرب . . . . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن من سواهم .

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم — جعلوه أصلا فى التعليم،فلا يقتصرون لذلك عليه فقط،بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية

وحفظها.وتجويد الخط والكتاب .ولاتختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ وقد شدا بعض الشيء فى العربية والشعر والبصر بهما،وبرز فى الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم،لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم فى آفاقهم ، ولايحصل بأيديهم إلا ماحصل من ذلك التعليم الأول،وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم .

وأما أهل إفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها،إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك . . . .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى تعليمهم كذلك على مايبلغنا ولا أدرى نم عنايتهم منها، والذى ينقل لنا أن عنايتهم بالقرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة،ولايخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد .

ينتقل ابن خلدون بعد هذا إلى المفاضلة بين هذه الطرق المختلفة فى الأمصار الإسلامية،ويذكر مايترتب على اتباع كل طريقة من النتائج، والظاهر أنه يفضل طريقة أهل الأندلس على سواها،لأن اتباعهم هذه الطريقة أفادهم من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى،وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذى هو أصل العلوم وأساسها ، فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع ، أو مقصر على حسب مايكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا »

محمد على مصطفى

# من الشعراء المنسيين

## السيـــد الحميرى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

---

شاعر مطبوع لا يبلغ شأوه فى فنه ، ولا يجاريه سواه فى ذلك اللون من شعره الذى تفرغ له ، فانفرد به ، بعد أن منحه همامة نفسه ، وأولاه عصارة ذهنه ، وما زال ذلك شأنه لا يعدو هذا الغرض إلى غيره من الأغراض إلا لماما ؛ حتى قوض بناؤه ، وسالت دماؤه . وإذ ذاك كفر حقه الرواة ؛ وجحد فضله المؤرخون ، فصار بعد حين من موته مغمورا ، إن عرفته بطون الأسفار نكرته صحائف الأفكار ، وإن رمقته عيون الأخبار قلته أحداق الأبصار ، فنال الدهر من ذلك الشعر الذى طالما نيل به من السابقين الأولين ، فلقد كان السيد متشيعا تشيعا مقيتا لا يقره دين ، ولا ترمقه بالرضا عين ، وما كان يبالى فى سبيل الذود عن نزعته أن يخرج على أدب الإسلام أو يقع فى الآثام والأوزار ، ولعله ورث سلاطة اللسان وخبث النفس عن جده يزيد بن زياد ابن ربيعة الحميرى ، فقد كان لسانه مفحشا وهجاؤه مقذعا ؛ هجا آل زياد بن أبى سفيان فلم يترك لهم أديما ولم يبال فى ذمهم تأثيما من أدب قويم أو دين كريم ؛ حتى استأذن عبيد الله بن زياد يزيد بن معاوية فى إهدار دمه ، ليكون عبرة غيره من أولئك الهجائين المجادعين الذين أباحوا الحرمات فاستحقوا اللعنات ولكن يزيد أبى عليه هذا ، وأباح له التنكيل به كيفما شاء ، ففر يزيد الحميرى من وجهه مستجيرا بكل عظيم ، ، فكانوا يردونه رداً حسنا اتقاء لسانه وخشية سبابه ، زاعمين له أنهم لا يمنعهم حمايته إلا أمر الخليفة ، فما كان لهم أن يجيروا على

لسلطان ، وهو فى تطرافه وجولاته لا ينفك يهجو ويقذع ، فلم يسلك مسلك
لنابغة قبله فيعتذر ويرتجى ، ويستجير ويستعفى ، حتى يجد فى قلب عبيد الله
رحمة .

وبعد حين أمكنت الفرصة عبيد الله منه فقبض عليه وسقاه من صابه ،
وأطال فى الحبش مقامه ، حتى استشفع له قومه من اليمانية فشفع له ، ومن
هجائه له ولأخيه عباد قوله :

وما لاقيت من أيام وبؤس ولا أمر يضيق به ذراعى
ولم تك شيمتى عجزا ولؤما ولم أك بالمضلل فى المتاع
سوى يوم الهجين ومن يصاحب لئام الناس يغض على القذاع

ومنها :

إذا أودى معاوية بن حرب فبشر شعب فعيك بانصداع
فأشهد أن أمك لم تباشر أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لبس على عجل شديد وارتياع

ولا سبيل لنا إلى رواية الشىء الكثير من شعره لأننا بصدد حفيده أولا ،
ولمغالاته وإمعانه فى السفه ثانيا ، ولكنا نحكم عليه عادلين فى حكومتنا
بأنه أول أولئك الذين شرعوا ذلك المشرع الكدر من الشعر ، فدفعوا بغيرهم
فى تلك المفازة الموحشة من الأدب ؛ بذكر ألفاظ الخنا والزنا ، ورمى المحصنات
بالمنكرات ، وقذف الأمهات والأخوات ، فى عهد قريب من عصر الأدب
الرفيع أدب الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام المبعوث ليتمم مكارم
الأخلاق ، فجناية هذا الشاعر ومن نحا نحوه مزدوجة ، وجريمته ومن شايعه فى
نحلته مضاعفة .

أورث يزيد بن زياد حفيده إسماعيل بن محمد ذلك الأدب الفاحش واللسان
المستهتر بالسباب ، والقلب السادر فى الغى ، فكان ينضح من معينه . ويفيض إناؤه

بسخينة، وليته أطلق مقوله على لداته من الشعراء والمنافسين أو أرسل إخاشه على الأعداء من المجادعين، إذا لكانت الجريرة محتملة الوقع، هينة الإيلام للنفس، ولكنه تطاول على الخيرة الأبرار، ولم يجد من يردعه، وتسامى إلى البررة الأطهار ولم يلق من يرجمه، إذ كان يتقرب إلى الخلفاء والولاة فيمالئونه ويدارونه، ويتمدح بخلال الأمراء والأعوان فيصافونه ويتحاملونه.

ولقد كان تشيع السيد الحميرى عن عقيدة فى النفس راسخة لا تلعب بها الزعازع، وكان تحز به لآل على عن إيمان لا تنال منه الأعاصير الهوج، فلو أن التشيع عن هوى لخشى ما قد يصيبه من جنف، ولبالى ما لعله ينتظره من حيف ولكنه لم يأبه فى حبه ظلما، ولا بالى فى تحزبه صنيما، فهذا أبوه كان إباضيا (١) فحين بلغته نحلة ابنه ثار وفار وهم بقتله لولا أن أنقذه منه أحد ولاة المنصور، فلما مات أبواه ورث عنهما دارهما التى طرداه منها فى حياتهما، فلم يبك عليهما وإنما بكى فعليهما، فكان يقول فى حسرة وأسى «طالما سب أمير المؤمنين فى هذه الغرفة» وبقى طوال عمره مدافعا عن تشيعه مناضلا دون تحزبه حتى جل شعره الشيعى عن الإحصاء، فكان شعره هو حديثه وسمره، سئل مرة من أين وقع له التشيع؟ فقال «غاصت على الرحمة غوصا» ثم أنشد بعد ذلك شعراً.

حدث أحد رواة الشعر قال: «جمعت للسيد فى بنى هاشم ألفين وثلثمائة قصيدة، فخلت أن قد استوعبت شعره حتى جلس إلى يوما رجل ذو أطمار رثة

---

(١) الاباضية إحدى طوائف المسلمين الزائغة عن الهدى، خرجو على مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين وزعموا أن مخالفيهم من المسلمين كافرون، ولكنهم يجيزون الاصهار اليهم والارث عنهم، وأموال المسلمين حرام فى السلم حلال فى الحرب

فسمعنى أنشد شيئا من شعره ، فأنشدنى له ثلاث قصائد لم تكن عندى . فقلت فى نفسى لو كان هذا يعلم ماعندى كله ، ثم أنشدنى بعده ماليس عندى لكان عجيبا فكيف وهو لا يعلم : وإنما ينشد ماحضره وعرفت حينئذ أن شعره ليس مما يدرك ولا يمكن جمعه كله »

ولقد زعم عنه بعض عداته وهم كثر — أنه تحول عن مذهب الكيسانية[1] فى أخريات حياته إلى مذهب الجعفرية[2] واستدل على ذلك بأبيات إليه منها:

أيا راكبا نحو المدينة جسرة عذا فرة تهوى بها كل سبسب

إذا ماهداك الله لاقيت جعفرا فقل ياأمين الله وابن المهذب

وهذا زعم واهى الأساس منهار الأركان ، لأننا لانعرف له تحولا فى غير مذهبه الذى خالط لحمه ودمه حتى يتحول عنه ، ولو كان من اليسير انتقاله من نحلة إلى نحلة — لخضع لأبيه عند محاولته قسره على اعتناق مذهب الإباضية ، ولأنه لم يجد من الأسباب الحافزة مايدعوه إلى ترك رأيه القديم إذ يستوى لدى الخلفاء الذين ترهب إرادتهم المذهبان . ولعلهم كانوا أكثر خشية لمذهب الجعفرية منهم لمذهب الكيسانية ، هذا إلى أن راويتى شعر السيد أنكرا ذلك وجحداه

قال أبو داود سليمان بن سفيان المعروف بالخنزق وقد سئل عن هذا :

« مامضى والله إلا على مذهب الكيسانية ، وما ورد دليلا على تحوله منحول عليه منسوب له وهو منه برىء » وحدث راويته الثانى إسماعيل بن الساحر وقد نقل إليه بعد وفاة السيد أنه رجع عن مذهبه فى ابن الحنفية وقال

---

(١) الكيسانية فرقة من شيعة المسلمين زعيمها المختار بن أبى عبد الله الثقفى الذى ثأر للحسين رضى الله عنه ، أخذ مذهبه عن كيسان مولى أمير المؤمنين على رضى الله عنهما ، وقوام مذهبه أمران : إمامة محمد بن الحنفية ، وجواز البدء على الله عز وجل . ولها آراء لايسيغها رأى ، فيزعمون ابن الحنفية حيا فى جبل رضوى ، ولديه عينا ماء وعسل ينال منهما رزقه . وهو فى حراسة انمار ويبقى حيث هو حتى يخرج لهداية الناس ، فهو المهدى المنتظر ، وفى شعر السيد بعض هذا (٣) نسبة إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم قال اكثر الشيعة بامامته ولكنهم اختلفوا فى خلفه .

بإمامة جعفر بن محمد « والله مارجع عن ذلك ولا القصائد الجعفريات إلا منحولة قيلت بعده ، وآخر عهدى به قبل موته بثلاث وقد سمع رجلا يروى عن النبي ﷺ أنه قال لعلى عليه السلام « إنه سيولد لك بعدى ولد وقد نحلته اسمى وكنيتى ، فقال فى ذلك وهى آخر قصيدة قالها :

أشاقتك المنازل بعد هند وتربيها وذات الدل وعد
منازل أقفرت منهن محت منازلهن من سيل ورعد
وريح حرخف تستن فيها بسافى الترب تلحم ماتسدى
ألم يبلغك والأنباء تنمى مقـــال محمد فيما يؤدى
إلى ذى علمه الهادى على وخولة خادم فى البيت تردى
ألم تر أن خولة سوف تأتى بوارى الزند، صافى الخيم، نجد؟
يفوز بكنيتى واسمى لأنى نحلتهما والمهدى بعدى

ثم يشرح عقيب ذلك مذهب الكيسانية شرحا مستفيضا فى نسج مصقول وأسلوب سهل ، فكأنه خطيب يبين للناس تعاليمه ، ويفصل مبادئه ، ويتحدث عن آرائه، وهمه أن يكسب ثقة سامعيه وينال رضا حاضريه ، فيكاد يلم بصغيرات عقائدهم كأن يقول :

يطيب عنهم حتى يقولوا تضمنه بطيبة بطن لحد
سنين وأشهرا ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعـــين وحفان تروح خلال ربد

وإنى إن شككت فى نسبة القصيدة إلى السيد — فثقتى لا يعتورها شك فى أن هذا الحديث جملة وتفصيلا من وضع الشيعة لأسباب منها : أن السيد لم يترك كبيرة ولا صغيرة من أخبار أبى تراب إلا عرفها، حتى لقد روهن فى هذا فنال الرهان ، ولا يمكن أن ينتحل مذهبا لا يعرف تفاصيل سيرة صاحبه ، كما أن الرسول الكريم يتحدث عنه القرآن بقوله « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت

من الخير » فأنى له العلم أن عليا سيرزق ابنا إلا إذا جاء ذلك على سبيل الأمنية التى يرجى تحققها ، وما هذا الذى يدعيه السيد فاجرا فى دعواد ؟ إذ يرى أن هذا الذى نسب إلى رسول الله من التبشير بابن الحنفية بعض ما يجب على النبى الصادق الكريم أداؤه إذ يقول ( مقال محمد فيما يؤدى ) ؟

ومما يروى عن السيد فى سبيل الاستدال على إحاطته بحياة أمير المؤمنين على كرم الله وجهه — أنه راهن جماعة من أهل الكوفة على فرس له إذا ذكروا فضيلة لأمير المؤمنين لم ينشد فيها شعرا ، فصاروا يحدثونه فينشدهم حتى جاءه رجل منهم وقال : إن أمير المؤمنين عزم على الركوب فلبس ثيابه وأراد لبس الخفين فلبس أحدهما ثم أهوى إلى الآخر ليأخذه ؛ فانقض عقاب من السماء فخلق به ثم ألقاه ، فسقط منه أسود وانساب فدخل جحرا فلبس على رضى الله عنه الخف وما كان السيد فى حقيقة أمره،قال فى هذا الحادث شعرا ولعل له فى فى ذلك عذرا سنبينه بعد ، ولكنه أنشد دون ريث ولا توقف :

ألا ياقوم للعجب العجاب ... لخف أبى الحسين وللحباب
أتى خفاله وانساب فيه ... لينهش رجله منه بناب
فخر من السماء له عقاب ... من العقبان أو شبه العقاب
فطار به فخلق ثم أهوى ... به الأرض من دون السحاب
إلى جحر له فانساب فيه ... بعيد القعر لم يرتج ببابى

إلى آخر القصيدة ثم حرك جواده مزهوا معجبا ، وجعل للقصيدة بعد ذلك مطلعا هو ؛

صبوت إلى سليمى والرباب ... وما لأخى المشيب ولا التصابى ؟

وما عليه لو أنه جرى فى مطلعه على غير سنن شعراء ذلك العصر من الصبوة بالغيد والتحسر على الشباب الوئيد، ولا سيما أنه وفق فى مطلعه المرتجل إذ نبه إلى الصغى لذلك النبأ العجاب،يسقط العقاب على الحباب ، ومما يستوقفنى فى تلك القصيدة قوله :

فخر من السماء له عقـــاب من العقبان أو شبه العقاب

إنه يريد أن يزعم أن هذ الساقط من السماء ليس عقابا حقا، وإنما هو ملك جاء على صورته وشبهه ، وأؤكد أنه يقصد ذلك وليس ذلك عليه بعزيز ، ولعل هناك من يحسن به الظن بعض الإحسان من ناحيته الدينية .فيرى أن استعصاء القافية هو الذى دفعه إلى هذه الشبهة ، وهو إذ يجهل تلك الواقعة معذور غير معذول ، فقد رويت عن رسول الله ﷺ ، وسواء أكان وقوعها لرسول الله أم لعلى . أم أنها موضوعة عليهما وهو ما يملأ نفسى ، فالقصة فى ذاتها دليل قوى على سرعة بديهته ، وتوقد قريحته ، وتدفق شاعريته

شغل السيد بهذا النوع من الشعر القصصى ، وبمدح ممزوج بالهجاء ،أو بهجاء مختلط بالمدح،عن بقية أغراض الشعر فى ذلك العصر ، ولولا غزل يقدمه بين غرضيه شأن شعراء عصره— لقلت إنه لم يشارك فى غيرهما من الفنون ، ولو قد فعل لكان له بين الشعراء على الرغم من عداته وحساده الأثر القوى المبين ، ولكن منزلته مع تقصيره وقصوره كانت مكينة ، وخطوته لدى أهل السلطان كريمة ، إما لرضاهم عنه وحدبهم عليه ، فهو لسانهم الجرىء ومقولهم الصوال ، وظهيرهم الجوال ، ينافح ويكافح ويصاول ويجادل فى قوة وصرامة ، وعنف وكرامة ، وإما لمداراتهم له ، وخشيتهم شره واتقائهم هجره ، فمن لم يسلم من عقرة لسانه أجلاء الصحابة وفضليات أمهات المسلمين — لا يعبأ من لا مقام له إلى جنب أولئك السادة الغرّ الميامين من صحابة الرسول يسرقهم بلسان صارم ويرزؤهم بشعر حاسم ؟ لذلك نلقى أحاديث شتى إن دلت على شىء فعلى ملق الناس له ، ومداهنتهم إياه،يستوى فى ذلك أحباؤه وأعداؤه اللهم إلا المتزمتين من الفقهاء والمتأثمين من الأتقياء ممن خشى الله خشية أنسته نفسه ، وخاف به خوفا ملك عليه حسه ، وهم قل منهم سوار بن عبد الله التميمى القاضى العادل، ومن يدرى ؟ فلعله لو عرف أن سيصيبه من إشهار أعدائه للسيد ما أصابه

لكان بعرضه من الناجين ، ولما عرض درعه للسانه ينال منه ، وعدله لشعره يعبث به ، ونسبه لتهكمه يتندر عليه ، ولكنه كان طيب السريرة فجنت عليه طيبته ، حسن السيرة فأساء السيد لدى الناس سيرته

دعى السيد إلى شهادة بين يدى ذلك القاضى فاستعفى داعيه فلم يعفه ، فبذل له المال استخلاصا لنفسه من الشهادة بين يدى من لا يثق بدينه فأباه ، وأصر على أن يؤدى الشهادة التى من يكتمها فإنه آثم قلبه ، فتقدم إلى سوار وجلا ، وشهد فقال له : ألست الحميرى ؟ قال بلى : قال القاضى : استغفر الله من ذنب تجرأت به على الشهادة عندى ، قم لا أرضى بك ، فقام من مجلسه محنقا ؛ إذ قد نال منه أى نيل دون أن يجترح إثما أو يجترم جرما ، وليس هو بالحصر العيى الذى يخنع لمساءة ، أو يرضى بعدوان ، ولا هو بالحليم الذى يغض عن سفاهة السفيه ، فكيف به يغض عن كلمة مصمية تصدر عن قاض لكلمته أعظم الأثر فى النفوس ؟ لقد سعى به فى شعره لدى المنصور — وهو عنده العزيز الأثير — دعا له ، ووصفه بالهدى والطاعة ، وبأنه يقود أمته إلى النجاة يوم العرض ثم نصحه بألا يستعين بسوار ، فهو رجل خبيث الرأى ظاهر الصلف ، كثير النقص ، عظيم البطش ، وما هذه بصفات قاض يوكل إليه الفصل فى قضايا المتقاضين ، وفيهم الضعيف لا يستطيع أن يرفع لديه طرفا ، والجبان لا يمكنه أن يقيم حجة أو ينطق حرفا ، على أنه لا يجدر بالقضاء ولا يستأهل هذه الصنيعة فهو ناشىء فى الصنعة ، وهذا بعض ما قال فيه يخاطب أولاد المنصور .

قل للإمام الذى ينجى بطاعته ... يوم القيامة من بحبوحة النار
لا تستعين «جزاك الله صالحة» ... «ياخير من دب» فى حكم بسوار
لا تستعين بخبيث الرأى ذى صلف ... جم العيوب عظيم الكبر جبار

تضحى الخصوم لديه من تجبره لا يرفعون لديه لحظ أبصار
تيها وكبرا ولو ما رفعت له من طبعه كان دون الجائع العارى

وكأنى بالقاضى الورع يهرول إلى الخليفة محنقا مغيظا، يستعديه على ذلك الفاجر الداعر، ينال من قاضى المسلمين ويذم عل أمير المؤمنين ، ولا يرضى دون حد القذف لذلك القاذف جزاء ، فيبتسم له المنصور حيث كان ينتظر أن يريد ، ويهش إذ هو يتوقع العبوس ، فيعرف أن شكواه لم تصل إلى قلب الخليفة إن كانت قد وصلت إلى أذنه ، وقد كان ذلك حقا فإن المنصور قال له : أما بلغك خبر إياس بن معاوية [1] حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد من الشهود ، فما أحوجك للتعرض للسيد ولسانه، ومن حقه حينذاك أن يرتب على كتفه مسترضيا بينا هو ينحى باللائمة عليه ، ويصفه بقلة الحنكة وعدم الدربة والقضاء يعوزه الحازم العازم والصارم العارم ، كما يعوزه كذلك الهين اللين الحول القلب ، وكأنى بالمنصور أقر السيد على شعره وأن صلف سوار وتيهه واعتزازه بمكانته من الخليفة هو الذى حمله على عدم المداراة ، وربما كانت قلة كياسته وسياسته هى التى عرضته لما نزل به ، ولو أنه تصرف تصرف إياس لأرضى العدالة ؛ ولنجا بالكياسة ، ولقد كان المنصور مع هذا الذى قال يؤثر سوارا بحبه ، ويمنحه أوفى قسط من تقديره ، فهو الوحيد الذى جمع بين الولاية والقضاء ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يؤيد حجة السيد عليه، بل قدح فيه حينما مدح القصور بقصيدة منها :

إن الإله الذى لاشىء يشبهه أعطاكم الملك للدنيا وللدين
أعطاكم الله ملكا لا زوال له حتى يقاد إليكم صاحب الصين
وصاحب الهند مأخوذا برمته وصاحب الترك محبوسا على هون

(١) إياس بن معاوية قوة المزنى البصرى كان نادرة فى الفطنه والذكاء حسن التصرف بارع التخلص صادق الفراسة ، رائع الكياسة تولى قضاء البصر فى عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وتوفى سنة ١٢٢ هـ

والمنصور متهلل جذلان، ويلتفت إلى سوار بغتة وهو يعتقد أن فى مثل تهلله، فإذا به مربد غيظا. فقال له مالك؟ أرابك أمر؟ قال نعم يا أمير المؤمنين: هذا الرجل يعطيك من لسانه ماليس فى قلبه، وإن الذين يواليهم لغيركم، فقال المنصور مهلا: هذا شاعرنا ووليتنا، وما عرفت منه إلا صدق محبة، وإخلاص نية، وأتيح الكلام للسيد ورأى السكوت فى مثل هذا الموقف حصرا وعيا فقال: ياأمير المؤمنين، والله ماتحملت غضكم لأحد، وما وجدت أبوى عليه فافتتنت بهما، وما زلت مشهورا بموالاتكم فى أيام عدوكم. فقال المنصور صدقت، فاسترسل قائلا: ولكن هذا وأهله أعداء الله ورسوله قديما، والذين نادوا رسول الله ﷺ هن وراء الحجرات، فنزل فيهم قوله تعالى « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون » ولم ير أن يقف عند هذا بل قال فى ذمة من قصيدة « مدح بها المنصور » ماكان سوار عنه فى غنية تنقص فيها حسبه ونسبه، وطعن فى ولائه وإخلاصه ومنها:

ياأمين الله يامنصـــور ياخير الولاة
إن سوار بن عبد الله من شر القضاة
نعشلى جمـــلى لـكم غير موات
جده سارق عنز فجرة من فجرات
لرسول الله والقا ذفة بالمنكرات
وابن من كان ينادى من وراء الحجرات
مدحنا المدح ومن نر م يصب بالزفرات
فاكفنيه لا كفاه الله من شر الطارقات

ولعل القصيدة أكثر إقذاعا من هذا الذى روى، ولكن تأثم الرواة دفعهم إلى أغفاله، فلقد شكا سوار السيد إلى المنصور فأمره أن يعتذر إليه فهو

قاضى المسلمين وفيصل الدين القويم ، ولكن سوارا عاوده الخطأ فرفض المعذرة فأنشد فيه :

أتيت دعى بنى العنـــبر أروم اعتذارا فلم أعذر
فقلت لنفسى وعاتبتها على اللؤم فى فعلها أقصرى
أيعتـــذر الحر مما أتى إلى رجل من بنى العنبر ؟
أبوك ابن سارق عنز النبى م وأمك بنت أبى جحدر
ونحن على رغمك الرافضو ن لأهل الضلالة والمنكر

وإن لمن الظريف فى هذه الأبيات قوله

أيعتذر الحر ممـــا أتى إلى رجل من بنى العنبر

فكأنى بالسيد يخشى اتهامه بالرق ويرمى به الناس قبل أن يرميه به أحد فلقد كان أسود البشرة فيه كل صفات الأرقاء وسمات العبيد، حتى لقد تحدث هو عن ذلك فى شعره فقال يمازج زنجيا

أعارك يوم بعناه رباح مشافره وأنفك ذا القبيحا ؟
وكانت حصتى إبطى منها ولونا حالكا أمسى فضوحا
فهل لك فى مبادلتك إبطى بأنفك تحمد البيع الربيحا؟

ولقد صدق من قال فى مثل السيد « رمتنى بدائها وانسلت » ويروى الرواة أن سوارا وقد ضاق بذلك « الحر » ذرعا ، ولم يعرف له من التخلص منه وزرا ؛ إذ شكاه إلى الخليفة فلم يسمح منه سوى اتهامه فى حكمته ، وأعاد الشكاة إليه فأنبه فى رفق ، وليس له بمساجلته السباب قدرة ، وهو كل يوم يأتيه من فحشه بجديد ؛ يرون أنه دبر مكيدة لقطع يديه منهما بالسرقة ، وأعد الشهود لإثبات التهمة ، فبلغت المكيدة السيد، فأبلغها المنصور ، فدعا سوارا . ورده عن الحكم للسيد أو عليه .

إنى أستبعد تلك الرواية بل أستنكرها، لأن سوارا قاض عرف بالنزاهة

فى الفعل والتأثم فى القول ، ومن يرفض شهادة شاهد لأنه لا يثق به دون أن يقيم الحجة على كذبه، لا يفتعل الزور ولا يدفع الناس إلى الوزر . وراوى ذلك الخبر صاحب الأغانى، وجدير به أن ينصف منصفى عثمان، فقد كان عثمانيا كسوار، وليس من إنصافه فى شىء اتهامه بتدبير المكائد ونصب الحبائل

ولندع سوارا وما نكبه به السيد من هجاء وبذاء غير جديرين برجل ثبت وقاض عدل . وإمام حجة ، ولنعرض لآراء الشعراء والرواة لمنزلته فى الشعر فحكمهم له أو عليه حكم الخبير البصير ، وسنترك من نعتقد أنه فى حكمه متحيف عليه، أو متحيز له، فما أحوجنا إليهما قلة حكام ، أو ضعف أحكام .

ذكر أحد الرواة أنه خرج إلى بادية البصرة فأنس به أهلها ، واستنشدوه فأنشدهم لذى الرمة وجرير والفرزدق فعرفوهم دون تعريف، ثم أنشدهم للسيد :

أتعرف رسما بالسويين قد دثر ... عفته أهاضيب السحائب والمطر؟
وجرت به الأذيال ريحان خلفة ... صبا ، ودبور بالعشيات والبكر
منازل قد كانت تكون بجوها ... هضيم الحشا رياالشوى سحرها النظر
قطوف الخطا خمصانة بخترية ... كأن محياها سنا دارة القمر
رمتنى ببعد بعد قرب بها النوى ... فباتت ولما أقض من عبدة الوطر
ولما رأتنى خشية البين موجعا ... أكفكف منى أدمعا فيضها درر
أشارت بأطراف إلى ودمعها ... كنظم جمان خانة السلك فانتثر
وقد كنت مما أحدث البين حاذرا ... فلم يغن عنى منه خوفى والحذر

فجعل البداة يمرقون لإنشادى ويطربون ، وسألوا عن الشاعر فأعلمهم ، فقالوا هو والله أحد المطبوعين . لا والله مابقى فى هذا الزمان مثله .

وإن شاعرا يسمع هذا الشعر العذب ، والقصص السهل ، واللفظ الجزل ليعتقد أن منبعه ذلك المعين الغزلى، معين عمر بن أبى ربيعة ،فهو بشعره أشبه ، فلو أن السيد شارك فى جميع فنون الشعر لأتى بالعجب العجاب ، ولأسقانا

النطف العذاب، ولبذ لداته، وقهر عداته، ولقد حمد الشعراء ربهم أن ترك لهم أغراضهم.

روى عن الفرزدق أنه قال: إن هاهنا لرجلين لو أخذا فى معنى الناس لما كنا معهما فى شىء، فسئل عنهما فقال: السيد الحميرى وعمران بن حطان السدوسى، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول فى مذهبه.

وهذا بشار زعيم المحدثين وإمام المولدين، يشهد للسيد شهادة الرجل العظيم لا ينكر على غيره عظمته، لأن سناءه وشرفه يمنعانه أن يبخس الناس أشياءهم، فقد وقف السيد على بشار وهو ينشد مادحا فأقبل عليه وقال له:

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج نفع المنزل العواد
لاتقل فى الجواد ماليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

فسأل بشار عنه فقيل له، هذا السيد الحميرى فقال: لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بنى هاشم لشغلنا، ولو شاركنا فى مذهبنا لأتعبنا.

تلك شهادة الشعراء فيه، يحمدون الله أن صرفه عن مجاراتهم فى بحورهم ومساجلتهم فى فنونهم، أما الرواة فقد كانوا عليه قساة مبغضين، يقلونه جهارا ويستطيبون قوله إسرارا؛ رأى الأصمعى جزءا من شعر السيد فسأله عنه فستردونه لكراهيته إياه، فأقسم على من معه الشعر أن يخبره حقيقة الشعر والشاعر، فأخبره فاستنشده قصيدة وقصيدة وثالثة ورابعة وهو يستزيده ثم قال: قبحه الله ما أسلكه لطريق الفحول، لولا مذهبه ولولا مافى شعره ماقدمت عليه أحدا من طبقته.

وروى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى وحكمه لايقل عدالة وإنصافا عن حكم الأصمعى؛ وعلمه بلسان العرب علم ذى البصر والبصيرة، روى عنه أن صديقا زاره وعنده أحد بنى هاشم يقرأ عليه كتابا فلما رآه أطبقه، فقال له

أبو عبيدة، اقرأ فإن صاحبنا ليس ممن يحتشم منه ، فأخذ يقرأ فإذا هو شعر السيد، وأبو عبيدة معجب به مستحسن له ثم قال : « السيد الحميرى وبشار بن برد أشعر المحدثين » .

وشهادة هذين فصل الخطاب ؛ فقد اجتمع لهما ما لم يجتمع لغيرهما حدة ذهن ، وحديد بصر ، وسعة علم ، وصحة حكم ، فإذا حكما لشاعر أو عليه فلا معقب لحكمهما ولا راد لقضائهما ، ولا سيما إذا كان المحكوم له ممن أبغضه العامة ، وقلاه أكثر الخاصة ، فليهنأ السيد بحكمهما الخالد .

وإنى لأرجو أن أكون قد عرضت حياة ذلك الشاعر وشعره عرضا يرضى الأدب ويسعد الأديب، كما يرضى الورع ويسعد الورع ، فإن أكن قد نلت ما أردت فلله الحمد ، وإن أكن قد قصرت فلى من الأدباء الغفر ، ولى من السيد على كل حال الشكر، فقد أحييت سيرته، وأشدت بشاعريته بعد أن طوى عبقريته النسيان .

عبد العظيم على قناوى

# السرُّ الغريق ...

## أو

## فتاة نهـــر السين

**للأستاذ محمد عبد الغنى حسن**

عثروا فى نهر السين من أعوام ناليلة على جثة فتاة ، وعلى شفتيها ابتسامة حزينة . . ولم يستطع المحققون أن يكشفوا سر غرق الفتاة ، فطواها النهر وطوى معها سرها .

وقد امتلأت معارض الصور والفنون فى باريس وميونخ بألمانيا بصورة هذه الفتاة ، وصنعوا لها هناك تماثيل صغيرة ، كانت تباع فى كل مكان ، وسموها « المرأة المجهولة ».

ووحى هذه القصيدة هو صورة جميلة من مدينة « ميونخ » تذكر الشاعر دائما بفلسفة الحياة والموت.

---

ماذا رمى بكِ فى بطون المـــاء ... ومحا معالمَ وجهِكِ الوضَّاء؟
عقد الكرى فى ناظريك سكونَه ... فارتحتِ من نَصَب ومن ضوضاء
نور الحياة — كما علمتِ — خديعةٌ ... فتمتعى فى (السين) بالظَّلْماء ...
ما هذه الدنيا وما وَمَضاتُها ... ألا مخايلُ خـــدعةٍ ومرائى
شفتاك تبتسمان عن سخريَّة ... عيناك تغتمضان عن إغضاء ...
تلك الحياةُ — وما أشد همومَها — ... هصرتكِ هصرَ العُودِ فى الأنواء
السرُّ فى شفتيك مضمومٌ على ... جُرح ومطوىٌ على أدواء
وأكادُ ألمحُ فى جبينك طابعاً ... وَسَمته قاسيةً يَدُ الضراء
وأراكِ من حيثُ التفتُّ مرائياً ... مجهولةَ المعنى لعين الرائى
وذهبتِ فيكِ من الظنون مذاهبا ... والظنُّ أقصى غاية الحكماء
وأرى على شفتيكِ كِبْراً أن تُرى ... بهما ملاحُ ذلة وشقاء
غطَّيتِ من خلف ابتسامكِ قصةً ... ماذا يُفيـــدك سترُها بغطاء
حيَّرتِ فيكِ الضاربين بظنهم ... وتركتِهم فى حيرة عميـــاء

وأثرت حولك للشكوك نواحيا وأطلت حولك ألسن الجهلاء
من لى بكشّاف الغيوب كشيفةً ليذيع ما أخفيتِ من أنباء ؟؟؟
حار الفضوليون فيكِ وأمعنوا فى الحدْسِ والتخمين والآراء
وافتنّ فيكِ المسرفون بظنهم ورَمْوكِ من جهل بهم وغباء
وتأولوا فيكِ الحديثَ مذاهبا من غير ماخجل ولا استحياء
هلاّ شفيتِ بهم لواعج صدرهم وأزحت عنك ستارة الإخفاء ؟ ؟
يانهر صُنتَ على الليالى سرّها وحفظتَ قصتها من الإفشاء
ووعيتَ فيك - وأنت أوفى مُودَع - أغلى الضيوف وأكرمَ النزلاء
غصّن ثناه الموتُ فى ريعانه وطواه وهْو يرفُّ فى الأنداء
ماكاد يشرق للشباب وصُبْحه اللمّاح حتى غاب فى الإمساء
يانهر فى أطواء موجكَ سيرة قد لفّها المجهول فى الأحشاء
وجدتْ بصدرك راحةً فى صدرها ورأتْ بمائك غاسلا للداء
والموتُ فيه من الحياة سلامةٌ وشفاءَ من عاشوا بغير شفاء
خطّ الجمالُ على جبينك مسحةً بقيت برغم تقلّص الأعضاء
أعيا على الزمن المُغيِّرِ مسخُها إن الزمان مُشوهُ الأحياء
فيها بقايا من جمال عابر وأثارةٌ من فتنة ورواء
عجّلْتِ فى الدنيا نواكِ وربما كانت أمانى العيش فى الإبطاء
فى الموت يا أختاه راحةُ يائس يقْضى الحياةَ موكّلاً بعناء
إن الحياة على اختلاف جديدها دارُ الضيوف ومنزلُ الغرباء
ما نحن فى الدنيا سوى أقصوصة تُتْلى ومروىٌّ من الأنباء
ناتى من (المجهول) غيرَ خوالف ونعودُ (للمجهول) غيرَ بطاء
فإذا البُداءةُ والمصيرُ كلاهما لغزٌ يحيِّر أعظم الحكماء.....

محمد عبد الغنى حسن

# ٢ – الفلاسفة

للأستاذ عطية الشيخ

للفيلسوف خواص من حيث التكوين النفسى نجملها فيما يأتى :

١ – الفيلسوف لا يتوسل لمعرفة الحقائق إلا بالأفكار المجردة والعقل الحر ، فهو لا يثق بالحواس ولا بالمحسات ، ولذلك ترى كل بحث فلسفى استطاع العلماء إخضاعه للآلات والحواس والقوانين قد طرحه الفلاسفة ، لأنهم لا يهتمون إلا بالمعقولات المحض ، فكما أن العلماء لا يشتغلون إلا بما يستطيعون إثباته حسيا أو بدهيا ، لذلك ترى الفلاسفة قد تبرءوا من كل نوع من أنواع المعلومات التى خضعت للضوابط . ومن هنا ترى كثيرا من البحوث الفلسفية يصبح بعد زمن ما نظريات علمية ، تدخل تحت اسم علم من العلوم تاركة آباءها الأولين من الفلاسفة ، كأنما الفلاسفة هم الرواد والعلماء هم المستعمرون .

٢ – العاطفة عند الفيلسوف تكاد تكون معدومة ، فهو لا يسير إلا برائد من تفكيره ؛ ولذلك لا يتقيد الفلاسفة بالتقاليد القومية . ولا بالعادات الشائعة ولا بما تواضع عليه الناس وأقره العرف ، فإذا كان الناس يستوحون البيئة والوراثة والتقاليد ، فإن الفلاسفة لا يتقيدون إلا بوحى العقل ودافع الفكر وهم عبيد ما اعتقدوه ينفذونه ويأخذون به من خير هوادة ، مهما لاقوا فى سبيل ذلك من الصعاب الداخلية والخارجية ، فالفيلسوف كما قال إميل فاكيه

( يسبر الأغوار فى طلب الحقيقة ، دون أن يبالى بما يعترض سبيله من مصاعب لأنه لا يرتاع من اصطدامه بالفجائع فى قراراتها ، أو من انتهائه إلى لا شىء ) أو كما قال نيتشة ( لا يكفى لطالب الحقيقية أن يكون مخلصا فى قصده ، بل عليه أن يترصد إخلاصه ، ويقف موقف المتشكك فيه ؛ لأن عاشق الحقيقة يهيم بها لذاتها ، لا مجاراة لأهوائه ، حتى ولو كان فى ذلك مخالفا لعقيدته ، فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه ، وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد من الأخذ بها ؛ عليك أن تصلى نفسك كل يوم حربا ، وليس لك أن تبالى بما تجنيه من نصر أو تجنى عليك جهودك من اندحار ،فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك ) ويقول أبو نصر الفارابى ( يجب على الفيلسوف أن يكون قد تقدم وأصلح الأخلاق من نفسه الشهوانية ، كيما تكون شهوته للحق فقط لا للذة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة كيما يكون ذا إرادة صحيحة )ومن هذا كانت الفلسفة عدوا للشعر ، وكان تعاطيها مفسدا للملكة الشعرية ، ولا سيما فى الوجدانيات ( إذ قد تكون مقبولة فى الشعر الاجتماعى ) هذا الهيام بالحق لذات الحق ؛ والتخلص من كل موروث شائع — هو السبب فى أن الفلاسفة يوصفون بالشذوذ فى كل عصر ، فكيف يشابه الجمهور قوم لا يخضعون حتى للغرائز المشهورة بسطوتها ، فيحاولون إخضاعها لفكرهم ؟ .

٣ — الفيلسوف معتد بنفسه ، وليس معنى هذا أنه مغرور ، فإن الغرور والفطنة لا يجتمعان ، بل المراد أن الفيلسوف يشعر بشخصيته ، وأنه فرد مستقل عن سائر الأفراد ، وأن له عقلا من حقه عليه أن يستخدمه ، ويسير فى ضوئه ويترك أضواء الآخرين ، وأنه غير مجبر على ترك تجاربه والأخذ بتجارب سواه ؛ فاعتداده بنفسه إنما هو بالنسبة إلى غيره من الآدميين ، لا بالنسبة إلى الحقيقة ذاتها ، يقول نيوتن ( إن العلم بحر ونحن لا نزال نلعب على شاطئه ) ويقول سقراط ( لا فرق بينى وبين الناس ، إلا أننى جاهل وأشعر بجهلى ، وهم

جهلاء ولا يعلمون أنهم جهلاء ) وقال حكيم عربى ( لايزال المرء عالما ماشعر بجهله ، فإذا ظن أنه علم فقدجهل ) والاعتداد بالنفس هوالذى يدفع الفيلسوف إلى التفكير فى كل شىء ، ويجعل عقله فى حركة مستمرة ، فيأبى إلى أن يسير فى طريق جديدة غير مألوفة ، مهما كلفه ذلك من المشقات ، بل إنه يجد فيما يصادفه من المشقات لذة ، كلذة سعى الحبيب إلى بيت حبيبه ، تكتنفه الظلماء ويترصده الرقباء .

٤ — الفيلسوف لايبحث إلا فى المبادىء الأولى للمعرفة والنظريات الكلية ، ، أما تفاصيل العلوم الخاصة فهو لايهتم بها ؛ لأنه مشغول بالوصول الى الحقيقة الكبرى ، فهو إذا آمن بكلية من الكليات ،اتخذها مقدمة للوصول إلى حقيقة فوقها ، ولذلك عرف ديكارت الفلسفة ، بأنهامعرفة المبادىء الأولى ولذلك كانت الفلسفة لاتتأتى إلا لذوى الذكاء الشديد ، فقد قال الفريد بينيه ( إن الذكاء إنما يظهر فى التصرفات التى تحتاج إلى بناء وتركيب )فعقلية الفيلسوف ممتازة بقوة الربط بعد حسن التعليل ، وبقوة التجنيس والتصنيف بعد كثرة الجمع ، وإذا كان غير الفيلسوف وعاء لعدم ، فالفيلسوف لايعرف إلا علما واحدا ، ولكنه حاز للمبادىء الأساسية لكل العلوم ، فأرسطو هو المعلم الأول للفلاسفة وللعلماء ، ومما يؤسف له أن هذا المعنى للفيلسوف قد تغير فى هذا العصر ، الذى سادته روح التخصص والتقسيم ، فأصبح الفيلسوف يسعى إلى معرفة حقائق جزئية فى علم خاص ، فهذا الفيلسوف فى الرياضة ، وذلك فى التاريخ ، وذاك فى الطبيعة .. الخ ، وإنما هذه هى مهمة العلماء لا الفلاسفة ، لأن الفيلسوف يجب أن يكون مشغولا بحقيقة واحدة ، تدور فى ذهنه من حولها كل النظريات ، فالفيلسوف قائد والعلماء جنود ، وإذا نسى القائد مركزه العام وانهمك فى ناحية خاصة،ضل الجيش كله،وخسر خسرانا مبينا ، فهذا التخصيص فى الفلسفة الذى أودى بالمثل العليا فى هذا العصر،وحرمناظهور أمثال سقراط

وأرسطو وأفلاطون ، الذين لانزال عيالا عليهم فى مناهج الفلسفة ومبادئها ، وإذا كان الفيلسوف المختص يبتكر نظريات أكثر ، فإن المعارف الإنسانيـة مهما كثرت لن تستطيع حل المشكلة الكبرى التى فكر من أجلها الإنسان . مادامت مقطعة الأوصال غير متساوية ! فالفلسفة من شأنها أن تأخذ بزمام العلوم ، وتوجهها وتفتح أمامها الآفاق ، وأن تخدمها العلوم لا أن تصبح هى خادمة لها .

٥ — الفيلسوف يشعر فى أول حياته العقلية بنقص عن الناس فى التفكير ، وذلك لأنه لايشعر بالفهم إلا إذا كان البرهان دقيق المنطق ، والعلل والمعلولات مستقيمة ، فهو باستعداده الفطرى لايهضم الخطأ ، وأما غيره من الناس فيقتنع بالفهم السطحى ، ولا يقوى فكره على كشف المغالطات الكامنة فى المسائل ، وعند ذلك يرى الفيلسوف الصغير جميع من حوله مرتاحين للمسألة ، مدعين فهمها ، ثم ينظر هو إلى نفسه فيجد الفهم مستعصيا عليه ، والمعانى قلقة فى ذهنه ولحسن ظنه بالناس إذ ذاك ، يسىء الظن بنفسه ، ومن عناية الله به وتوفيقه له أن يذهب هذا المذهب ، لأن ظمأه إلى الحقيقة من جهة ، وشعوره بالنقص من ناحية أخرى ، يدفعانه إلى إدمان النظر ، وطول السهر ، واحتمال الضجر ، حتى يصل إلى مراتب رفيعة فى التفكير ، ومن كرسيه العالى ينظر حوله إلى الناس ومعارفهم ودعواهم نظرة شك وارتياب . فيطرح كل ماتعلمه منهم على الغربال ، ولا يثق إلا بتفكيره هو ، ويأخذ على عاتقه مهمة المعلم لهؤلاء الضالين ، ليبين لهم وهمهم ، ويصل بهم إلى الصواب . كما كان يفعل سقراط ، وإنك لاتجد عبقريا إلا كان يشعر بالنقص وهو صـــغير ؛ فكل فيلسوف لابد أن يمر بطور الاستضعاف ، ثم بطور الاعتداد بالنفس ، ثم بطور الشك فى كل شىء ، ولذلك مامن فيلسوف إلا اتهم بالإلحاد ؛ فالعلة التى حوكم من أجلها سقراط ، لازمت جميع الفلاسفة ، غير أن هناك فرقا بين شك الفلاسفة وشك السفسطائيين

فالفيلسوف يشك ليصل إلى الحق من طريق قويمة ، وأما السفسطائى فغايته المغالطة والشك لذات الشك .

٦ — أغلب معلومات الفيلسوف ذاتية ، أعنى أنه وصل إليها بمجهوده هو ولذلك ترى لكل فيلسوف شخصية تميزه كل التميز ، حتى لو اشترك فيلسوفان فى رأى واحد ، لبس كل معنى من نفس صاحبه مايخلع عنه مظهر النقل والأخذ فأعدى أعداء الفلسفة التقليد والتطفل ، وهو إذا تعرض لآراء الناس ، فإنما يتعرض للموازنة والنقد ، فكل ماعرف الفيلسوف من المعلومات عن غيره ليس له فى نفسه إلا قيمة المشحذ بالنسبة إلى السكين ، وإذا أعجب الفيلسوف برأى لغيره ، أووجده يحل مشكلة عجز هو عن حلها ، نقل لبناته وأضاف بها حجرة إلى قصر معرفته ، وأعطاها صبغته الخاصة وطريقته فى البناء ، بحيث لاتبدو غريبة عنه ، بل ممتزجة ببيته كل الامتزاج ، ولذلك يمتاز الفلاسفة عن غيرهم بقوة الإيمان بآرائهم ، والتفانى فى سبيلها كما يتفانى الأب فى حب أبنائه ، ولذلك ترى رغبة الفلاسفة فى التفكير المباشر أكثر من رغبتهم فى قراءة آراء غيرهم ؛ بل إن الفيلسوف لايقرأ الكتب إلا للترفيه عن نفسه عندما يضنيها القراءة فى كتاب الكون الأعظم ؛ فالفيلسوف لاواسطة بينه وبين أستاذه الكون ، يترجم مايوحى إليه منه ، كما يبلغ الرسول الوحى عن ربه .

٧ — الفيلسوف حاد الذهن ، قوى الملاحظة ، واسع الفكر ، ولذلك ينقل ذهنه كل مايرى ، ويضبطه ضبطا تاما ، فهو من هذه الناحية كالشاعر ، إلا أنه لايقف عند حد الامتزاج بالكون ، بل يرقى بنفسه عن ظواهره ليقف منه موقف التاجر من سلعته ، والراعى من شويهاته ، فالشعر هو الخطوة الأولى للفلسفة فى الأفراد والأمم ، ولذلك كان أكثر الفلاسفة شعراء ، كما قال مؤرخو الفلسفة « إن شعراء اليونان الأوائل كهوميروس وهزيود وممزم الأزميرى وأرشيلوك . . . الخ هم الذين مهدوا الطريق للفلسفة اليونانية ولاسيما بعد أن بدأ

الشعراء الحكماء يدونون خواطرهم وتأملاتهم ، والشعر الاجتماعى وسط بين الفسلسة والشعر ، كالشعر الأوروبى الحديث

وقد حدث بعض المتصوفين قائلا: إنه تدرج من الشعر إلى الفلسفة ومن الفلسفة، إلى التصوف ، ويحسن فى هذه النقطة الإشارة إلى أن عقل الفيلسوف لا يشيخ فهو فى اتساع ورقى باستمرار ، وكأنه المعنى بقول الإمام على « كل إناء يضيق بما يوضع فيه ، إلا إناء العلم ، فإنه يتسع » فعقول الناس كأجسامهم ، تخضع لقانون الصعود ثم الهبوط ، إلا عقول الفلاسفة ، فهى فى صعود مستمر، من حيث الدنو إلى الحقيقة ، كلما طلع على الفيلسوف يوم وجد نفسه فى أفق أعلى من سابقه ، كطائر كلما على نبت له ريش جديد . يساعده على العلو ، وكذلك يتصل بهذه النقطة سرعة فهم الفلاسفة لآراء غيرهم ، لأن كثرة تجوالهم الفكرى يجعل كل نظرية لغيرهم قد مرت عليهم ، فيفهمون مراد غيرهم من الاشارة الأولى ، ويكرهون الإطناب فى الكتابة أو النقاش .

٨ — أسلوب الفلاسفة غامض لا لغموض المعانى واستغلاقها عليهم ، ولا لماذهب إليه الغارابى (من أنهم يتعمدون ذلك لثلاثة أشياء ١- استبراء طبيعة المتعلم، هل يصلح للتعليم أم لا ؟ ٢- لئلا تبذل الفلسفة لجميع الناس ، بل لمن يستحقها فقط ٣- لترويض الفكر بالتعب فى الطلب ) ، كلا بل لأنهم يقيسون فهم الناس بفهمهم ، وقد تعودوا أن تكفيهم الإشارة ، ولأن ما يتناولونه معقولات مجردة من الحس والزخرفة ، ولأن معلومات الفيلسوف قد تطورت وبعدت عن معقول الناس ، لأنه بناء مستمر فى البعد عن الأساس والتحليق إلى أعلى ، فالذى فكر فيه الفيلسوف طويلا وأصبح عنده بديهة ، يصح أن يتخذها مقدمة فى برهانه وفرضا فى إثبانه ، هى نفسها لا تزال شيئا جديدا عند الناس يحتاج إلى الجدل ، فكأنما أصبح بين أفكار الناس وأفكاره حلقة مفقودة ومن هنا مل الناس قراءة الفلسفة وأبغضوا الفلاسفة ، وأصبحت كتب الفلسفة

خاصة بالفلاسفة ، مع أن العلم والشعر وبقية الفنون للجميع ، ألا ترى أن تقدير الفيسوف والانتفاع بآرائه يحدث بعد زمن طويل .

٩ ــ الفيلسوف سابق لزمانه ، بل إن الفلاسفة غير مقيدين بزمان ، فما دامت الموضوعات التى يعالجها الفيلسوف عقلية محضا ، فإنه لافرق بين فلسفة سقراط من حيث الكيف ، وبين فلسفة بيكون ونيتشة وشوبنهور ، ومهما اختلفت الموضوعات والنظريات فهى من حيث العلو والجدة متشابهة ، لاتبلى ولا تهرم ، بعكس النظريات العلمية التى يهدم بعضها بعضا كل يوم ، ولذلك لم يخطىء الفلاسفة إلا فيما تناولوه من الموضوعات العلمية ، فآراء أرسطو فى الجغرافيا يسخر منها الآن صغار التلاميذ ، ولكن آراءه الفلسفية المجردة لاتزال لها قيمتها ، بل لاتزال أساس الفلسفة إلى اليوم .

١٠ ــ الفلسفة بنت الألم ، فهو أكبر دافع إلى التفلسف ، وقد يكون هذا الألم شخصيا منشؤه الأسرة أو الحب أو الصحة أو المال .. الخ وقد يكون قوميا منشؤه تألم المرء لحال قوم ، وقد يكون منشأ الألم البيئة الطبيعية ، وعدم انسجامها مع مزاج الشخص ، وكذلك عصمت هذه الديار عن أن تنجب فلاسفة ، وانعدم المزاج الفلسفى من المصريين ، مما كان له أسوأ الأثر فى سيرهم ، فأصبحوا متشابهين فى آمالهم المادية ، كأنهم نسخ مطبوعة لكتاب واحد ، فلو تقصيت عقولهم لما شعرت بشخصيات مختلفة ، والسبب فى ذلك خلو هذه الديار من دواعى الحزن والألم ، فالخيرات كثيرة ، والجو معتدل والخضوع للحاكم كان قد وقر فى أذهانهم منذ آلاف السنين ، فهم عبيد لا يتبرمون من أفعاله ، فامحى الألم من الأشخاص وضاق الفكر ، وانعدم التفلسف . ولعل هذه النهضة الأخيرة . التى أشعرتنا بعيوبنا ، وأنارت عقولنا وألفت بين قلوبنا ، وذكرتنا بماضينا فتألمنا لحالنا ــ تساعدنا على تكوين طبقة

من الفلاسفة ، يسعون وراء المثل العليا ، وتشرق عليهم الأنوار المقدسة ، ويسيرون فى وسط هذا المجتمع الراكد ، بشعلهم السماوية ، مناضلين بإيمان لايتزعزع عن الحق ، ليصلحوا من نفوس هذه الأمة ماأفسده الدهر ، ويمنعوها من الركون إلى كل موروث رثّ ، ويحاربوا الاطمئنان إلى معلومات كلها خرافات وترهات ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ؟

عطية الشيخ
معلمات القبة

# تيسير اللغة العربية وتهذيبها

للأستاذ محمد على الدسوقى

## المقـــدمة

إصلاح اللغة العربية وضبطها لايعدو ان مرحلتين عظيمتين ، قام أسلافنا بالمرحلة الأولى منهما وكفونا مئونة البحث فيها ، وكانوا عليها حفاظا وعلى تنسيق اللغة فيها حراصا . وأعنى بها أدوار تهذيب اللغة وتنقيحها . وأعنى بالثانية مانعانيه الآن من كثرة اللحن والتحريف ، وشحذ الهمم ، وتضافر القوى ، وحفز القرائح لتلاقيهما . ومانراه من حشد وزارة المعارف جميع قواها للقضاء على الأمية ، وتيسير تعلم اللغة العربية ، وضبطها بكافة الوسائل الممكنة وما يبتكره أبناء دار العلوم ، ومايستوفزونه من هممهم وأفكارهم للوصول إلى هذه الغاية من أقرب طريق .

## المرحلة الأولى

قد عنى الأقدمون بتهذيب اللغة وتنقيحها ، وقد تم ذلك فى أربعة أدوار .

(١) فأول تنقيح دخل اللغة العربية كان بعمل يعرب بن قحطان ، رأس العرب العاربة ؛ وجرى أولاده على لغته فى أنحاء اليمين كلها ، ثم تفرق جماعة منهم فى نجد والحجاز وتهامة والشأم والحيرة .

(٢) الثانى كان من عمل إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ، فإنه لما أصهر [1]

---

(١) أصهر أى تزوج .

إلى قبيلة جرهم ، أدخل تنقيحاً ثانياً فى اللغة ، وجرى على أثره القبائل من أولاده كربيعة ، ومضر وكنانة ونزار ، وخزاعة وقيس وضبة .

(٣) والتنقيح الثالث أدخلته قريش بالتدريج ، انتخابا من لغات قبائل العرب التى كانت تفد عليهم فى كل عام ، وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوما : منها ثلاثة أيام بسوق ذى المجاز ، وسبعة بسوق مجنة ، وثلاثة بسوق عكاظ ، وعشرة فى مناسك الحج .

(٤) والتنقيح الرابع هو اختيار علماء المصريين البصرة والكوفة نقلة اللغة فى عصر الأمويين والعباسيين ، وقد قصروا اختيارهم على القبائل الست الآتية : ـ

قال السيوطى فى المزهر نقلا عن أبى نصر الفارابى : كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها إبانة عما فى النفس ، والذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : (١) قيس ، (٢) وتميم ، (٣) وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ماأخذوا معظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب ، وفى الإعراب والتصريف ، (٤) ثم هذيل ، (٥) وبعض كنانة ، (٦) وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ؛ وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لامن لخم ، ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان ، وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولامن تغلب فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولامن بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ،

ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمل المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة [١] الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء وأثبتها فى كتاب فصيرها علما وصناعة — هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب .

المرحلة الثانية كثرة اللحن والتحريف وإصلاحهما .

لم يكن اللحن والتحريف وليدى القرون المتأخرة ، فقد بقى التغيير فى اللغة العربية مقصورا على الأمصار الإسلامية إلى انتهاء القرن الثالث الهجرى ؛ وقد عرف بعضهم المولد بأنه ما يكون من هذا الضرب لحناً وتحريفاً ، وكانوا يسمون الألفاظ التى من هذا القبيل بالسوقية ، لأنها لغة أهل الأسواق والتجار الذين يأتون من كل فج ؛ وآخر من يعتد بكلامه من الشعراء بشار ابن برد ، وهو بصرى قدم بغداد وأصله ، من طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وكان أكمه ( ولد أعمى ) وكان يمدح المهدى ، وتوفى سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين .

وقد عنى العلماء قديماً وحديثاً برد العوام عن تحريف الكلم ، وألفوا فى ذلك كتباً شتى . ككتاب أبى عبيدة ، وأبى حنيفة الدينورى ، وأبى عثمان المازنى ، وأبى حاتم السجستانى ، وكتاب الفاخر للمفضل ، ولحن العامة للفراء ، وهؤلاء لم يتعدوا المائة الثالثة ، ولم يعدوا فى صنيعهم ألفاظا حرفتها العامة ، ثم تعدوا ذلك إلى التأليف فى لحن الخاصة بعد القرن الثالث ، ككتاب أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ودرة الغواص فى أوهام الخواص . للحريرى ، لأن اللحن إذ ذاك كان يؤاخذ به خواص الكتاب لا عوامهم . لأن أولئك العوام صار اللحن لغتهم .

(١) هى مكة .

وقد ألفت فى إصلاح العامى والدخيل كتابى المسمى ( تهذيب الألفاظ العامية ) وهو جزءان الأول ٣٢٤ صفحة ، والثانى ٣٧٨ صفحة . وقد أخذ مجمع فؤاد الأول على عاتقه مهمة إصلاح العامى والدخيل ، وترجمة الإصطلاحات العلمية ، وبقى أكثر من خمس سنوات يواصل البحث والتنقيب ، وقد صدر من مجلة هذا المجمع أربعة أعداد حافلة بما قام به أعضاؤه من مجهود ، وقد عنيت وزارة المعارف من ناحيتها بإصلاح مناهج اللغة العربية وتيسير تعليمها على أقوم طريق ، وقد جعلت رائدها الاكتفاء من القواعد بما تدعو إليه الضرورة ، وعدم شحن أذهان الطلبة بالكثير الصعب من القواعد الذى يصرفهم عن الرغبة فيها ، وعنيت بتأليف الكتب الشائقة السهلة الأسلوب ، المتينة التراكيب ، التى تمثل السهل الممتنع ، ولا تزال جادة فى هذه السبيل بخطى موفقة ، مؤدية للأمانة التى اؤتمنت عليها ، والتى وضعتها الأمة فى عنقها .

## المبحث الأول

فى سهولة تعلم اللغة العربية وضبطها على أبناء العرب الأول .

كانت اللغة العربية فى زمن الجاهلية والصدر الأول من الإسلام غضة الشباب ، سليمة الإهاب ، لا يعتورها لحن ولا تحريف ، وقد بقيت فى ريعان شبابها إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين ، لأن الأبناء كانوا يتلقونها عن الآباء ، ولم يكن ثمة بينهم دخيل تفسد لغتهم أو يشوبها بلحن أو تحريف ، وقد ظهر قليل من اللحن فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد ورد أنه مر بقوم يرمون فاستقبح رميهم فقال ، ما أسوأ رميكم ، فقالوا : نحن قوم ( متعلمين ) فقال عمر : لحنكم أشد على من فساد رميكم .

وهذا إنما حصل من الموالى والمتعربين ، لصعوبة تمييزهم أحوال المثنى والجمع فى الرفع والنصب والجر ، كما يصعب ذلك على المتعلمين [1] منا الآن ،

(١) المشتغلين بالتعلم

وقد ورد أن كاتبا لأبى موسى الأشعرى، كتب إلى عمر: ( من أبو موسى الأشعرى )، فكتب عمر إلى أبى موسى: عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطا.

ويظن أن هذا أول لحن وقع فى الكتابة. ولما رأى الإمام على كثرة اللحن، خشى على كتاب الله أن يمسه التحريف، فوضع القواعد الأساسية لعلم النحو، وعلمها أبا الأسود الدؤلى، وقال له « انح هذا النحو » فسمى هذا العلم علم النحو، ثم كتب فى هذه الصناعة الناس من بعده. إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى أيام الرشيد أحوج ما كان الناس إليها، لذهاب ملكة الإعراب من العرب، فهذب الصناعة وكمل أبوابها، وأخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها، واستكثر من أدلتها وشواهدها.

## المبحث الثانى

### فى سبب اختلاف لغة الكتابة عن لغة التخاطب عند الأمم المتعربة، وعدم اختلافها عند الأوربيين

من الحقائق المقررة، أن الأمم الأوربية يتخاطبون ويكتبون بلغة واحدة، إلا فى النادر، أما الأمم المتعربة، فلغة الكتابة عندهم — وهى الفصحى — تخالف لغة التخاطب — وهى العامية. وهذه سبة لتلك الأمم لا خلاص لهم منها، ولا معدى لهم عنها إلا ببذل الجهود الجبارة، وتضافر القوى على توحيد اللغة، وقد استشرى هذا الداء، وتغلغل فى الأمم العربية حتى امتزج بلحمها ودمها، وظن المتشائمون أن من يحاول انتشال هذه الأمم من هذا الدا الوبيل، كمن يحاول التعلق بخيوط الشمس، أو كمن ينقش فى الهواء، أو يكتب على صفحات الماء، وقالوا: أنى للغة إصلاح وقد صوح[1] نبتها، وأفل نجمها؟

وفى الحق، أن الأمة العربية الصحيحة براء من هذه الوصمة، فقد بقيت

(١) ذبل.

تتكلم وتكتب بلغة عربية صحيحة ، إلى قبيل انتهاء القرن الثانى الهجرى ، ثم فشا اللحن والتحريف ، ودبّ الفساد فى اللغة بين المتعربين ، حتى اتسعت شقة الخلاف بين الفصحى لغة الكتابة ، والعامية لغة التخاطب ، ومازالت تنفرج مسافة الخلف بينهما إلى هذا العهد . فى الأقطار التى افتتحتها الدولة العربية ، مثل مراكش والجزائر وتونس ، وبرقة ومصر والشام والعراق ، حتى عم الفساد البلاد العربية نفسها ، وهى الحجاز واليمن ، ماعدا بعض القبائل فى نجد والعسير من أعمال اليمن ، فإنها بقيت محافظة على لغتها إلى اليوم ، تتكلم وتكتب بلغة عربية صحيحة ، ماعدا بعض هفوات قليلة ، وقد رأيناهم باعيننا وسمعناهم بآذاننا ، وقرأنا أشعار الأميين منهم ، فإذا هى لاتختلف عن أشعار المتعلمين فى الصحة والضبط .

وقد رأينا مسافة الخلف تضيق الآن بين العامية والفصحى ، ولاسيما فى مصر والشام والعراق . بفضل نشر الثقافة والتعليم فى ربوع تلك البلاد ، فإذا أخذت بقسط وافر من العلم والأدب ، ونبغ فيها الكتاب المجيدون الذين يشار إليهم بالبنان ، مثل المويلحى والمنفلوطى وحفنى ناصف والسيد توفيق البكرى ومصطفى الرافعى وطه حسين وحسين هيكل والمازنى ، وغيرهم ممن تصبغوا بالأدب ، وحازوا فى مضماره قصب السبق ، وظهر فيها الشعراء المبرزون فى حلبة الشعر ، كأمير الشعراء أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، ومعروف الرصافى ، والبارودى ، واسماعيل صبرى ، والجارم ، والعقاد ، ومصطفى الرافعى ، وأحمد رامى ، وغيرهم من فحول الشعراء الذين ذاع صيتهم فى الآفاق ، وتغنت بشعرهم بلابل الروض فى كل مكان

ولايزال التعليم فى مصر من إلزامى وابتدائى وثانوى وجامعى يهدم من صرح العامية ويشيد من صروح العروبة الفصحى ، ولا يمضى ردح من الزمن حتى نرى بناء العامية قد انهار ، وقامت على أنقاضه العربية المهذبة شامخة

البنيان ، متينة الأركان ، حتى تعود إلى سالف مجدها ، وتليد عزها ، كما كانت فى عهد الدولة الأموية ، وصدر الدولة العباسية ، زمن المهدى والرشيد والمأمون والمعتصم ، حقق الله الآمال ، إنه هو الكبير المتعال .

## المبحث الثالث

( فى أسباب صعوبة ضبط اللغة العربية على المتعربين )

( وسهولة ضبط اللغات الأوربية على المتعلمين )

قد امتازت اللغة العربية على سائر اللغات بالدقة والاختصار، لأن الحركات فيها تدل على كثير من المعانى نحو الرفع الدال على الفاعلية ، والنصب الدال على المفعولية . وضم التاء فى نحو قلت الدال على المتكلم ، والفتح الدال على المخاطب المذكر نحو ذهبت ، والكسر الدال على المفردة المخاطبة نحو حضرت. وكذا التقديم والتأخير ، نحو إياك نعبد ، فإن التقديم هنا دال على اختصاص المخاطب وهو الله بالعبادة ، وبعض الحروف ، كلام التوكيد ولام القسم ، لأنه يستغنى بها عن ألفاظ أخر ، فلام التأكيد تغنى عن أؤكد ، ولام القسم تغنى عن أقسم ، فلذلك كانت الملكة العربية أدق الملكات وأصعبها على غير أهلها ولزيادة الإيضاح نقول :

يستدل على المحكوم عليه فى اللغة العربية بأحد أسلوبين : الأول تقدم المحكوم عليه ، ويسمى مبتدأ ومسندا إليه ، نحو قولك محمد عالم ، فقد حكمت له بالعلم ، أو أسندت إليه ؛ والأسلوب الثانى تأخير المحكوم عليه وهو المسند إليه ، وتقديم المحكوم به أو المسند وهو الفعل وشبهه ، نحو قولك سافر محمد . ونحو أمجتهد أخوك ؛ فقد حكمت على محمد بالسفر ، واستفهمت عن اجتهاد أخى المخاطب ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لم يحصل لبس ولا صعوبة فى تمييز المحكوم عليه عن المحكوم به ، ولكن فى الأسلوب الأول

قد يتقدم المحكوم به على المحكوم عليه لأغراض مرغوبة ، تجعل للكلام دقة وروعة ، كالاهتمام به وانصباب القصيد عليه فى نحو قوله تعالى : « أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم » فإن الاستفهام التعجبى واقع على مابدا من إبراهيم من الرغبة والانصراف عن آلهتهم ، لاعلى ذات الفاعل .

ولو قيل : « أأنت راغب عن آلهتى يا إبراهيم » ؟ لكان التعجب واقعا على ذات الفاعل ، ولأفاد الكلام أنه لو كانت الرغبة من غيره لما تعجب منها ، ونحو قول الشاعر :

غافل أنت والليالى حبالى بصنوف الردى تروح وتغدو

فإن القصد منصب على غفلة المخاطب عن صروف الزمان ، لا على نفس المخاطب .

نعم لايجوز تقديم الخبر على المبتدأ إذا خفيت الملاحظة وحصل اشتباه ، كأن يتساوى كل منهما فى التعريف أو التنكير بدون مميز يميز الأول عن الثانى ، نحو قولك : أخى أخوك ، فيجب أن يكون الأول هو المحكوم عليه ( أى المبتدأ ) ويلزم تقديمه ، ولا يجوز تأخيره ، فهذا مثال المتساويين فى التعريف ، ومثال المتساويين فى التنكير قولك لآخر : أفضل منك أفضل منى فيجب أن يكون المحكوم عليه ( أى المسند إليه ) هو الأول ، ولا يجوز تأخيره .

وفى الأسلوب الثانى ، قد يصحب الفاعل المفعول به ، فيحتاج القارىء قبل أن ينطق بهما إلى ملاحظة ، أن الأول هو الفاعل الذى وقع منه الفعل ، وأن الثانى هو الذى وقع عليه الفعل ، ثم يرفع الأول وينصب الثانى ، فإذا سها عن هذه الملاحظة وكان المفعول به مقدما على الفاعل ، وقع فى الخطأ ، فرفع الأول وهو المفعول به ، ونصب الثانى وهو الفاعل ، ولا سيما إذا كان المفعول به ليس فى آخره ألف ولا فتحة تدلان على نصبه ، بأن كان ممنوعا من

الصرف ، نحو أكرم عمر محمد ، أو مقصورا ، نحو أكرم موسى محمود ، فإذا أراد أن يسلم من الخطأ ، نظر أولا إلى الاسم الثانى وفهم المعنى من سياق الكلام ، ثم نصب الأول ورفع الثانى ، وخلص من هذه الورطة .

ولهذا نجد كثيرا من المبتدئين يقعون فى مثل هذا الخطأ ، ولا يجديهم ماتعلموه من القواعد نفعا ، فى مثل هذه المواقف التى يزل فيها كثير من المتعلمين أيضا .

نعم قد احتاط النحويون فمنعوا تقديم المفعول به على الفاعل إذا حصل اشتباه بينهما ، بأن كان الإعراب لايظهر على كل منهما ، نحو أكرم موسى عيسى ، فأوجبوا أن يكون الأول هو الفاعل والثانى هو المفعول به ، ولا يصح أن يكون موسى مفعولا به مقدما ، للاهتمام به مثلا ، لعدم مايدل على ذلك فى اللفظ .

## سبب ضبط اللغات الأوروبية

سببه أن للدلالة على المحكوم به والمحكوم عليه — صيغة واحدة فى اللغتين الإنكليزية والفرنسية مثلا ، وذلك أن المحكوم عليه يتقدم دائما على المحكوم به وهو الفعل ، ثم يليهما المفعول به ، فلا يحصل اشتباه ، فإذا أردت أن تعبر عن إكرام محمد لعلى قلت : محمد أكرم علىا ، لاتتعدى هذا الأسلوب أضف إلى ذلك أن الحركات فيها يستدل عليها بحروف فى صلب الكلمة ؛ فلا يقع من القارىء أى اشتباه فى النطق ، لافى وسط الكلمة ولا فى آخرها ، ويقوم مقام الإعراب عندهم حروف تدل على الرفع والنصب والجر ؛ والتنوين يكتب نونا ، ولذلك كثرت حروف الكلمة عندهم ؛ حتى صارت ضعف حروف الكلمة العربية .

ولكن تعدد الأساليب فى اللغة العربية لا يعد عيبا حقيقيا ، لأن فيها من

الأساليب ما فى اللغات الأوربية وزيادة ؛ فإذا أراد المتكلم أن يأتى بأسلوب سهل المتناول ليس فيه اشتباه على السامع ، قدم المبتدأ ووسط الفعل ، وأتى بعدهما بالمفعول به ، كما فى اللغات الأوربية ، فبدلا من أن يقول رأى يوسف عمر سائرا أمام الحديقة . قال : يوسف رأى عمر الخ .

وقد تعددت أساليب اللغة العربية واعتراها التقديم والتأخير فى مفرداتها تبعا لأغراض شريفة ، صار كل بليغ بها حفيا ، وهذا لا يعد دليلا على ضعف تراكيبها ، وصعوبة تأليفها ، بل ينهض برهانا على اتساع مواردها ، وسهولة التصرف فيها بشتى الأساليب ، ليختار المتكلم أشدها وقعا فى النفس ، وروعها عند التخاطب ، وأقربها لمقتضى الحال ، حتى تخلب اللب ، وتأسر القلب ، ولهذا السبب عجز فطاحل الكتاب الأوربيين وغيرهم عن ترجمة القرآن الكريم ، والإتيان بتراكيب فى لغاتهم ، لها من الروعة والإعجاز مالتراكيب القرآن ، وأنى لهم ذلك وقد أعجز بأسلوبه ومتانة تراكيبه أمراء البلاغة ، وفرسان الرهان من العرب الخلص ، الذين كانت تسجد لبلاغتهم الحياه ويستوقف بيانهم القلوب ويملأ الأسماع حلاوة ، وحسن طلاوة .

وبهذا سقط القول بأن صعوبة اللغة العربية ناشئة من أن الإنسان يفهم أولا ليقرأ .

أما فى اللغات الأوربية ، فإن الإنسان يقرأ ليفهم ، فقلت علمت أن هذا خاص ببعض التراكيب ، وأن المتكلم له مندوحة عنها متى أنس من السامع أو القارىء المبتدىء اشتباها ، ففى الحديث الشريف : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » وقالت العرب «لكل مقام مقال » وللخوف من اللبس ترى العامة فى الغالب يجعلون تراكيبهم مكونة من المبتدأ والخبر ، لا من الفعل والفاعل فيقولون « محمود حضر ، لا حضر محمود ، لأنهم يقفون

على المنصوب بالسكون على لغة ربيعة ، فيشتبه المفعول بالفاعل إذا قالوا « كلم محمود محمد ، مثلا » .

ولما كان التقديم والتأخير فى المبتدأ والخبر عن موضعهما الطبيعى يوجب الاشتباه ، ما لم يتميز أحدهما عن الآخر ـ عدوه من الإخلال بفصاحة الكلام ، واعتبروا الفصل بينهما بكثير من المتعلقات موجبا للتعقيد المعنوى وأكثر ما يكون ذلك فى الشعر ، لأن الوزن يحتم على الشاعر أن يقدم بعض المتعلقات وغيرها عن موضعها ، ليستقيم له الوزن كقول الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فإن نظم البيت ـ لكثرة التقديم والتأخير يوهم أن خبر الناس ( هو الجار والمجرور ) فى قوله للناس ، كما يقال الناس بالناس ، أو أن الخبر هو جملة ( بعضهم لبعض ) . والحقيقة أن ( خدم ) خبر بعض والجملة خبر الناس ، والرابط محذوف ، والتقدير بعضهم لبعض ، والجار والمجرور فى قوله للناس متعلق بمحذوف حال من الناس ، أى الناس حالة كونهم مجاورين للناس ، ومن بدو وحاضرة بيان للناس ، ويصح أن يكون ( بعض ) بدلا من الناس بدل بعض من كل ، ( وخدم ) خبر الناس ، والرابط محذوف ، أى بعضهم ولبعض متعلق بخدم فلو أراد الشاعر أن يؤدى هذا المعنى فى نثر لقال : الناس للناس من بدو وحاضرة بعضهم خدم لبعض وإن لم يشعروا ، ومثله قول الفرزدق[1]

وكل رفيق كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوماهما أخوان

فإن نظم البيت يوهم لكثرة التقديم والتأخير ـ أن خبر كل الأولى هو جملة ( قوما هما أخوان ) والحقيقة أن خبره أخوان ، و ( قوماهما ) فاعل تعاطى و ( القنا ) مفعول مقدم .

---

(١) هذا البيت من قصيدة يخاطب بها ذئبا عشا الى ضوء ناره فأطعمه من طعامه ومنها

تعش فان عاهدتني لاتخونني نكون كمن ياذئب يصطحبان

والمانع من إرادة المعنى الأول ، وجعل الخبر جملة ( قوماهما أخوان ) - أمران : أحدهما معنوى ، وهو أن المقصود كون الرفيقين أخوين لا قومهما فقد يكون القومان أخوين ، وبعض أفرادهما أعداء ، فالمعنى عكس هذا ، وهو أن رفيقى الرجل أخوان ، وإن كان قوماهما متحاربين ؛ والآخر لفظى وهو أنه لو أراد المعنى الأول لثنى الفعل ( تعاطى ) وقال : وإن هما تعاطيا القنا ، لأنه عائد على مثنى وهو ( هما ) فيجب إلحاق علامة التثنية به ، أما إذا كان قوماهما فاعلا ، تجرد الفعل من علامة التثنية ، تبعا للقاعدة المقررة من أن الفعل إذا أسند لاسم ظاهر مثنى أو جمع - جرد من علامة التثنية والجمع .

ولو أنه كان فى حل من وضع الألفاظ موضعها فى نثر لقال : وكل رفيق كل رحل أخوان وإن تعاطى قوماهما القنا .

## المبحث الرابع

( فى ضبط اللغة بطريق التلقين وكثرة المطالعة لا بكثرة القواعد )

إذا أردنا أن نرجع باللغة العربية إلى نشأتها الأولى وعهدها الغابر ، من سهولة النطق بها وصحة ضبطها ، فعلينا أن نتتبع ما كان يربى به العرب أبناءهم ، وما كانوا يفعلونه فى تلقينهم اللغة ، وتغذيتهم بها مع ألبان أمهاتهم قبل أن يغادروا المهد ، وما كانت المرأة ترقص به طفلها وهو لم يفارق بعد حجرها كقول امرأة من العرب وهى ترقص ابنها

أنت تكون [1] ماجد نبيل إذا تهب شمأل بليل

فمن لنا بأمهات يناغين أطفالهن بالعربية الفصحى قبل أن يدرجوا من عشهم ، حتى تختلط بلحمهم ودمهم ، وتجرى منهم مجرى النفس فى الحناجر ، فلا تتحرك شفاههم إلا بها ، ولا تنطق ألسنتهم إلا بالإعراب عنها ، ومن لنا بآباء فصحاء أمناء على تلقين أبنائهم صحيح اللغة منذ نعومة أظفارهم ، حتى يشبوا

(١) تكون زائدة

خطباء مفوهين يهزون أعواد المنابر ، ويقودون الأمة ببلاغتهم إلى أسمى المفاخر ويكون منهم الشعراء المفلقون ، والمحامون المداره ، والمربون المهذبون الذين يسمون بلغتهم إلى سالف مجدها ، وغابر عزها ، ولا يتوهمن متوهم أن هذا عسير متى تضافرت عليه الأمة وشدت إليه عزائمها .

وأصدق مثل على أن هذا فى حيز الإمكان ماسمعته من قاضى قضاة مصر (١) فقد رأيته ينطق العربية الفصحى بدون تكلف . وسمعت ابنه وهو غلام لا يتجاوز الثانية عشرة ينطق بالفصحى بحجية ، إنه لم يلقن غيرها ، ولم يختلط بأحد يتكلم العامية حتى يفسد عليه لغته ، فقد قال لى والده : إنه لم يرسله إلى أية مدرسة ، بل أحضر له المعلمين من كل صنف ، ولا ينطق والده أمامه إلا باللغة العربية الفصحى أو التركية ، ولا والدته إلا بالتركية . فلذا نشأ فى بيئة سليمة من لهجات العامة .

وهاك مثلا آخر ، وهو أنى التقيت بجماعة من الأتراك المجاورين بالأزهر ، فى نزهة عند قصر النيل ؛ فرأيتهم يتكلمون باللغة العربية الفصحى ، فجاريتهم فى الكلام بها معهم ، ولم ألاحظ عليهم اللحن أو التحريف إلا فى القليل النادر .

وهاك مثلا ثالثاً وهو أنى اجتمعت ببعض الوافدين على الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية ، أيام كان ضيفا على الحكومة المصرية ، وكنت ألقيت قصيدة أمامه ترحيبا بقدومه ، فلما ألفيتهم فى مسجد السيدة زينب بعد صلاة الجمعة جالسين بجوارى ، عرفونى فكلمونى بلسان عربى فصيح ، دل على أنهم أخذوا اللغة الصحيحة تلقينا ، ولم يتلقوا شيئاً من قواعد النحو أو الصرف ، لأنهم من تجار البدو ، فما علينا إلا أن نحذو حذوهم ، ونلقن أبناءنا اللغة الفصحى ونجنبهم العامية ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وإذا تعذر هذا على عامة الشعب ؛ فليكن منا طائفة من الأدباء والمعلمين ، يروضون أبناءهم على اللغة الفصحى من مبدأ نشأتهم .

محمد على الدسوقى

(١) هو القاضى يحيى آخر قضاة الدولة العثمانية فى مصر .

# خيال بدوي مصنوع

## أو

## مع الطغرائى فى وصف هاجرة وورد

بقلم

**الأستاذ السباعى بيومى**

مدرس الأدب بدار العلوم

---

لم ينس شعراء المدن وقد بعدوا عن البادية وهجيرها ونسوا ما كان من رحلة رواحلها وورود مياهها ، بما أصبحوا فيه من نعيم الحضر وخفض عيشه والمتعة بآيات طبيعته وألوان حضارته ؛ أقول لم ينس هؤلاء أن تكون لهم جولات بعيدة المدى فيما كان لأسلافهم شعراء البدو من تناول أوصاف البداوة الصرفة . فى أشعار يحكمون فيها الصنعة ، ويجيدون المحاكاة ، حتى لكأنهم فى البادية نشئوا ، وعلى رمالها درجوا ، وبسمومها جرها لفحوا ، فنال منهم الصدى منالا ، وأوقد فى صدورهم حر الظمأ نارا ، فكان لظفرهم بالماء يقعون عليه فى غدير أو بئر — فرح أيما فرح ، وابتهاج ليس من فوقه ابتهاج ، فهو الظفر بالبقيا على حياة كادت تودى . وروح ما كان أوشكها أن تزهق .

وللطغرائى الأستاذ المنشىء ، والشاعر المتصرف ، البعيد فى سنيه عن

العهد الجاهلى ، فهو من شعراء العصر العباسى الرابع ، والبعيد فى مسترطنه عن مضارب البداوة وخيام الأعراب، فهو من أهل بغداد — جولة من هذه الجولات فى وصف هاجرة وورد، افتتح بها قصيدة من مدائحه لنظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى ووزير ابنه ملكشاه من بعده ، أحسن فيها الوصف وأجاد التصوير ، فأبدع بنسج خياله مالم تبدعه ريشة مصور صناع ، ثم خلص منها إلى ما أراد من مدح خلوصا نجيا ماهرا ، فى حسن سبك وبراعة انتقال .

تصور نفسه وصحبا من صحابه ، على أقتاب الأبل وأكوار الرواحل ، يقطعون هاجرة سجراء حامية ، قد اشتد لهيبها حتى أكل الظل وسود الحصى وأصاب الجنادب — وهى فى الحر تمرح وبه تنشط وله تنشد — بالرمض يحرقها وينكى بها ، بل إنها أصابت بحرها المنعكس ، الشمس وهى منبع الحرارة ومصدر الإحراق ؛ بما أرمضها وآذاها ، فعادت تفزع إلى خيوطها تبعث بها وتدليها ، إلى مافى المذانب والجداول من نطاف المياه وصافياتها ، لتمتاح من ريا هذه وتلك ، ماترتد به إلى الشمس معجلة لتدفع حر الهاجرة عنها ، وتنفس عن خناقها ماضيق عليه من لأوائها .

وصف تلك الهاجرة بما وصف ثم عاد يقول ، ولقد كان شأننا مع تلك الهاجرة أن لطمنا بها وجه النهار لطمة سودته ، ونالت من فوقه ناصيته ، غير هيابين سيرا ولا خائفين حرا ، وكأن النهار أراد أن ينتقم لتلك اللطمة منا فأفزعنا وراعنا بالهجوم بنا على ليل منقب الوجه بالسواد ، حالك الظلمة فى مغربه ، وسحره شاحب المنظر كريهه ، ولكنا اقتحمنا هذا الليل بجرأة المقدام البطل ، فى ظلمته الكثيفة ، حتى على مرتفعات الآكام فى عليائها ، وفى منكبيه القريب أولها من ذهب الأصيل ، وثانيهما من لألاء الفجر .

وما زلنا مقتحمين ذلك بعد سير هاجرة فى سرى ليل . حتى وردنا سحيرا حيث علقت أيدى الكواكب بالغرب تتعلق به للغروب فى أدبار الليل ، وحين

جذبت جذبة من الشرق رداء الظلمة عن الصبح فتعرى منكبه ، وعنان ستائره فتزحزحت عن بعض منافذ الضوء غياهبه .

يقول ومازلنا كذلك حتى وردنا فيما صورنا من وقت، غديرا مجلو الصفحة مشرق الديباجة كأنه مرءاة الغريبة التى لاناصح لها فى تفقد زينتها سواها ، فهى دائما كقرص الشمس نصاعة وإشراقا ، لاتزال أنفاس الرياح الغرائب تلتقى بجانبيه ، تستمد منه روحا ينفس عنها مالقيت من القيظ ، لترتد نسيما مروحا بعد أن كانت سموما لا فحا ، ثم هو مستكن حيث يقع فى بطن هضبة عالية تتصيد له السحب الماطرة ، تمده بمائها وتسكب عليه من غيثها، فحمر ذراها الشامخة لاتزال ترشف ريق المزن وظلم السحب ، وكلما قبلت من الحيا أفلاذه ألقت بها إلى هذا الغدير ليكنها فى أرجائه الطامية بكثرة مائه ، ويصبها على أحجاره الحضراء لاستدامة امتلائه ، فهو لذلك جم الماء غزيره تقابل منه نبال المطر إذا تساقطت على صفحته ، قوة رد وشدة احتمال فلا تؤثر فيه الاهونا ولا يهتز إلا اهتزازا خفيفا سهلا ، يشكل سطحه بشكل الدرع القوية النسج حتى لكأن هذا السطح مدارج نمال على أديم رمال ، أو هو شجاع بطل ارتدى درعه ليتقى بها تلك النبال .

ثم عاد إلى رواحله التى رحل عليها يقول، إنها كانت عيسا أى إبلا بيضاء فرقنا ببياضها الظلماء ، وكانت فى شدة نحولها وقوة حصافتها وأيدها كأطراف القرون أو أصابع الأمشاط ، وأنها حين أبصرت الغدير وقد أخذ منها الظمأ مأخذه، أقبلت عليه فى حر العطش تجتذب ماءه الصافى دون أن تمس مشافرها سطح الغدير فاذا هو بينها وبين صفحة الماء سيوف بيضاء لامعة ، وإذا هى كأنها تغمد بمشافرها تلك القواضب اللامعة فى أعناقها ، على أن فيها طائفة رأت فى سنا الفجر وقد تلألأ ببياضه وزرقته ، مورد ماء فى زرقته وجمامه ، فارتابت فيه عيونها ، فقمحت عن لجة الغدير الحق وأسرعت مولية طامحة إلى

منبعث الفجر تظنه ماء آخر ترده وتعب منه ، ومازالت فى هذا الشك المريب الذى سحر عيونها فجعلها تظن الفجر مشربا وماهو من المشارب فى شىء، حتى أخذت غزالة السماء تمد بقرنها ليطلع وتهيب بشعاعها أن ينفذ فاذا بالقرن يبدو فى الوجود ناجما ظاهرا وإذا بالشعاع ينفذ وضاء ماتعا كما يبدو وجه نظام الملك بين موا كبه مشرقا مسفرا فتزلى الظلمة وينقطع الشك ،

ومن هنا يبدأ الطغرائى فى وصف ممدوحه بعد هذا التخلص الممتع الجميل بما لا شأن لنا به فيما أردنا من موضوع .

## وبعد

فهذه مقطعة الطغرائى التى حاولنا فيما أثبتنا آنفا تصوير موضوعها ورسم خيالها ، تتراءى كلوحة لاتبلغ مبلغها كما قلنا ريشة مصور صناع لهذا المنظر البدوى الجميل ، قال : —

وهاجرةٍ سَجْراءَ تأكلُ ظِلَّها مُلوَّحةِ المَعْزاءِ رَمْضى الجنادب (١)
ترى الشمسَ فيها وهى تُرسل خَيْطَها
لِتَمْتَاح ريّا من نِطاف المذانب (٢)
سَفَعْنا بها وْجهَ النهارِ فراعنا بِنُقْبَةِ مُسْوَدِّ المقاديم شاحب (٣)
فلما اعْتَسَفْنا ظلَّ أخضرَ غاسق على قَمَعِ الآكامِ جَوْنِ المناكب (٤)
ورَدْنا سُحيرا بينَ يوم وليلة
وقد عَلَقَتْ بالغرب أيدى الكواكب (٥)

---

(١) السجراء الحامية ، وملوحة المعزاء مسودة الأرض ، ورمضى الجنادب محروقتها .

(٢) تمتاح تستقى ، ونطاف المذانب المياه الصافية للجداول .

(٣) سفعنا لطمنا وسودنا ، والنقبة اللون الاسود والمقاديم الأطراف والشاحب المتغير .

(٤) اعتسفنا اقتحمنا ، وقمع الاكام مرتفعات الهضاب .

(٥) كناية عن قرب انتهاء الليل .

على حين غرّت منكب الصبح جذبة
من الشرق واستترخى عنان الغياهب (١)
غديرا كمرءاة الغريبة تلتقى
بصوحيه أنفاسُ الرياح الغرائب (٢)
بمُنعرج من ريد عيطاء لم تزل وقائعُها يرشفن ظلم السحائب (٣)
تُقبّل أفلاذَ الحيا وتكنّها
بطامية الأرجاء خضرِ النصائب (٤)
إذا ما نبال القطرِ تاحت له اتّقى
بموضونة حصداءَ من كلّ جانب (٥)
بعيس كأطراف المدارى نواحل
فرقنا بها الظلماء وحف الذوائب (٦)
نشحن به عذبا نقاخا كأنما
مشافرُها يغمدن بيضَ القواضب (٧)
رأين جمام الماء زرقا ومثلها
سنا الفجرِ فارتابت عيونُ الركائب (٨)
فكم قامح عن لجّة الماء طامح
إلى الفجر ظنّ الفجرَ بعض المشارب (٩)
إلى أن بدا قرنُ الغزالة ماتعا
كوجه نظام الملكِ بين المواكب (١٠)

**السباعى بيومى**

---

(١) الغياهب الظلمات وعنانها زمامها . (٢) الصوحان الجانبان . (٣) الريد الجرف والعيطاء الهضبة ووقائعها حفرات مرتفعاتها . (٤) أفلاذ الحيا قطع المطر ، كناية عن غزارة الماء واستدامته (٥) الموضونة الدرع قوية النسج . (٦) العيس الأبل البيض ، والمدارى أطراف القرون والأمشاط ووحف الذوائب غزيرتها . (٧) نشحن به شرب منه . (٨) جمام الماء جمع جم وهو الكثير الغزير . (٩) القامح المتراجع والطامح الذاهب . (١٠) يقال متعت الشمس إذا بلغ ضوءها أوج قوته .

# مسابقة اللغـــــة العربية

## عمل غـــير مفهوم

للأستاذ سيد قطب

المفروض أن فكرة هذه المسابقة قائمة على غرض ترقية مستوى الأساتذة والطلبة ، واللغة العربية ذاتها . والمفروض كذلك أنها تقوى نواحى الضعف التى لمستها الوزارة عن طريق مفتشيها وسواهم فى مدرسى اللغة العربية .

فهل تحقق المسابقة على أساسها الحاضر — هذا الغرض الذى شرعت من أجله ؟ وإذا حققت جانبا منه ، فهل تحقق بقية الجوانب ، ومن أفضل طريق ، وأقصر طريق ؟ وإذا كانت لا تحقق هذا الغرض ، فما الطريق التى يجب أن تنحرف إليها لتحقيقه؟

هذا هو موضوع مقالى اليوم ، مجردا عن جميع الاعتبارات الأخرى ، التى قد تكون كامنة وراء هذه المسابقة أو غير كامنة .

* * *

أستطيع أن أفهم أن هذه المسابقة لم تقرر ارتجالا ، فالارتجال عمل لا يليق فى تصرفات لا تختص بمربى النشء ، وبجو أساتذة وتلاميذ ، وبمستقبل أمة ونفسية جيل .

فلابد إذن أن تكون هناك أبحاث دقيقة ، واقتراحات كثيرة ، غربلت هذه الاقتراحات ، حتى انتهت إلى فكرة المسابقة ، ثم نظر طويلا فى شكل هذه المسابقة ، ووزنت أغراضها ، ثم اختير لها هذا الشكل الأخير.

بمثل هذه الدقة وعلى هذا الأساس أحاول أن أبحث المسألة وفى الوقت متسع للتبديل والتحسين .

أنا لا أميل إلى فكرة الترفع عن دخول المسابقات، وانتقاد المبدأ فى ذاته، وما أمسكنى عن التقدم إليها فى الماضى أو التفكير فى التقدم إليها مستقبلا مثل هذه الفكرة ، بل أنا أميل إلى أن تكون المسابقات هى الوسيلة الأولى لكل تعيين وكل ترقية فى جميع وظائف الدولة ، حرصا على العدالة ، وقطعا للشكاية وحفزا للهمم وتجديدا للثقافة .

إنما أمسكنى ويمسك كثيرين من زملائى الممتازين فى بيئتهم الخاصة وفى الوسط العلمى والأدبى العام ، أننا نرى المسابقة تؤدى بنا إلى غاية ليست جديرة بالزمن الذى ينفق فيها ، ولا ترتفع بمستوانا العقلى ولا المادى شيئا .

فهل صحيح أولا أن النقل من مرحلة التعليم الابتدائى إلى مرحلة التعليم الثانوى ترقية تستدعى النجاح فى مسابقة ؟ وهل فى هذا النقل ميزة أدبية أو مادية ؟

وهل صحيح ثانيا : أن مواد الاختبار فى هذه المسابقة خليقة أن ترتقى بمستوى المدرس ، وتجعله جديرا بالترقية ، إذا ثبت أن فى النقل إلى الثانوى رقيا ؟ وجديرة بأن تعطينا المدرس الممتاز الذى نريده ؟

فأما الجواب عن السؤال الأول فبالنفى قطعا ، وليس فى الثانوى إلا العناء والجد المضاعف الذى ليس له مقابل من المال . والمال عصب الحياة ، ومذلل الجهد ، والعوض القريب عن الضنى الذى يعانيه المدرس المغبون .

أما المجد الأدبى فى الثانوى فلن يهفو إليه إلا من لا مجد لهم فى حياتهم العادية ، أى الذين لا امتياز لهم بين إخوانهم ولا بين الناس ، وهؤلاء طبعا لن يرتقوا بالتعليم . أما الذين لهم شىء من المجد الأدبى والعلمى نتيجة لتفوقهم فلن تهفو نفوسهم إلى هذا المجد الضئيل فى الثانوى . وهم لهذا لا يتقدمون

للمسابقة ، فيضيع غرض الوزارة من اختيار أصلح العناصر لهذا التعليم .

وأما الجواب عن السؤال الثانى فيتطلب نظرا أوسع وبحثا أوفى .

أول ما يجبه الناظر فى مواد هذه المسابقة أن الفكرة متجهة إلى اختبار المدرسين فى معلوماتهم اللغوية وفى تاريخ آداب اللغة العربية . وما عدا هذا فهو هوامش للمسابقة غير مقصودة . وإن ظن أنه روعى فى مسابقة هذا العام .

وهذا التوجيه يكون مفهوما فى حالة واحدة ، وهى حالة وقوف الوزارة عن طريق مفتشيها وسواهم على ضعف المدرسين فى مادتهم وعدم استطاعتهم الإحاطة بالمعلومات التى كلفوا تدريسها لتلاميذهم .

ولتحقيق هذا الغرض أفهم أن توضع إحصائية عن خمس سنوات مثلا من تقارير المفتشين ، فيثبت منها أن نحو ٥٠٪ من مجموعة المدرسين فى الثانوى ضعاف المادة ناقصوا المعلومات المدرسية .

ولكننى أستطيع أن أعلم أن مثل هذا البحث لم يلتفت إليه ، وأعلم كذلك أن ضعف المادة لم يكن مبعث شكوى أحد من المفتشين إلا نادرا بين عشرات المدرسين .

فإذا ثبت هذا فقد سقط الأساس الذى قامت عليه المسابقة فى وضعها .

وقد أفهم أن تكون هناك شكوى من عدم متابعة المدرسين للقراءة وعدم وقوفهم على آخر الخطوات فى نظريات التربية والتعليم ، وفى الأدب والآراء الأدبية ، وفى المعلومات العامة الحديثة المتناثرة حول الاجتماع والسياسة والكشوف ؛ التى تجعل من المدرس إنسانا حيا يعيش فى عصره .

كما أفهم أن تكون هناك شكوى من عقليات المدرسين — وفرق بين المعلومات والعقلية العامة — نتيجة لإهمال الاطلاع ، أو لعدم النضوج الذهنى والشخصى .

وسبيلنا إلى تقوية هذا الضعف وعلاجه ، وإلى اختيار أصلح العقليات والشخصيات ، وأدومها للاطلاع والثقافة ، ليس هو السبيل الذى تختطه هذه المسابقة فى وضعها الحاضر . إذ قصارى ما تعطينا : مدرس قرأ بضعة كتب ، وحصل بضع معلومات ، وكان من السهل علينا أن نجده فى المتخرجين من دار العلوم إذا راجعنا درجاتهم فى امتحان الدبلوم فى المواد المختلفة .

والثمن الذى نؤديه لاختيار هذا المدرس بالمسابقة ثمن باهظ يعتبر إسرافا وتضحية لا مقابل لها . فنحن سنكلف عددا من المدرسين فى القسم الابتدائى أن يزحموا وقتهم بالمطالعة المملة ، ويبذلوا جهدهم فى المراجعة التافهة ، ويقصروا إلى حد قليل أو كثير — فى واجبهم لتلاميذهم ، ونهبط بمستوى الجهد الذى يبذلونه للتعليم الابتدائى . ثم لا نجنى مقابل هذا كله إلا مدرسا من معدن رخيص ، كنا نستطيع أن نجده فى كل مكان ، وبدون امتحان .

* * *

وحتى لا يؤخذ على أننى أهدم ولا أبنى ، فإننى أدل على الطريق الذى يضمن اختيار أنقى العناصر ، وأحسن العقليات ، وأكمل الشخصيات . فأقترح .

أولا : أن يحذف من المسابقة كل ما يرمى إلى استعادة دراسة الكتب النحوية واللغوية وكتب دراسة تاريخ الأدب التى سبقت دراستها هى أو نظائرها فى مدرسة دار العلوم ، لأن هذا عبث ضائع ، وجهد مكرور .

ثانيا : أن تضمن مواد الاختبار ما يكفل استدامة المدرس للاطلاع على الحركات الأدبية والعلمية والاجتماعية والدراسات النفسية فى مصر خاصة والعالم عامة ، واختبار أثر هذا الاطلاع فى عقليته العامة وفى تكوين الشخصية المثقفة .

ثالثا : ( وهو أهم مايضمن لنا اختبار العقلية وثمرة الثقافة ) أن تشتمل المسابقة على تقديم رسالة فى فن من فنون اللغة العربية المختلفة ، يناقش فيها المدرس ، فتتبين ثمرة اطلاعه ونوع عقليته ، واتجاهه الذهنى . وعلى أساس هذا الاتجاه يمكن أن نختار له المواد التى يدرسها فى المدارس الثانوية .

ولكن هذا الاقتراح لايكون كاملا ، ولا يكون هناك مايغرى الممتازين حقيقة من المدرسين بالإقدام عليه ، إلا إذا انتهى بهم إلى وضع أدبى ومادى خير من وضعهم الحالى . وهم كما قدمت لا يعتبرون النقل إلى التعليم الثانوى فى ذاته ميزة تهفو إليها نفوسهم . بل أنا أعلم أن كثيراً منهم يعتبره غرما على وقتهم وجهدهم ، واطلاعهم الحر الذى تألفه نفوسهم . وإن بعضهم ليرفض — لو استطاع — أن ينتقل إلى التعليم الثانوى حتى بدون مسابقة ولا اختبار، نظرا لهذه الاعتبارات .

فتكملة لاقتراحى أرى أن تكون ثمرة قبول الرسالة منح صاحبها درجة علمية أرقى من دبلوم دار العلوم ، تقابلها درجة مالية مقررة لهذه الدرجة العلمية فى ذاتها ، بغض النظر عن نوع التعليم الذى يقوم به المدرس بعد ذلك ابتدائيا أو ثانويا أو عاليا . وإن بعض الممتازين ليسلم جدلا بأن يمنح هذه الدرجة وتلك ثم يقوم بعمله فى المدارس الأولية ورياض الأطفال ، فلا تعنيه هذه الشكليات الجوفاء . والذين ينظرون هذه النظرة هم الذين نستطيع الاعتماد عليهم فى تحقيق مثلنا العليا بين أوساط المعلمين .

* * *

وبعد ، فأحب أن أنظر إلى هذا المشروع من زاويتين أخريين

فأنا أفرض أن المسابقة على هذا الوضع أو ذاك قد حققت لنا معرفة أصلح العناصر فى أوساط المدرسين ، فهل من المصلحة أن نختار هذه العناصر

كلها للتعليم الثانوى ، وألا ندع للمدارس الابتدائية إلا العاجزين عن اجتياز الاختبار .

وكيف تكون الحال فى المدارس الابتدائية حين تحرم من كل عنصر صالح ، وحين يشعر المدرسون ونظارهم وتلاميذهم كذلك أن فى هذه المدارس نفاية المدرسين العجزة ، وحين ينظر كل مدرس بالمدرسة الابتدائية إلى مدة وجوده بها نظرة المستعد لمبارحتها الذى لا يعول على إجادة عمله بها فى ترقية أو تحسين حال ، لأن اعتماده كله على اجتياز المسابقة ؟

أهذه حالة تصلح معها الدراسة فى المدارس الابتدائية ؟ وإذا لم تصلح هنا فكيف ينتظر لها الصلاح فى المدارس الثانوية ، وهذه تبنى على أساس من تلك ؟

هنا تبرز أهمية الاقتراح الذى أسلفته ، وهو ألا يكون الغرض من اجتياز المسابقة على النظام الذى أوضحته هو النقل إلى الثانوى ، بل ترقيه مستوى المدرس علميا وماديا على أن يسند إليه عمل فى أية مرحلة من مراحل التعليم .

وأنا أفرض مرة أخرى أن المسابقة على هذا الوضع أو ذاك قد حققت لنا اختيار الأصلح ، فماذا يضمن لنا استمرار اطلاعه فيما بعد وقد وصل إلى الغاية التى يبتغيها ؟ .

هنا كذلك تبرز أهمية اقتراحى السابق عن طريق المسابقة لأنها لن تحقق لنا معلومات محفوظة أو مفهومة ولكنها تحقق لنا شخصية مثقفة وعقلية ممتازة ، تحمل فى ذاتها ضمان الدأب والمثابرة على الاطلاع حبا فى المطالعة لا رغبة فى تحقيق غاية قريبة .

ومع هذا فيجب تنظيم محاضرات عامة فى أشهر الصيف يقوم بإلقائها كبار الأساتذة فى مختلف نواحى النشاط الفكرى ، تقف المدرسين على آخر

ماوصلت إليه الأفكار فى العالم ، ويكون للدأب على حضور هذه المحاضرات نصيب فى تقدير المدرس والنظر إليه

* * *

بمثل هذا التفكير يصح أن تساس شئون منشئ الجيل ، وبعدطول الروية والأناة ، وحسن الاختيار والتوجيه ، فالارتجال قد يصلح لكل شأن ، إلا لشئون المدرسين . ؟

سير قطب

في الريف :

# على ضفاف الغدير

للأستاذ محمود غنيم

جنبانى خليج بحر الرومِ وقفا بى على ضفاف الغديرِ
هاهنا الغيد فى ائتلاق النجومِ حمن حول المياه مثل الطيورِ

✡✡✡

هن أقبلن باسمات الثغورِ ثم شمرن كل ذيل عفيفِ
يالها من طهارة فى سفورِ جمع الطهر كله فى الريفِ

✡✡✡

قد كشفن الذيول عن سيقانٍ أرأيت الدمى وهن عوارى
وتقدمن فى خُطىً متوانٍ يترجحن خيفة التيارِ

✡✡✡

رفعت ذيل حالك فى السوادِ عن حواشى مورَّد اللون دامِ
فإذا طىَّ هـذه الأبرادِ.... شفق لاح تحت جنح الظلامِ

✡✡✡

فإذا مارأيت رأى العينِ منظر السوق غض فى الأمواجِ
قلت واد أديمه من لجينِ نبتت فيه غابة من عاجِ

✡✡✡

ركعت كل غادة هيفاءِ كركوع البتول فى المحرابِ
فرأت ظل وجهها فى الماءِ ورأى الماء فيه ظل العبابِ

رُمن غمس الجرار فى الآذى فأبى غمسها دلالا وتيها
فإذا ماانتصرن نصر الكمى ضحكت كل جرة ملء فيها

* * *

ثم أدبرن يحتملن الجرارا تتثنى من تحتها الأجياد...
مادلالا تميس تلك العذارى كل لدن تؤوده مناد...

* * *

رفعت عند سيرها باليمين ذيل ضاف مهفهف معشار
واتقت بالشمال فوق الجبين غزوات الشعاع للأبصار

* * *

سرن سير المجد عند الورود فإذا ماصدرن سرن اتئادا
أرأيت الظليم عند الشرود أو رأيت القطاة إذ تتهادى

* * *

وعجبنا لحاملات الجرار لحن فوق الرءوس كالأبراج
كيف تبدو فى عزمة الجبار ذات جسم كالزئبق الرجراج

* * *

تلك سوق مصقولة فى العراء لم تمس فى جوارب من حرير
ورءوس خلقن للأعباء لارءوس ألفن قص الشعور

* * *

ماترهلن فى ظلام الخدور أو طلين الأديم بالألوان
بل جرت فى الوجوه جرى النمير حمرة الشمس صبغة الرحمن

سائلانى عن أهل تلك المغانى إن هذا الأديم مسقط رأسى
لقنتنى طيوره ألحانى وسقانى هواه أول كأس

* * *

مسرح قد صعدته منذ حين وعليه لعبت دور الغلام
لك ياريف زفرتى وحنينى لك عندى تقديس بيت حرام

محمود غنيم
مدرسة فؤاد الأول

# النقد اللغوى

## - ٢ -

للأستاذ على السباعى

---

ذكرت فى العدد الأول من هذه السنة مايحتاج إليه الناقد اللغوى من اطلاع وقراءة واستقصاء فى كتب اللغة والأدب قبل التخطىء والتصويب ، وذكرت عدة كلمات لم ترد فى المعاجم فأنكرها الناقدون مع أنها صحيحة بأسناد قوية ونصوص لاتقبل تأويلا ، منها كلمة عمَّة ، التحق ، بواسل جمع باسل ، زاد عن ، ونذكر هنا تتمة لتلك الكلمات أخرى برقم مسلسل :

٥ — **عديد** : يرى بعض النقدة أن كلمة عديد بمعنى كثير لم ترد ويستبدلون بها عدة ويقولون إنما وردت عديد بمعنى العدد أو المعدود ويستدلون على ذلك بقول رؤبة:

عددت قومى كعديد الطيس  إذ ذهب القوم الكرام ليسى

وبقول مايروى للسموءل بن عاديا :

تعيرنا أنا قليـــل عديدنا  فقلت لها إن الكرام قليل

ولكن ذكر الراغب الأصفهانى فى المفردات (يقال شىء معدود ومحصور للقليل مقابلة لما لايحصى نحو المشار إليه بغير حساب ، وعلى هذا ، إلا أياما معدودة، أى قليلة لأنهم قالوا نعذب الأيام التى فيها عبدنا العجل ، ويقال على الضد من ذلك جيش عديد كثير وإنهم لذو عدد أى هم بحيث يجب أن يعدوا

كثرة ) وانفراد الراغب بهذا دون غيره من اللغويين قد يريب النقاد ، ولكن عنترة يقول من قصيدة :

فانهض لآخذ الثأر غير مقصر حتى نبيد من العداة عديدها (١)

والسياق هنا يقتضى أن تكون الكلمة بمعنى الكثير لأنه محل الفخر وموطن التباهى لا إبادة أى عدد كان قل أو كثر .

وتقول الخنساء :

فأقسم لو بقيت لكنت فينا عديدا لا يكاثر بالعديد (٢)

فالعديد الأول بمعنى السيد المعدود ، والثانى بمعنى الكثير ، ولا يكاثر بمعنى لا يغالب ، ونفى المغالبة بالكثير هى المقصودة ، لأن المغالبة بواحد لا تستوجب تباهيا وافتخارا .

٦ - تَبَدَّى : أنكر بعض الناس تبدى بمعنى ظهر لعدم ورود الفعل فى المعاجم وخطئوا شاعر النيل المرحوم حافظ بك إبراهيم حين قال فى الشمس :

لاح منها حاجب للناظرين فنسوا بالليل وضاح الجبين
ومحت آيتها آيته وتبدت فتنة للعالمين

ولكن الفعل ورد بهذا المعنى فى شعر عمرو بن معدى كرب الزُّبيدى فى قصيدته التى مطلعها :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رويت بردا

إلى أن قال :

وبدت لميسُ كأنها بدر السماء إذا تبدَّى (٣)

وكتب سعد بن مُطَرِّف المجاشعى إلى ابنة عم لها يهواها .

---

(١) شعراء النصرانية ص ٨٣١ (٢) ديوان الخنساء ص ٦٣ طبعة بيروت (٣) لميس اسم امرأة برزت كاشفة عن وجهها إما للتشبيه بالأمة لتأمن السبى ، وإما لما داخلها من الفزع والرعب .

حاش لله أن أكون خليا من هواه وقد تقطعتُ وْجدا
كيف لا كيف عن هواه سلوى وهو شمس الضحا إذا ماتبدَّى (١)

فأنت ترى أن الفعل بمعنى ظهر عند الشاعرين واضح ،ولم تذكر المعاجم تبدى إلا بمعنى أقام بالبادية ، وهو تقصير سببه اتساع اللغة وتفرق مظانها .

٧ – ساهم : فى المعاجم ساهم بمعنى قارع ،وأنكر الباحثون المساهمة بمعنى المشاركة لأنها لم ترد بهذا المعنى ، وعندى أنه لامانع من استعمال الفعل بمعنى المشاركة،لأن الذى يقارع غيره له فى المقارعة نصيب بأسهم يشارك بها فيها وقد استعملة أرباب المعاجم بهذا المعنى،فصاحب النهاية لابن الأثير يذكر فى مادة أسا ( والمواساة المشاركة والمساهمة فى المعاش والرزق وأصلها الهمزة فقلبت واوا تخفيفا ) وقد نقل اللسان هذا بنصه وفصه فى مادة أسا أيضا وكذلك فعل صاحب تاج العروس، كما استعمل صاحب اللسان فى مقدمة كتابه هذه الكلمة بمعنى المشاركة فقال ( فاستخرت الله سبحانه وتعالى فى جمع هذا الكتاب المبارك الذى لايساهم فى سعة فضله ولايشارك ) ويقول إبراهيم بن العباس الصولى حين وهب له عبد الله أخوه ثلث ماله ووهب لأخته الثلث الآخر وأبقى له الثلث فسار مساويا لهما فى الحال:

ولكن عبد الله لما حوى الغنى وصار له من بين إخوته مالُ
رأى خُلَّة منهم تسد بماله فساهمهم حتى استوت بهم الحالُ (٢)

ولاريب أن السياق هنا لايتفق مع المقارعة وإنما يتلاءم مع المشاركة أو المقاسمة ولم يعبه عائب مع أن النقاد أخذوا عليه فى هذا الشعر وغيره بدءه بأداة الاستدرك ولم يسبقه مايستدرك عليه ، ودافع عنه المدافعون بأنه كان يتخير شعره فيُسقط رَذْله ويحذف ضعيفه فلا يبقى له إلا اليسيرُ يُرى فيه هذا البدء المعيب ولم ير النقاد بأسا أو فسادا فى كلمة ساهم ولو رأوا ماسكتوا ثم

١ — الأمالى الجزء الأول ص ٢١٥ ، ٢ — الأغانى ص ٥٠ من الجزء العاشر .

أليست المقاسمة مشاركة ؟ ومادام قد ورد التساهم بمعنى التقاسم فى قول الحكم ابن معمر الخضرى وهو شاعر أموى عاصر ابن ميادة وكان أسن منه.

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحة وحسنا على النِّسوان أم ليس لى عقلُ
فساهم ثوباها ففى الدرع غادة وفى المرط لغاوان ردفهما عبل[1]

تساهم هنا تقاسم، ويقول الخطيب التبريزى ص ١٥٣ من الجزء الثالث من شرح ديوان الحماسة : انقسم جسم هذه المرأة بين درعها وإزارها، ففى الدرع بدن ناعم وخصر دقيق ، وفى مرطها فخذان غليظتان عليهما ردف ضخم ، والدرع الثوب الصغير تلبسه الجارية فى بيتها ، والمرط كساء يؤتزر به ، والغادة الفتاة الناعمة اللينة، ويروى بدل غادة رأدة، والرأدة الشابة الحسنة أقول ما دام قد ورد التساهم بمعنى التقاسم ، واستعمل اللغويون المساهمة بمعنى المشاركة، فلا داعى لتخطىء من يستعملها، ولننزلها منزلة أخواتها فى المعنى، وإن فات أرباب المعاجم ذكر هذا فى مادة سهم، فكم كلمة فاتتهم وندت عن تدوينهم

٨ - صارح : أنكر الباحثون الفعل صارح متعديا لعدم وروده بالمعاجم، وارتابت مجلة المجمع فى عددها الأول بقول البستانى فى ( محيط المحيط ) وصارحه مصارحة وصراحا وصراحا جاهره اه وأشارت بأن يستبدل به الكتاب الفعل جاهر فيقولون جاهرهم بالأمر وأما قولهم أصارحك كذا أو أصارحك بكذا فلا وجه له من الصحة ، ولكن الفعل ورد متعديا فى قصيدة أبى طالب اللامية التى قالها متعوذا فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره أنه غير مسلم رسول الله ﷺ لا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه ، وتجد القصيدة

١ الاغانى ص ٢٨٦ من الجزء الثانى

مشروحة فى خزانة الأدب ص ٥٢ من الجزء الثانى المطبوع بالمطبعه السلفية وفى المواهب الفتحية ص ١٤٨ من الجزء الأول وفى سيرة ابن هشام ص ٢٩١ من الجزء الأول طبعة الحلبى ومطلعها

خليلى ما أدنى لأول عاذل بصغواء فى حق ولا عند باطل

إلى أن قال :

وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوما علينا أظنة يعضون غيظا خلفنا بالانامل

قال البغدادى مؤلف الخزانة : صارحونا كاشفونا بالعداوة صريحا والصراحة وإن كانت لازمة لكنها لما نقلت إلى باب المفاعلة تعدت، وكذلك قال فى حالف فى البيت بعده، ولا ريب أن مما يصير اللازم متعديا دلالته على المفاعلة، وقد مثل الأشمونى بالأفعال جالست زيدا وماشيته وسايرته فى جلس زيد ومشى وسار، فأنت ترى أن الفعل صارح متعديا صحيح ولا شىء على من يستعمله وإن لم يدونه اللغويون فى معاجمهم

٩ ـ كسول : توهم بعض الذين قرءوا مادة كسل فى القاموس واللسان والأساس أن لفظ كسول خاص بالمؤنث ولا يصح وصف المذكر به لأن القاموس قال ( وهى كسل وكسلانة وكسول ومكسال وهما ـ كسول ومكسال ـ أيضا نعت للجارية المنعمة التى لا تكاد تبرح من مجلسها مدح اه ) وإنما كان هذا مدحا لأن أجمل النساء عندهم المنعمة الممتلئة الجسم التى لا تحتاج للعمل ولذلك نعتها الشعراء بمكسال ونئوم الضحا، وهكذا من الصفات التى تبعد بها عن النشاط والكد، أما فى زمننا فالأمر يقتضى خلاف ذلك . وقال اللسان : (والانثى كسلة وكسلى وكسلانة وكسول ومكسال ) وقال

الأساس : ( وامرأة كسلى وهى مكسال وكسول وفسر ذلك بقوله رزان ) وظاهر هذه النصوص جميعها يحمل على اختصاص المرأة بلفظ كسول ويدعو بعض اللغويين إلى محوها إذا استعملها الناشئون من الكتاب صفة للمذكر ولكن اللسان ذكر فى مادة زمل والزمْل الكسلان والزَّمَل والزُّمَّل والزُّمَّيل والزُّمَيْلة والزُّمَال بمعنى الضعيف الجبان قال أحَيْحة بن الجُلاح بن حُرَيْش سيد الأوس فى الجاهلية

ولا وأبيك ما يغنى غنائى من الفتيان زمَّيل كسول

ويظهر أنه قال هذا البيت لزوجه سلمى بنت عمرو من بنى النجار، وكانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلا فارقته ، وقد كرهت أحيحة لشحه ففارقته بعد أن أعقبت منه عمرا وبه كان يكنى، وتزوجت من هاشم بن عبد مناف فى إحدى قدماته إلى المدينة فأعقبت منه عبد المطلب (١)

فأنت ترى أن أحيحة استعمل لفظ كسول للمذكر ، ولو تذكر صاحب اللسان ما كتبه فى مادة زمل لزاد فى مادة كسل - وهى بعدها - أن كسولا أيضا للمذكر ، ولكنه لم يفعل وأغفل صاحب التاج ذلك أيضا فى مستدركاته والعصمة لله وحده

١٠ - بشوش . فى المعاجم بش الرجل يبش أقبل وهو يضحك ويلقاك لقاء جميلا ، وعنده بشاشة أى طلاقة وجه وبشر، والفعل لازم لا تقاس منه صيغ المبالغة ، فما جاء منه يقصر على السماع وقد ورد فى المعاجم رجل هش

١ السيرة طبعة الحلبى ص ١٤٥ من الجزء الاول ، والخزانة طبعة السلفية ص ٣٢٦ وما بعدها من الجزء الاول

بشٌ ، وهاش باش ، وبشّاش أى طلق الوجه ، وورد البشيش بمعنى البشاشة فقالوا فلان مضىء البشيش أى البشاشة،والبشيش أيضا الوجه ولم يرد فى واحد منها بشوش،ولكن عنترة العبسى يقول من قصيدة فى شعراء النصرانية ص٨٤٤

ضحكت عبيلة إذ رأتنى عاريا خلق القميص وساعدى مخدوش
ألقى صدور الخيل وهى عوابس وأنا ضحوك نحوها وبشوش

فلا شىء على من يستعمل كلمة بشوش بعدهذا النص، وقد جاءت فعول من الأفعال المقابلة لهذا وهى لازمة أيضا ، فقيل عبوس وقطوب من عبس وقطب ؟

يتبع

على السباعى

الى النفوس الحائرة :

# رحـــــــلة طائر [1]

- ٢ -

للأستاذ فايد العمروسى

## ٥ - وَحدَةٌ و تأمُّل

صَاحَ فى الجوّ كىْ يَرى فيه إلفاً ... ضَلَّ فى اللّيل نجوةَ الأصحابِ
فتردَّى كما تردَّى أسيراً ... وتخفَّتْ له طريقُ الإياب
لم يجاوبه غيرُ رجعِ صداهُ ... رنَّ فيما يُروعه من هِضَاب
وهُنَا ، قَطَّع الرجاءَ يَئُوساً ... وسَرَى فى مذلّة واكتئاب
إن فى الكون — لو علمت — خفايا ... بات فيها مُشتّتَ الألباب
غرّه أن يطيرَ فيه طليقا ... كانَ بالروض أمْ بقفر اليباب
فتبدّتْ لعينه قوةُ الكو ... نِ . وأمسَى لعجزه فى متاب
بعدَ ما أنهك السُّرى من قُواه ... وتناهتْ به صنوفُ العذاب

✡✡✡

(١) أنظر الجزء الأول من الملحمة فى العدد الفائت .

(٢) كتبت هذه الملحمة فى سبتمبر سنة ١٩٣٢ .

أىُّ شىء يَرُومُه بَعـدَ هذا ... أَيُرجَّى نهوضُه وهْوَ كابى؟
كيف يرجو النّهوضَ والضّعف بادٍ ... وعظام الجناح صرعَى الضّراب
أو يودّ الوصول ، والإلف ناءٍ ... وسبيلُ الغريب جم الصعاب
وأمانى الظـلام ، تعتصر القلـ ... ـبَ حَنيناً ، إلى الليالى العِذاب
تُثلج النفسَ لحظة ثم تمضى ... بارقات كومضة من سراب
هكذا الطيرُ ، كان أشقى فؤاداً ... لم يُمتّع بمأمنٍ ، أو مآب

## ٦ - أمـل

وتبدّى له الخلاءُ وحيـدا ... دائم الصمت مطرقا فى اضطراب
كلّ شىء بجوفه مُستكينٌ ... خاشعُ الطرف فى سواد الإهاب
وتراءى له شِهابُ الدياجى ... مُشعلاً نارَهُ بجوف الضباب
فاستشف المغيبَ فى لهب النّجـ ... ـم ، وضوء السما ، وبرق الشهاب
أبرقتْ صفحةُ السماء وماجتْ ... بضياء أنارَ وجهَ السحاب
بعثت فيه خفقةً من رجاء ... شجّع الطيرَ فى السُّرى والذّهاب
فانبرى فى سُراه يصْطكّ خفقا ... فى حشاه ، وجوُفه فى التهاب!

## ٧ - أليفتُه!

بين هـذا الأسى ومرّ البعاد ... عاودَ الطيرَ ذكرياتُ الفؤاد
ذكر الطيرُ عيشةً قد قضاها ... بين نُعمى الهُنى وصفو الوَداد
هو يأسَى ، وإلفُه فى عناء ... تجرَعُ الهمّ فوقَ شوكِ القتاد
تُنشد الإلفَ فى النهار وتُمسى ... ترُقبُ الطيفَ فى هدوء الرقاد
كلما هبّت الرياحُ أحسّتْ ... فى حفيف الرياح قربَ البعاد
أو تغنّى على الغصون حمامٌ ... سمِعتْ فى الغناء صوت المراد
لم يكن ذاك غيرَها جِس نفس ... قد سقاها الفراقُ كأسَ السُّهاد

## ٨ – فى سمـــاء الريف

ثم طاحتْ به يدُ النّأى حتىّ ... طاف فى الجو كالغريب المهاجرْ
طاف فوق الحُزُون والسهل فى الأر ... ض ، وفوق الرُّبا ، وفوق المغاور
لايرى مرشدا بها لِهُداهُ ... أو بصيصاً من الرجاء المسامر
غير تلك القرى ، وهذى النجوع ... قد تراءتْ بصمتها كالمقابر
ضمّها الليلُ فى ثنايا دُجاهَ ... ضمّةَ الغالبِ المذلِّ القاهر
قاتماتٌ كأنّها قطع اللّيـ ... ـلِ نأتْ عنه ، شارداتٌ نوافرْ
ودبيبُ الفَناء يسترقُ الخَطْـ ... ـوَ ، ويُفْشى مُخَبّئاتِ السرائر
هـذه قرية حَوَتْ سَاكنيها ... فتَوارَوْا بجوفها كالضمائر
حَضَنَتْهَا مزارعٌ وحقولٌ ... حافظاتٌ لساكنيها سواهر
ورحيق الكروم ينفح فيها ... نفحات من العبير عَواطر
وطلوعُ النخيل تنشُر فى الجـ ... ـوّ أريجاً كنَفْح طيب الحرائر
وكأنَّ الهدوءَ حولَ رُباها ... جنّةُ الخلد للتقى الصابر

## ٩ - حول القرية

بين هذا الهدوءِ والصمت يسرى ... صوتُ شاةٍ من القطيع رَضيع
فحنتْ أمُّها عليها وهبّت ... من لذيذ الكرى وصمت الهجوع
أيقظتْ أختَها لتروْى صَداها ... فى بكاءٍ وصرخةِ الترجيع
وخُوار العجُول فى الحىِّ يسرى ... إذْ أحسّت لدى المقامِ بجوع
وصهيلُ الخيولِ يسرى صداه ... فيجوبُ الرُّبوعَ تلوَ الرُّبوع
ورُغاء النياق يبعث فى النّفـ ... ـسِ حنينا يدِبّ بَين الضلوع
ذا ضجيجُ القرى لدَى الليل والإظـ ... ـلامُ فيها مخيّمٌ فى خشوع
غيرَ ضوء من الخلالِ سقيم ... يُجتلى من وراء سترٍ منيع

أو سنا موقدٍ تَرَاءَى بعيداً بين مَرْعَى الرعاةِ حول النجوع
تصطلى حوله الجموعُ السَّهارَى تحت قطر الندى بجوف الهزيع
وهو قطرٌ تشعّ منه حياةٌ كحياة الأزهارِ صوبَ الربيع

## ١٠ – على الجدول

قطع الطيرُ هذه الأرضَ ليلاً ليس يدرى ذَهابَه من إيابه
ليس يدرى سوَى التَّحير فيها والضّنى والأسَى، ومرَّ اغترابه
وبعيدا عن القُرى وقف الطّـ ـير شريدا ، مُستسلما لعذابه
فوق غصن من الغُصون تَدلّى فى غدير . كمُنتَشٍ بشرابه
أسلمَ الفكرَ للهدوء وأخفى رأسَه تحت ريشه وإهابه
كيتيم طوى بجوف الليالى يَستر البؤس تحت بالى ثيابه
أو طريدٍ عَدَت عليه العَوادى لم يُمَتّع بمأمَلٍ فى شبابه

## ١١ – بين الحقول

هبط الطيرُ بين زرع نضيرٍ طَلَّهُ اللَّيلُ بالنَّدى المقرور
حالماً كالجفون أطْبَقها النَّو مُ ، فطافت بحلمِها المستُور
شاخصاتٍ لبعضها كضريرٍ يتدانى بوجهه لِضرير
هامساتٍ بسرّها فى هدوءٍ همسةَ الكشفِ عن خفايا الضمير
عالمٌ كالصغار حسّاً وقلباً ليس تدرى الأذى وبَغى الشرور
لقىَ الطيرُ فى حِماها أمانا فَترامى بجنبها فى فتُور
يَرهفُ السمعَ للخَشاش على الأر ض ، يُوالى دبيبَه كالصرير
وصفيرُ النّقيق تحت مياهٍ نائماتٍ بجفوف كل غدير
ترسلُ الشدو فى الجداول ليلاً منشدا لحنه كلحن الخرير
حَسِبَ الطير ، أن رجعَ صداه هو لحنُ الرَّدى وصمتُ القبور

## ١٢ – ديك على جدار

هبّ ديك من نومه ، ووقف على جدار من دور القرية ، وصاح .... !

فخاطبه الطائر :

إيه ياديك ..! مابنفسك حتى تهتك الليل بالصياح نحيبا؟
أدهاك الأسى ومر التنائى عن ديارٍ فبتّ عنها غريبا
بتّ تشكو العيال والإلف ليلاً وصباحاً ، وضحوة وغروبا
أم ضللت الهدى ؟ فصحت تُرجّى ذلك العطف والحنان الرطيبا
دارك الحائط الذى أنت فيه قمت تشدو مُنَعّما وطروبا
أمسك الصوت يارفيق اللّيالى لست مثلى على الوجود كئيبا

فخاطبه الديك

أيها الطير إنّ دارى فسيح رَحبُها ، فاقترب وَأقبل اليّا
اهبط الدار ، والتجىء لحماها سترانى على الإخاء وفيا
عندَى الحبّ ، فالتهمْ منه واشربْ من قراح المياه عذبا هنيّا
ذى عروشٌ من الكروم بدارى مورقات ، ترفّ ظلاًّ وريّا
كل شىء لديك حلٌّ مباحٌ إنْ ترمْه ، تجدْه سهلا رخيّا
فلك الدوح والحقول . وأزها رُ رياضٍ تفيضُ نفحا ذكيا
طُفْ بها ماتشاء ، وابعث نواحا وحنينا ، وغنّ لحنا نديّا
إننى أكرمُ الغريب بأرضى وأرانى له خليلاً صفيا
إنما تكرمُ النفوسُ نفوسٌ مثلُها عزةً وحِسّاً أبيّا

هبطت قوى الطائر ، وخفتت أنفاسه ، فاستكان فى ناحية من الخلاء ، فإذا الرياح الخافتة ، تحمل إليه خفقات الشاعر المتجول : فخاطبه الطائر :

من تُرى ذلك المُغنّى بليلٍ يبعث الشّعر صارخاً بالشكاةِ
أترى ضلّ فى المجاهيل مثلى واجتوته ، فخار فى الظلمات

أم هو الشاعر الذى طاف فى الدّ يل ، كنفح الزهور فى الجنات
أو كروح مهوّم هبط الأر ض ليمحو مواطن الشبهات
أنت ياشاعرى ؟ إذن أنت طيفٌ ملهم الحسّ ، طاهر الخطرات
تستشف النفوس فيما تعانى وتحسّ القلوب فى الخفقات
هات ياشاعرى حديثا من القلـ ـب . وأيقظ كوامن الذكريات
حدث النفس عن حياة أراها كحياة الوحوش فى الفلوات
ليس فيها لذى الشعور نصيب غير مُرّ الخطوب والنائبات
هكذا العيش ؟ إن يكن هو هذا فحرامٌ علىّ عيش الحياة
لها بقية ستنشر تباعا

فايد العمروسى

# البطـــــل

للشاعر الأستاذ عبد العزيز محمد خليل

---

رواية يمثلها طلاب المدارس الثانوية « ذات فصول »

## الفصل الأول

جند فى طريقهم الى الميدان ينشدون ، نظارة متفرجون ومزينهم
اثنان فى ناحية ترمز لهما مصطفى وسعيد

النشيد : أعدوا السلاح ليوم الكفاح فقد حان موعده المنتظر
ومصر تناديكم فانهضوا وكونوا لها كنزها المدخر

...

إلى المجد فالله يرعاكم وخوضوا الصفوف إلى المعمعة
إلى ساحة المجد موتوا بها كراما فلا خير فى إمّعة

...

أغانيكم من صليل السيوف وألحانكم من قضيض الرماح
إذا جبن الناس خوف الحتوف مشينا لها بنفوس سماح

...

ألسنا الأولى دوخوا العالمين وقادوا الجيوش وسادوا الأمم
وخطوا على صفات الخلود « يعيش المليك ويحيا العلم »

---

مصطفى يتحدث إلى سعيد: أما سمعت النشيدا أما رأيت الجنودا ؟

هاهم أولاء إلى الحرب يحملون البنودا
وعنهم فاستجابوا وقابلوها أسودا
حيا الإله الجنودا حيا الإله الجنودا

---

سعيد : أإلى الموت؟

مصطفى : بل إلى المجد ساروا يرفعون البنود والأعلاما

سعيد : كتب الله للجنود حياة

مصطفى : أو مماتا . إذن يموتوا كراما

---

وهما يفترقان

سعيد : عم مساء

مصطفى : إلى اللقاء

سعيد : غدا فى ضَحْوة الشمس أو قريب الزوال

مصطفى : وهنا حيث مر بنا الجيش إلى ساحة الوغى والنزال

---

## الفصل الثانى

سعيد : يروح ويغدو فى مكان الانتظار يحدث نفسه فيقول :

ويح نفسى ماذا أفدت بلادى إن رضيت القعود والإحجاما
أمن النيل أرتوى فإذا ما قيل ذُدْ عن حماه قلت علام؟
وعلى أرض مصر أحيا فإمَّا طالبتنى الوفاء خنت الذماما؟
فليكن خيرها لغيرى فإنى لست إلا مستعبدا مستضاما

يتقابلان :

مصطفى : سلام عليك

سعيد : ســـلام على صديق المفدى زميل الصبا

مصطفى : علام الذهول؟ ومم الشرود ؟ وفيم البكاء ؟ وقت الردى

سعيد : سأفضى إليك بمـــا اننا بنى وأسهرنى الليل حتى انقضى

ذكرت بلادى وما نالها وما حملت من صنوف الأذى

وهذا العدو الذى أحدقت كتائبه خلسة فى الدجى

أليس من العار أن أنزوى وهذا الأوان أوان الفدا

ولم أتمرس بهـــول الجهاد ولم أتعود حياة الوغى ؟

فهل من سبيل إلى خطة تصون البلاد وتردى العدا ؟

ولو أن مصر تنادى الفداء للبيت وحدى هـذا الندا ؟

---

## الفصل الثالث

باحة واسعة فيها « ضابط » « أمير جيش » فى ناحية وجنود متفرقون، يختلى الأمير والضابط فيتحدثان .

الأمير : أيها الضابط

الضابط: نبيك أميرى !

الأمير : هات ماعندك !

الضابط: أبنيك أمينا؟

الضابط: لم ندع نجدا من الأرض ولا وهدة إلا ملأناها كمينا

ونظمنا الجيش فى ساحاتها وبثينا فى نواحيه العيونا

وحشدنا من معدات الوغى قاذفات وقلاعا وسفينا

ثم ناجزنا الأعادى ساعة فانثنوا عنا وفروا هاربينا
فمنعنا الجيش عن غشيانهم وعلمنا أنهم يأتمرونا
فإذا بان لنا مابيّتوا وكشفناه فنحن الظافرونا
ليست الحرب حصونا وقوى بل إلى ذين خداعا وفنونا

الأمير يخطب فى الجند

أيها الجند دونكم منزل الأعداء قُصّوه واحملو الأخبارا
أيها الجند أيكم يبذل الروح فداء ويكشف الآثارا
هاكم المجد والفخار فمن ذا يبتغى المجد أو يروم الفخارا ؟

---

## الفصل الرابع

يظهر مصطفى وسعيد فى لباس جنديين انضما إلى الجيش.

سعيد : وداعا أخى حان وقت الفداء وهأنذا البطل المرتجى
سأمضى إلى طيتى باسلا وأسلك وحدى طريق الردى
وأكشف خطة هذا العدو وأحبط من كيده ما أتى

مصطفى : أإلى الموت ؟

سعيد : بل إلى المجد أمضى بطلا صاحبى قناعى وسيفى !
أخبر القوم قصتى فإذا ما أقبل الليل فاتبعونى بزحف
حيث أرمى العدو بالحيلة البكر وألقى بين الكتائب حتفى

ويمضى مسرعا وتنزل الستارة .

---

## الفصل الاخير

أمير الجيش يحيي نعش البطل ملفوفا بالعلم ، فإذا أنزلته الجنود ليدفن حيته فرقته بهذا النشيد ( منظر عسكرى )

مجِّدوا هـذا الشهيدا اذكروه فى علاه
وانظموا فيـه نشيدا تتغنـاه الشـفاه

...

كانت الأوطان نهبـا فحماهـا
ودعت مصر فلبى وافتـداها

...

مجدوهْ ، اذكروهْ قدسوا هـذا الدما
خلدوهْ ، اجعلوه للضحايا علما

...

حنطوه بالدم الحر الطهورْ .
وضعوه فى الحنايا وادفنوه فى الصدورْ .
واخفضوا الرأس لذكراه على مر الدهورْ
خلدوه فى الأغانى
واذكروا فيه الأمانى
إنما الذكرى وفاء .
أيها البطلْ — أيها البطلْ
نم قرير العين فى دار الخلودْ

عبد العزيز محمد خليل
مصر الجديدة للبنات

# فهرست

## العدد الرابع من السنة السادسة


| صفحة | المقال | الكاتب |
|---|---|---|
| ٣ | مقـــدمة | التحرير |
| ٤ | موجة نور من ضفاف الأنبياء | للأستاذ محمود حسن إسماعيل |
| ٩ | الأسلوب القصصى وأثره فى النثر العربى | للدكتور أحمد ضيف |
| ١٧ | المملكة الفاضلة «لسير توماس مور» | للأستاذ عبد الرزاق حميدة |
| ٣١ | الموسيقى فى الأدب العربى | « عبد اللطيف المغربى |
| ٤٣ | التربية الإسلامية | « محمد على مصطفى |
| ٥٠ | من الشعراء المنسيين | « عبد العظيم على قناوى |
| ٦٤ | السر الغريق أو فتاة نهر السين | « محمد عبد الغنى حسن |
| ٦٦ | عقليات الفلاسفة | « عطية الشيخ |
| ٧٤ | تيسير اللغة العربية وتهذيبها | « محمد على الدسوقى |
| ٨٧ | مع الطغرائى فى وصف هاجرة وورد | « السباعى السباعى بيومى |
| ٩٢ | مسابقة اللغة العربية | « سيد قطب |
| ٩٩ | على ضفاف الغدير | « محمد غنيم |
| ١٠٢ | النقد اللغوى | « على السباعى |
| ١٠٩ | رحلة طائر ( قصيدة ) | « فايد العمروسى |
| ١١٥ | البطل ( رواية تمثيلية ) | « عبد العزيز محمد خليل |